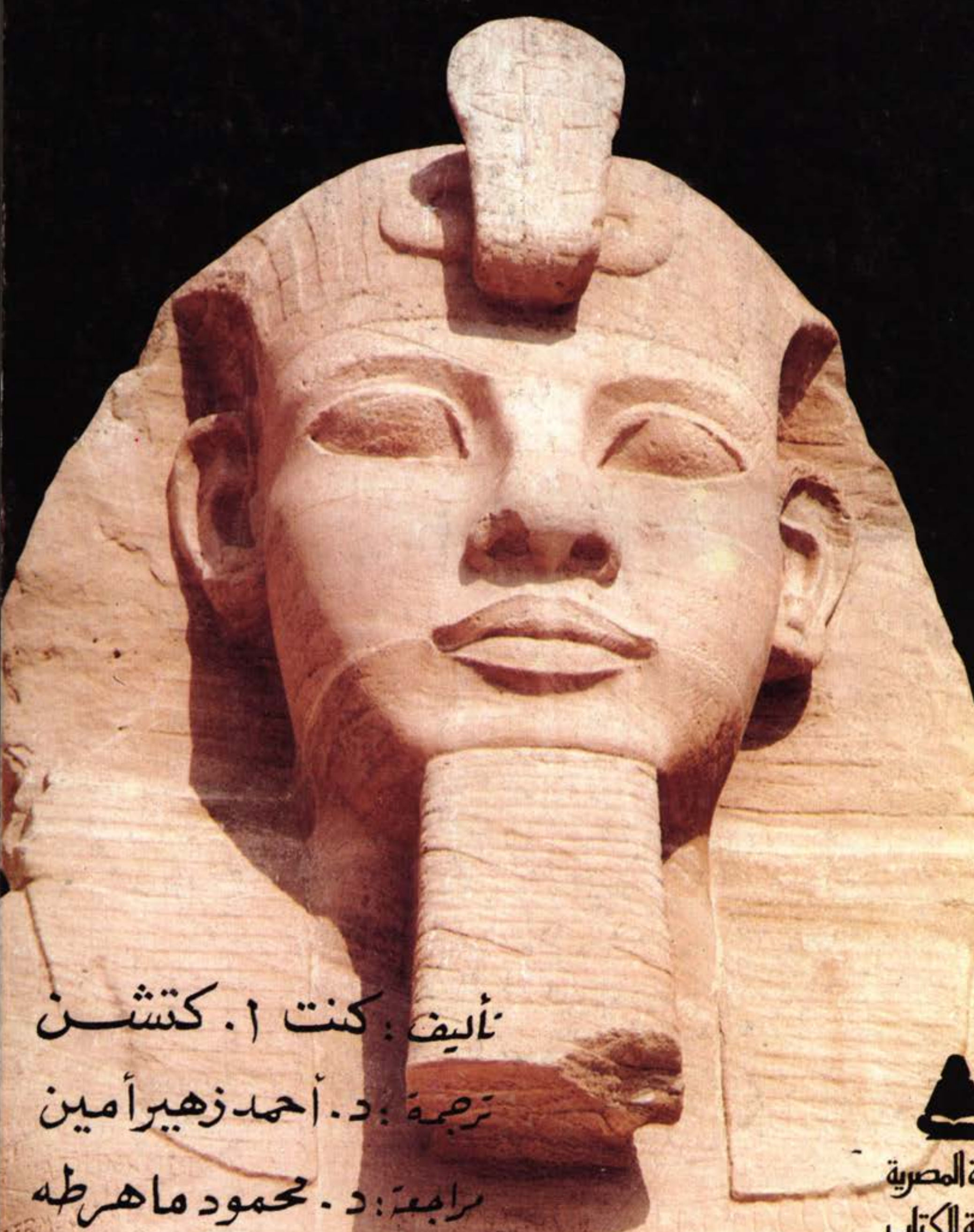
لف
تاب
ان
٢٣

رمسيس الثانى

فرعون المجد والانتصار

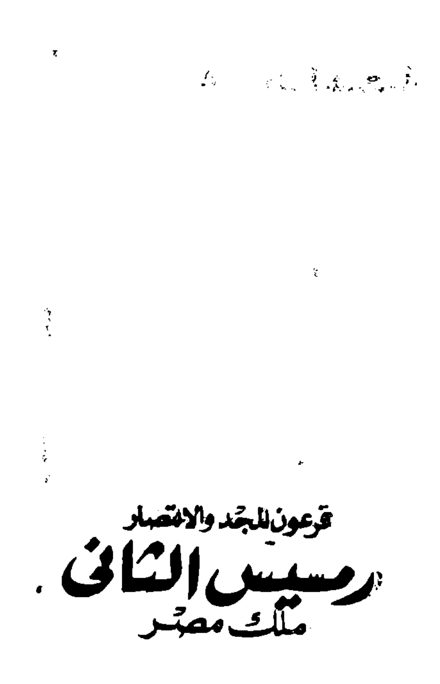


تأليف : كنت ا. كتشن

ترجمة : د. أحمد زهير أمين

مراجعة : د. محمود ماهر طه

الهيئة المصرية
العامة للكتاب


فرعون للمجد والانتصار
رمسيس الثانى
ملك مصر

فرعون المجد والانتصار

رمسيس الثانى

ملك مصر

تأليف: كنت ا. كتشن

ترجمة: د. أحمد زهير أمين

مراجعة: د. محمود ماهر طه



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٧

هذه هى الترجمة العربية الكاملة للكتـــاب :

RAMSES II THE TRIUMPHANT PHARAOH

by

K. A. Kitchen

فهرس

الباب الأول

تقديم ومدخل إلى الموضوع

الفصل الأول : مصر زمن الرعامسة

الفصل الثاني : طفولة رمسيس الثاني وبيئته الثقافية

الفصل الثالث : الأمير رمسيس نائبا للملك



الفصـــل الأول

مصر زمن الرعامسة

نظـــرة أوليـــة

ارض مصـــــر (مسرح العمليـــات) :

تنحدر شعب جبال اليونان الوعرة ـ أصابع أوروبا الجنوبية الشرقية النحيلة ـ من مرتفعاتها القاحلة وتمر بين حقول رملية جرداء لتتخلل رمال الشاطىء الذهبيـــة وتغوص تحت ميـــاه البحر المتوسط المترامية ٠ وهى تبدو كما لو كانت تشير ـ بعيـــدا عن كريت وعبر ميـــاه هرمز العكرة الداكنة ـ الى حيث يوجد ساحل الدلتا الشمالى المطل على البحر المتوسط وتنتهى هنده سواحل شمال افريقيا ٠

ويمتد ساحل الدلتا بعرض البحر المتوسط لمسافة تقـرب من مائتى ميل من الأشرطة الرملية والبرك والمستنقعات والبحيرات الملحية ٠ وارضه منخفضة شكلها غير واضح ، يصب فيها النيل فيعكر زرقة مـاء البحـر المتوسط بما يحمله من طين وطمى ٠

هذه الصورة الكئيبة لأرض جرداء قاحلة فقيرة ، هى الصـــورة التى كانت تطالع الوافدين فى الأزمنة القديمة ، سواء كانوا قراصنة يفدون بمراكبهم الواهنة أو تجارا يفدون الى مصر من أهل الشمال ٠

وحتى فى عصرنا الحديث لا تختلف الصورة كثيرا عن ذلك ٠ لكن هذه الصورة ليست فى الواقع الا ســـتارا يخفى وراءه مسرح احداث قصتنا المكونة من مقدمة وخلفية ـ هما الدلتا الواسعة العريضة ، ووادى النيل الطويل الشريطى الضيق ٠

فأما مقدمة المسرح ، فأشبه بمثلث ضخم عريض قاعدته عند البحـر المتوسط يسمى دلتا النيل أو مصر السفلى (أو الوجه البحرى) ، تتوفـر

فيه الزراعات الخضراء الغنية لتوفر ماء الرى • وتبعد رأس هذا المثلث عن قاعدته بحوالى مائة ميل عند نقطة تقع قرب القاهرة ـ عاصمة مصر الحديثة • وخارج حدود الدلتا من الجانبين تمتد الصحارى الجدباء •

وعند رأس هذا المثلث تضيق الأرض الزراعية على جانبى مجرى النيل لتصبح شريطية ، حيث لا يتجاوز عرض الحيز المأهول ١٢ ميلا على الأكثر ، وقد يضيق الى ميلين فقط فى بعض المواضع • من هنا يأخذ النهر فى الصعود بهذا الشكل بطول وادى النيل • ويعرف هذا الوادى الطويل الضيق الممتد باسم مصر العليا (أو الوجه القبلى) وهو خلفية مسرح عملياتنا •

وقلما نجد مثل هذا التناقض في بلاد أخرى بين الدلتا الخضراء الشاسعة ، وبين وادى النيل الشريطى الضيق الذى تتراوح عرض الزراعات به بين ميلين ... نى عشر ميلا ، وهو محصور بين مرتفعات وعرة وصحار شاسعة ممتدة عى جانبيه •

ويتضح من ذلك أنه اريد حكم مصر كلها ـ بقطريها ـ بكفاءة فلابد من اختيار مكان ما فى منطقة اتصال الوادى بالدلتا •

هذه المنطقة تتوسطها مدينة القاهرة عاصمة مصر الحالية • أما فى الزمن الخالى فلم تكن القاهرة قد ظهرت للوجود ، لكن كان لها بديل فعلى بعد ١٤ ميلا جنوب القاهرة على البر الغربى توجد قرية ، كانت فى يوم ما هى مدينة منف العريقة ، التى كانت لفترات طويلة فى التاريخ القديم هى عاصمة مصر الفعلية •

فى ذلك الوقت كان النيل يتفرع ـ شمال منف على الشط الغربى ، وبعد هليوبوليس على الشط الشرقى ـ الى عدة أفرع تتفرع منها قنوات تغذى الحقول والنخيل بالدلتا • ولم يتبق من ذلك كله الآن سوى فرعين يصبان فى البحر المتوسط ، هما فرعا رشيد غربا ، ودمياط شرقا • ولكن فى زمن قصتنا ـ ١٣٠٠ قبل الميلاد ـ كانت للنيل ثلاثة أفرع رئيسية بخلاف قناتين ـ على الأقل ـ وكلها تصب فى البحر المتوسط • ومن ثم كان « النهر الغربى » ـ كما أسماه الفراعنة ـ يجرى على حدود الدلتا من الغرب ويقف حاجزا بين مصر وبين رمال ليبيا ، وفى نفس الوقت يشكل حاجزا يحميها من غزوات البدو الليبيين • وكان هذا الفرع يصب فى البحر المتوسط عند بلدة كانوب القريبة من مدينة الاسكندرية الحالية • وظلت هذه المنطقة زمن الفراعنة منطقة خصبة تزخر بحدائق الكروم ،

وكانوا هم انفسهم مولعين بنبيذها الممتاز ـ نبيذ النهر الغربي الرائع على حد قولهم ـ وفي منتصف الدلتا كان نهر النيل العظيم يجرى ويصل الى مدينة ثب نثر (سمنود الحالية) • والمعتقد أن فرع النيل الرئيسي كان يميل غربا وشمالا فيمر عبر بوتو القديمة ويصب في البحر ، بينما كان أحد افرعه الثانوية (هو واحد من الفرعين الرئيسيين في الوقت الحالي) يجرى تحت اسم « مياه آمون » شمالا وشرقا عبر «سما بحدت» (مدينة الاله آمون) حتى البحر •

وطن رمسيس الثاني (مقر العائلة)

في الوقت الذي وقعت فيه أحداث قصتنا كان للنيل فرع رئيسي في أقصى الشمال اختفت معالمه تقريبا الآن ، فيما عدا آثارا تشغلها بعض القنوات • كان هذا الفرع في ذلك الوقت يطلق عليه اسم «مياه رع» ، وكان ينفصل عن مجرى النيل الأساسي أمام هليوبوليس ـ مدينة رع إله الشمس ـ ومن ثم يتحول الى الاتجاه الشمالي الشرقي • وعند اقترابه من « تل بسطة » ـ مدينة الربة باستت (القطة) ـ يعود فيتحول شرقا ويمر بوادي « طميلات » حتى يصل الى البحيرات المرة يعقبه المجرى الرئيسي للنيل حتى وسط سيناء وشمالها • ولكن الجزء الرئيسي من مياه رع كان يتجاوز تل بسطة ليروى منطقة غنية خصبة ذكرت في التوراة باسم « أرض جوشن » • وعلى بعد ٣٠ ميلا تقريبا من تل بسطة ـ في اتجاه التيار (أي نحو الشمال) ـ كان المجرى يحيط بالحد الغربي لميناء هام في ذلك الوقت اسمه افاريس ـ مدينة الاله ست ، الاله الجامح ، الذي تقول الأساطير انه كان يدفع عن الاله رع ـ اله الشمس ـ شر الثعبان الشرير • وكانت هذه المدينة بحلول سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد قد اشتهر امرها واصبحت ذات تاريخ قديم •

فقبل خمسمائة سنة من ذلك التاريخ اصبحت هي «العاصمة الادارية» لذلك الاقليم ، والمركز التجاري الرئيسي للتجارة الوافدة من الطريق الجنوبي الشرقي عبر وادي طميلات ، واهم من ذلك ايضا التجارة الوافدة من الطريق الشمالي الشرقي عبر ساحل البحر المتوسط من كنعان (فلسطين) • وفي افاريس أصبحت « مياه رع » تسمى محليا « مياه افاريس » ، وكانت بعد أن تتجاوزها تجرى شمالا وشرقا جهة البحر وتتجاوز العلامة الحدودية عند سيل (القريبة من القنطرة) ، ثم تمر في قنوات حورس حيث يتغير اسمها الى « مياه حورس » التي تسميها التوراة « شيحور » ، حتى تصب في النهاية في البحر بالقرب من «سيفو» التي أسماها اليونانيون البلوزيوم • وفي المساحة المحصورة بين النيل

ووادى طميلات والبحيرات المرة يمتد مسطح صحراوى مستطيل فى مواجهة سيناء .

الا أن الأراضى الخصبة الشاسعة « أرض رع » الممتدة بين هليوبوليس وافاريس كانت هى المنطقة الأكثر شهرة ، وذلك لأنها كانت الموطن الأصلى لأسرة الرعامسة ـ الذين كان رمسيس الثانى صاحب هذه السيرة أبعدهم شهرة وصيتا .

وهذه الأسرة كانت أسرة عسكرية عريقة عاشت وخدمت منذ مطلع القرن الثالث عشر قبل الميلاد فى هذه المنطقة واشتركت فى غزو كنعان وشمال سوريا . وفى ذلك الوقت كان التجار السوريون يعبرون هذه المنطقة بحرا حتى منف ، أو يصلون اليها برا من سيناء فى قوافل تستخدم الحمير فى النقل . وكانت افاريس العريقة قد أصبحت شبه مدولة واعتادت على تعدد الألسن واللهجات فى شوارعها وأسواقها ، وحتى فى دواوينها الرسمية . واقرارا لمبدأ «التوفيق» فى مثل هذه الحالات أصبح الاله ست يضاهى بل ويتداخل مع آلهة أجنبية مثل بعل وحداد وتيشوب أوترخان ، وهى آلهة الجو والعواصف التى يؤمن بها الوافدون الأجانب .

أرض الجنوب (الوجه القبلى) :

يتجه الطريقان البرى والنهرى جميعا نحو الجنوب من «افاريس» الى منف ، العاصمة الفرعونية ، المشهورة بنخيلها وبخط الأهرامات القديمة خلفها وبجوها الصحو الجميل . وكان رمسيس الثانى منذ كان أميرا فتيا قد اعتاد على أن يبحر صعوداً فى النهر بحذاء الوادى الضيق حتى يصل الى العاصمة الجنوبية طيبة . وأحيانا كانت الظروف تضطره الى متابعة الرحلة حتى أسوان حيث الشلال الأول قاطعا ما يقرب من ستمائة ميل . والذى يستخدم النهر فى سفره لابد أن تتتابع أمام ناظريه أساليب الحياة المتنوعة على طول الوادى الضيق الذى يمر بين المرتفعات الصحراوية ، وفيه كانت تتمثل الحياة المصرية الحقيقية .

وعلى بعد ٥٠ ميلا تقريبا جنوب منف يتسع الوادى مكونا سهلا صحراويا معزولا تقريبا جهة الغرب . وكانت تمر فى هذا الوادى قناة قديمة تصسله بالنيل . ولذلك ازدهر هذا الوادى لوفرة مياه الرى ، وازدهرت فيه على الخصوص مدينة ننسو (المعروفة لدى الاغريق باسم هرقليوبوليس) . وهذا هو اقليم الفيوم الشهير ببحيرته العذبة الكبيرة .

وقد اشتهر هـــذا الاقليم قديما بوفرة حـــدائقه • وكان الفراعنة كثيرا ما يستروحون فيه متمتعين بصـــيد الســـمك والطيـــور البرية في أحراشه وبحيرته • وقد بنى رمسيس الثانى عند مدخل الفيوم قصرا للحريم الملكي، لكى يستخدمه كاستراحة كلما عنت له زيارة الفيوم للتريض، أما باقى أيام السنة فكان هذا القصر يعمل كخلية النحل فى انتاج السلع الريفية •

وكانت أعمال رمسيس تضـــطره أحيانا الى التوغل فى الجنوب ، ليتجاوز خمنو (هرموبوليس لدى اليونانيين وحاليا تسمى الأشمونين)، ثم يعبر الخليج الصحراوى حيث شيد أخناتون مدينته (آخت آتون وهى العمارنة الحالية) ، وكان الملك توت عنخ آمون قد هجرها فى أوائل حكمه وهو لا يزال غـــلاما •

ومنذ ذلك الوقت تركت مهجورة لتفعل فيها الرمال فعلهـــا • بعدها كان رمسيس يتجاوز أحيانا بلدة سيوط القديمة متجها الى أبيـــدوس ، بلدة الاله أوزيريس (اله العالم السفلى) ، ثم الى أيونت (دندرة الحالية) حيث معبد الالهة حتحور ربة الأمومة والحب والجمال • وبعد أسبوعين من السفر النهرى الشاق ترسو السفينة الملكية أخيرا فى مرفىء طيبـــة عاصمة الامبراطورية (الأقصر الحالية) • وفى هذه المدينة علا شـــأن آمون (أو آمون ـ رع) وأصبح بقدوم سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد كبيرا للآلهة، وتقع معابد آمون على البر الشرقى ـ فى الكرنك والأقصر ـ وهى أعظـــم معابد مصر القديمة وأضخمها • وعلى البر الغربى ابتنى الفراعنة المتعاقبون معـــابدهم التذكارية على حافة الصـــحراء بعـــد الأرض الزراعية ، حيث تحميها من الخلف الصخور الصـــحراوية • وتوجد هنـــاك آثار لداخـــل الهياكل المقبرية لنبلاء هذا الزمان ، لتحجب الدروب الخفية لواديى الملوك والملكات حيث نحت الفراعنة مقابرهم ليرقدوا فيها بسلام وهم غارقـــون الى الآذان فى حليهم الذهبية •

الا أن الجرانيت الجيد الذى تحتاجه التماثيل والمنحوتات الأخـــرى كان أبعـــد من ذلك ، ويستدعى الابحار جنوبا بعد ادفو ، حيث معبد حورس الشامخ (رمز السلطة الملكية) ثم المرور خلال مضايق خنيت (الســـلسلة الحالية) ليجدوا محاجر الصخور التى كانت تفى بمعظم متطلبات المعابد المصرية العظيمة ويكونون بذلك ـ الملك أو رجاله ـ قـــد وصـــلوا الى أسوان وجزيرة الفنتين تحت محاجر الجـــرانيت التى تنحدر منها المياه محدثة الشلال الأول الذى يفصل مصر عن النوبة • وفى هذه المنطقـــة تكون حالة النهر متقلبة بصفة مستمرة ، والحياة فيها فقيرة بعكس باقى الوادى ، فيما عدا بعض البقع الخضراء ـ الواحات ـ قبل الوصول الى منطقة النوبة الموحشـــة •

اقليم النوبة « المستعمرات الجنوبية »

تجاوزت الامبراطورية المصرية في وقت قصتنا حدود أسوان وتوغلت في طريق وعر صاعدة تجاه منابع النيل ٨٠٠ ميل أخرى حتى وصلت الى ما يقرب من ٣٠٠ ميل قبل الخرطوم الحالية . كان هذا الجزء الشريطي بعد أسوان عبارة عن محمية النوبة يحكمها موظف مصرى رفيع الشأن هو « نائب الملك بالنوبة » ، وذلك لأن هذا الاقليم في أيام الامبراطورية كان بمثابة منجم الذهب الذي يمول مشاريع الامبراطورية . وتكون المائتا ميل الأولى - حتى الشلال الثاني - شطر المحمية وفيها حوالى ٣٠ ميلا غير صالحة للملاحة . هذا الجزء يكون مديرية واوات (النوبة السفلى) . ومعظم الطريق على جانبي النهر تحفه الخضرة الباهتة - اذ لا يتجاوز عرض الشريط المزروع أحيانا ياردة واحدة أو اثنتين على الأكثر - وفي باكي (حاليا كوبان) يوجد سهل صغير شيدت فيه قلعة ومعبدان ، يليه مباشرة رأس الوادي الجاف - وادي علاقي - الذي ينتهي ساحله الجنوبي الشرقي الى منطقة جرداء موحشة شديدة الحرارة كانت بها مناجم الذهب المشهورة التي تنتج « ذهب واوات » . فاذا سار المسافر حول انحناء مزدوج في النيل فانه يصل الى سهل أكثر خصوبة على الشط الغربي المقابل ، وفيه تقع مدينة ميعام (عنيبة الحالية) عاصمة الاقليم ومقر نائب الملك في المنطقة . وعند الطرف الشمالي للشلال الثاني توجد مدينة بوهن وفيها قلعة لحماية المنطقة ، ويواجهها عند الطرف الجنوبي مدينتا « سمنة وقمة » الحاليتين .

يلي هذه المنطقة نصف النوبة الشمالي وكان واقعا تحت سيطرة الفرعونية أيضا وهو الاقليم المعروف باسم « بلاد كوش » - النوبة العليا . وعند منتصف المسافة الى الشلال الثالث - على الساحل المتعرج - توجد جزيرة « ساى » وكانت بها قلعة كبيرة اتخذت عاصمة لمنطقة كوش . وكانت مقر نائب الملك الثاني بالنوبة «نائب الملك بكوش» حتى أبدلها رمسيس الثاني بعاصمة جديدة بني فيها قلعة ومعبدا أسماها « مدينة رمسيس » وهى على بعد أميال قليلة من العمارة الغربية على جزيرة أخرى . وكان الهدف هنا أيضا استخراج الذهب . والتحمت هذه المواقع بالصحارى التى كانت بها مناجم الذهب المعروف «بذهب كوش» .

فاذا تجاوزنا الشلال الثالث نصل الى اقليم دنقلة الحديث ، وهو اقليم خصب مجاور لعيون آرم جهة الغرب . وبعد هذه المنطقة ينحنى النيل انحناء ضخما مزدوجا ، في منخفضه يقع اقليم نباتا تحت هضبة مسطحة رائعة اسمها « جبل المائدة » أو « جبل آمون المقدس » . وهنا

نصل لآخر نقطة حضرية قبل الشلال الرابع • ويظـــن أن مقاطعة كارو
العسكرية المصرية كانت تقع بالقرب من أبو حامد وكنيسة كرجوس في
منحنى الشلال الخامس ، وهى قريبة من منطقة صالحة لتعدين الذهب •
ومن هنا كانت تتسرب منتجات القارة الأفريقية – هذه القــارة الغامضة
– الى أراضى الامبراطورية المصرية الواقعة شمالها •

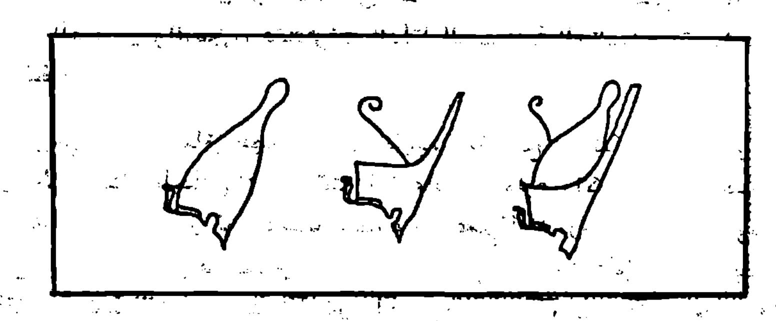
وخلاصة القول أن امبراطورية شاسعة تكونت بداية من الشلالات
البعيدة جنوب السودان ، وممتدة شمالا حتى البحر المتوسط • وكان يضاف
اليها أيضا مستعمرتا كنعان وجنوب سوريا • هذه كانت مصر العظمى
تحت حكم الرعامسة الذين كان رمسيس الثانى هو أكثرهم شهرة وصيتا •
وكانت كلمته مسموعة من الســـــامرة وبيروت الى منف الى طيبة وعلى
طول شاطىء النيل في النوبة مارا بكاروى حتى الشـــلال الخــامس ،
ولمساحة ٢٠٠٠ ميل متصلة كانت كلمته فيها هى العليا •

الخلفية التاريخية (مصر قبل رمسيس الثانى)

تمهيـــــــد

منذ ثلاثة وثلاثين قرنا مضت كان رمسيس الثانى ولم يزل بعد فتيــا
بينما كانت مصر دولة عريقة ذات تاريخ طويل عريض حافل بالأمجــاد •
وكانت الاهرامات المطلة من منطقة الجيزة الواقعة خلف العاصمة القديمة
منف – حيث مقر اقامة رمسيس – توحى لأميرنا بذكريات عنية عن عظمة
مصر أثناء الدولة القديمة لألفى سنة مضت فى ذلك الوقت •

وعلى العموم ففى ذلك الوقت كانت منطقة الأهرام قد أصبحت بالفعل
منطقة من مناطق الجذب السياحى ، وكان المثقفون من كهنة وكتبة منـف
المهتمون بتاريخ بلادهم يزورون هذه المنطقة للاستجمام والدراسة •



شكل (٩) تيجان مصر : من اليسار الى اليمين – تاج الوجه القبلى ، تاج الوجه البحرى ،
تاج مصر الموحدة •

والحقيقة أن أهالى مصر جميعا فى زمن الرعامسة كانوا مدركين تماما للحقبة الطويلة السابقة بكل أمجادها ، كما كانوا يفخرون بحاضرهم الذى تحققت فيه من الأمجاد ما لم تتحقق من قبل ، حيث شهد ذروة الانتصارات المصرية قبل أن تصاب مصر بنكسة فادحة عانى منها أسلاف رمسيس الثانى - وشهد جانبا منها وهو صغير - ألا وهى نكسة العمارنة. وقد أخذ أسلاف رمسيس الثانى على كواهلهم العمل على استعادة الانتصارات وإعادة مصر لسابق مجدها ، ولم يتوانوا . فما أن سنحت لهم بارقة أمل حتى انتهزوها ولم يفلتوا الفرصة المتاحة وعضوا عليها بالنواجذ . ولم يكن رمسيس الثانى إلا امتدادا لهذا الصف الباسل فى تاريخ مصر .

ومن المفيد أن نلقى نظرة سريعة على تاريخ مصر قبل عصر رمسيس، ذلك التاريخ الحافل بالأحداث وبالرجال . وسوف يفيدنا ذلك كثيرا فى تفهم الأحداث فى عصره ، لأن كل شىء انطلق من أحداث أقدم عهدا ، فدائما عصور إعادة البناء واسترداد ما فقد واستعادة أمجاد سابقة لا تبدأ من فراغ وإنما هى أشبه بمسيرة نقطة انطلاقها هو التراث الموجود . وقد أثبتت الأحداث بعد ذلك أن رمسيس الثانى كان على وعى تام بهذه الأحداث ، وتعامل معها على أساس استعادة مصر لأمجادها السابقة .

البدايات (الحضارة القديمة)

حدث أثناء ما قبل التاريخ أن شق النيل طريقه ، وحدد مجراه بين الأحجار الصلبة والصخور الواقعة فى الركن الشمالى الشرقى لأفريقيا . وأدت الاختلافات فى شدة التيار إلى تقسيم مرتفعات الوادى إلى عدة مناطق على طول مجرى النهر . وبترسب الغرين والطين تحددت معالم أرض وادى النيل . وكون النيل عند نهايته الشمالية خليجا كبيرا تصب فيه مياه النيل قبل أن تصب فى البحر . ومع الزمن ترسب فى أرض الخليج الغرين والطين ، فتكونت الدلتا الخصبة العظيمة حيثما كان هذا الخليج .

ومع الوقت ضاق مجرى النيل الرئيسى فأصبح ذا شكل شريطى يمت كثيرا إلى شكله الحالى . وتفتتت النتوءات الجبلية وتكونت الصحارى الرملية ، التى يندر أن توجد فيها خضرة إلا بقعا قليلة تروى بالمياه الجوفية - هى الواحات - وقد اضطر ذلك السكان إلى النزول للوادى للصيد ، وبالتدريج أخذوا فى زراعة الأرض للحصول على الحبوب كى يطحنوها ويصنعوا منها الخبز . وما داموا عرفوا الزراعة فلابد أنهم لمسوا إلى

اى مدى كانت وفرة المحصول ترتبط بحالة النيل ووفرة المياه ، ولابد انهم لاحظوا دورة الفيضان السنوية ٠

فى كل صيف كانت الأمطار تهطل بغزارة على الجبال الأثيوبية البعيدة عن مصر ، فتمتلىء فروع عطبرة والنيل الأزرق والنيل الأبيض بالمياه التى تجرى نحو الشمال لتغمر وادى النيل السفلى ـ النوبة ومصر ـ حاملة اليه فى نفس الوقت مصادر الخصب المتجددة دائما ـ الطين والغرين ـ وتتجدد هذه الدورة كل سنة فترتفع المياه ثم تعود للانحسار تاركة الأرض خصبة صالحة للزراعة ـ وخصوبتها عالية ٠ وهذه الدورة السنوية تسمى فيضان النيل الذى عرف المصريون القدماء مع الزمن أن مستواه هو الذى يحدد مستوى المعيشة فى البلد ، وادركوا تماما أن حياتهم قد ارتبطت بالنيل الى الأبد ٠

من الطبيعى أن يكون أهل الوادى قد أدركوا أن مصر فعلا هى هبة النيل : فالفيضان الضعيف معناه قلة الماء ونضوب المحاصيل وبالاختصار، المجاعة، والعكس بالعكس وجدوا الرخاء والوفرة والسعادة مع الفيضانات العالية ٠ وتعلم سكان الوادى أن يزرعوا بمحاصيلهم فى حياض للمحافظة على ماء النيل بقدر الامكان بعد انحسار الفيضان ٠ ومن الطبيعى أن مثل هذه الحياة لابد أن تؤدى بالتدريج الى تكوين تجمعات ريفية وقرى ، لتتحد مع الزمن مكونة تجمعات أكبر ومراكز ادارية يحكمها حكام محليون ٠ والمهم انه فى القرن الثانى والثلاثين قبل الميلاد توحد وادى النيل كله من أسوان الى الفيوم تحت حكم ملوك طيبة « الملوك الصقور » وكان شعارهم التاج الأبيض الطويل ٠ وتكونت فى الوجه البحرى والدلتا مملكة موحدة منافسة من سكان المناطق الغربية فى سايس ومدينة بوتو المزدوجة ، وكان لحكامها تاج أحمر يلبسونه يشبه القلنسوة المسطحة وله لولب أمامى ، ونتوء خلفى ٠

وكان لابد من الصدام بين مملكتى الشمال والجنوب ٠ وتمكن ملك المملكة الجنوبية ، الملك الصقر ـ نعرمر الأسطورى ـ من الانتصار على المملكة الشمالية سنة ٣١٠٠ قبل الميلاد ، وتوحيد مصر كلها ، منهيا

«لحكم الآلهة » ، و « أتباع حورس » ليبدأ عصر المملكة الفرعونية حسب وجهـة نظر بطلنا رمسيس • ولكن ذلك لم يمح تماما حقيقة أنه كانت توجد مملكتان ، أى قطران ، وظل الفرعون يطلق عليه طوال العصور الفرعونية لقب « سيدالقطرين » •

وقد استحدث نعرمر لنفسه لقبا جديدا هو « الذى تحميه السيدتان » (نخبت ربة الجنوب ـ أنثى النسر ، ووادجت ربة الشمال ـ الكوبرا) • واستخدم كذلك اسما آخر هو «منى» أى «القاهر» وهو الاسم الذى حرف فيما بعد الى مينا • ويعتبر مينا هو المؤسس التقليـــدى للمملكة المصرية المتحدة ، كما يعتبر بانى أول عاصمة لها عند منف ـ ملتقى القطرين •

وبتوحيد القطرين يبدأ التاريخ الفرعونى الحقيقى لمصر • وكان مينــا هو أول من وضع نظام الملك الأسرى ، وبعده تتابعت الأسرات الحاكمة •

بدايات النبـــوغ تتجلى فى الدولة القـــديمة

تمثل الأسرتان الأوليان عصرا مستقلا يطلق عليه اسم العصر العتيق، وهو عصر رائد بكل معنى الكلمـــة : اتحدت فيه البـــلاد ، وساد الأمن والاستقرار ، وبدأ يظهر ويتوطد نظـــام ادارى كفء لحـكم البلاد ، وفيه اتخذت الكتابة التصويرية (الهيروغليفية) الشكل الذى نعرفه ، وكانت قد ظهرت قبل اتحاد القطرين • وظهرت فى ذلك الوقت أيضا العمارة الملكية الجميلة التى اكتشفنا منها مجموعتين من المقابر الضخمة المبنية بالطـوب احداهما خلف العاصمة القديمة منف والأخرى فى مدينة أبيدوس المقدسة، ووصلت الفنـــون الدقيقة مستوى عاليا ، فظهـرت المصوغات الجميلة والأوانى الرائعة المنحوتة من أقسى أنواع الحجارة وأشغال العاج الرقيقة التى عثر عليها ضمن الأمتعة الجنزية الملكية •

وتدهورت الأحوال فى أواخر عهد الأسرة الثانية ، وتولى زمـــام الحكم أسرة جديدة فتية هى الأسرة الثالثة تميزت بانجازاتها الرائعـــة والتى تبدأ بها الحقبة التاريخية الحقيقية فى التاريخ الفرعونى • ويطلق على العصر الذى يشمل الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة والسـادسة

عصر « الدولة القديمة » : ويطلق على عصر الدولة القديمة أيضا عصـــر « بناة الأهرام » نسبة الى مقابر ملوكها الهرمية التى ميزت هذا العصر ٠ ويمتد عصر الدولة القديمة بين ســنتى ٢٧٠٠ و ٢٢٠٠ قبـل الميـــلاد تقـــريبا ٠

فى بداية عهد الأسرة الثالثة بنى الملك زوسر ـ بمعاونة وزيره القدير ايمحتب ـ مجموعته الهرمية الكبيرة بسقارة التى تشتمل على الهرم المدرج وملحقاته ، وهو أول الآثار الحجرية المعروفة فى التاريخ ٠ والهـــدف من بناء الهرم هو استخدامه كمقبرة للملك وكقصر له فى الحياة الابدية ٠ وقد استخدم فى بنائه الحجر الجيرى المصقول ـ وهى التكنولوجيا المستحدثة فى ذلك الوقت ٠

والهــرم له ست مصــاطب متتــابعة كل منهــا أصــغر من التى تحتها ٠ فهو بذلك يمثل سلما أو معــراجا يصــعد عليه الملك الراحل الى الأبدية وهى فلسفة ذلك العصر ٠

وبنى الملك سنفرو ـ رأس الأسرة الرابعة ، المعروف باسم ســنفرو الطيب ، هرمين لنفسه جعل جوانبهما مائلة مصقولة ناعمة لا مدرجة ٠ والفلسفة وراء هذا التطــور هى فكرة صعود الروح على ممر منحـــدر لا درج كمـــا فى حالة زوسر ، وذلك تمثيـــلا لأشعة الشمس المســتمرة المتجانسة ٠ ثم جاء من بعده ابنه الملك خوفو ـ أعظم ملوك هذه الأسرة ـ وبنى أعظم واضخم الأهرامات جميعا فى صــحراء الجيزة شمالى منف ، وهو أول بناء هرمى بالمعنى الدقيق للكلمة ٠ وقد فضل ابنه حرجدف أن يسلك طريق الحكمة (أى الفلسفة) أسوة بايمحتب ، فتولى الحكم بدله الملك خفرع وبنى لنفسه هرما أقل حجما من هرم أبيه ، وأقام بجواره تمثال «أبو الهول» العظيم ، بنحت وتشكيل صخرة ناتئة بجوار الهرم لم يتمكن من ازالتها ـ وهو تمثال ضخم له جسم أسد ورأس انسان ـ وهو تمثيل لخفرع نفســـه ٠

ولسبب ما لم يستطع باقى ملوك الأسرة ومن بعدهم تشييد أهرامات ضخمة ، فلجأوا للسحر عوضا عن الضـــخامة لكى يحمــوا أهراماتهم

الضعيفة . وبذلك ظهر وتطور فن جديد مبنى على الكلمة نعرفة اليوم باسم « نصوص الأهرام » وهذه كانت تسجل بالحفر على جدران الغرف الداخلية القصوى فى الأهرام .

ومن الناحية السياسية وصلت سـلطة مصر فى ذلك العصر الى النوبة جنوبا ـ حتى الشلال الثانى على اقل تقدير . كذلك ارسلت البعثات الى جبيـل (بيبلوس) على ساحل الشام للحصول على خشب الارز اللبنانى . وكانت اعمـال التعـدين تجرى فى سـيناء بنجاح للحصـول على النحاس والفيروز .

لكن الضعف والوهن أخذ يدب فى جسم الادارة فى أواخر عهـد الدولة القديمة ، فأخـذ حكام الأقاليم الأقوياء يوسـعون من سلطاتهم ويتقاسمون السلطان والنفوذ مع الفراعنة . كذلك اخـذت اقاليم الوجـه القبلى تتصرف بصورة أكثر تحررا . وفى النهاية تمزقت المملكة تحت وطأة ضعف الملكية وطموح الحكام المحليين وتطلعات المسـتوطنين الأجانب ـ خصوصا الفلسطينيين ـ حتى تمزقت المملكة بعد حكم الملك بيبى الثانى الطويل (٩٤ سنة) الذى تولى الحكم وعمره ست سنوات .

بعد ذلك آل الحكم الى ايدى ملوك ضـعفاء يملكون ولا يحكمون (يطلق عليهم اسم ملوك الظل) يكونون الأسرتين السابعة والثامنة ، انتشرت فى عهودهم المجاعات والفيضانات المنخفضة والتغلغل الآسـيوى فى البـلاد .

صـحوة مصر فى عصر الدولة الوسـطى

ظهر خط ملكى جديد فى نينـو (قرب الفيوم) وطالب بصـولجان الملك بعد تمكنه من تحرير البلاد ونشر الاستقرار (الأسرتان ٩ ، ١٠) . الا انه ظهر فى اقصى الجنوب خط امراء جديد كون مقاطعة مستقلة عاصمتها طيبة التى دخلت التاريخ منذ ذلك الوقت .

كانت الأمور حوالى عام ٢١٠٠ قبل الميلاد تدعو الى اليأس . فقـد تقهقر الوضع فى البلاد الى ما كان عليه قبل الف سنة ، وانقسمت مصر الى مملكتين ـ شمالية وجنوبية . وكرر التاريخ نفسه اذ وثب ملوك طيبة على الوجه البحرى بقيادة منتوحتب الثانى واعادوا وحـدة البلاد الى ما كانت عليه ، بعد أن دحر آخر ملوك الأسرة العاشرة الشمالية حوالى

سنة ٢٠٣٠ قبل الميلاد ، وفيما بعد قدر أهل طيبة لمنتوحتب الثانى هذا الصنيع فاعتبروه بطلا ولقبوه بالملك مينا الثانى وموحد القطرين الثانى ، وقد بنى هذا الملك مقبرته ومعبده التذكارى فى صخور البر الغربى للنيل فى طيبة ، وقد دخل معبده هذا التاريخ من أوسع أبوابه فيما بعد عندما أصبح ضمن طقوس أعياد آمون الكبرى زيارة تمثاله لهذا المعبد فى موكب نهرى حافل ، وهو الاحتفال الذى تطور ليصبح عيد الوادى فى العصر الزاهر فيما بعد ،

ولكن يبدو أن الأمور لم تستقر بعد وفاة هذا الملك العظيم ، وربما نزلت بالبلاد بعض الكوارث المعهودة مثل الفيضانات المنخفضة التى كانت لها دائما انعكاسات سياسية ، والمهم أن السلطة انتقلت بطريقة غامضة الى الوزير أمنمحات الذى أسس أسرة جديدة ـ الأسرة الثانية عشرة العتيدة ـ وتسمى باسم الملك أمنمحات الأول ، واشتهر ملوك هذه الأسرة بالحزم والكفاءة ، فأعادوا الوحدة للبلاد وحققوا الأمن ونشروا السلام فى ربوعها ، ووصل نفوذ مصر المطلق فى عهد هذه الأسرة الى الشلال الثانى بالنوبة واستمرت سيطرة مصر على هذه المنطقة مائتى سنة كاملة (١٩٩١ ـ ١٧٨٦ ق٠م٠ تقريبا) ، فوصلت مصر الى حالة من الرخاء الاقتصادى لم تصلها من قبل ، ورأى أمنمحات أن طيبة لا تصلح عاصمة ادارية لمصر المتحدة لبعدها ، لكنه لم يعد الى منف وانما أسس عاصمة جديدة جنوبها مباشرة سماها ايثت تاوى (القابضة على القطرين) ، ولم يكن طريق الأسرة فى مبدأ الأمر مفروشا بالورد ، بل لاقى معارضة شديدة استخدمت فيها الدعاية المضادة ، الا أن فراعنة الأسرة قضوا على المعارضة بتغيير الحكام المحليين ، وتعيين حكام رسميين بدلهم كانوا أسلس قيادا من هؤلاء المعارضين ،

واهتم الملكان سنوسرت الأول ثم الثالث بسياسة البلاد الدفاعية فشيدا قلاعا فى النوبة ، أما أمنمحات الثالث فاهتم بالمشاريع العمرانية ونجح فى تطوير النشاط الزراعى بالفيوم ،

وكالعادة اضمحلت الأسرة الثانية عشرة فخلفتها الأسرة الثالثة عشرة وفى عهدها تدهورت الأوضاع وبسرعة صارت السلطة فى أيدى الوزراء ، تبع ذلك اضمحلال السلطة المركزية وأخذ شأن الحكام المحليين يعلو على حسابها مرة أخرى فى الدلتا ،

وفي نفس الوقت تمكن الآسيويون الوافدون من تقوية شوكتهم فى الدلتا ، لدرجة مكنت أحد أمرائهم من الاستيلاء على شرق الدلتا كله وجعل أفاريس عاصمة له • ولم يكتف بهذا بل اتبع سياسة الأمر الواقع ونصب نفسه فرعونا فى منطقة تشمل منف وايثت تاوى ، وعامل فراعنة الأسرة الثالثة عشرة كأمراء تابعين له فى طيبة جنوبا • وتاريخ هذه الأحداث من الأرجح أنه كان فى سنة ١٦٥٠ قبل الميلاد • تعتبر هذه الأسرة الأجنبية التى تتكون من ستة ملوك على التتابع هى الأسرة الخامسة عشرة المحلية المعروفة فى التاريخ باسم أسرة « الهكسوس » بمعنى الملوك الأجانب ، ويفضل بعض المؤرخين تسميتهم ملوك الرعاة • هذه الأسرة رفعت الاله ست فوق الآلهة جميعا ، وساووه بآلهة العواصف الآسيوية •

وفي سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد كانت مصر منقسمة عمليا الى ثلاث مناطق نفوذ : الهكسوس فى الوجه البحرى ، وأمراء طيبة فى الوجه القبلى ، وأمراء النوبة بعد ذلك •

وكان لابد أن تنشأ أسباب للنزاع بين السلطات الثلاث • وللمرة الثالثة فى تاريخ مصر القديمة يأخذ أمراء الجنوب بطيبة عنصر المبادأة ويشرع سقنن رع تاو الثانى فى تحدى سلطة الاقليم الشمالى • ويواصل ابنه كامس ما شرع فيه أبوه • وبعد معركة بارعة خاطفة أنزل هزيمة ثقيلة بالملك الهكسوسى أبوبى ، استرد على أثرها معظم أرض مصر الجنوبية • بعد ذلك شرع كامس يخطط لغزو افاريس نفسها لتحريرها — وذلك قبل عودته الى طيبة مكللا بالغار — لكن المنية عاجلته قبل أن يجنى ثمار انتصاراته ، وترك الأمور لأخيه أحمس الذى كان على مستوى الموقف وتمكن من دحر الهكسوس وطردهم من مصر نهائيا ، فتحققت على يديه وحدة البلاد للمرة الثالثة ، وليعزى فضل ذلك الى أمراء طيبة الأبطال للثالث مرة فى تاريخ مصر •

الدولة الحديثة وأمجاد عصر الامبراطورية

لم يكن طرد الهكسوس وتحرير مصر عملا بسيطا ، ولا سهلا • فقد كانت الأمور حين تولى أحمس الملك غير مستقرة ، وكان الهكسوس ما زالوا متمسكين بأفاريس ومواقعهم بالدلتا • وقد رأى أحمس فى بداية حكمه أن يتشبه بفراعنة مصر العظام من قبله ، وكانوا عادة يتخذون لأنفسهم أسماء وألقابا رسمية هى « الاسم الملكى » يضاف اليه « اسم العرش » ، يوضعان معا داخل اطار — وهو الخاتم الرسمى للفرعون الذى نطلق عليه اسم الخرطوش — فتسمى الملك الشاب أحمس باسم نب بحتى رع

أى « اله القوة هو رع » ، و «أحمس بن رع» ، ووضع ذلك فى خرطوشه منذ سنة ١٥٥٠ تقريبا · ويبدو أنه فعل ذلك تأكيدا لشرعية حكمه وزعزعة ثقة أهل الشمال فى حكم الهكسوس ·

وقد دخل أحمس فى معارك مستمرة مع الهكسوس لم تكن حاسمة حتى مرت عشر سنوات من الكفاح ، نجح بعدها فى دحر عدوه تماما · واقتحم أفاريس عاصمة الهكسوس ، ثم استمر فى مطاردتهم حتى خارج الحدود ، فتشتتوا فى فلسطين وانتهى أمرهم الى غير رجعة · ومع ذلك لم تستقر له الأمور على الفور ، اذ قامت ضده ثورتان تمكن من اخمادهما قبل أن تستقر أحوال البلاد ، الأمر الذى احتاج الى وقت طويل جدا ·

وعندما دانت لأحمس البلاد واطمأن الى أحوالها الداخلية وكون السلك الادارى اللازم لحكم البلاد حكما مركزيا مستقرا ، أخذ فى التطلع خارج الحدود بغية تأمين مصر من الغزو الخارجى مرة أخرى · فقام فى سنة ٢٢/٢١ من حكمه (١٥٣٠/٢٩ ق·م· تقريبا) بمهاجمة غرب آسيا ، واحتل كنعان (خورو) ـ أى فلسطين ، واجتاح جنوب فينيقيا بذلك ضمنت مصرعدم ارتداد الهكسوس اليها من حيث خرجوا ، ليس هذا فقط بل أصبحت مصر من يومها قوة عالمية يخشى بأسها ·

واصل امنحتب الأول بن أحمس الأعمال التى بدأها أبوه ، فهاجم سوريا ، وربما يكون قد وصل الى مشارف نهر الفرات ، كما اهتم بتثبيت اقدام مصر فى النوبة · لكن معظم جهود هذا الفرعون اتجهت نحو العمل الداخلى لتحقيق استقرار البلاد ورخائها ، ووجه شطرا من عنايته لبناء المعابد للآلهة · وكان طراز مقابر الملوك حتى ذلك الوقت هو الطراز الهرمى ، فكسر امنحتب الأول هذه القاعدة وعاد الى حيث مقبرة منتوحتب فى مرتفعات طيبة ، وهناك نحت لنفسه مقبرة تبعد عن معبده الجنزى وقام لتحقيق ذلك بتأسيس قوة عمل متخصصة مستديمة لبناء مثل هذه المقابر · لذلك علا قدر هذا الملك بينهم حتى أصبح امنحتب الأول فى العهود التالية هومعبود عمال هذه القرية واطلقوا عليه لقب « الراعى المقدس » ·

أعقب ذلك قرن منالزمان استمرت فيه الحملات الحربيةعلى سوريا تحت امرة عدد من الفراعنة المقاتلين اتسموا بالنشاط والقوة · فتمكن تحتمس الأول من توسيع حدود الامبراطورية المصرية الى حد لم تصله قبلها ولا بعدها ، فاصبحت تمتد من نهر الفرات شمالا الى الشلال الخامس فى النيل (كنيسة كرجوس) جنوبا · وفى الداخل قام هذا الملك بتوسعات كثيرة

فى معبد آمون بالكرنك ، كما اهتم ببناء قـرية على البر الغـربى لسكنى العمال (عمال المقابر الملكية) بصفة مستديمة تسمى حاليا (دير المدينة) ٠ وقد قطع هؤلاء له مقبرة فى صخور الوادى هى الأولى من نوعها هنـاك ٠ وهذا هو الوادى الذى عرف فيما بعد بوادى الملوك ٠

عندما مات تحتمس الأول خلفه ابنه تحتمس الثـانى (١٤٩٢ ـ ١٤٧٩ ق٠م) لكنه مات مبكرا تاركا عرش الامبراطورية لابنه الطفـل تحتمس الثالث ، مما ادى الى وجود فراغ فى السلطة ولو الى حين ٠ وقد قامت الملكة حتشبسوت ـ الوصية على العرش ـ بالقبض على ازمة الحكم وملأت الفراغ عشرين سنة باعتبارها فرعونا مشاركا ٠ وتميز حكمها بأنه حكم ميال للسلم ، واهتمت بالتجارة السلمية مع فينيقيا من أجـل خشب الأرز ،واهتمت بصحراء سيناء من أجل الفيروز ، واشتهرت فى التـاريخ بالبعثة التى أرسلتها الى بلاد بونت ، وهى رحلة بحرية قطعت فيها السفن مسافة شاسعة عن طريق البحر الأحمر الى هذه البلاد البعيدة (يظن أنهـا الصومال الحالية) بحثا عن السلع الأجنبية الترفية وعلى رأسها البخور والتوابل ٠ وكانت أعمال حتشبسوت المعمارية عظيمة جدا ، فقد شـيدت لنفسها معبدا جنازيا رائعا فى الدير البحرى بجوار معبد منتوحتب الثانى القديم بغرب طيبة ، بخلاف الكثير من الآثار الأخرى ٠

لكن عند وفاة حتشبسوت كانت مستعمرات مصر فى سوريا قد تبخرت تقريبا ، اما بالاستقلال والانفصال عن مصر ، واما بالانضمام والتحـالف مع الدولة الميتانية الفتية ـ القوة الصاعدة فى افق غرب آسيا فى ذلك الوقت ، وتمكنت من مد سلطانها من موطنها الأصلى بعد نهر الفرات حتى وصل الى سوريا ٠وهنا انفرد تحتمس الثالث بالحكم ، وقد صار شابا فتيا مفعما بالحيوية والنشاط والآمال الكبيرة ٠ لذلك ما لبث أن اعتلى العرش حتى قام ابتداء من سنة ١٤٥٧ قبل الميلاد بقيادة جيشه بنفسه فى سلسلة متواصلة من الحملات بلغت سبع عشرة حملة قوية ناجحة ، وكلها فى سوريا حتى تمكن من طرد الميتانيين منها الى ما بعد نهر الفرات ٠

وبذلك استرد لمصر سيطرتها الكاملة على كل الأراضى التى كان جده قد استولى عليها ، وعادت مصر مرة اخرى لتصبح القوة العظمى فى الدنيا القديمة ـ حتى حين ٠ وكان من نتيجة ذلك ان ســارع ملوك بابل وآشور وخيتا الى خطب ود مصر ، وارسلوا مبعـوثيهم الى الفرعون الظافر لتوطيد العلاقات الدبلوماسية مع مصر ٠

وكعادة الفراعنة عند الظفر ربط تحتمس الثالث نفسه بالاله رع واتخذ لقب « من خبررع » اله الشمس الخالد فى شكله ، ولقب « ابن رع تحتمس الثالث حاكم طيبة » · ولم يكن نشاط الملك فى الشئون الداخلية أقل حجما من حملاته ونجاحه على المستوى الخارجى ·

ففى عهده عادت منف عاصمة « فعلية » للبلاد ، فى حين احتفظت طيبة بقيمتها المظهرية ، اذ اعتبرت مقر الحكم الجنوبى وعاصمة الامبراطورية « الدبلوماسية » · ولم يهملها الملك بل ظل يزورها كل سنة لشهود الاحتفالات بأعياد آمون ·

ومن انجازاته الادارية أيضا تعيينه لوزيرين فى حكومته أحدهما لشئون الجنوب والآخر لشئون الشمال ، وكل منهما له هيئته الوزارية المستقلة وبالأخص أمناء الخزانة وصوامع الغلال ·

واهتم الملك أيضا باختيار حكام ذوى كفاءة لحكم الأقاليم من عواصمها · وكانت أهم أعمال نائب الملك فى النوبة الاشراف على تعدين وتدفق الذهب الى الخزانة المصرية من هناك · ووضع نظاما للاشراف على المستعمرات السورية بتعيين حكام مصريين لهذه الأراضى الشمالية للاشراف على توابع الفرعون من حكام سوريا المحليين ، كانوا مركزين فى ثلاث ولايات : كنعان (فلسطين ومركزها غزة) ، أوبى Upi (جنوب سوريا للداخل ومركزها سيميرا Simyra غرب دمشق) ، وأمورو Amurru (سوريا الساحلية ومركزها سيميرا على الساحل الفينيقى) ، هذا بالاضافة الى المدن الفينيقية الصرفة من صور الى أوجاريت Ugarit (راس الشمرة الحالية) ·

وقد طالت مدة حكم تحتمس الثالث الى ٥٤ سنة بنى خلالها من الآثار ما لم يفعله أحد قبله ، فقد بنى المعابد بطول البلاد حتى نباتا بجوار الشلال الرابع فى النوبة العليا ·

وتحتمس الثالث هو فى الحقيقة الصورة الكلاسيكية للفرعون الامبريالى : الغازى فاتح العالم ، ورسول الآلهة ، والانشائى الكبير ، وراعى الشعب ، وحامى العدالة ، ومحقق الأمن والاستقرار والنظام والرفاهية لجماهير الشعب ·

وورث ابنه أمنحتب الثانى كثيرا من خصال أبيه · وقد اشتهر بقوته الهرقلية ــ لا يمكن لأحد غيره أن يشد القوس الخاص به ــ فهو مثال

السوبرمان فى عصرنا · وبالاضافة الى ذلك كان رياضيا عظيما وجنديا بارعا · أما ابنه تحتمس الرابع (١٣٩٦ ـ ١٣٨٦ ق·م·) فقد شهدت مصر فى عهده شيئا من التغير والتقلص · فلم يكن لدى مصر ولا ميتانى فى ذلك الوقت ما يكفى من القوة لتسيطر احداهما على سوريا ، فاضطرا الى التفاهم لاقرار السلام فى المنطقة ، ووقعا على معاهدة الصلح التى عززت بزواج أميرة ميتانية من الفرعون · وعلى اية حال أدت هذه المعاهدة الى ابعاد كل القوى الأخرى عن المنطقة حتى حين ·

ذروة الأمجاد ـ والصراع العقائدى

توج الفتى أمنحتب الثالث (١٣٨٦ ـ ١٣٤٩ ق·م·) فرعونا للبلاد تحت الاسم الملكى «اله العدالة هو رع» «ابن رع أمنحتب الثالث» · وقد ورث عن أبيه ملكا عظيما ، ومستعمرات مترامية ، وكان يشد أزره حليف قوى فى غرب آسيا ـ دولة ميتانى ·

وكان بلاط أمنحتب الثالث هو الأعظم بين ممالك ذلك العصر · وفيما عدا حملة صغيرة الى النوبة كان حكمه الطويل ـ الذى امتد الى أكثر من أربعين عاما ـ يتميز بالرخاء والثراء فى الداخل ، وبالسلام والوفاق فى الخارج · ويشتهر عصره بالمعمار · فقد بنيت على شواطىء النيل معابد عظيمة ، تميزت بالفخامة الى جوار الضخامة ، أعظمها جميعا معبد آمون كبير الآلهة فى مدينة الأقصر · كذلك بنى له بوابة دخول برجية عظيمة أمام معبده الكبير بالكرنك · وبنى الملك لنفسه معبدا جنازيا مهيبا على البر الغربى ، وجمله باقامة تمثالين فى منتهى الضخامة أمام بواباته ، وهما تمثالان توأم أطلق عليهما حديثا اسم تمثالى ممنون · وباتساع المؤسسات انهالت الأوقاف الملكية عليها · فمن ذهب الى أخشاب للبناء الى حلى ومجوهرات الى حقول ومزارع ومواش الى عمال للعمل بها ، بالاضافة الى العبيد والاتاوات السنوية التى كانت تفد من الخارج على صورة جزية · فاذا تبقى بعد ذلك شىء كان يوهب للآلهة الأخرى · فكأنما كان آمون يحصل على نصيب الأسد باعتباره اله الامبراطورية ، بينما جميع الآلهة الأخرى لا تحصل الا على النزر اليسير من هذا الملك الطائل · وبذلك أصبح آمون أو آمون رع ينظر اليه باعتباره ليس فقط اله الامبراطورية وانما باعتباره أيضا رأس الآلهة المصرية ، وظل شأنه يعلو حتى نظر اللاهوتيون اليه باعتباره ملك مصر الحقيقى ، والفرعون ابنه المطيع المنفذ لارادته · ورغم أن الفراعنة باغداقهم عليه بغير حساب كان لهم يد فى الوصول الى مثل هذا الاعتقاد ، الا أنهم أخذوا بالتدريج يحسون

بالامتعاض عندما احسوا أن هذا المفهوم السائد يجعل دورهم دورا ثانويا لا يعدو أن يكون دور الموظف لدى هذا الاله الطاغية ، يحققون مشيئته وينفذون ارادته . وكان الفراعنة على وعى تام بأهمية وظيفتهم للدولة والمجتمع ، ويعتبرون انفسهم بمثابة المركز فى تركيب المجتمع ، وعليهم يتوقف الاستقرار والحكم الفعال . فهم ليسوا مجرد أدوات فى أيدى آمون رع أو غيره من الآلهة ، ولكنهم بصورة أو باخرى شركاء لهم - هذا اذا لم يغرب عن البال ايضا أن السلك الكهنوتى كله ما هو الا ممثل للفرعون لدى الآلهة ، وأن رخاءهم المادى نفسه مرتبط به مباشرة .

ومن ثم كانت مظاهر العظمة الامبراطورية تخفى وراءها عوامل التوتر . ولم يحاول الفراعنة بالطبع مواجهة سلطان الآلهة ولا الحط من قدر آمون أو هيئته الكهنوتية . وكل ما أرادوه هو تأكيد وضعهم وهم يسعون حثيثا الى توسيع قاعدة أعوانهم واظهار اهمية منصب الفرعون بتأكيد سلطته التنفيذية بوسائل عملية .

لذلك اهتم امنحتب الثانى وتحتمس الرابع وامنحتب الثالث على التوالى بالتأكيد على دورهم فى الاشراف على هيئة كهنة الاله آمون ، فاختاروا بأنفسهم من شغلوا منصب كبير كهنة هذا الاله الكبير . ولاظهار سلطتهم فى هذا وسعوا قاعدة اختياراتهم ولم يقصروها على السلك الكهنوتى ، فقد كان همهم الأول اختيار أهل الثقة . لذلك اختاروا للمنصب احيانا بعضا من القواد الذين صحبوهم فى حملاتهم ولا يشك فى اخلاصهم للفرعون . وأحيانا اختاروا له بعض النبلاء المخلصين الذين ينظرون للفرعون باعتباره ولى النعم بصرف النظر عن ثقافتهم الدينية . وقام امنحتب الثالث من جانبه باجراءين هامين : الأول هو اضفاء اهمية اكبر على كبار الآلهة المصرية الأخرى خلاف آمون ، لذلك زاد من قدر الاله القديم بتاح اله منف واله الخلق ، فعين ابنه الأمير تحتمس فى منصب كبير كهنة هذا الاله . ولم يكتف بذلك بل اضفى على الأمير لقبا شرفيا ضخما هو « رئيس جميع كهنة كل الآلهة فى الجنوب والشمال » ، وبذلك آلت اليه الرئاسة الشرفية لكل الكهنة . واهم من ذلك أن امنحتب الثالث شرع فى رفع قدر الاله رع بهليوبوليس ، وذلك بالصلاة له وتمجيده بصفته الاله الملكى ، فاستحدث له صلاة جديدة كانت تتلى فى البلاط الملكى ، بصفته اله الشمس الذى يدل عليه قرص الشمس آتون .

وكان الاجراء الثانى هو رفع قدر المركز الملكى ، واعتبار الفرعون نفسه الهـا . لكنهم لم يعتبروا الفرعون الها فى ذاته ، ولكنـه اله لمشغله منصبا الهيا ـ هو كرسى الملك الذى لابد أن يؤله شاغله . وعلى ذلك كرسى أمنحتب معبده الكبير بصولب فى بلاد النوبة من أجل «نب ماعت رع النوبة» الذى تجلت عبقريته فى السيطرة على النـوبة ، وما «نب ماعت رع» سوى أمنحتب الثالث نفسه . وبصفته الها فلابد أن يصبح له أكثر من مظهر . لذلك أقام أمنحتب الثالث تماثيل عديدة عمـلاقة لنفسه سميت بأسماء هذه المظاهر ـ أى الآلهة التى يتقمصها الملك ـ بهـدف استقطاب ولاء الجماهير له وحشد الأتباع للعبادة الملكية . ومن ثم حق لأمنحتب الثالث أن يتقلب « بحاكم الحكام » أو « ملك الملوك » أو «شمس الحـكام» أو « منتو الحاكم » (منتو هو اله الحرب القديم فى طيبة) . ففى الظاهر كان أمنحتب الثالث يغدق على الاله آمون ، لكنه بحذر كان يقاوم سيطرته بإضفاء الأهمية والمهابة على الالهين رع وبتاح من جهة وبتأكيـد دور الفرعون وتقرير حقه فى الألوهية من جهة أخرى .

* * *

قبل انتهاء مدة حكمه الطويلة ، ربما يكون الملك أمنحتب الثـالث ، الذى كان يعانى من المرض فى سنواته الأخيرة ، قد كلف ابنـه أمنحتب الرابع بالوصاية على العرش (جعله نائب ملك) أو ربما يكون قد جعـله ملكا مشاركا . وبسحنته الطويلة الضيقة، وصدره المكتنز وردفيه المكتنزين كان شكل أمنحتب الرابع متنافرا مع جمال وانسجام شكل زوجتـه الملكة نفرتيتى . وكانت شخصيته فقيرة فى المواهب الدبلوماسية ، والقدرات السياسية العملية التى ميزت أسلافه ومكنتهـم من أداء وظيفتهم على الصورة المطلوبة .

فهو لم يكن له أيـة اهتمـامات سـياسية ، وفى فتـرة حسـاسة مثل تلك التى عاشها كان هـذا عيبا خطيرا جـدا ـ بل قد يكون قاتـلا ـ نظرا للظروف المحيطة بمصر فى ذلك الوقت . وفى أوائل حكمه بنى الملك الصغير وزوجته معبدا ضخما شرقى معبد آمون بالكرنك فى مدينة طيبة ، لكنه كرسه لعبادة آتون اله الشمس لا لآمون . وفى السنة الخامسة أو السادسة من حكمه هجر الملك العاصمـة الجنوبية طيبـة الى غير رجعة، وابطل التقليد الذى كان متبعا فى تنقل الملوك بين العاصمة الشـمالية منف والعاصمة الجنوبية طيبة . وبدلا من ذلك ابتنى عاصمته الخصوصية الجديدة فى مصر الوسطى ، فى منتصف المسافة تقـريبا بين العاصمتين

العتيدتين ، وسماها « آخت آتون ، سماء قرص الشمس » • كذلك ابطل استخدام اسمه الأصلى ـ امنحتب ـ وتسمى باسم جديد هو اخناتون •
ولما كانت لهذه الأسماء دلالاتها نستطيع ان نقول انه كف عن استخدام لقبه امنحتب « آمون راض » وآثر استخدام اسم اخناتون « الفعال من أجل آتون » • ثم انه بدأ يمارس الحكم باعتباره شريكا ، وممثلا وحيدا لاله الشمس على الأرض• ولم يكتف بذلك ، بل حمل على مجمع الآلهة المصرية كلها وعلى رأسهم اله الامبراطورية آمون وقضى عليها بعنف فى ضربة واحدة بعد فترة وجيزة ، فاغلق معابدها وسرح كهنتها ووضع يده على كل مخصصاتها وأوقافها وحول ذلك كله الى معابد آتون ، الاله الجديد • ولكى يؤكد سلطته المطلقة ويوطد ملكه ركز الأضواء على نفسه وعلى مليكته نفرتيتى ليكونا محور عبادة الجماهير • واعتبر نفسه مع الملكة الوحيدين القائمين على خدمة الاله آتون ـ الذى كان بشكل غامض قد حل فى اخناتون نفسه •

وتفاقمت واستشرت الأزمات الخارجية التى تواجهها مصر بشكل مكثف لسلبية الملك • وواجهت دولة ميتانى حليفة مصر ثورتين فى القصر الملكى قامت بهما « حكومة فى المنفى » لشجب حق الملك فى تولى العرش •

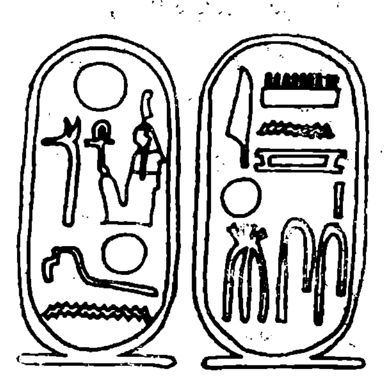
وفى الجنوب أدى انشغال الملك بأمور دينه الجديد وغياب الجيوش المصرية عن هذه الساحة الى تشجيع روح العصيان • وعادت مقاطعتا كنعان وجنوب سوريا الى التمرد فتجاهلتا دفع الجزية ، ودخلتا فى نزاعاتهما القديمة كل منهما تريد التوسع على حساب الأخرى • وصارت مراسلات كل منهما تهبط على مصر نكاية فى الأخرى •

الا أنه حدث فى آسيا الصغرى حدث كبير أربى على ذلك كله • ففى هذا الجزء من العالم ـ تركيا الحالية ـ حدثت صحوة فى مملكة الحيثيين ـ مملكة خيتا الكبرى ـ وابتدأ عصر جديد تحت حكم ملكها الجديد سوبيلوليوما الأول ، وكان ذا نشاط وطموح لا حد لهما • فما كان منه الا أن انضم لجانب أمير ميتانى المنفى ، مما اضطر الملك تشراتا ملك ميتانى الى دخول الحرب •وقام سوبيلوليوما بحركة عسكرية بارعة أدت الى دفع ميتانى الى التراجع ، فانتهز سوبيلوليوما الفرصة واجتاح غرب سوريا كله حتى وصل الى مدينة قادش الحيوية التى كانت حصنا للقوات المصرية

الميتانية - وقد سبق للملك تحتمس الثالث أن غزاها منذ زمن وكان دائما يفخر بفتحها ·

ومما زاد الأمور تعقيدا أن تشراتا نفسه ملك ميتانى قد اغتيل بعد النكسة فما كان من دولة آشور الا أن احتلت نصف ميتانى لصالح الأمير المنفى - مدعى الملك· ولم يسكت ابن تشراتا على ذلك بل لجأ الى الحيثيين لكى يخرج هو بالنصف المتبقى من المملكة ·

وكانت وسط سوريا المقاطعة المعروفة باسم أمورو ، التى كانت فى الأصل مملكة أمورو المستقلة قبل أن تتحول الى مقاطعة مصرية · فانتهز حكامها المحليون الفرصة وأخذوا فى التلاعب والقيام بدور مزدوج · ففى مراسلاتهم الى مصر أظهروا أنهم ما زالوا على العهد مقيمين وأن ولاءهم لمصر ، فى الوقت الذى أظهروا فيه خضوعهم لسوبيلوليوما أثناء حملته الضخمة فى الشمال · وفى غمار هذا التميع توسعت مملكة أمورو وبسطت سيادتها على الساحل الفينيقى من جبيل حتى أوجاريت ، ثم تحالفت مع أوجاريت التى كانت قد استسلمت بالفعل لسيطرة الحيثيين ·



شكل (٢) خرطوشتان لرمسيس الثانى أو سرماعت رع ستب ان رع رمسيس الثانى ، محبوب امون ·

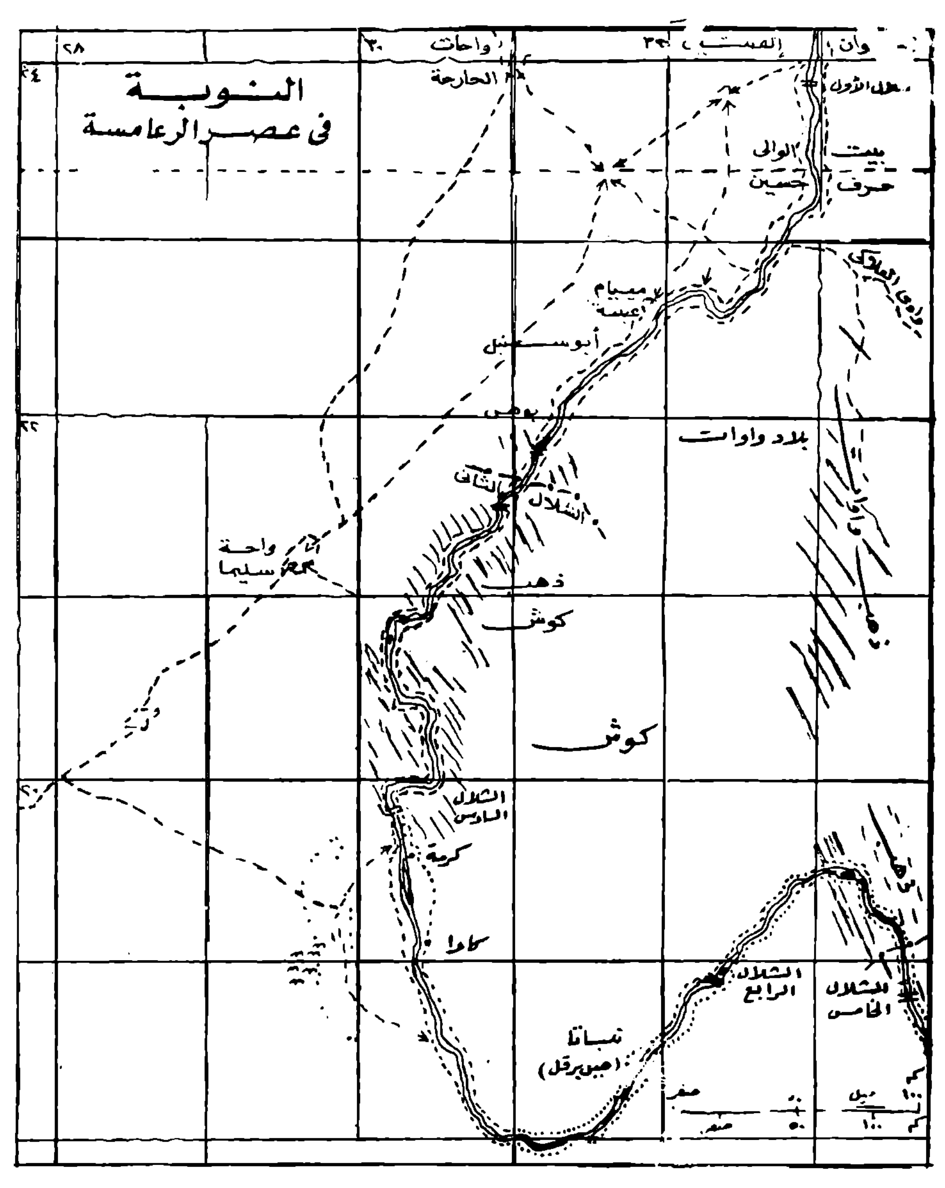
ولم ينجب أخناتون سوى بنات · لذلك أشرك فى الحكم معه أخاه سمنخ كارع · ولكن هذا لم يلبث أن توفى بعد وفاة أخناتون بسنة ، ولم يكن قد جاوز العشرين من عمره ، فتولى العرش أخوه توت عنخ أتون

وهو ما زال بعد غلاما · وعندما وصلت الأمور فى مصر الى هذا الحد كانت الأزمة السورية قد بلغت ذروتها · فقد أجبر سوبيلوليوما مملكة امورو على الخضوع له ، ما دامت قد تحالفت مع اوجاريت حليفة الحيثيين · وفى ذلك الوقت بعث كاتب بالجبهة الأمامية برسالة تقول :

« كل الأراضى من جبيل (بيبلوس) الى اوجاريت » انتزعت من يدى سيدها ـ ملك مصر ، والتهمتها الامبراطورية الحيثية ، التى أصبحت القوة العظمى الجديدة فى الشرق الأدنى القديم ·

وبضياع امورو فقدت مصر ولاية سوريا بكاملها ، بعد أن خضعت لمصر ردهة من الزمن ، ولم تتمكن مصر بعدها أبدا من السيطرة عليها بصفة مستديمة ·

أهم المواقع الأثرية والمعبودات المصرية التى ارتبطت بها



النوبة فى عصر الرعامسة



الفصــل الثـانى

طفــولة رمسيس الثــانى وبيئتــه الثقافيــة

العــالم السياسى ايام الرعامسة

مدخــــل

كان توت عنخ آتون الصغير السن يملك ولا يحكم ، اذ أن السـلطة الحقيقية انتقلت الى آى اكبر اعضــاء الأسرة سنا ٠ وبشــكل ما تسربت السلطة الى القائد حور محب ٠ واعيد الاعتبار للآلهة المصرية الكبـرى وتضاءل شــأن آتون وانزوى كواحد فى مجمــع الآلهـــة المصرية ٠ وفى السنة الثالثة من حكم الملك الصغير ، تغير اسمه من « توت عنخ آتون » اى سعيدة حياة آتون الى « توت عنخ آمون » ، اى سعيدة حياة آمون ٠

وصدر مرسوم رد للآلهة المصرية ما كان قد اغتصب منها من اوقاف ومخصصات ، خصوصا كبير الآلهة آمون ٠

واستمر الملك فى الحكم تسع سنوات اصبح بعدها فتى يافعا نشيطا ، عقدت عليه الآمال لقيادة جيوش مصر لاسترداد مستعمراتها ومكانتها فى الجبهة السورية ٠ ولكن القدر لم يمهله وتوفى بصورة مفاجئة ٠

ولما لم يكن له وريث فقد ترك العرش فارغا ، فقررت ارملته القوية الشكيمة عنخ اس ان آمون الا تدنس عرش الفراعنة بالزواج من رجــل من عامة الشعب ، فراسلت الامبراطور سوبيلوليوما الحيثى ليرسل أحد ابنائه الى مصر حتى تتزوجه وتجلسه على عرش مصر ٠ وقــد عرا ملك الحيثيين الاندهاش من هذا الطلب وقال : « هذا شىء لم يحدث لى قط » ٠ وفى غمرة استغرابه لم يسارع بتنفيذه وانما ارسل احد جواسيسه للتيقن

من جدية العرض · ووجد الجاسوس أن العرض حقيقي ، فاطمأن الملك وارسل احد أبنائه ، لكن الوقت كان قد مضى وضاعت الفرصة · فقد تولى آى شئون جنازة توت عنخ آمون ، وأسرع بدفنه فى مقبرة أعدت على عجل فى وادى الملوك بطيبة · وحسب التقاليد فالذى يدفن الفرعون القديم (أوزيريس) لابد أن يكون الفرعون الجديد (حورس) ، وهكذا وصل آى الى عرش مصر · أما الأمير الحيثى فانه ما كاد يصل حتى دبر أمر إغتياله بطريقة غامضة · وكان قتله خطأ فادحا من جانب آى ، ذلك بأن الامبراطور الحيثى فى ثورة غضبه الجامح لمقتل ابنه صمم على الانتقام فاغار على ممتلكات مصر السورية بجيش كثيف ، ثم عاد الى بلاده البعيدة غانما محملا بالأسرى والعبيد من المصريين · وتولد بذلك شر كبير بين الدولتين ، واستمرت بينهما العداوة ٧٥ عاما ولم تنته الا فى عهد رمسيس الثانى ، كما سوف نرى·



شكل (٣) : ست كاله في زى اجنبى

وتغيرت الوجوه فيمصر في ظرف سنوات قليلة · فقد حكم آي أربع سنوات توفي خلالها سوبيلوليوما تاركا ابنين تولى أصغرهما مورسيلي الثاني وواصل عمل أبيه في قيادة الحملات الموسمية · وفي مصر لم

يحسم أمر اعتلاء العرش بسهولة · وكان رجل الساعة فى ذلك الوقت هو قائد الجيوش حور محب ، الذى كان فى منصب نائب الملك أيضا طوال مدة حكم آى القصيرة · وبالاضافة الى ذلك كان متزوجا من احدى أميرات البيت المالك موت ان ودجمت التى يرجح إنها اخت نفرتيتى ـ وكانت آخر وريثة حية للعرش تنتمى للأسرة الثامنة عشرة · وبذلك حق لحور محب شرعا أن يصبح فرعونا ·

وتقلد المنصب بالفعل بعد دفن آى · وحكم حور محب مصر فترة طويلة قضاها فى اصلاح احوال مصر الداخلية · وكان همه الأول تقوية مصر والحفاظ على وحدتها · لذلك اصدر مراسيم صارمة لوضع حد للفوضى الادارية التى استفحل امرها اثناء حكم اخناتون وانشغاله بعالمه الخاص ـ عبادة آتون ـ وكان هذا ما تحتاجه مصر تماما ، فترة طويلة من السلام والاصلاح الادارى والعودة الى النظام وتحقيق التوازن والأمن والرخاء · ومع ذلك لم يهمل حور محب أمور الجيش ، بل عمل على اعادة تنظيمه وتعبئته ، وأثبت جدارته بالقضاء على ثورة قامت فى النوبة · وليس لدينا شك فى أن حور محب وقواده توجهت أنظارهم الى جبهة سوريا التى عانت كثيرا من الخسائر تحت حكم أخناتون · لكن حور محب آثر التريث فى ارسال الحملات الى هذه الجبهة · وعندما واتته الفرصة شن غارة رائعة على طول الساحل شمال سوريا ، مستغلا احدى فترات ضعف الحيثيين · وأسفرت هذه الحملة عن ضم أوجاريت للحظيرة المصرية مرة أخرى ، الى حين · ثم انه تغلغل الى قرقميش قبل أن يعود الى مصر وقد ارتاد مناطق لم تطأها قدم فرعون منذ قرن من الزمان ، منذ ايام تحتمس الثالث ·

وكانت هذه الحملة الناجحة مجرد ومضة اثبتت فيها مصر وجودها فى الساحة ، لكنها لم تستثمر حتى النهاية ، فلم يتوطد بها احتلال من جديد ولا رفع فيها علم مصر ، ولا حتى نوهت فيها مصر عن تمسكها بحقها فى سوريا مستقبلا ·

كان حور محب حائزا على كل مقومات الفرعون الناجح · فقد أصلح احوال البلاد ونشر فيها العدل ، ولم يقصر فى أعمال البناء الواسعة فى معابد آمون وغيره من الآلهة · وفى حروبه القصيرة الأجل أثبت جدارته بالقيادة · وكانت المشكلة الوحيدة التى أهمته هى أنه لم يكن له ولد ، ولذلك بدات مشكلة وراثة العرش تطل برأسها من جديد كلما أمتد به العمر ·

بعض العقبات العائلية (امام طموحات الأسرة)

فى سنوات حكم الملك أمنحتب الثالث الشهير ، وفى السنوات التى أعقبتها من حكم اخناتون الذى تسبب ـ على المستوى القومى ـ فى كوارث سياسية خطيرة ، كان سيتى ما زال فتيا (سيتى = رجل ست) ، وكان فى طريقه الى النضوج · وكانت عائلته من تقاليدها ربط أسمائهم بالاله ست اله أفاريس بشرق الدلتا ـ وهى كما ذكرنا منطلق القوافل الى أرض كنعان أيام الدولة الوسطى وعصر الهكسوس ، وتقع فى اقليم خصب فى « قطاع رع » ـ والتحق الفتى سيتى بالجيش ليحقق طموحاته وما يصبو اليه من نجاح ورفعة · ولكن فى ظل حكم فرعون مثل أخناتون كان من المتعذر على فتى طموح مثل سيتى أن يحقق آماله · وكان من المعروف فى ذلك الوقت أن الجيش هو الذى يحقق الآمال ـ فبالاضافة الى أمجاد الغزو والغار كان الجيش معبراً للترقى ، والسلك الحربى هو الطريق الموصل الى السلك الدبلوماسى · وفى السلك الدبلوماسى يكون مبعوثا للملك يطوف الممالك ويشاهد أعظم القصور الملكية الأجنبية الرائعة عند قضائه للمهام الملكية · ثم ان وظائف السلك الدبلوماسى كانت توفر لشاغلها مزيدا من الترقى فى الوظائف الادارية العليا بعد ذلك · مثل هذه الطموحات كانت مستحيلة التحقيق تحت حكم اخناتون · فلم يكن الملك مهتما على الاطلاق بامور المستعمرات فى سوريا ولا غيرها · وفى غياب الوجود المصرى اشتبك الحيثيون والميتانيون فى اقصى شمال سوريا ، بينما غزا الحيثيون جنوبها · وكل هذه وتلك كانت تحت السيطرة المصرية حتى ذلك الوقت ·

والأدهى من كل ذلك أن جيوش مصر لم يسمح لها بالتصرف · وظل الملك سادرا فى عبادة آتون فى مدينته فى صعيد مصر ، وهى تبعد ثلاثمائة ميل من الدلتا ومن جيوش الدلتا التى حل بها الاسترخاء والكسل · ورغم كل هذه العقبات وجد سيتى الفرصة للترقى فى السلك العسكرى حتى اصبح « قائد فصائل » وهو منصب أشد تواضعا من أن يرقى الى منصب رسول الملك أو غيره من المناصب الادارية العليا بالدولة ·

انجــازات الأسرة

شهد سيتى تدهور أحوال مصر السياسة وفقدانها لمستعمرة أمورو، ناهيك عن مستعمرة أوجاريت · والأدهى من ذلك فقدانها بدون أن يطلق المصريون طلقة واحدة ـ ولا حتى صيحة احتجاج ـ فى وقت قريب من موت أخناتون وتولى سمنخ كارع العرش · وكان الملك توت عنخ آمــون

ما زال غلاما لم يتعد التاسعة من عمره ـ لم يتجـــاوز عمر ابن سيتى الصغير ، برعمس ، « رع هو الذى سواه » · فى ذلك الوقت أخـذ شأن القائد حور محب يعلو حتى أصبح نائبا للملك فى عهد آى ، ثم فرعـونا عقدت عليه البلاد آمالها ·

فى ذلك الوقت كان الفتى برعمس قد ناهز العشرين من عمره والتحق مثل أبيه بالسلك العسكرى ، فى عهد جديد ، عهد حور محب · لكن وظيفة برعمس فى الجيش لم تكن على المستوى الذى كان يرجوه له أبوه · فقـد عين أول أمره فى رتبة « قائد فصائل » مثل أبيه ، ثم أبيه ، ثم رقى الى «قائد خيول» فتمهد له الطريق الى سلاح العـــربات الحربية وهو أرقى أسلحة الجيش · وعندماعين قائدا بالعربات الحربية صار مؤهلا « لحمل الحقيبة الدبلوماسية للفرعون » ، فحانت له الفرصة للتنقل بين العواصم المختلفة · وهـذه الوظيفة بالذات هى التى أوصلته الى ساحة البـلاط الرسمى فى منف ، حيث وطد علاقته بالوزراء ثم بالفرعون نفسه · وكان برعمس من معدن متميز ، لا بد له فى يوم ما أن ينجح ويتقـــدم ويحقق آماله العريضة · وبالفعل ظل شأن برعمس يعلو حتى نال رتبة الفـريق ، أعلى رتب الجيش ، وعين قائد قلعة (قلعة سيلى الحدودية فيما يظن) بالاضافة الى وظيفة « ناظر منابع النيل » · والمهم أن عمله كقائد قلعـة سيلى جعله مسئولا عن حماية الحـــدود مع كنعان وحراسة ســـواحل الدلتـــا ·

وعندما نضج وتمرس حاز على ثقة حور محب فعينه وزيرا تاليا فى رتبته للملك مباشرة · ولما كان هناك وزيران فى ذلك الوقت فالمرجـح أنه كان له زميل ، ويبدو أنه قد وقع اختيار الملك على برعمس ليكون وزيرا للجنوب لضمان ولاء طيبة ، مدينة آمون ·

وكان حور محب قد أحيا سنة أمنحتب الثالث فى بناء المعابد للآلهة، وأضاف اضافات عظيمة لمعابد آمون ، لكن سياسته كانت متوازنة فـلم يهمل شأن الآلهة الأخرى ، خصوصا الالهين رع (فى صورته المحافظة) وبتاح · وقد حظى برعمس برضا الفرعون لدرجة أنه أضفى عليه اللقب الدينى الشرفى الكبير « رئيس كهنة مصر كلها » ، لكنه لم يعينه كبيرا لكهنة أى اله ، لا آمون ولا غيره ·

وريث العـــرش

لم يكن أحد فى ذلك الوقت يطمـــح فى منصب أكبر من منصـب الوزير ، ذراع الملك اليمنى · لكن برعمس كان ينتظره ما هـو أكبر من

منصب الوزير . فعندما جاوز حور محب الستين من عمره رأى انه من الأوفق تفويض بعض أعماله الى غيره . وكان دائما يهمه أمر المستقبل ، فلم يكن له ولد يرثه ، وهو يريد للعرش ان يستقر والا يحدث مزيد من الهزات فى البـــلاد .

لذلك كله فكر الفرعون ـ من بين أجزاءات أخرى ـ فى تعيين نائب له ليعده لاعتــلاء العرش بعده . ونظرة فى رجاله فلم يتردد فى اختيــار رفيق سلاحه ووزيره الخبير برعمس . وسرعان ما جرى اعلان برعمس « نائبا للملك فى الجنوب والشمال » ، وهى وظيفة واضح من مســماها ان شاغلها هو ممثل الملك اينما كان . ثم أعلن بعد ذلك انه هو ـ برعمس ـ « الأمير الوراثى على كل البلاد » ، وهى وظيفة تحدد مجال عمله فى المستقبل ، اى انه المرشح الوحيــد لوراثة العرش بعد حور محب .

الأمير سيتى وابنــه رمسيس فى طفــولته

لا يتطرق الشك الى احـــد فى ان اســـتقامة برعمس ، ومقــدرته واخلاصه ، كانت مؤهلاته للوصول الى ترشيحه لخلافة حور محب .

وقد اقام برعمس لنفسه تمثالين توأما فى طيبة بمعبد آمون ، باذن من الملك تكريما له . وقد سجل ذلك عليهما : « اقيما بتشريف ملكى » . ويبدو ان من بين اسباب ترشيحه للخلافة كونه رجلا له أولاد مما طمــأن حور محب على ان الرجل يمكنه ان يكون رأسا لخط ملكى جديد . وكــان لبرعمس ولد نابه اسمه سيتى ـ تيمنا باسم جده ـ ربما يكون قد ولد فى اوائل اعتــلاء حور محب للعرش ، فنشأ لا يعرف سوى حكومة الحــزم والســلام التى تميزت بها فترة حكم حور محب . كان ســـيتى قد ناهز العشرين من عمره عندما اصبح ابوه وريثا للعرش ، وبذلك أحس ان تحقيق آماله قد اصبح وشيكا . وكان قد سمع من ابيه وجده الكثير عن امجــاد مصر السالفة ، وكيف تبخرت هذه الأمجاد فى عهد اخناتون ، فامتــلأ قلب الفتى بالشوق الى استعادة امجاد مصر الضــــائعة ، ومحـــو فترة حكم اخناتون تماما من ذاكرة التاريخ . وكمثل من سبقوه من العــائلة التحق بالسلك العسكرى وهو على وعى تام بان السلاح هو الوســـيلة الفعالة لاستخلاص ما فى ايدى الحيثيين من مستعمرات مصر فى سوريا ، وكانوا قد استولوا عليها فى فترة كانت مصر فيها قد اصابها الوهن .

تزوج سيتى فى شبابه من فتاة من نفس مستواه الاجتماعى تسمى تويا ، وهى ابنة قائد كبير بسلاح العربات الحربية يسمى رايا . وكانت امها من فضليات النساء واسمها رويا . وبدأ الزوجان الشابان فى تكوين عائلتهما المستقلة . وتوفى أول أولادهما وهو طفل ، ثم انجبا ابنتهما تيا

وبعد فترة أنجبا ولدا ثانيا سمى على اسم جدّه رعمس أو رمسيس ، هو الذى سيصبح فيما بعد رمسيس الثانى بطل هذه المسيرة ٠ وأخيراً أنجبا ابنة سمياها حنت مى رع ٠ لذلك فيما يبدو اطمأن حور محب على استقرار الحكم واستمراره ، فقد أصبح برعمس جدا فى حياة حور محب وأصبحت الأسرة الحاكمة الجديدة أمرا واقعا ٠

الخط الملكى الجديد

رمسيس الأول (٢٢٩٥ ــ ٢٢٩٤ ق٠م٠)

بعد عمر طويل حافل ، مات حور محب معززا مكرما ممجدا ، ودفن فى مقبرته الفخمة ذات الزخارف الفاخرة ، المخبوءة فى وادى الملوك ؛ وكان كما رأينا قد خطط لهذا اليوم باشراك برعمس فى السلطة على أعلى مستوى ، فهو نائب الملك وهو الوريث الملكى ٠ لذلك اعتلى برعمس العرش بهدوء تحت اسم رمسيس الأول ، رجل ذو حيوية ونشاط فى الخمسينيات من عمره ٠

وكان الفرعون الجديد مدركا تماما أن عهده هو بداية لحقبة جديدة فى تاريخ مصر ٠ ولم تكن له أية روابط شخصية بالأسرة المالكة القديمة ــ الأسرة الثامنة عشرة ــ على عكس حور محب ٠ لكن هذه الأسرة اللامعة فى تاريخ مصر كان لها من جلائل الأعمال فى السلم والحرب ما يجعلها مثالا يحتذى ، لذلك نظر الملك الجديد فى ترسم خطاها وهو يضع مشاريعه المستقبلية ٠ وعاد رمسيس الأول بذاكرته الى بداية هذه الأسرة ، فوجد أن مجد مصر قد تحقق على يدى أحمس الأول ــ قاهر الهكسوس ومؤسس الامبراطورية فاتخذه مثله الأعلى وتشبه به واعتبر نفسه هو أحمس الثانى الذى تبدأ به أسرة جديدة هى الأسرة التاسعة عشرة واتخذ لنفسه ألقابا مستوحاه من ألقاب مثله الاعلى ٠ فكما اتخذ أحمس الأول اسما ملكيا هو « نب بحتى رع » و « اله القوة هو رع » سمى رمسيس نفسه «من بحتى رع» « دوام القوة هو رع» ، وسجل اسمه بأسلوب بسيط خال من الطنين متأسيا بأحمس الأول ، وهو أسلوب يتعارض مع ما جرى عليه الفراعنة الآخرون منذ قرنين من الزمان ٠ وحتى فى الألقاب تشبه رمسيس الأول ببطله أحمس الأول ٠ فكما تلقب أحمس الأول فى صورته الحورسية (الملك الصقر) بلقب « ملك الملوك » ، اتخذ رمسيس الأول لنفسه لقبا قريبا منه هو « المترفل فى الملك » ، واضاف اليه اللقب الجليل « الثور القوى » ٠ وبصفته الحامى لربتى الجنوب والشمال ، ربط نفسه بالشكل القديم

لاله الشمس رع واتخذ ايضا لقب « مظهره فى الملك مثل آتوم » • وبصفته « النسر الذهبى » اعلن هدفه وهو « تحقيق العدل فى القطرين » •

وفى طيبة ، خطط الملك ــ وابنه النشط ــ لانشاء اثر كبير يكـــون مظهرا رسميا لتقدير الأسرة الجديدة لآمون واهب النصر • ونظرا فى الأمر ، فوجدا فناء واسعا له بوابة مستقلة بناها حور محب امام بوابة الكرنك الامامية التى هى من انشاءات أمنحتب الثالث • فخطط رمسيس الأول مع ابنه سيتى لتنفيذ مشروع كبير يتلخص فى تحويل هذه الساحة الى بهو اساطين ضخم يكون اكبر بهو من نوعه فى مصر ــ تكريما للاله الامبراطورى آمون ــ واحتوت الخطةعلى اعمال فرعيةهامة لتجميل البهو، منها محو زخارف الواجهة الخلفية للبوابة الجديدة التى بنيت فى عهــد حور محب وزخرفتها بزخارف جديدة • وشرع البناؤون فى بناء الأساطين الضخمة والجدران حول البهو وازالوا الصور البديعة التى كانت موجودة فى عهد حور محب • ثم ملأوا البهو الجديد بالتراب لتسهيل العمل ، بدلا من السقالات كسبا للوقت ، حتى وصل علو التراب الى قرب القمـــة حتى يتمكنوا من بنــاء السقف • وبعد ذلك أخــذ الفنــانون فى زخرفة الجدران والأساطين ، فرسموا وحفروا وصوروا مشـــاهد الملك والآلهة بادئين من اعلى ومتجهين الى اسفل كلما ازيل جزء من التراب الواصل الى السقف • أما باقى التفصيلات فقد استخدموا لتنفيذها السقالات العادية الخشبية • وفى النهاية سجلوا اسم صاحب البوابة الجديد بحفـــر أسماء رمسيس الأول بمنتهى البساطة فوق أسماء حور محب الذى كانت معـــالم مشروعه الأصلى قد زالت بالفعـــل •

وفى هذه الأثناء ابحر الملك وولى عهده راجعين الى منف • ومن منف توجه الأمير سيتى الى معسكرات الجيش بالدلتا حيث شاهد التدريبات ، وقام حسب الرواية : بتعبئة الجيش وتوحيد هدفه •

وكان الأمير سيتى دائما هو ساعد الملك الأيمن فى المجال التنفيذى • ومما قاله سيتى عن نفسه وعن أبيه : « بينما كان هو بعينه بهاء رع ، كنت انا كالنجم بجواره » • ومما قام به سيتى فى المجال التنفيـــذى شن غارة ــ بالجيش الذى اعيد تنظيمه وتدريبه وتوعيته ــ داخل كنعان، وربما توغلت حتى فينيقيا الجنوبية ، وهى غارة كان هدفها جس النبض ورفع علم مصر فى هذه البقاع • وتحدث سيتى عن هذه الغارة : لقــد اخضعت له اراضى الفنخو Fenkhu ، وطردت من اجـله (رمسيس الأول طبعا) الدخلاء من ارض الصحراء ، لكى احمى مصر •• من اجله وحسب رغبته » •

وفي الجبهة المقابلة من الامبراطورية - جبهة النوبة - اتسمت الاجراءات بالسلمية • فخصص رمسيس الأول فى السنة الثانية من حكمه أوقافا جديدة لمعبد بوهن أسفل الشلال الثانى منها : أرغفة خبز - كعك - جعة - خضروات ، من أجل الاله مين آمون وكهنته ، « مع ملء الورش بالعبيد - رجالا ونساء - من الغنائم التى غنمها جلالته » ، ولا نشك فى أن هؤلاء العبيد هم أسرى كنعانيون ممن ساقهم ولى العهد سيتى الى مصر بعد حملته الصيفية هناك •

كان هذا المرسوم هو آخر أعمال رمسيس الأول العامة • بعد ذلك أخذت حالته الصحية فى التدهور ، فأشرك ابنه معه فى الحكم ، ليعتاد الناس عليه ويحظى بالشعبية المطلوبة باعتباره الملك الآتى • كذلك أخذ فى اقامة تمثال له فى معبد منتو مدينة مادو (المدمور الحالية) شمالى طيبة مباشرة ، كتب حول قاعدته الألقاب المقابلة للملك وابنه معا : رمسيس الأول « شبيه رع » وسيتى « نجم الأرض » • وانحل هذا الرباط سريعا ، فسرعان ما مات رمسيس الأول تاركا الملك لابنه الذى حاز لقب « شبيه رع عند الشروق » وغير اسمه الى سيتى الأول • وبسرعة عدل اسم الملك الراحل حول قاعدة تمثال المدمود الى اسم الملك الجديد ، اذ رئى أنه من الضرورى أن يمثل التمثال الملك الجديد أمام اله المعبد •

وخلال فترة السبعين يوما التقليدية اللازمة لتحنيط الفرعون ، كان العمل يجرى على قدم وساق فى وادى الملوك لاعداد المقبرة • وكان رمسيس الأول قد أمر بنحت ردهة مقبرية مستطيلة عميقة فى الصخور هناك أسوة بأسلافه • ولكن وفاته المفاجئة بعد ستة عشر شهرا فقط من توليه العرش لم تكن كافية للفراغ من اعداد المقبرة ، فكان كل ما تم عمله هو انشاء درجين شديدى الانحدار وردهة مؤدية الى غرفة فرعية ، وحتى هذه الأخيرة لم تكن جاهزة ، وباقى التصميم لم يكن قد خرج بعد الى حيز التنفيذ • لذلك عدل المشروع الأصلى بتحويل الغرفة الفرعية الى غرفة دفن ، وفتحت من الغرفة على عجل منافذ الى غرف جانبية خاصة بحفظ المتاع الجنازى للملك الميت • وبسرعة جرى تنعيم الجدران وتبطينها ودهانها ثم زخرفتها بمشاهد للملك والآلهة ، ومقتبسات من الكتب الجنازية نقشت على وجه السرعة اذ لم يسمح ضيق الوقت بعمل النقوش البارزة الرقيقة المنخفضة • وفى أسرع وقت رسمت النقوش المختارة على التابوت الحجرى الخارجى - وهو من الجرانيت الأحمر ولم يكن جاهزا بعد -

باللون الأصفر (لا الحمر) ، ثم وضع فى حجرة الدفن المعدلة استعدادا لاستقبال جثة الملك الراحل .

وأخيرا حان وقت تشييع جنازة الملك الراحل ـ راس الأسرة الجديدة ـ الى مثواه الأخير فى طيبة ، ليرقد على بعد مئات قليلة من الياردات عن مثوى رئيسه السابق وصديقه حور محب . وأصبح سيتى هو الفرعون الجديد ، رجل ذو حيوية متدفقة فى الثلاثينيات من عمره . وفى نفس الوقت ـ حسب الأعراف الجارية ـ صار رمسيس الصغير وريثا للعرش وهو بعد فى الثامنة أو التاسعة من عمره . وكعادة الفراعنة فى ذلك الوقت لم يبرح سيتى الأول طيبة قبل أن يختار موضع مقبرته ، فاختار لها مكانا مناسبا بوادى الملوك على مسافة من مقبرة أبيه . وأمر الملك قبل مغادرته طيبة باستكمال الانشاءات بمعبد الكرنك . ولما وجد أن النقوش البارزة فى بهو الأساطين لم ينفذ منها الا القليل أمر بتنفيذها بأقصى سرعة ، لذلك بدت عليها آثار العجلة والتسرع ، فكانت النقوش الناتجة فقيرة خشنة تفتقر الى السمو والجمال .

سيتى الأول (١٢٩٤ ـ ١٢٧٩ ق٠م٠)

انفرد سيتى الأول بالسلطة ، وما أن أصبح المتصرف الأوحد فى شئون مصر حتى أحس أنه قد آن الأوان لتحقيق هدفه ، وكان هدفا مزدوجا : أن يكون تحتمس الثالث الجديد فى فتوحاته وانتصاراته ، وأن يكون أمنحتب الثالث الآخر فى انشاءاته وعمائره . وبدأ باختيار اسمه الملكى ، فاختار بصفته سيد القطرين اسما ملكيا مقتديا بأبيه هو « من ماعت رع » « الفاعل للصواب هو رع » فجمع فى اسمه شطرا من اسم تحتمس الثالث (من خبر رع) مع شطر من اسم أمنحتب الثالث (نب ماعت رع) ، وأضاف اليه لقبين هما أحب الألقاب الى أمنحتب الثالث لم يستخدمهما أحد بعده حتى زمن سيتى هما : «وريث رع » و «صورة رع» . ولم يكتف بهذا بل أضاف لاسمه الشخصى ـ سيتى ـ صفة مرتبطة بالاله بتاح هى « محبوب بتاح » ، مما يدل على ميله الى منف والهها اكثر من ميله الى آمون ومدينته طيبة* . وكصورة من صور حورس الصقر اكتسب صفة « الثور القوى المتجلى فى طيبة » مقلدا فى ذلك تحتمس الثالث مع اضافة « مغذى القطرين » . ثم المحمى من ربتى الجنوب والشمال ، وتلقب سيتى أيضا بلقب « محقق النهضة ، ذى السلاح القاهر ، هازم الأعداء » . وأما حورس الذهبى فهو « متكرر المظاهر ، قوى الأقواس فى القطرين » . كل هذه الألقاب لم تكن بلا مغزى . فأسلوبه فى اختيار أسمائه الرسمية وألقابه ـ المقتبس من سيرة عظام فراعنة

الأسرة الثامنة عشرة — يجدد ويعلن أن سياسته هى تجديد للحياة فى مصر بكل الوسائل ، بما فيها قوة السلاح ٠

بعد الفراغ من دفن أبيه ، واطمئنانه الى استقرار الأمور ، بادر سيتى الأول بالوفاء بالشطر الأول من هدفه المزدوج : استعادة سوريا بالكامل وضمها للامبراطورية المصرية ، وبذلك يستحيل على الحكام التوابع معاودة اللعب بالنار حسب أهوائهم ٠ ومهما كان الهدف صعبا فقد كانت نية سيتى الأول قد استقرت على تحقيقه ، وسوف تنبئنا الحوادث عن مدى نجاحه فى ذلك ٠ وكان حكام كنعان المحليون فى ذلك الوقت غير عابئين بأوامر الفرعون ، وغارقين الى ذقونهم فى نزاعاتهم الداخلية ، وعلى حد أحد تعبيرات العصر كان « كل منهم يقتل قرينه » ، أما أوامر الفرعون فلم يكن يعبأ بها أحد ٠ ورأى الفرعون ضرورة تلقينهم درسا قاسيا لا ينسى ، على أن يكون مباغتا وسريعا ٠ وهذا ما سجله الملك فى نقوشه الحربية على جدران البهو الكبير بالكرنك بطيبة ، بأسلوب اتسم بالقسوة المذهلة :

« السنة الأولى : نهضة الملك (من — ماعت — رع) (سيتى الأول) ، الفياض بالحياة ٠ أحيط جلالته (علما) بما يلى : الشوسو — البدو الأعداء — يخططون للثورة ٠ وقد اتحد شيوخ قبائلهم ، واتخذوا مواقعهم على تلال خورو (فلسطين)٠ (وهناك) قاموا بالتحريض على الفوضى والشغب ، كل يقتل قرينه ، انهم يتجاهلون أوامر القصر ٠

وقد سر الخبر الملك ٠ والآن قرر الاله الطيب (الفرعون) بدء المعركة ، ويسره أن يخوض غمارها (بنفسه) ، فقلبه يفرح عند مشاهدة الدماء ٠ وسوف يقطع رءوس الخارجين ٠ فالقضاء على العصاة أحب اليه من يوم الفرح ٠ وسوف يذبحهم جلالته بضربة واحدة ، ولن يدع لهم وريثا ، ومن يفلت منهم من بين يديه فسوف يساق الى مصر أسيرا » ٠

لقد اختارت قبائل الشوسو — بغباء — وقتا غير مناسب للتمرد ، أمام ملك كان يتحرق شوقا للدخول معهم فى معركة يشتت بها شملهم ٠

ومن ثم فى العام الأول تحرك سيتى الأول بجيشه فى صيف ١٢٩٤ قبل الميلاد ، من حصن سيلى الحدودى ، واندفع عبر ساحل سيناء نحو كنعان ، قاضيا فى طريقه على أية مقاومة محلية حول الآبار أو فى القرى

الصغيرة ، حتى دخل غزة ، العاصمة الادارية لكنعان المصرية ، بعـد أن الحق الهزيمة بقبائل الشوسو بالقرب منها · ولم يشهد رمسيس مـيزد الحملة على أرجح الفروض ، فلم تكن سنه تسمح بذلك · وكانت عـدة جيوش سيتى الأول فى هذه الغزوة ثلاثة فيالق على الأقل ، سمى كل منها باسم احد آلهة الامبراطورية · بعد ذلك واصل الملك حملته شمالا ليحكم قبضته على كنعان ، وربما يكون قد قصد مجدو حيث انتظر حتى وصلت اليه التقارير المهمة ·وقد سجل الملك فى نقش حفره بعد الحملة :

« فى هذا اليوم أخطر جلالته بالتقرير التالى : العدو الخسيس الذى خرج من مدينة حمص جمع جيشا كثيفا ، واسـتولى على مدينة بيت شان · وتحالف مع أهل باحيل فتمكن من وقف رئيس رحوب عن التدخل » .

معنى هذا التقرير ببساطة أن أحد الزعمـاء المعـادين وأعـوانه استولوا على مركز حراسة مصرى ، وحاصروا مركزا آخر · وكان رد الفرعون على ذلك سريعا :

« لذلك : وجه جلالته فرقة آمـون الأولى ، ذات الأقـواس الجبارة ، الى مدينة حمص ، وفرقة رع الأولى ، الفـائقة البسالة ، نحو المدينة المحتلة بيت شان ، وفرقة ست الأولى ، القوى الأقواس ، لمقاتلة مدينة ينعـوم · وفى مدى يوم واحد، خضعت كلهـا لسلطان جـلالته ! » ·

بهذا تكون مدن سهل اسدرايلون Esdraelon ووادى شمال الأردن قد أخضعوا ، ووجهت ضربة وقائية لينعوم لكف أى تدخل محتمل من جنوب الجليـل · وبهـذه المناسبة اقيم فى بيت شان نصب تذكارى ، منه اقتبسنا العبارات السالفة · بعد هذه المعارك الثلاث الحاسمة ، يظن أن سـيتى الأول واصل تقدمه لاحتلال الجليل وساحل فينيقيا الجنوبى ، وربما يكون قد وصل الى صور قبل عودته الظافرة الى مصر وفى اعتقاده انه حقق السـلام فى كنعان ·

ولدى عودته الظافرة الى حصن سيلى الحدودى عبر الملك الطريق، وعبر الجسر فى موكب النصر ، ليعطى الفرصة لكبار موظفى الاقليم كى يحيوه ويهنئوه بالنصر ، وفى أيديهم باقات الورود · وكانت هذه مجـرد بداية · فقد رؤى الملك فى كنعان مرة أخرى فى السنتين أو الثلاث التالية متوغلا شمالا على ساحل فينيقيا الشمالى والى الداخل · وبذلك أخضع ينعوم فى شمال كنعان تماما وفـرغ من أمرها · ومرة أخـرى سجلت الانتصارات على نصب بيت شان تشرح كيفية قمع الاضطرابات فى الجليل:

« اخطر جلالته بأن الخابيرو فى جبل اليرموك مع (قبيلة) التاياور قد ثاروا وهاجموا الآسيويين فى رحمة (مدينة) . فأمر جلالته بتخصيص فصيلة من المشاة والعربات – من جيشه العرمرم – كى تتوجه الى جاهى . وبعد مناوشات لم تتجاوز يومين عادوا سالمين من منطقة اليرموك ومعهم الغنائم ... والأسرى » .

تحقيق الهـــدف من الحمـــلات

توغل سيتى الأول شمالا داخل سوريا واسترد مقاطعة أوبى الواقعة جنوب سوريا ، وثبت الحكم المصرى فى عاصمتها الادارية كوميــــدى Kumidi ، كما توغل شرق جبال لبنان حتى دمشق الفيحاء . ولدى عودته الظافرة من دمشق الى بيت شان شيد نصبا تذكاريا آخر تخليــدا لانتصاره ، أقامه فى تلك الشــهاب جنــوب غرب عشــتروت – قرنايم القديمة .

وبذلك صار الساحل الفينيقى كله آمنا ، وفيه صور وصيدا وجبيــل وسامراء ، تلك المرافىء البحرية التى كانت فى يوم ما تحت لســيادة المصرية . واصبح بالامكان مرة اخرى تصدير خشب الأرز الثمين الى مصر ، لصنع « مركب آمون العظيمة ، ومن أجل بيارق آمون » – حسب نقوش موجودة بالكرنك . وكما عودنا سيتى الأول ، ستـجل لدى مروره على صور فى طريق عودته نقشا آخر يمجد فيه انتصاره ، ويفخر فيــه باخماد القــلاقل وفرض الجــزية على مرتكبيها .

لقد حقق سيتى الأول فى حملتين أو ثلاث على الاكثر كما هو واضح انتصارات كثيرة . فأعاد سيطرة مصر على مستعمراتها السابقة فى كنعان وأوبى ، ودعم حقــوق مصر فى نصف الســاحل الجنــوبى لفينيقيا ، وباستيلائه على هذا الساحل اقتطع مقاطعة أمورو من أيدى الحيثيين – فيما عدا الجــزء الشــمالى الأقصى ، واصبحت مستعمرات سيتى ملاصــقة للاراضى الخاضعة لنفوذ الحيثيين . واصبح من المحتم ان تصطدم القوتان الكبريان .

وفى حملتيه الثالثة والرابعة التحم سيتى الأول فى معــارك مــع الحيثيين للسيطرة على جنوب فينيقيا ، وكذلك لامتلاك اقليم أمورو . لكن هذا الموقف كان اكثر صعوبة من كل ما سبق . فحتى الآن كان ســيتى الأول يحتذى مثال سلفه العظيم تحتمس الثالث : السيادة على كنعان ، ثم السيطرة على مرافىء الساحل الفينيقى الكبرى ، وانتظار الفرصة المناسبة

للوثوب على قلب وشمال سوريا · لكن الحيثيين كانوا أيام سيتى الأول قد سيطروا على هذه المناطق الشمالية · وكانت الامبراطورية الحيثية فى ذلك الوقت قد أصبحت قوة رهيبة ، أقوى بكثير من مملكة ميتانى المهتزة التى كانت موجودة فى عصر تحتمس الثالث · وحتى قبل شروعه فى حسم هذا الموضوع برزت الى السطح – فى أماكن أخرى – مشاكل احتاجت لتوجيه الجهود اليها ·

الأمير رمسيس ومبدأ عهده بالحروب

عندما بلغ الأمير رمسيس العاشرة من عمره منح باعتباره « أكبر أبناء الملك رمسيس » اللقب الفخرى الضخم « القائد العام للقوات المسلحة » ، وهو منصب بلا سلطات فعلية · ومع ذلك ظل رمسيس يفاخر بهذا اللقب طوال عمره ، وكان على كبار موظفيه فى مستقبل الأيام أن يتذكروا ذلك جيدا · ولم يشترك الأمير فى غزوات أبيه لكنعان وظل آمنا فى الوطن لا يبارحه ، فقد كان أبوه حريصا جدا على سلامته · فلما شب الأمير واشتد عوده بدأت مخاوف أبيه تتبدد ، وبدأ يعده للمستقبل ومنحه اللقب العظيم « ابن الملك الأكبر ، ونائبه على عرش جب » وهو لقب يعنى صراحة أن الأمير قد أصبح الوريث الملكى ·

فى السنة الرابعة أو الخامسة من حكم سيتى الأول أخذت الاضطرابات تشتعل فى المناطق السورية ، وكان من المفروض أن توجه الجهود لقمعها ، ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان · فقد وردت أنباء بحدوث قلاقل فى ليبيا ، فى أقصى الحدود الشمالية للدلتا ·

وفوجىء سيتى الأول بذلك فرأى أنه من الأحكم تأمين الدلتا الواقعة فى صلب مصر قبل التفكير فى أى شىء آخر · وفى هذه الحملة على حدود الوطن سمح للأمير – وكان قد ناهز الرابعة عشرة من عمره تقريبا – أن يرافق الحملة وينال شرف الحرب والنصر · وكانت الحملة موفقة وقصيرة لم يسمح فيها للأمير بالاقتراب كثيرا من الخطوط الأمامية ، لكنها كانت مجرد بداية · وقد دلت نقوش هذه المعركة التى سجلت فى الكرنك على ضآلة دور الأمير فيها ، لدرجة أن صورته لم تظهر فى التصميم الأصلى للمشاهد · ولكن سرعان ما أبرز بتكوينه الضئيل فى أحد المشاهد – يظهر أنه حشر فيه حشرا – ويبدو فيه كما لو كان « يساعد » أباه فى قتل أحد القواد الليبيين ·

والآن وقد اطمأن سيتى الأول من جهة الغرب ، فقد أمكن له أن يعود إلى الجبهة السورية فى السنة التالية (الخامسة أو السادسة)

ليواجه الحيثيين · فى ذلك الوقت كانت مدينة قادش المحورية ، فى وسط سوريا ، قد خرجت عن طاعة الفراعنة منذ قرن تقريبا · فحدد سيتى هدفه وهو « قهر أرض قادش وارض امورو » · وخط سير هذه الحملة ليس معروفا بالضبط ، وان كان من المرجح انه اتبع طريق تحتمس الثالث فنقل جيشه بحرا الى فينيقيا ثم هاجم امورو ليشل حركتها ولو مؤقتا ، ثم انحرف الى الداخل وهاجم قادش نفسها · وخلد سيتى الأول هذا الحدث التاريخى باقامة نصب تذكارى فى قلب قادش نفسها كرسه للآلهة آمون وست ومنتو ·

وللمرة الثانية نجد الأمير رمسيس يرافق اباه ، ويشارك فى احداث هذه الحملة المثيرة بنفسه ـ وهى ايام مجيدة بدا فيهما وكأنما استعادت مصر كل مستعمراتها القديمة · ولكن الامبراطور الحيثى الجديد مواتاليس كان ايضا شابا فتيا ، نشطا قويا ، شديد المراس ، فرفض رفضا باتا التنازل عن اى ارض كانت تحت سلطان ابيه او جده ، واصر على استعادة قادش وامورو واعادتهما للحظيرة الحيثية · وجرت بين الجانبين مفاوضات انتهت الى الأخذ بسياسة الأمر الواقع ، ووقعت بين الطرفين معاهدة فحواها : ان تعترف امبراطورية خيتا بحقوق مصر المشروعة وسيادتها على مرافىء جنوب فينيقيا ، وفى المقابل تكف مصر عن التحرش بقادش وامورو والمطالبة بهما · ورغم ان توقيع معاهدة بهذا الصدد امر لابد منه ، الا انه لم يشر الى ذلك فى مصر بصورة مباشرة ·

وبانتهاء السنة السادسة من حكم سيتى الأول يكون حساب مكاسبه قد اربى كثيرا على حساب خسائره · فقد رفع اسم مصر فى الخارج ، واسترد لمصر بعض ممتلكاتها ، وكان يمكنه ـ اذا رغب ـ مواصلة انتصاراته · لكنه راى ان ما حققه من انتصارات قد ادى الغرض · هذا بالاضافة الى ان مجابهة جوش الحيثيين الكثيفة ليس لهما اى داع ·

اما الفتى رمسيس الثانى فيبدو انه لم يستسغ ما فعله ابوه ، واصابته غصة من تخلى مصر عن حقوقها فى قادش وامورو ، اذ شارك بنفسه فى غزوهما ، واستمتع مع ابيه باستعادة جزء مما فرط فيه اخناتون من امبراطورية تحتمس الثالث الشاسعة · ولعله اسرها فى نفسه ، وفكر انه فيما لو كان مكان ابيه لفعل خيرا من ذلك · وسوف يظهر فيما بعد مدى تاثير هذا الموقف على تصرفاته بعد توليه حكم مصر ·

اعمـــال الســـلم

كل غـــزوات سيتي الأول وحملاته كانت ذات طبيعة موسمية ، وكلها صيفية ٠ ولم تكن اية حملة تستغرق وقتا يزيد على ثلاثة اشهر ، وبعضها لم يتجاوز اسابيع قليلة ٠ واما باقي ايام الســـنة فكان الملك يقضـــيها في مصر لتصريف شئونها الداخلية والاحتفال باعياد الآلهة الكبار واهمها عيد آمون الكبير في طيبة أيام الشتاء الدافيء هناك ، حيث يمضي جانبـــا من وقته في جو مشمس دافيء بعيدا عن برد الدلتا ٠ وفيما عدا ذلك كان يمضي قدما في تحقيق الشق الثاني من مخططه ، الانشـــاءات المعمارية العظيمة ، التي تضاهي مباني سلفه العظيم امنحتب الثـــالث ٠ ووجـــه اهتمامه نحو البهو المعمـــد الكبير بالكرنك ، فشرع في زخـــرفة نصفه الشمالي ٠ واشتملت زخارفه الداخلية على مشاهد بالنقش البارز المنخفض الجميل موضوعها الطقوس المعبدية ومراكب احتفالات الاله آمون العظيمة٠ اما من الخارج فقد زخرفت جدران هذا الجـــزء من البهو بست مجاميع من المشاهد بالنقش البارز موضوعها معارك الملك ، وهي اشبه بالبانوراما او الفيلم السينمائي ، وكلها مستوحاة من معارك الملك في كنعان وســـوريا وليبيا ، اساسها نقوش بارزة فارهة لانتصارات سيتي الأول وهو واقف امام آمون ٠ في هذه الأثناء كانت اعمـــال البناء جارية في معبده الجنازي على البر الغربي ، وزخارفه تنقش بنفس الأسلوب الرشيق ٠ اما عمـــال دير المدينة فكانوا يجتهدون في نحت حجرة دفنه في وادي الملوك على عمق كبير في قلب الجبل الصحراوي ٠ اما في مدينة ابيدوس المقـــدسة فكان العمل يجري على قدم وساق في بنـــاء هيكل لعبـــادة اوزيريس وآلهة الامبراطورية بالحجر الجيري الأبيض النقي الأفخم من نوعه في هـــذا المعبد الرحب الجميل، المزخرف بنقوش بارزة نفذها كبار فناني العصر على اكمل وجه ، ولونوها بألوان زاهية تبرز كثيرا من العمائر السابقة ، وكان لنقاء حجر البناء الجيري الأبيض اكبر الفضل في هذا التشطيب المتقن ٠

وفي القطر الشمالي بدات الأعمال الانشائية الجديدة بمعابد رع ، اله الشمس في هليوبوليس ٠ واخيرا نظر الى موطنه الأصلي شرق الدلتا فابتني فيه لنفسه قصرا صيفيا رائعا طليت غرفه بالجص الأبيض المشـــرق تتلألأ اسافلها وابوابها بكسوة من القراميد المزججة المعـــروقة باللونين الأزرق والأبيض ٠ وبذلك وفي سيتي الأول في السلم بما عاهد نفسه عليه، فحقق ذلك الرجل الذي لم يكن يعترف بانصاف الحلول هدفه ذا الشقين : نجاح في الحرب ، نجاح في السلم ٠ وبذلك حقق من جـــلائل الأعمـــال

ما يجعله فى مصاف أعظم الفراعنة ـ كبطل حربى ، وكنصير للآلهة كى يباركوه ، وكى تقدره مصر وشعبها ٠

ولم ينس الملك ـ فى خضم هذه الأحداث ـ رجاله المخلصين ٠ كذلك وهو الفرعون الذى أتى من وسط الشعب ، فانه لم ينس أصله وظل وفيا لشعبه ٠ ففى السنة السادسة من حكمه كان العمل يجـــرى بلا كلل فى المحاجر لتوفير متطلبات المنشآت الملكية ، وكان سيتى الأول وراءهـم يشد أزرهم ويسخو على معاونيه ومن معهم من عمال ٠ وقد خلد ذكرهم فى حفر فى محجر السلسلة فى هذه السنة يقول :

« كان جلالته فى المدينة الجنوبية (طيبة) يفعل ما يسر أباه آمون ـ رع ، ويوزع المغانم بعناية على الآلهة المصرية ٠ لذلك أرسل جلالته صباح اليوم التالى رسولا على رأس حملة من ألف رجل من الجيش على مراكب ببحـــارتها ، لنقل الآثار المصنوعة من الحجر الرملى لأبيـه آمون ـ رع ولأوزيريس ومجمـع الآلهـة ٠

والآن زاد جلالته فى حصص القوة العسكرية ، من الدهن ، ولحم البقر ، والسمك ، والخضروات الكثيرة بلا حساب ٠ فأصبح نصيب كل منهم أربعة أرطال من الخبز ، وكل يوم حزمة من الخضروات ونصيبا من اللحم المشـوى ، وغرارتين من الحبوب كل شهر ٠

وقد عملوا لجلالته (بكل اخلاص) وقلوبهم مليئـة بحبـه ـ وكانت أفكاره تعجب من رافق رسول الملك ٠ فكل منهم كان لديه : أحسن الخبز ، واللحم البقرى ، والنبيذ ، والزيوت ، ونبيذ الرمان ، وعسل النحل ، والجميز ، والعنب ، والسمك ، والخضروات ، متوفرة كل يوم ٠ وكذلك كانت باقة من الورد الكبيرة تهدى من جلالته الى معبد سوبك اله السلسلة كل يوم (تحية له) ٠ كذلك كانت تخـرج ست غرارات من الحبوب من مخازن الغلال لتوزع على النوتية الذين يحملون جنـــد جلالته (على المراكب) » ٠

هذا الكرم والاغداق على عمال المحاجر والقوة المخصصة للنقـل ، كان له أثره فى قيامهم بالعمل بهمة لا تعرف الكـــلل ٠ وكانت المعـابد العظيمة فى طيبة ترتفع فى البنيان بدون تراخ أولا بأول كلما غمرتها سيول المراكب بالحجارة الصلبة التى ترميها فى مواقع البنـاء ٠


http://kotob.has.it

الفصل الثالث

الأمير رمسيس

نائبا للملك

تتويج رمسيس : الملك الطفل

حوالى السنة السابعة من حكم سيتى الأول ، كان الأمير رمسيس قد أصبح فى سن المراهقة ـ فتى فى حوالى السادسة عشرة من العمر . وفى هذه السن كانت التقاليد تقضى بأن يبدأ فى التدريب على مهام الملك : يشترك فى الحروب الخارجية ، ويقوم بمهام تفتيشية ، حيث يصعد فى النيل ثم يرجع ليطلع على سير الأعمال الادارية والانشائية .. الخ . والمرجح ان طبيعة هذه المهام كانت تدريبية تثقيفية فى مرافقة أبيه غالبا .

وادرك سيتى الأول ضرورة أخذ رمسيس بالحزم والجدية ليصبح صالحا لتولى الحكم بعده . فالأسرة الملكية أسرة جديدة ولابد من عدم ترك الأمور تسير على هواها ، ولابد من ازالة اية بادرة من شك فى استمرار الأسرة . وفى يوم ما كان الملك موجودا وفى حضرته كبار رجال الدولة امام جمهور كبير ، فنادى بابنه نائبا للملك ، واضفى عليه كل مظاهر الملكية . وكانت هذه المظاهر فى الواقع شرفية اكثر منها فعلية لكن لها مغزاها الذى لابد قد فهمه الحضور . وما دام الأمير لم يصبح ملكا مشاركا بعد فقد كان هذا هو اقصى ما يمكنه الوصول اليه من سلطة . وفى خطاب له القاه بعد سنوات من انفراده بالحكم اشار رمسيس الى هذا الاجراء الغامض :

« عندما ظهر ابى للجمهور ، وكنت حينئذ فتى يافعا تحت رعايته ، تحدث عنى :

« اجعلوه يبدو ملكا حتى اشاهد جماله وانا ما زلت حيا ! » لذلك امر من حضر من امناء الديوان الملكى ، ليضعوا التيجان

على جبهتى · « ضعوا التاج الكبير على رأسه ! » · هكذا تحدث عنى وهو ما زال بعد على الأرض (أى حيا) « سوف يدير هذه الدولة ، وسوف يصرف شئونها ، وسوف يقود شعبها » · هكذا تكلم لأنه كان يحبنى من صميم قلبه · وجهزنى بأسرة من الحريم الملكى يلقبن « بجمال القصر »· واختار لى زوجات ·· وأحضر لى محظيات لتنضم الى الحريم » ·

وهكذا عين رمسيس ملكا اسميا ، وخصص له طاقم كامل من الحريم لتكوين اسرته الجديدة ، حسب المفهوم الشرقى السائد فى عصره · وكما فعل أبوه من قبل تلقب بألقاب مختارة · فكما كان أبوه « من ماعت رع » و « سيتى محبوب بتاح » سمى رمسيس نفسه « أوسر ماعت رع » وتعنى « القوى فى الحق هو رع » ، كما سمى نفسه « رمسيس (الثانى) محبوب آمون » · ولاقى اعلان رمسيس ملكا ثم تتويجه استحسانا عاما فى البلاط وبين الجمهور · كذلك فان اسرة رمسيس الجديدة من زوجات ومحظيات تبشر بنسل كبير وتضمن استمرار الخط الملكى الجديد ·

احوال البلاط الملكى فى عهد سيتى الأول وابنه

بدءا من النصف الثانى من حكم سيتى الأول ــ حيث كان رمسيس فى ذلك الوقت نائبا للملك ــ بدأ ظهور شخصيات جديدة فى البلاط الملكى · كانت الملكة وقتئذ هى رفيقته العتيدة نوتيا سيدة وقور فى الأربعينيات من عمرها ، لا تبدى اهتماما عميقا بالأمور السياسية ، وتكن محبة عظيمة لابنها رمسيس · وكانت أخت رمسيس الكبرى شيا قد تزوجت ــ من أيام رمسيس الأول ــ من شاب يدعى تيا بن آمون واح سو · واستفاد النسيبان من وضع الأسرة المالكة وارتباطهما بها فحصل تيا على وظيفة رئاسية هى وظيفة « كاتب ملكى » فى السلك الادارى · وعين أبوه آمون واح سو فى وظيفة « كاتب مائدة » ملك القطرين التى تجعله من المسئولين عن تموين القصر · وقد شاخ فى الوظيفة ، وكرمه الملك علنا امام جمع :

« قال الملك لمرافقيه : احملوا ذهبا كثيرا للرجل الأثير عندى ــ المشرف على حريم القصر ــ حورى مين ! فقد عاش عمرا طويلا ، وبلغ سنا كبيرة (وعاش حياة) سعيدة ، وكان فوق الشبهات ، ولم يبدر منه أى خطأ فى القصر الملكى ، أرجو له ان يبقى ذا لسان ناطق ، وان يمشى سليما فى شيخوخته ، حتى نهاية عمره حيث يرقد فى قبره بسلام » ·

ورد حورى وهو يرفل فى قلادات الشرف الذهبية ، شاكرا ممتنا :

« سيدى الحاكم الآمر ، المحبوب مثل آمون ! سوف تبقى هنا .. الى الأبد كأبيك رع ، ويطول عمرك مثله ، سيدى الحاكم الآمر الذى حقق للناس الرخاء . والذى أسرنى بكرمه » .

لكن بلاط سيتى كان به من الرجال من هو أعظم شأنا ، وأشد تأثيرا فى ادارة البلاد ، منهم الوزير نب آمون ، ونائب الملك فى النوبة آمون ام أوبى المشهور باخلاصه ، وكان مسئولا أمام الملك عن مناجم الذهب من تلك المستعمرة الشاسعة . وكان البلاط يضم معهما نخبة من الرجال اللامعين .

وكانت هناك فرصة ـ فى مثل هذا البلاط المزدهر ـ لظهور بعض الشباب ، ربما لمجرد شغلهم وظائف رنانة وان كانت شبه شرفية ـ مثل رمسيس نفسه . من هؤلاء نخبة من الشبان كانت وثيقة الصلة بتتويج الأمير نائب الملك . منهم على سبيل المثال باسر وهو ابن كبير كهنة آمون نب نترو ، وأمه مريت رع ، وقد التحق باسر بخدمة القصر كوصيف أو كأحد المرافقين الشخصيين للفرعون .

ونظرا لسلوكه الحازم الملتزم رقى وهو بعد فى العشرين من عمره الى منصب كبير أمناء البلاط ، مما أكسبه لقبين شرفيين هما : « كبير كهنة ربة السحر العظيم » و « كبير أمناء سر الربتين » ويعنى ذلك انه كان حافظ تيجان الملك جميعا : تاج القطرين ، وغيره من تيجان كل من القطرين على حدة . لذلك يرجح أنه هو الذى وضع التاج بنفسه على رأس الفتى رمسيس الثانى عند تتويجه .

وكان الشاب آمون ام اينت فى مثل سن الأمير ، ورفيق صباه . فلما أصبح رمسيس نائبا للملك ووريثا للعرش ، أصبح الفتى بالتبعية رفيقه وتابعه ، ففتح له الطريق لمستقبل زاهر ، وهى ما تحقق فعلا . وكان لآمون ام اينت أقارب ذوو نفوذ منهم عمه كبير كهنة الاله مين والالهة ايزيس بقفط (شمال طيبة) وقائد فيالق النوبة ـ أى الساعد الأيمن لنائب الملك فى النوبة . ومنهم الفتى باكن خنسو مدرب الخيول الملكية ، الذى التحق بعد ذلك بالسلك الكهنوتى المستديم فى خدمة آمون بطيبة ، وسوف يرد اسمه كثيرا فى هذه السيرة .

وكان عشاحب سد من المقربين الى كل من سيتى ورمسيس . وهو من معاصرى باسر ، وصل الى رتبة قائد فيالق وهو ما زال فى شبابه .

وكان نشطا جدا فى عمله لدرجة أنه حصل على اللقب المرموق المحسود ، رسول الملك الى كل البلاد الأجنبية ، بسرعة شديدة · ويبدو أنه كان موضع تقدير رؤسائه لحسن أدائه فى الداخل والخارج ، فأضافوا اليه وظيفة « ساقى الملك » ، وهى هنا تعنى أنه كان أحد كبار مرافقى الملك والأمير ، وليس مجرد ساق يسقيهم الشراب · وقد اضطرته أعباؤه الوظيفية للسفر الى سيناء فى السنة الثامنة من حكم سيتى الأول وما بعدها للتفتيش على مناجم الفيروز · وفى معبد الربة حتحور (سيدة الفيروز) القديم ترك بطاقة زيارته فى صورة نقش يقول :

« المجد لك ، أيها الملك ، صاحب الفيالق والعربات الكثيرة ، من ماعت رع ـ سيتى الأول · والمجد لابنه أوسر ماعت رع ·· المحبوب من حتحور ، رمسيس الثانى ! » ·

وبهذا الأسلوب اللبق يكون عشاحب سد قد أعلن عن ولائه للملك والأمير نائب الملك فى عبارة واحدة ·

واتخذ عشاحب سد اسما « يدلل به على ولائه » هو « غنى الأعياد » ·

وكم من مرة اشتاق الملك الى شىء غير موجود بمصر ! فقد دخل الى مصر فى ذلك العهد كثير من الغرباء ـ كنعانيين وسوريين ـ وأصبحوا جزءا من بنية ذلك المجتمع المصرى الامبريالى المتعدد الجنسيات ، وأصبح من الأمور الشائعة بينهم استخدام أسماء يتوددون بها الى العرش · وممن احتفظوا باسمهم الأصلى ولم يغيروه رجل يسمى أورحى ، وكان أحد قواد سيتى الأول · هذا الاسم فى اللغة الحورية ـ لغة شمال سوريا ـ ما هو الا اختصار لاسم أورحى تيشوب الذى يعنى « اله العواصف صادق » · وابن أورحى الأكبر كان اسمه يوبا وهو اسم كنعانى أصيل ؛ الا أن ولاءه لمصر ـ وطنه الثانى ـ كان أشد من ولائه لوطنه الأم الذى كانت أموره غير مستقرة ؛ وله آثار تدل على الذوق والأسلوب المصرى الصرف ·

الثورة فى الجنوب الأقصى

فى شتاء السنة الثامنة من حكم سيتى الأول (١٢٨٧ ق·م·) سرت شائعات بقيام ثورة عارمة بعيدا فى كوش ـ فى أعالى النيل · وعلم بها الملك فى مشتاه الرسمى ، طيبة ؛ وعرف أن المنطقة الثائرة تقع فى

بلاد ارم ـ بعد الشلال الثالث ، غرب النيل · والمنطقة معروفة بخصبها ، فهى خير بقاع النوبة فى الرى والزراعة ؛ وحـــدود الاقليم حاليـا هى المنطقة بين الكرما ودنقلة · وكان الجـزء الذى يلى التلال الصحراوية هناك ارضا صحراوية جرداء تروى بالمياه الجوفية ـ المستديمة والمؤقتة · ورددت الشائعات ان اهل هذه البقعة من اهل ارم يخططون لمهاجمة الوادى الخصب وازعاج الأهالى هناك ليستولوا على الماشية والمحاصيل · هـذا ملخص ما علمه مساعدو نائب الملك بهذه المنطقة ، وما نمى الى مســامع الملك · وتسرد النقوش التى سجلت فى العواصم الجنوبية هذه القصـــة على النحو التــالى :

« السنة الثامنة ـ فصل الشتاء ··· من حكم ملك القطـرين من ماعت رع ، حــاكم طيبة ، ابن رع ، ســيتى الأول ، محبوب بتاح :

الآن كان جلالته فى مدينة طيبة ، يقوم بما يسر اباه آمــون ـ رع · واخطر جلالته بما يلى :

« الأعداء بأرض ارم يخططون للثورة »

فاهتم جلالته بالموضوع وكرس وقته لمعرفة خططهم بالتفصيل· بعد ذلك خاطب جلالته كبار الضــباط ، ورجـــال البـــلاط والحاشية : « ما هى ارم التافهة هذه التى تتجرأ وتعـــكر صفو الهدوء فى مدة حكم جلالتنا ؟ سوف يقوم والدى آمون ـ رع باخضاعهم لى بحد السيف · انا قادر على اخضاع اى قطر ، بما فيه هذه الأراضى لسلطان جلالتنا ! » ·

وعلى ذلك وضع جلالته خطة الحرب ، وصمم على ذبحهم اينما كانوا ، وضرب قواعدهم · ثم بعث جلالته حملة عســكرية كثيفة من المشاة والعربات · ووصل جيش جلالته الى قلعة « حافظة سلام القطرين » ، وذلك فى شهر الشتاء الثالث ، اليوم الثالث عشر (اواخر يناير ١٢٨٧ ق·م·) ·

وتوجهوا رأسا الى الصحراء لمحــاربة المعتـدين ، فواجهتهم ذراع الفرعون القوية (اى جيشـــه) كانهـــا عاصفة من النيران · وعادت بعد سبعة ايام ، وقد اخضعت ذراع الفرعون القــوية الأعــداء ؛ ولم يفقـد احـد ـ لا رجـال ولا نساء · وغنمت ستة آبار فى نصر واحد ـ اسماؤها هى : تى باو ، وتابنوتا ، وتايروزو ، وبئر (مجهول الاسم) ، ركوروكاسا ،

ونوسارسو · وسيق سكانها تتقدمهم ماشـــيتهم الى شط النهر الغربى أسرى [غنيمة لذراع الفرعون القوية] » · -

واحتوت قائمة الغنائم الرئيسية على اسماء ما يزيد على سبعمائة أســـير ·

ففى غارة سريعة استغرقت أسبوعا واحدا على الآبار (الأرجح أنها واحات صغيرة) التى تلى النيل ، كان انفصال ارم عن السيادة المصرية قد أخمد فى مهده ، وقضى على اية محاولة للانفصال فى وادى النهر ·

هذه المعركة الحربية الصغيرة كانت آخر أعمال سيتى الأول فى ميادين القتال · وقد فرغ منها بسرعة ، وقادها أحد قواد الفصائل · ورغم ذلك خلد نائب الملك بكـوش ؛ أمنمـــوبى ذكراها ، فأقــام لذلك نصــبين تذكاريين : أحدهما فى شاعت بجزيرة ساى – حيث يقيم ؛ والآخـــر فى مدينة جديدة كان قد شرع فى بنائها لنقل العاصمة الادارية اليها – فى جزيرة قريبة شمال جزيرة ساى (حاليا العمارة غرب على بر النيـــل الغـــربى) ·

وفى طيبة يبدو أن هذه الحملة الصغيرة كانت كافية لارضاء غـرور الملك ، لدرجة انه اتى الى مشاهد النصر العظيمة فى الكرنك والتى حفرت فى ذكرى معارك كنعان الكبرى وأبدل أسماء بعض الكنعانيين ليضع مكانها أسماء نوبية ، متجاهلا تماما لأسماء الآبار ، او الواحات الصغيرة التى أخضعت فى الحمـــلة ·

الصـــحارى والمحـــاجر

عقب أحداث ارم مباشرة اتجهت عناية الملك سيتى الأول وابنـــه الأمير رمسيس الى مشاريع ذات طبيعة سلمية · والتفت الى الصـــحراء الجرداء الشديدة الحرارة ، التى لا تبشر بخير ؛ هذه الصحراء التى تقـع بين البحر الأحمر والنيل · ولكن فى جوفها الذهب الـذى كان يمـــلأ نفوس الفراعنة اغراء · فاذا صعدنا فى نهـر النيل الى بعد ٧٠ ميلا بعد طيبة ، ووصلنا الى ادفو ، نجد مقابلها مباشرة جـزءا مما كان يســمى « ارض الذهب » التى تمتد بعيدا فى عمق النوبة · فصـــمم سيتى الذى لا يعرف الكلل فى السنة التاسعة من حكمه على أن يشرف بنفســـه على انتاج الذهب فى صـــحراء ادفو · فقام فى تلك السنة (يونيه ١٢٨٦ ق·م·) · فى أوج الحر باختراق حوالى ٤٠ ميلا فى أعماق الصحراء ،

وفى جو قاتل لتفقد أحوال المناجم بنفسه ؛ فأصابه الغبار والعطش فوضع الترتيبات اللازمة لحفر بئر وتشييد معبد صغير بملحقاته يفيـان بحاجة عمال مناجم الذهب ٠ وفى نفس هذا المعبد الذى بنى فى منطقة الكنايس أمر الملك بحفر نقش تسجيلى يشرح الاستكشافات الملكية للبحث عن المـاء من أجل المنقبين عن مناجم الذهب :

« السنة التاسعة ، الشهر الثالث من الصيف ، يوم ٢٦ [أوائل يونيه ١٢٨٦ ق٠م٠] ٠٠ فى هذا اليوم عبر جلالته الصحراء الى الجبال مباشرة ٠ وكان فى قصده معاينة المناجم التى يستخرج منها الذهب ٠ وبعد أن استمر جـلالته لعدة أميال ، توقف للاستراحة فى الطريق للتدبر ٠ ثم قال « يا لصـعوبة هذا الطريق الخالى من المـاء ! ماذا يفعل المسافرون ليطفئوا عطشهم ؟ ومن الذى سيروى عطشهم ؟ الأرض التى بهـا الماء بعيدة والصحراء شاسعة ، الويل لمن يعطش فى هـذه البادية ! كيف أرعاهم لأوفر لهم فرصة الحياة ؟ بعد أن وازن جلالته هذه الأمور فى ذهنه ، استكشف الصحراء ، بحثـا عن موقع صالح لحفر بئر ؛ وكان الاله مرشـده حتى يحقق رغبات الذين يحبهم ٠ وكلف بنائى الحجـارة بحفر بئر بين الجبال يغيث الملهوفين ويبرد قلوب من أنهكتهم شدة الحر ٠ وقد بنى ذلك المكان باسم من ماعت رع (سيتى الأول) العظيم، وضخ الماء بغزارة ، كأنه فيضـــان النيل عند اسوان ٠٠ ثم أعطى الملك أوامره لمدير الورش الملكية ٠٠ وعلى اثر ذلك نحت فى هـذا الجبـل معبد لهذه الآلهة : آمون ، ورع ، وبتـاح ، واوزيريس ٠٠ وبعد أن تم بناء هذا الأثر ، عاد جلالته لتمجيد آبائه ، كل الآلهة » ٠

وحيث ان هدف سيتى النهائى كان الذهب ـ من أجل معبـده فى أبيدوس ، أعظم منشآت العصر ـ فقد سجل الملك فى نقش آخر تحذيرا منه للأجيال التالية كى لا يتدخلوا ، وأن يبتعدوا عن عمال التعدين وعن انتاج المنجم من الذهب ، لأن هذا الذهب يخص معبده العظيم ٠ وهو فى النقش يبارك من يحترم رغبته ، ويصيب لعنته على من تسول له نفسه الاستيلاء عليـــه :

« كل الملوك الذين سيدعمون ما رتبته ٠٠ سوف تباركهم الآلهة آمون ، ورع حور آختى ، وبتاح تاتنن، واوزيريس، وسيحكمون البلاد وهم سـعداء ٠٠

أما هؤلاء الملوك الذين سيتجاهلون مخططاتى فى المستقبل ، فان الآلهة ستمقت عملهم ، وسيحاكمون فى هليوبوليس ؛ وستلقى محكمة الآلهة فى آتون مشتعل فى احمرار الجمر بمن لا يعبأ بى · ومن ينقض مخططاتى ستحطمه الآلهة ، ثم تمزقه اربا اربا على المقصلة فى العالم السفلى ·
وأى موظف يشجع سيده على نقل العمال للخدمة فى مجالات اخرى ، سيلقى فى الجحيم ، وتأكل النار جسده وتلتهم أطرافه ! ··

وكل من يصم أذنيه عن فحوى هذا المرسوم ، سيتعقبه أوزيريس ، وتطارد ايزيس زوجته ، ويتربص حورس بأولاده ، وكل آلهة الجبانة العظماء ستنفذ فيه الحكم » ·

هنا نشهد « لعنة الفراعنة » من هذا الزمن السحيق تنصب على كل من تسول له نفسه نقض خطط الفرعون الاقتصادية فى المستقبل · فما تصيب من اتوا على مر السنين والأحقاب للسياحة وابداء تقديرهم للآثار الفرعونية !

الآن نعود لنتكلم عن الابن ·

فى اثناء تجول أبيه فى الصحراء كان الأمير رمسيس يجد فى العمل فى جنوب مصر · وشوهدا فى السنة التاسعة (الملك وابنه) يمشطان محاجر أسوان بحثا عن الجرانيت الجيد لصنع التماثيل العملاقة والآثار الكتلية ·

وذكرت نتائج استكشافهما فى نقشين صخريين ، احدهما موجز :
« السنة التاسعة ·· أمر جلالته بصنع تماثيل ضخمة من الجرانيت الأسود · وقد اكتشف جلالته محجرا جيدا لقطع الحجارة الجرانيتية السوداء لتشكيل التماثيل ، التى سوف تكون تيجانها من الكوارتز الأحمر المقطوع من الجبل الأحمر · وهى لا مثيل لها منذ زمن رع · وسمى المحجر الذى اكتشفه جلالته باسم « محجر من ماعت رع ملك القطرين » ·

اما النص المسهب فاثبت ان الأمير رمسيس ـ اثناء رحلة أبيه من اجل الذهب ـ كان هو المشرف العام على هذه الأعمال الكبرى بأسوان · ولا نشك فى أن الأمير كانت معه بطانة من ذوى الخبرة فى هذا المجال :

« السنة التاسعة .. كلف جلالته عدداً كبيراً من الورشين باقامة مسلات ضخمة جدا ، وتماثيل عملاقة رائعة باسم جلالته . فبنى مراكب كبيرة لنقلها من المحجر مع الموظفين وعمال النقل للاسراع فى العمل .

وكان ابنه الأكبر رمسيس يقودهم ويؤدى لجلالته خدمة عظيمة » .

الأمير رمسيس البناء

كانت السنوات الست التالية سنوات سلام ، ولكنها لم تكن سنوات تراخ ووداعة . واصبح سيتى الأول فى الأربعينيات من عمره ، وقلت لياقته البدنية ، وكان لرحلته الصحراوية الصيفية اثر فى ذلك . واخذ الاهتمام بالتنظيم الادارى يهيمن على فكره ، ويستحوذ على جل وقته . وكان يمضى وقته بين قصره الصيفى فى منف حيث الهواء العليل فى الصيف ، ثم ينتقل الى قصره الشتوى فى طيبة حيث يجد الدفء ويحتفل بعيد اوبت الكبير ـ عيد الاله آمون فى اشهر الشتاء .

وكان الملك فى مدة حكمه قد وفق فى جمع نخبة من الرجال الأفذاذ المخلصين حوله عاونوه فى ادارة قطاعات الدولة المختلفة . وفى هذا الوقت تقريبا ـ اى حوالى السنة العاشرة ـ خلت كبرى الوظائف الادارية ـ وزير الجنوب (طيبة) . فى ذلك الوقت لم يكن باسر قد جاوز الثلاثين؛ فكان اختياره لهذا المنصب على صغر سنة ووظيفته كحافظ لتيجان الملك امرا مستبعدا ، لكن ليس فى نظر سيتى . وكانت لدى الملك فراسة عجيبة فى الرجال وتثبت الأيام عادة حسن اختياره ، فاختاره لهذا المنصب .

وكم كان باسر فخورا بهذا الصعود الصاروخى الى الدرجات العليا؛ لكن ذلك لم يطح براسه ، فقد كان متفهما تماما لمسئولياته فى « خدمة الآلهة » . وقد حفر نقشا فى هيكل مقبرته (رقم ١٠٦) بغرب طيبة يوضح ذلك :

« امر مولاى بترقية خادمه المطيع الى وظيفة الوصيف الأول بالقصر ، ثم رفعنى الى وظيفة كبير الياوران .. ثم رفعنى الى كرسى الوزارة ـ المسئول عن تحصيل عوائد البلاد الأجنبية ، الجنوبية والشمالية ، لصالح مولانا الملك الظافر . ولما عهده فى من كفاءة رفع رتبتى وجعلنى مسئولا

عن تحصيل الضرائب فى القطرين ـ من كل المحافظات المصرية فى الجنوب والشـمال » ٠

اما والد باسر الكهل فاسندت اليه وظيفة كبير كهنة آمون بطيبة ، تكريما له وتشريفا ؛ وظل يشغل هـذه الوظيفة المرموقة معظم ايام ذلك العهـد ٠

فى هذه الأثناء كانت مشاريع البناء العظيمة جارية على قدم وساق ٠ ففى ابيدوس كانت بنية المعبد الكبير فى طـريقها الى الانتهاء : فناءان مفتوحان اماميان ، وقاعتان عريضتان ، وسبعة محاريب للآلهة الرسـمية وأوزيريس وعائلته ، وللملك ايضا ؛ ثم الطاقم الأوزيرى الصرف ، وبعـد ذلك غرف متعددة للخدمات على أحد الجوانب ٠ وكان نحت النقوش البارزة الرقيقة على الجدران يجرى بدقة ـ وذلك شئ طبيعى ـ فى خط سـير يبدأ من قدس الأقداس متجها الى المؤخرة ٠ وتحت الأرض بنى سـيتى صرحا تذكاريا له وللاله أوزيريس ٠

وكان دور الأمير رمسيس فى هذا كله هو دور المراقب لحسـن سير هذه الأعمال الانشائية ٠ فيقول ان تكليفه بذلك كان منذ بداية تقلده منصب نائب الملك : « منذ بداية تعيينى ، وأنا مشغول هناك فى ابيدوس ؛ فانا الذى شكلت ابى من الذهب مؤخرا » ، اى انه اشرف على صب تمثال ذهبى جديد لسيتى الأول لمقصورة المعبد ٠ وأخيرا رخص له أبوه ببناء معبد لنفسـه فى أبيدوس هو الآخر ، اصغر حجما بالطبع من صرح ابيه الهائل ـ حفظا لفـارق المستوى بين الوظيفتين ، الملك والشريك الأصغر ٠ لكن معبـد رمسيس على صغره لم يقل روعة وجمالا عن معبد سيتى الكبير ٠ وقـد بنى بالحجر الجيرى ، بأيدى نفس مجموعة العمال على خير مستوى من الرقة والسمو ٠ ولكن نقوشه لم تسم الى مستوى نقوش معبد سـيتى التى نقشت بالحفر البارز المنخفض الأصيل ، فى حين كان الأمير رمسيس ضيق الصدر فسمح بتنفيذ نقوش معبده بأسلوب النقش العميق ، وهـو أسلوب اقل سموا وأصالة ٠

وفى طيبة تم الانتهاء من بناء بهو الأساطين الكبير بمعبد آمـون بالكرنك ، وقد قاربت نقوش نصفه الشمالى من الانتهاء ، الا الجـزء الجنوبى للبهو المخصص لنقش اسماء سيتى ورمسيس فان قدرا كبيـرا من زخارفه لم يفرغ منه بعـد ٠ هذا البهو مكتظ بالأساطين على مسـاحة ضخمة بطول ١٧٠ قدما فى عرض ٣٤٠ قدما (١٥٠ م × ٣٠٠ م تقريبا) ٠ وصحن البهـو قـوامه اثنا عشر اسـطونا ضـخما ، محمـل عليها السقف

المركزى الذى يرتفع الى مستوى ٨٠ قدما (٧٣ م تقــريبا) فوق رأس الزائر · وعلى كل جانب اقيم ٦١ اسطونا ترتفع الى نصف السقف المركزى (٤٠ قدما) مما يضفى عمقا جانبيا كبيرا على البهو · فاذا كانت الاضاءة معتمة فان البهو يتخلله ظلام لا نهائى بين الأساطين المنقوشة · وكما فى الكنائس الكبرى يدخل الضوء من فتحات أو نوافذ سفلية وعلوية بالسقف على جانبى صحن البهو ؛ فاذا وقع على النقوش الملونة يعطى بريقــا كبريق الجواهر ينعكس من الجدران والأساطين معطيا اضاءة جــزئية تتسلل الى الظلام الغامض المنتشر على أجنحة البهو ·

وعلى البر الغــربى عبر النيل ، كان معبد سيتى الأول التذكارى قــد ضم هيكلا لرمسيس الأول ، بينما توجد نقوش غائرة أخرى تخلد تتويج الملك الشاب رمسيس الثانى · والهيكل بهذا الشكل يعتبر هيكلا خاصــا بالأسرة الملكية الجديدة · وكما حدث فى أبيدوس ، سبقت الأعمال الانشائية الأعمال الزخرفية ببون شاسع ، لبطء تنفيذ النقــوش البارزة الزخرفية بأسلوب النقش البارز المنخفض ·

بعيدا عن ذلك ، وفى وادى الملوك المنعزل ، كان عمال دير المدينـــة قد انتهوا من حفر مقبرة ملكية رائعة ، تحتوى على ردهات متتابعة بطول ٣٠٠ قدم تقريبا ، متعمقين بالتدريج فى جــوف الجبــل الغربى ، تحت اشراف المشرفين المحنكين باكى ونفرحتب الأكبر · وفى نفس الوقت كان المصوران باى وباشدو المتمرسان فى فنهما يرســمان الخطوط المحيطية للنصوص والمشاهد بأيد ثابتة واثقة ، ليقوم المثال المرهف بياى ومعاونوه بتفريغها ، ثم يعود المصوران لتلوينها · ولا يمكن أن يعزى الفضل لفريق دون فريق فى اتمام هذا العمل الرائع الذى ما زال يحظى باعجاب القــرون المتتالية حتى يومنا هذا ؛ فقد كان العمل نتيجة مجهود جماعى يستحقون عليه التقدير · ويبــدو انه عندما شارف العمل بمقبرة سيتى على الانتهاء ، سمح لرمسيس بالشروع بحفر مقبرته الخاصة فى وادى الملوك · وكان رمسيس هو المشرف على هذه الأعمال المعمارية ، خصوصا ما كان منهــا بأسوان وأبيــدوس ·

وفى طيبة وقعت مسئولية الاشراف على المنشآت المعمارية على عاتق وزير الجنوب باسر ، وكان المشرفون على عمــال المقابر الملكية والكتبــة مسئولين امامه مباشرة · ويبدو انه استعان بهذه القوة ــ أو بعضها ــ فى بناء هيكله الرشيق الخاص الذى بناه فى القطاع المخصص للنبلاء بغــرب طيبــة ·

وخلف الكرنك ـ شرقى نهر النيل ـ كانت اهتمامات باسر بمبانى آمون أقل من اهتمامه بتجهيزها • ففى دور الصناعة بالمعابد كانت تماثيل أبى الهول والأوانى الجميلة وتماثيل الملك سواء كانت من الذهب أو من الحجارة النفيسة كلها تعرض عليه لمعاينة جودتها • ويوجد نقش فى هيكله الخاص يصوره وهو يخاطب احد المثالين : « حياك بتاح أيها المثال ! جميل حقا هذا التمثال الذى تنحته لسيدى • ليكن تشكيله حسب الطراز القديم ـ هكذا قال الفرعون » • ويحق لباسر أن يفخر حقا بعمل هؤلاء الفنانين الأفذاذ ، فقد كانوا السبب فى الاحتفاء به بعد ذلك اذ طوقه الملك أمـام جمع بقلادات الشرف الذهبية ؛ وهى مناسبة لم يتوان باسر عن تسجيلها فى هيكله الجنازى •

ونخص بالذكر من بين الفنانين البارعين الذى عملوا تحت امرة الأمير رمسيس والوزير باسر كبير المصورين بالكرنك • هذا الرجل كان سليل أسرة متمرسة فى هذه المهنة ؛ خدمت آمون فى مجال التصـــوير ستة أجيال متعاقبة • ورأس الأسرة وفد من كنعان أو سوريا ويسـمى يثو ـ بعل ، وسرعان ما اندمج هو وسلالته فى البيئة المصرية وتزوجوا مصريات • ويعود الى هذا الرجل (ديديا) ومساعديه بكل أرجاء مصر ـ بمن فيهم عمال المقابر الملكية ـ الفضل فى وصول أعمال سيتى الأول الى مستوى يرضيه ويجعل هذه الأعمال تنافس أعمال من سبقوه فى الحجم والروعة ، خصوصا أعمال امنحتب الثالث •

الشروع فى تكوين اســرة

لم تقتصر انشطة رمسيس على العناية بالانشاءات المعمارية من مقابر ومعابد • فقد ذكرنا انه كان فى بيته طاقم كامل من الحريم من كل نوع • وقد بدأ الأمير الصغير فى سنوات نيابته عن العرش ، وبعد تتويجه ملكا شرفيا ، بتكوين أسرته الخاصة • ومن المعروف أنه كانت له زوجتـــان اثيرتان هما : نفرتارى وأست ـ نفرت ، والأنباء التاريخية عن أصـــول هاتين الفتاتين متضاربة • وتميزت نفرتارى دائما بقوة الشخصية ، وكان رمسيس نفسه يقول عنها انها لا تضارع فى « جمالها من بين جميـــلات القصر » ، فهى فى نظره اذن أجملهن جميعا • أما است نفرت فيبدو أنها آثرت أن تتوارى فى الظــل •

وقد حملت الفتاتان وأنجبتا للأمير الكثير من الخلف : بنين وبنات • ففى السنوات العشر السابقة لموت سيتى الأول ، كان لرمسيس من هاتين الفتاتين وحدهما عدد وافر من الأبناء ـ خمسة من البنين وبنتان عـلى

الأقل من كل واحدة • وكان له فى نفس الفترة من غيرها عشرة بنين ، بالاضافة الى عدد من البنات لا نعلم عنهن شيئا • اذن فعندما اقترب أجل سيتى الأول كان القصر يعج بالمواليد الملكية الجديدة بخلاف من مات في سن الطفولة • وبذلك أصبح سيتى جدا لعدد وافر من الأطفال •

أنجبت نفرتارى لرمسيس الثانى أكبر أنجاله ، آمون حر ونمف ، ومعناه « آمون على يمينه » • وأنجبت له ايست نفرت ولده الثانى الذى سماه على اسمه رمسيس ، ولا ننسى أن جنده كان يسمى رمسيس أيضا • وأنجبت نفرتارى ثالث أولاده برى حر ونمف ، وايست نفر الرابع خع ام واست « المشرق في طيبة » • ثم أنجبت له ايست نفرت كبرى بناته فسماها اسما كنعانيا صرفا هو بنت عنات ، أى «ابنة الالهة عنات» • وبعد ذلك كثير نذكر منهم ابنته الرابعة من نفرتارى — مريت آمون ، والمولودة السادسة عشرة مريت اتوم • وكان من نصيب ايست نفرت ابن الملك الثالث عشر مرنبتاح الغنى عن التعريف •

كل هؤلاء أعدوا ليقوموا بواجباتهم المستقبلة خير اعداد •

المعـــارك فى الجنوب والشـــمال

فى السنة الثالثة عشرة من حكم سيتى الأول كان الأمير رمسيس قد ناهز الثانية والعشرين ، وأصبح مؤهلا لمباشرة بعض الحروب الصغيرة بنفسه • وقامت ثورة صــــغيرة فى الجنوب ـ فى النوبة السفلى ـ رتى فيها رمسيس على رأس حملة متوجهة اليها يرافقه ولداه : آمون حرونمف اكبر ابنائه (٥ سنوات) وخع ام واست (٤ سنوات) • وحسب المقـاييس العسكرية تعتبر هذه الحملة مجرد تجريدة تأديبية : هجـوم بالمعـــربات تلاه فرار النوبيين الثائرين الى قراهم مذعورين كأنهم قطيع شارد من الغنم يصيحون بأن المصريين فى اثرهم • وأخمدت الثورة فى ظرف ساعة أو ســاعتين • هذا الهجوم قاده رمسيس بنفسه ، وشــارك فيه ولداه الصغيران ، كل في عربته ، ولكن بشكل أكثر أمنا اذ لم يكونا في المقدمة • وهكذا بدأ رمسيس عهده بالحرب •

ورغم تفاهة المعركة فقد كانت فى نظر رمسيس تستحق التنويه ، وبما لأهمية موقعها على النيل • لذلك أمر الأمير بحفر معبد صخرى جنفيه (بيت الوالى) ، بجوار كلابشة المشرفة على بقعة ضيقة من النهـر • وزخرف الجدار الشمالى من ردهة المعبد الأمامية بنقوش رمزية لمعـــارك الشمال ـ كنعان وسوريا ـ التى اشترك فيها رمسيس كمجرد مرافق لأبيه

الملك · لكن الجدار الجنوبى زخرف بنقوش حية مقصورة عليه ، اشادة بنصره فى النوبة احتوت على : المطاردة ؛ تسلم الأسلاب والغنائم يرفعها له أميران ونائب الملك امنمؤبى · وقد محيت صورة نائب الملك قرب الانتهاء من المعبد ـ ربما لوفاته « اثناء العمل » وربما « لاعتزاله الخدمة »لكبر سنه · المهم انه قد خلفه فى المنصب أيونى من نينو بالفيوم ، وقد ترك لنا اثرا لأولى رحلاته الى صحراء ادفو ؛ هو مشهد يظهر فيه الرجـــل وهو يقدم فروض الطاعة والولاء لحورس بالقرب من معبد الملك الذى بناه لعماله فى منطقة تعدين الذهب ·

ولم يكن سيتى الأول ولا ابنه رمسيس باللذين يسمحان بترك بلدهما عرضة للسلب والنهب ، أو للغارات على حدودها · فقام رمسيس بتجهيز دورية لحراسة المداخل البرية والبحرية على النهر ·

وعندما حاول قراصنة البحار ـ المعروفون بالشرادنة ـ أن يغيروا على البلاد فوجئوا بهـذا الاستعداد ، فاضطربوا وتشتت شملهم وأسر منهم عدد كبير جندوا اجبـــاريا للعمـــل بالجيش المصرى · وقد اثبت رمسيس رضاه عن هذا الاجـراء الوقائى من خـــلال نقش ســـجله على نصب تذكـــارى :

« ها هو من أمكنه تشتيت المقاتلين البحريين ، وأصبحت الدلتا آمنة · وجاوزت شهرته البحر ·· والشرادنة الخبثاء الـــذين لم يعرف أحد من قبل كيف يتصدى لهم ، اتوا من البحـــر بكل جراة على متن سفنهم الحربية من قلب البحـــر · لم يكن يقف فى وجههم شىء من قبل ، لكنه قهرهم بذراعه القـــوية (يقصد الجيش) وساقهم الى مصر ! ·· رمسيس الثانى » ·

وفاة ســـيتى الأول

هذا ما كان عليه الحال فى السنة السادسة عشرة من حكم الملك سيتى الأول · لد منضبط مستقر الأركان ، محكوم حكما اداريا حازما ، يتمتع بالرخاء والأمن فى الداخل ، وله هيبته فى الخـــارج ، امبراطورية واسعة مستقرة ، ما ان تهب فيها ثورة أو عصيان ـ وكلها صـــغيرة ـ حتى يتم اخمادها بسرعة ·

وشهد حكم ذلك الملك ازدهارا كبيرا فى الانشاءات والمعمار · فبنيت المبانى العظيمة التي لم يبن مثلها منذ عهد امنحتب الثالث ، تقـــربا للآلهة

الكبرى · وزخرفت بزخارف رائعة ـ فى معظم الأحوال ـ تضاهى نظائرها فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ·

فى هذه السنة كان سيتى الأول فى الخمسين من عمره تقريبا ، وكان من المتوقع أن يستمر متربعا على عرشه عشر سنوات اخرى على الأقل · لكنه فى صيف ١٢٨٩ ق·م· ، وربما كان فى ذلك الوقت فى قصره الجـــديد قرب افاريس ، مات الملك فجأة ، تاركا التاج والامبراطورية أمانة بين يدى رمسيس الثـــانى ·

اذن لقد انتهى دور نائب الملك ، وأصبح رمسيس الثانى ملكا مطلقا - وهكذا كان التخطيط منذ البداية ·



الباب الثانى

الحرب والسلام

الفصل الرابع : الحرب

الفصل الخامس : السلام



الفصل الرابع

الحروب واشاعات الحروب

الهدوء قبل العاصفة

رمسيس الثانى ـ الفرعون المطلق

ما كاد يشرق يوم ٢٧ من شهر الصيف الثالث (أوائل يونيه ١٢٧٩ ق٠م٠) حتى أعلن التتويج رسمية بأسلوب تقليدى (فى الغالب من افاريس المقر الرسمى الصيفى) وصيغته :

« الملك الصقر ،الثور القوى ، محبوب العدل والحق ٠ هو المنتمى للربتين ، حامى مصر القاهرة للبلاد الأجنبية ٠ حورس الذهبى ، طويل العمر ، صاحب الانتصارات العظيمة ٠ ملك مصر العليا والسفلى ، اوسرماعت رع ٠ القوى فى الحق هو رع »

[اضيف بعدها فيما بعد : ستب ـ ان رع « المختار من رع »] .

ابن رع « رمسيس الثانى ، محبوب آمون »

وبذلك تولى رمسيس الثانى زمام الامبراطورية المصرية وهو بعد فتى فى حوالى الخامسة والعشرين من عمره ، لكنه متدرب على ممارسة مهام الملك ، يملؤه النشاط ، ويغلب عليه التفاؤل ٠ وتبدت له ظواهر الأمور ، امبراطورية واسعة ، يعمها الرخاء ويسودها السلام ٠ وظن الملك الفتى المتفائل أن عهده يبشر بسلام طويل لا نهاية له ٠

وكالعادة كانت أول مهام الملك الجديد هى دفن الملك الراحل ٠ وعند اعلان رمسيس ملكا بدأت فترة السبعين يوما المعهودة التى تتطلبها

تجهيزات الجثة وتحنيطها · فى هذه الأثناء ارسل الملك رسله الى طيبة لسرعة تجهيز مقبرة الملك الراحل استعدادا لطقوس الدفن ، وللانتهاء من تجهيز المتاع الجنازى ·

خلال هذه الفترة كان الملك رمسيس الثانى قد قرر بناء مدينة جديدة نواتها قصر افاريس الصيفى وملحقاته مع الثكنات العسكرية · واختار اسما جديدا للمدينة هو بى ـ رمسيس عانختو « مدينة رمسيس الأكبر الظافر » · لكنه كان من الضرورى التريث فى التنفيذ الى ما بعد دفن الملك الراحل·

وحل موعد الدفن فى منتصف أغسطس سنة ١٢٧٩ ق·م· تقريبا (أوائل شهر الفيضان الثانى) · وتحرك اسطول المراكب الكبيرة جنوبا فى النهر حاملا مومياء سيتى الأول الى مدفنه ·

وتوقفت القافلة بعض الوقت فى كل من هليوبوليس ومنف حيث أعلن عن الوضع الجديد وشيع للملك الراحل بالصلوات واستقبل الملك الجديد بالترحيب · والحقيقة أن هدف التوقف الرئيسى كان الاعلام واقرار وضع الملك الجديد · واستمر الابحار بعد ذلك جنوبا فى رحلة مضنية ضد التيار لمدة اسبوعين على الأقل بعدها ألقت السفن مراسيها فى طيبة · وبعد أن تمت الطقوس التقليدية فى معبد سيتى الأول الجنازى، قام رمسيس الثانى وأعضاء عائلته الأقربون بالاحاطة بتابوت الملك الراحل الذهبى ، والموكب المرافق له من حملة المتاع الجنازى يتقدمهم الكهنة ، لحراسته · وساروا على هذه الهيئة المهيبة فى الطريق الصحراوى حتى وادى الملوك · وهناك اجريت آخر طقوس الدفن ، وبعدها احكم اغلاق المقبرة الضخمة واخفيت معالمها ؛ وعند العودة يرجح أن يكون الملك قد زار مقامه الخاص العظيم هناك قبل أن يعود الى عالم الأحياء بطيبة · وهكذا تحلل رمسيس الثانى من كل قيد ، وأصبح فى حل من ممارسة مهنته الجديدة بكل حرية ، مثلما فعل أسلافه جميعا · وفعلا رأس الملك احتفالات عيد أوبت الكبير فى سبتمبر ـ وهو من اهم أعياد آمون ، وصاحب مركب آمون الذهبية فى رحلة الميلين من الكرنك الى معبد الأقصر وسط هتاف الجماهير ، ذهابا ثم عودة بعد ٢٣ يوما ـ نهاية ايام العيد · وكان هذا اول مواكب الملك فى طيبة فى سنة حكمه الأولى ـ كما ذكر فى تقرير متأخر·

مجلس طيبـــة الاستشـــاري

فى اثناء مهـرجان اوبت المذكـــور ، كان الشروع فى اتخاذ بعض القرارات السياسية الهامة امرا متوقعا • لذلك ساد المهرجان جـو من التوتر والترقب • وانتهز الملك الفرصة فاجرى حـركة ترقيات بين كهنـة آمون ، وعين رئيسا جديدا لهيئة المعبد الكهنوتية •

وكان منصب كبير كهنة آمون قد ظل شاغرا منذ وفاة نب نترو — ابو الوزير باسر • فعقد رمسيس الثانى اجتماعا لمستشاريه فى حضـور تمثـال الاله آمـون الرمزى للتشـاور فى الأمر • وعرضت الترشيحات على تمثـال آمـون ، وبعـد رفض الكثيـر منهـا ، أوحى الالـه لرائيـه (الـكاهن الوسـيط) بقبـول اسـم نب ونتف ، كبير كهنة ثنى بدندرة القريبة • ولم يعلم الكاهن المحظوظ بهذا الاختيار الا بعد وصول الملك الى أبيدوس • وأجريت حركة ترقيات بين الرتب الصغيرة لكهنـة المعبـد • فرفع الكاهن بأك ان خنسو الصغير الرتبة الى درجة أستاذ « بكلية آمون للآباء المقدسين » — وهى خطوة نحو الوظائف المؤثرة • وفى غير المجال الكهنوتى رقى الملك رفيق طفولته آمون ام اينت الى وظيفـة قائد المركبـات الملكيـة وناظر للخيـل •

وقد اقر البعض فى وظائفهم ، فاستمر باسر وزيرا للجنوب بطيبة ، وايونى نائبا للملك بالنوبة — وانحصرت جهوده تقريبا فى مجال البناء • وفى مقر نيابته الجديد — العمارة غرب — الذى شرع امنمؤبى فى انشـائه قام ايونى بعكس اتجاه المعبد من الجنوب الى الشمال حيث مدينة رمسيس الجديدة • وفى عكشـة المجاورة للشلال الثانى كانت تصميمات المعبـد الجديد جاهزة ، وشرع فى بناء سوره الخارجى (النطاق) منذ عهد سيتى الأول • وبعد استكمال المعبد كرس لعبـادة رمسيس الثانى نفسـه ، « أوسرماعت رع » • • « الاله الأكبر ، ملك النوبة » اقتداء بما فعله امنحتب الثالث فى صولب وتوت — عنخ — آمون فى فاراس • وهذه مجـرد بداية متواضعة لتقرير سلطة الملك على نفس الأسس التى كانت متبعة فى الأسرة السـابقة •

المنشـآت الجـديدة والترميمات بمعبـد ابيـدوس

ومن ضمن ما اهتم به الملك اثناء المهرجان تنشيط العمل لاكمـال بهو الأساطين بالكرنك ، بعد ان اعطاه اسما جديدا هو معبد « رمسيس الثانى الفعال » — والمعبد يدخل ضمن املاك الاله آمون • كذلك امر الملك بسرعة الفراغ من اتمام معبد أبيه الجنازى على البر الغربى • والأهم من ذلك كله ان الملك رمسيس الثانى احتفل « بمد الحبل » — اى تحديد النطاق

ـ لمعبده الجنازى المتسع : الرمسيوم ، تمهيدا لارساء أساساته · ويشمل تصميم الرمسيوم ساحات وأبهاء بطول ٦٠٠ قدم داخل نطاق الكرنك نفسه · وفي الخلف على البر الغربى بالأقصر ، كانت هناك خطة موضوعة لبناء صرح ضخم وفناء امامى بحيث يقام أمامهما مسلات وتماثيل ، فاعطى رمسيس الثانى العمل هناك دفعة قوية بأن جعلهما يحملان اسمه ·

وأخيرا اقترب موعد الرحيل ، فى شهر الفيضان الثالث ، يوم ٢٣ من السنة الملكية الأولى (منتصف أكتوبر) · واصطفت المراكب الملكية الذهبية للملك والعائلة ، يصدر عنها فى النهر بريق يخطف الأبصار ، يصاحبها أسطول من المراكب أصغر حجما للأعوان ·

وتحرك هذا الركب الهائل مبحرا ، تاركا خلفه الشواطىء السوداء المكللة بالزرع ، وخلفها يتلألأ جبل طيبة الجنوبى بلونه الوردى تحت سماء زرقاء صافية · ومع التيار اتجه الأسطول نحو الشمال ، وبحارته يجدفون بمهارة ، متجها الى مقر الحكم الجديد « مدينة رمسيس » على بعد مئات من الأميال عن طيبة ·

لم يكد يمضى يوم أو يومان على وصوله حتى كان رمسيس الثانى قد انهمك فى تفقد أحوال معبد أبيدوس :

« السنة الملكية الأولى ··· بدأت الرحلة ، فنشرت الأشرعة ، والمراكب الملكية تضىء المياه ، وأبحر (الأسطول) شمالا للعودة الى « مقر البسالة » ، من ممتلكات رمسيس الثانى « صاحب الانتصارات العظيمة » · وانحرف جلالته لزيارة أبيه (أوزيريس) ، فعبر مياه قناة أبيدوس ليقدم العطايا الى ون ـ نوفر (أوزيريس) مع كل ما تشتهيه نفسه من النفائس » ·

وما أن نزل الملك الى البر حتى لاحظ أن سير الأمور متعثر فى مقابر أبيدوس ومعابدها :

« وجد المبانى والمقابر فى جبانة الملوك السابقين بأبيدوس متداعية وعلى وشك الانهيار ، وأجزاء منها لم تستكمل بعد ·· والجدران مهملة ومتروكة بدون اكمال ، وحتى حجارتها لم تكن مرصوصة · وما بدىء فيه لم يلبث أن تفتت وعاد ترابا ، ولم تستمر أعمال البناء ، ··· بعد أن رحل أصحابها الى

السماء • ولم يجدد اى من الأبناء اثر ابيه فى الجبانة •

والحقيقة ان مقدمة ومؤخرة معبد من ماعت رع (ستيتى الأول) كانتا فى طور الإنشاء عندما انتقل الى السماء ، وآثاره لـم تستكمل ، ولم ترتفع اعمدته على شرفاتها ، وتماثيله راقـد على الأرض لم ينحت حسب الأسلوب المتبع فى الورش المقدسة •• وتوقف تقديم العطايا ، ومن ثم توقفت الخدمة الكهنوتية ، ونهبت المنتجات الحقلية ، وحدود الحقول علاماتها غير ظاهرة على الأرض » •

ولم يتغاض رمسيس الثانى عن مثل هذا التقصير فى استكمال صرح ابيه الراحل • ويلفت النظر الى ان التقرير السابق لم ترد فيه اشـــارة الى اهمال فى الأعمال الجـــارية بمعبده هو نفسه المجاور لمعبد ابيه ، ولعل هذا مرجعه الى سوء تقدير المشرفين على العمل فى المعبدين فدفعوا العمل الخاص بالفرعون الجديد على حساب العمل فى صرح سيتى الأول ، الملك الراحل • ولعل سيتى الأول كان يتابع سير العمل بنفسه عندما كـان رمسيس نائبـــا للملك مشغولا بالأمور فى طيبة ، حتى جاءت له هـذه المناســـبة •

لذلك جمع الملك مجلس البلاط ، وبعد ان ادوا فروض التحية والولاء ، تحدث اليهم عما يجـول بخاطره :

« انظروا ، لقد جمعتكم لأعرض عليكم ما بفكرى •• لقـد فكرت فرايت ان اجل الأعمال هو تكريم من رحـلوا عنـا • ان العطف نعمة ، ومن الخير للابن ان يهتم بابيه • وقد عزمت على ان اخصص المنح لمن ماعت رع [سيتى الأول] ، حتى يقال لى الى الأبد ، « ان ابنه هو الذى خلد اسمه ! » وبذلك ينعم على ابى اوزيريس ، ويطول بقاء ابنه حورس (الفرعون) لأننى فعلت كمـــا فعـــل •• » •

بعد هذا الكلام الذى احتوى ايضا على كلام مجمـل عن فترة نيابة للملك ـ باسلوب خطابى ـ شرع الملك فى سرد التفاصيل :

« رسم جلالته باعطـــاء الأوامر لمديرى الورش • وخصص الجنود ، والعمال ، والمثالين •• وكل فيما يخصه عليه ان يشترك فى بناء معبد ابيه ، وترميم ما تهدم فى الجبانة » •

وبذلك تحـددت المخصصات والخدمات ؛ وتقـدم العمل ونحتت التماثيل ، وسجلت أملاك المعبد وأوقافه ، وتحددت هلكة الأدارى ، وأسـند الاشراف العام الى كبير أمنـاء المبنى ٠

وفى هذه الأثناء كان رمسيس قد قام بالترتيبات لأجراء مراسـم تعيين كبير كهنة آمون ، كما استقر الرأى على ٠ وتشرف نب وننف بتقلد مهام الوظيفة فى حضور الملك والملكة نفرتارى ورجال البلاط ٠ وقد سجل لنا الكاهن مشاهد من هذا التقليد فى هيكله الجنازى الواسع غرب طيبـة (رقم ١٥٧) ، وسجل الحدث نفسه كتابة بالنقش البارز :

« السنة الأولى ، الشهر الثالث للفيضان ـ عندما أبحر جلالته شمالا ـ من طيبة ـ بعد أن أدى ما يسر آمون ـ رع ٠٠ وموت ٠٠ وخنسـو ٠٠ فى مهرجان أوبت الرائع ٠٠ فرجع ونـزل فى أبيدوس ٠٠

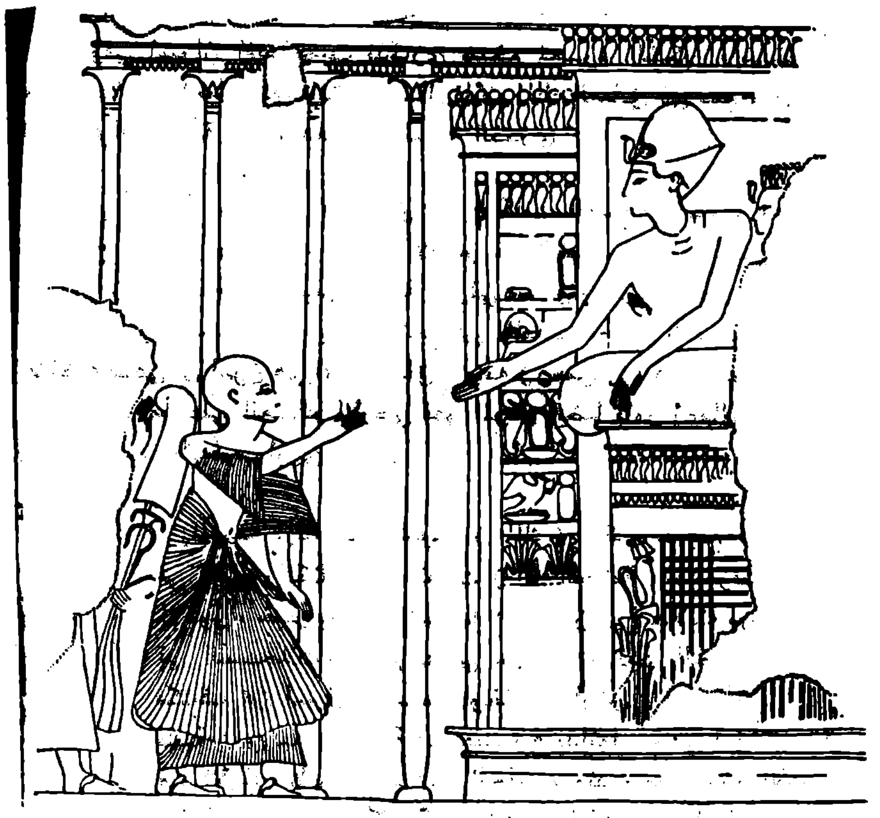
واستقبل كبير كهنة آمون (المختار) نب وننف للمثول بين يدى الملك ٠ وكان حتى هذه اللحظة كبيرا لكهنة الاله أنحـور ؛ والربة حتحور ربة دندرة ؛ وكبيراً لكهنة جميع الآلهة المحلية فى الجنوب ـ من طيبة الى طينة (ثينة) شـمالا (قرب أبيـدوس) ٠

عندئذ خاطبه جلالته ، « انت الآن كبير كهنة آمون ! والمتصرف فى خزائنه وصـوامع غلاله ـ وانت المهيمن على أملاكه ، وأوقافه تحت سلطانك ، ومنذ الآن عهدنا الى ابنك بأوقاف حتحور ربة دندرة ليرث وظائف أسلافك ، التى هى وظائفك حتى الآن ٠ أقسم برع الذى يحيا لي ويحبنى ، وأبى آمون الذى يؤثرنى ، لقد عرضت على آمون أسماء الهيئة الكهنوتية بالكامل بما فيهم كهنة آمون ، ومعهم كبار موظفي أملاكه الذين كانوا ماثلين أمامه (أى تمثاله المنقول) ، فلم يرض بأحـد منهم ، حتى ذكرت اسمك ٠ لذلك عليك الأخلاص فى خدمتى ، بما دام قد اختارك بنفسه ! وعلمى بك قديراً ؛ فابذل جهـدك حتى يصطفيك لنفسه ـ وأنا كذلك ٠ وبذلك يعينك فتبقى مديرا لأملاكه ، ويطول عمرك هناك ؛ ويسمح لجسدك أن يسـتقر فى أرضه بمدينته (بعد موتك) ٠

بعد ذلك سلمه جلالته خاتمين للتوقيعات وصولجـان تقـلد الوظيفة التى منصب كبير كهنة آمون ، والمشرف على خزائنه وصوامع غلاله وعماله ٠٠ وكل الصناع بطيبة ٠ وبعث رسولا

يعلن في أنحاء البلاد إن أملاك آمون وأوقافه وهيئة موظفيه تخضع لسلطة (نب وننف) بتقليد من الحاكم باسم آمون (رمسيس الثاني) ، عاش الى الأبد » ٠

بعد ذلك أبحر الكاهن جنوبا الي معبده الجديد ، وعاد الملك الى شئون معبد أبيدوس ٠ وبعدها أبحر شمالا للاشراف على تخطيط مقـــره الصيفى الجديد ـ مدينة رمسيس ـ حيث كان فى نية الملك ان يجعلهـا تنافس فى روعتها الحاضرتين العتيدتين ـ منف وطيبة ٠



شكل (٤) رمسيس الثاني والملكة نفرتارى يطلان من شرفة التجلى بأبيدوس بمناسبة تعيين نب وننف كبيرا لكهنة آمون ٠

بحث فى العقيدة (فلسفة الدين)

مرت السنة الثانية من حكم رمسيس بسهولة ويسر ٠ ولكن رمسيس كان قد استقر عزمه على تغيير صياغة القابه قليلا ٠ كان أبسط أشـكال

اسمه باعتباره ملكا للوجهين ـ مصر العليا ومصر السفلى ـ أوسر ماعت، مع ألقاب أخرى أحيانا . والاسم مؤلف على غرار اسم أبيه من ماعت رع . ولم يعد هذا يروق لرمسيس فأضاف اليه ستب ان رع (المختار من رع) ، فجعل صورة اسمه الجديد أوسر ماعت رع ستب ـ ان ـ رع (القوى فى الحق هو رع ؛ الملك المختار من رع) . وذلك يحدد بداية موجة سوف تعطى فى المستقبل دفعة قوية لتأكيد العلاقة الخاصة بين رمسيس الثانى واله الشمس رع بمدينة هليوبوليس ، فمن « ابن رع » تطور الى ممثل رع الشخصى ، وأخيراً الى تجسيد الاله نفسه (أى أنه إله يسعى فى الأرض) .

وفى أسوان أقيم نصب تذكارى ضخم لمجرد التذكير باستمرار محاجرها فى العمل وللاشادة بأعمال نائب الملك السابق فى قمع متمردى النوبة والقراصنة الذين هاجموا الوجه البحرى .

فى السنة الثالثة (١٢٧٧ ق.م.) كانت الساحة الأمامية الكبرى والصرح الضخم والواجهة بمعبد الأقصر قد اكتملت تماما ، وبدىء فى أعمال الزخارف ذات الطبيعة المتانية . وفى النص التكريسى أعلن رمسيس أنه « بنى بيته الخاص » ، بعد أن تتبع فى الملفات المعبدية القديمة عقيدة غامضة تدعى أن آمون هو الاله المطلق ، وأنه (رمسيس) هو المخول للبناء من أجله . أما على العالم الأرضى فهو الموكل أيضا بأمر أعمال آمون . وسجل النص بأسلوب أبوى :

« بالنسبة لهذا الاله الطيب (الملك) ، كان قد بلغ الغاية فى العلم والكتابة مثل تحوت (اله الحكمة) ، يعرف حقائق الأمور ، خبير بقواعد السلوك .. والآن فرغ جلالته من البحث فى السجلات واطلع على مدونات « بيت الحياة » ، فكشف عن أسرار السماء وخفايا الأرض ، حتى انتهى الى طيبة . ووجد أن طيبة هى عين رع بذاتها ، وهى أول قطعة من الأرض ظهرت عند بدء الخلق ، منذ وجدت هذه الأرض (أرض مصر) ، وكان آمون رع هو الملك ، فأضاء السماء ، وأشرق فوق قرص الشمس ، ليرى الى حيث وصلت أشعة عينيه فنشرت النور . فعينه اليمنى ، فى اقليم طيبة ، وفى مدينتها ، فى « هليوبوليس الجنوبية » (التى هى طيبة نفسها) . وعينه اليسرى ، فى اقليم هليوبوليس ـ فى « هليوبوليس الشمالية » (أى هليوبوليس الحقيقية) ـ كذلك

ملك مصر العليا والسفلى ، آمون رع : الأبدى فى اسمه ، الخالد فى طبيعته ، الباقى فى مادته (أى جسمه) » .

هذا البحث الطريف لم يقصد به أن يقتصر على النظرة الفلسفية فى الدين ، فهو فى الحقيقة قاعدة يبنى عليها التطبيق العملى ، فسرعان ما شرح الملك أسلوب تطبيقه :

« قال الملك أوسر ماعت رع ، المختار من رع (رمسيس الثانى) للنبلاء الحاضرين ، أنا الواحد الذى تظهر على يديه الأعمال المفيدة ... انظروا الآن لقد استقر رأيى على تنفيذ مشاريع [لآمون ...] ، وإقامة منشآت بمعبده جنوب (الأقصر) . وتكلم الملك ، فأصدر تعليمات بتنفيذ العمل .. على أن تشارك القوات المسلحة فى التنفيذ ، [مع أسطول] يتناسب حجمه مع عدد البحارة المتوفرين لأعمال النقل شمالا وجنوبا ... [وتكون معهم] ... جراياتهم من الحبوب ، [وما يحتاجونه] من الملابس ، ولا يقولن أحد ، آه .. ينقصنى (هذا أو ذاك !) لقد انتهى العمل فى السنة الثالثة ـ شهر الفيضان الرابع ، يوم ١٠ .. وصناعتها كلها على أكمل وجه ، من الجرانيت .. ومن الحجر الأبيض الصلب ، ومن كل أنواع الحجارة الجميلة الأصلية » .

وهكذا ارتفع سور الفناء الأمامى الجديد ، والصرح وبوابته والتماثيل وصفوف الأعمدة الجديدة اللامعة تحت الشمس المشرقة القوية .

الذهب فى تلال النوبة النائية

وفى منف كان الفرعون الشاب النشيط قد تحول اهتمامه الى الذهب . فالمشاريع الضخمة التى ينفذها تحتاج للبذل والسخاء من المعدن النفيس ـ الذهب . وبذلك ألح على فكرة موضوع الحصول على الذهب لحاجته اليه . وكان لابد من السعى اليه فى تلال النوبة النائية بالصحراء الشرقية . ووردت التقارير للملك بأن هناك ترسيبات غنية ، الا أنها فى منطقة جدبة ، لا ماء فيها ، قاتلة لأطقم التعدين . فآلى رمسيس الثانى على نفسه ـ وهو لم يبرح مقره ـ على حل مشكلة الماء بهذه البقعة ، وسجل ذلك فى نقش بارز بمناسبة أحد احتفالات الأعياد اليوبيلية :

« السنة الثالثة ـ شهر الشتاء الأول ، يوم ٤ (ديسمبر ١٢٧٧ ق٠م) تحت [حكم] رمسيس الثاني ٠٠ الآن في احد هذه الأيام ، تصادف أن كان جلالته جالسا على العرش المصنوع من معدن الألكتروم (مزيج طبيعي من الذهب والفضة) ، وعلى رأسه العصابة ذات الريش الطويل (وكان) يفكر في أرض الصحراء المحتوية على الذهب ، عاكفا على دراسة الخطط الصالحة لحفر آبار الماء بطول الطرق الشاقة لخلوها من الماء ، تبعا للتقرير الآتي : يوجد ذهب كثير في صحراء أكوياتي ولكن الطريق اليها شاق لوجود مشكلة شحة الماء ٠ وأية ارسالية للموقع لن يصل الا نصفها ، وسيموت الباقون (من الرجال) مع الحمير التي تسبقهم من شدة العطش ٠ ولا يمكن أن نجد لهم ما يحتاجونه من ماء الشرب ، لا في ذهابهم ولا في عودتهم ، ليملأوا منه القرب ٠ ولهذا السبب لم يجلب ذهب من هذه الأرض بتاتا ، بسبب الحاجة الى الماء ٠

عندئذ قال جلالته لحامل الأختام الواقف بجانبه « الآن ادع كبراء البلاط ، ليقوم جلالتنا بالتشاور معهم بشأن هذه الأرض ٠ سأتولى الأمر بنفسي ! » وفي الحال دعوا للمثول بين يدي الاله الطيب (الملك) ، ٠٠ متهللين خاضعين ٠٠ وتحدث الملك اليهم عن طبيعة هذا البلد ، وتناقش معهم في ذلك ، وفي كيفية حفر بئر في الطريق اليه ٠

عند ذلك قالوا لجلالته : « انت مثل رع في كل ما عملته ، وما يشتهيه قلبك لابد أن يتحقق ، فاذا أردت في الليل شيئا ، فما أن تبزغ الشمس حتى يكون قد حدث ٠٠ في الحال ! فاذا قلت للماء « تفجر من الجبل ! » فسوف يفيض الماء من الجبل تبعا لأمرك ، وبغزارة كما لو كنت رع بعينه ، الشمس عند الشروق في صورته الحقيقية (أي أن الملك هو التجسيد الحي لاله الشمس رع) ٠ أما أرض اكوياتي فهذا ما قيل عنها ـ تقرير من نائب الملك بالنوبة مرفوع الى جلالتكم : هذه البلاد تعاني من نقص المياه منذ أيام الاله (أي منذ الأزل) ؛ ويموت الناس بها من العطش ٠ وحاول كل الملوك السابقين حفر بئر هناك ؛ ولم يفلحوا ٠ وحاول سيتي الأول كذلك ، ففي أيامه دفعهم الى حفر بئر بعمق

١٢٠ كوبيت (١٨٠ قدما) · ثم تركوها غير جاهزة ، لأن الماء لم يظهر ، ولكن ـ طبعا ـ اذا قلت انت لأبيك إله النيل ·· « اجعــل المــاء يفيض من الجبــل » ، سوف يفعل استجابة لطلبـك ··· »

فقــال الملك لهــؤلاء النبلاء : « صــحيح ، صحيح حقا كل ما قلتم يا أصدقائى ! لم يعثر على الماء قط فى هذه البلاد منذ أيام الاله ، كما تقولون · لكنى أنا الذى سوف يحفر بئرا تدر الماء كل يوم (كما فى مصر) ـ وسيرشدنى آمون أبى ··· والآلهة الصقور ··· وآلهة النــوبة ··· » · عندئذ سيمجد الكبراء الههم ، ويركعون له ، ويعلو صياحهم ·

ثم قال جلالته لكبير الكتاب الملكيين ·· : [أرسل رسالة الى نــائب الملك بالنــوبة نصــها : « ابعث بمجمــوعة كشفية] الى منتصف المسافة الى اكوياتى ، واسمح لهــم بالبحث شهرا كاملا ، ثم أرسل (تعليماتك) الى هؤلاء [العمال ونصها : التعليمات الآن قد فقدت] (يعنى الا يعودوا ويستمروا فى التنقيب ـ المترجم) ·

[فأرسل كبير الكتاب الرسالة وقام نائب الملك] بتنفيذ ما جــاء بهــا ·

وعندما بعث [الرجال للحفر] قال النوبيون [وغيرهم] : ما كل هذا الذى يفعله نائب الملك ؟ هل هنــا حقيقة [مــاء وهل] سيتحقق ما أمر به الملك ، ويظهر الماء فى الطريق الى اكوياتى ؟ لم يحدث شىء كهــذا منذ أيام الملوك الســابقين · عنــدئذ حضر رســول يحمل رسالة من نائب الملك بالنوبة ، [هذا نصها ····] « أواه ، سيدى الملك ، [سارت الأمور بالضبط] كما خرجت الكلمات من فيك ! وظهــر الماء (فى البئر) على عمق ١٢ كوبيت (١٨ قدما) ، عمق الماء فيهــا ٤ كوبيت (٦ اقدام) · وتفجر الماء كانما بفعل الاله ، لأنه راض عن اخلاصك ! لم يحدث مثل ذلك ابدا من قبل · وفاض السرور بمدينة اكوياتى · وأتى الناس من كل فج عميق ليشاهدوا البئر التى أوجدها الملك ، فمياه العالم الآخر نفسها تشد أزره حين يحفر [بئرا فى الجبل] ! » هذا ما تلاه كبير الكتاب نقلا نقلا عن رسالة نائب الملك ·

بعدها عم الحبور والبشر رجال البلاط .. [وقالوا « ما كانت الا تحوت بعينه] ، ولك خطط فعالة عندما تنفذ . وما تقوله [يتحقق يقينا ! ...] » .

من الآن سيطلق على البئر اسم « بئر رمسيس الثانى الباسل فى [فعـــاله ؟] » .

وهكذا بضربة معول ، وربما بضربة حظ ، عثر مندوبو الملك عـلى الماء فى الصحارى القاحلة بوادى العلاقى ، واصبح تعدين الذهب ممكنا . ويبدو ان الملك فى كل افعاله كانت لديه اللمسة السحرية .

مباشرة حـرب سوريا

هذا هو الفرعون الذى ما كاد ينفرد بالحكم حتى دانت له الأمور ، وكان النجاح حليفه فى كل اعماله ، بانى المعابد العظيمة ، ومرمم الآثار الناجح ؛ موجد الماء لعمال تعـــدين الذهب ؛ معطى الوظائف العليـا لمن يستحقونها؛ قامع الثورات الصغرى باسلوب متمكن ـ فلماذا لا يجرب لمسته السحرية فى مجال آخر ؛ الحرب . واختار ان يجرب حظه فى ميدان يسوده التوتر فى جبهة ظلت نائمة عشر سنوات كاملة ـ هى جبهة سوريا التى ضمها ابوه الى مصر بعد نصره على الحيثيين فى قادش . وكانت قادش نفسها مع مملكة امورو المجاورة لها قد ضمهما تحتمس الثالث الى مصر، لكنهما فقدتا منها بسبب اهمال اخناتون واتباعه ، لذلك لم يذكره رمسيس الثانى ابدا الا بصفة « مجرم اخيتاتون » ، وقد راينا ان سيتى الأول اعاد فتح قادش ، لكنه ردها الى الحيثيين على اثر معاهدة لم يرض عنهـــا رمسيس وظل امرها يراوده .

ولما كان الفرعون الشاب بطبيعته متفائلا ، فقد آلى على نفسه ان يسترد لمصر كل فتوحاتها السابقة خطوة خطوة . فوضع لذلك مخططا يبدأ باحتــلاك الساحل اولا ثم استعادة مستعمرة امورو ، وبعدها قادش ، ومنها الى قلب سوريا الشمالى حتى حلب .. وليحاول الحيثيون ان يوقفوه اذا شـــاءوا .

لذلك توجه رمسيس الثانى فى السنة الرابعة ـ صيف ١٢٧٨ ق.م. غالبا ـ الى سوريا . فى ذلك الوقت كانت كنعان خاضعة له ، لذلك سرعان ما وصل الى الاراضى الساحلية بفينيقيا الجنوبية ولحكم قبضة مصر على صور وجبيل . ويبدو انه تجاوزهما على الساحل واستولى على عرقاتا بعد حصـــار .

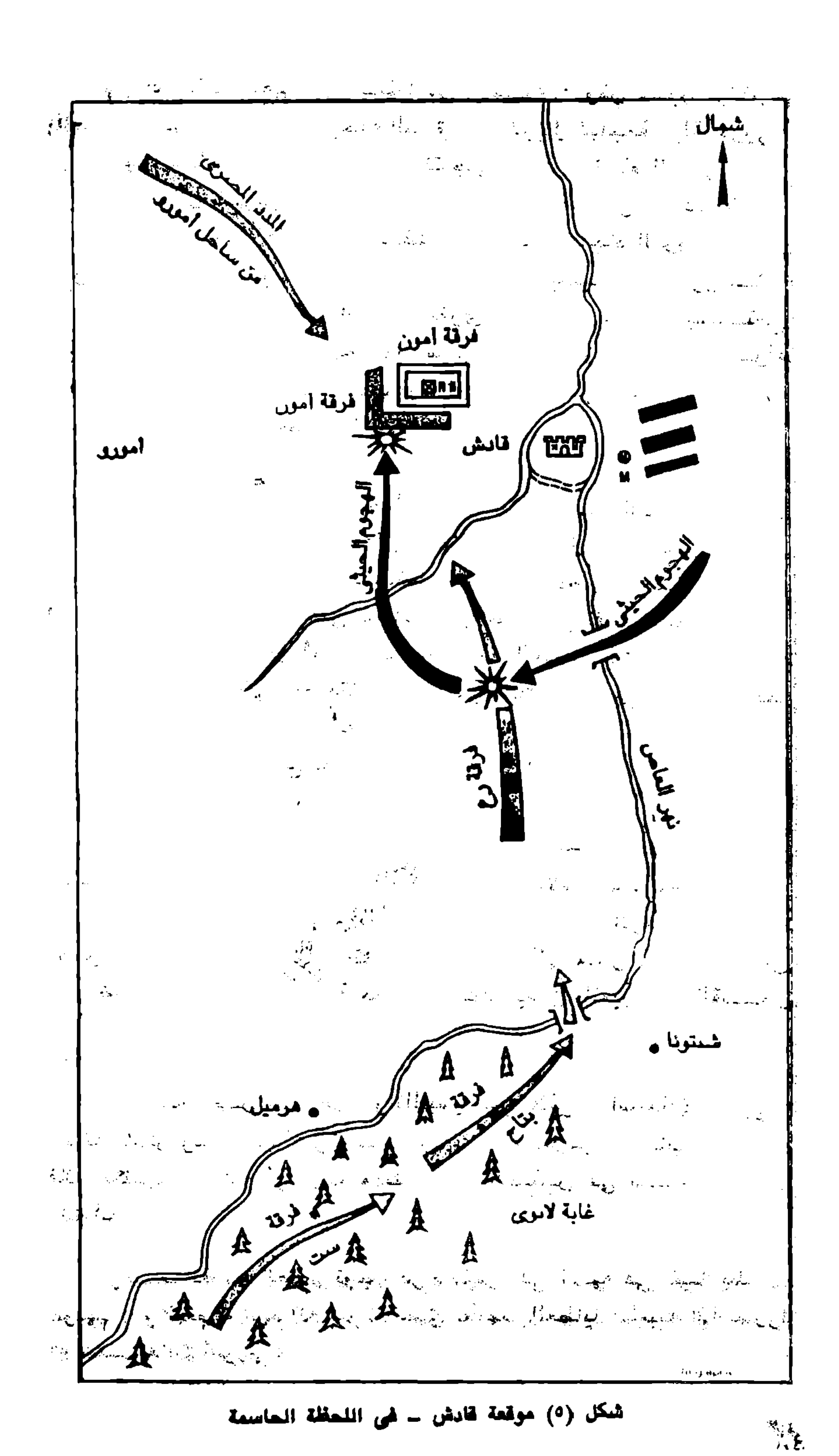
وبذلك سقطت أهم مدن فينيقيا في قبضته . ومن محور ارتكازه المأمون هذا توغل في العمق وجهة الشرق بين الجبال لمهاجمة دولة أمورو . ورغم جهلنا بتفاصيل الأحداث الا أن نتيجتها كانت استيلاء الفرعون على أمورو في خلال شهرين ، وأصبح يهدد قادش نفسها . وفي هذا أخذ بنتو شينا ملك أمورو على غرة وأسقط في يده حيث فاجأه الغزو بعد عشر سنوات من الهدوء فلم يتمكن حتى من الاستنجاد بسيده امبراطور خيتا (بلاد الحيثيين) القابع في آسيا الصغرى البعيدة . لذلك لم يستطع سوى الخضوع لمصر مقابل دفع جزية سنوية . ولما كان يخشى أن يعزله الحيثيون ويتهموه بالتمرد ، لذلك أرسل للامبراطور الحيثي - مولاه السابق - برسالة بها يقطع علاقته به .

وبهذا النجاح في أول « حملة ظافرة » لرمسيس الثاني في عهده الجديد ، بدت له الأمور وردية . فارتد جنوبا على مهل ميمما شطر فينيقيا ، وأقام أنصابا شتى في أماكن عديدة اشادة بهذا النصر : نصب تذكاري في جبيل سنة ٤ ؛ وآخر على ضفاف نهر الكلب في نفس السنة ، وربما ثالث في صور . المهم أن أمورو قد عادت الى الحظيرة المصرية . وعندما عاد بموكبه الظافر الى عاصمته بي رمسيس كانت عينه على قادش ليفتحها في الصيف المقبل ! وظن الفرعون المتفائل أن استعادة الامبراطورية المفقودة بالكامل قد أصبح قاب قوسين أو أدنى .

لكن الطرف الآخر لم يسكت . ففي أقصى الشمال حيث البلاط الحيثي - على سهل الأناضول المرتفع - كانت الأمور مختلفة تماما . فقد وصلت الى الامبراطور مواتالليس رسالة بنتو شينا الرسمية سريعا ، تخطره باضطراره للانسلاخ عنه والانضمام الى مصر . وعلى أحسن الفروض يمكن اعتبار الرسالة حيادية . كيف يمكن للامبراطور القبول بذلك ؟ .

وبسرعة ومض في ذهن مواتالليس حل ثلاثي : استعادة أمورو ؛ حماية قادش وما حولها ؛ وتوجيه ضربة قاسية للفرعون الشاب ، وتردعه فلا يمكنه بجيوشه أن يهدد ممتلكات الحيثيين في سوريا بعد ذلك أبدا .

وحسب تقاليد العصر توجه مواتالليس الى الآلهة في خيتا يطلب عونهم ، وأقسم أمامهم انه سوف يغدق عليهم بالعطايا الثمينة اذا يسروا له استعادة أمورو :



شكل (٥) موقعة قادش ــ فى اللحظة الحاسمة

« فى أى حملة يقودها جلالتنا ، آه يا آلهتى لو أيدتمونى فغزوت مملكة امورو ـ سواء بقوة السلاح ، أو بايثارها لسيالتى ـ وأفلحت فى أسر ملك امورو ، فسوف ... أغدق عليكم بسخاء ، آه يا آلهتى ! » .

بعد هذا القسم شرع مواتاللّيس فى تنفيذ ما استقر عليه عزمه . ومن الشتاء الى أوائل الربيع أحكم استعداداته (سنة ١٢٧٤ ق.م.) ، واتصل بالملوك من حلفائه وأتباعه ليعد جيشا كثيفا مدربا ، ربما كان أكبر جيش حشدته الامبراطورية الحيثية فى تاريخها كله . وقد ورد فى تقارير مصرية بعد ذلك ان هذه القوات حشدت من ست عشرة مقاطعة ومملكة حليفة سوى القوات الحيثية نفسها ؛ وان عدة هذه القوات ٢٥٠٠ عربة قتالية وفرقتان من ١٨٠٠٠ ، و ١٩٠٠٠ مقاتل على التوالى . وسواء أكان العدد صحيحا أم مبالغا فيه ، فانه يدل على ان مواتاللّيس افلح فى جمع قوة ضاربة كبيرة ليضرب بها ضربته القاضية .

انتـزاع النصر من براثن الكارثة

رحـلة سريعـة

فى جو الربيع المشرق الدافىء ـ (نهاية ابريل سنة ١٢٧٤ ق.م.) ـ ساد الهرج والمرج مدينة « بى رعمسيس » بشرق الدلتا . فأخذت كتائب المشاة تحتشد ؛ وقوافل عربات القتال تلف وتدور ليروض سائقوها خيولهم الجامحة ؛ وفتحت خزائن السلاح على مصراعيها لتتدفق منها السهام والسيوف والحراب والأقواس ليحصيها الكتبة المتمرسون ويسلموها للقواد كل حسب حصته .

وعلى بعد من التكتلات العسكرية كان الملك يشاور أركان حربه ويضع اللمسات الأخيرة لخطة سير الحملة الجديدة . واستقر الرأى على ان يقود الملك بنفسه الجزء الأساسى من الجيش عن طريق البر الى كنعان ثم جنوب سوريا حتى يصل الى قادش ؛ بينما تسلك القوات المعاونة (المدد) طريق الساحل الفينيقى ثم تنحرف للداخل شرقا لتلتحم بالقوات الرئيسية بقيادة الفرعون فى قادش ، على ان يكون وصولها فى نفس اليوم الذى تصل فيه القوات الأساسية . واخيرا أعلن ملخص خط السير :

« بعد ان أعد جلالته فيالقه وعرباته القتالية ، والشرادنة الذين جندهم جلالته بعد ان انتصر عليهم ؛ والجميع فى

السلاح والعدة ؛ شرحت لهم خطط الحملة . ثم يمم جلالته شطر الشمال بقواته . وقد بدأت المسيرة بشكل جيد ؛ فى السنة الخامسة ، فى شهر الصيف الثانى ، اليوم التاسع . واجتاز جلالته القلعة الحدودية عند سيلى ، جبارا مثـل منتو عند ظهوره . وارتعدت فرائص البلاد الأجنبية كلهـا أمامه ؛ فسارع حكامها بحمل الجزية ، وبادر الثـائرون بالاستسلام ، خوفا ورهبة من جبروت جلالته » .

وسار رمسيس على رأس جيشه الذى قسمه الى أربع فرق : آمون ، ورع ، وبتـاح ، وست ، بأسماء كبار الآلهة . وكان فى معيته أحد الوزراء وبعض أولاده الصغار فى حشد من أفراد العائلة الملكية ، بالاضـافة الى عدد من حريمه وحرسه الخاص ؛ راكبا عربته الذهبية المتلألئة . وفى خط سيره مر بغزة ، ثم عبر كنعان بسرعة ، ثم صـعد فى طـريق الجليل ، وتجاوز بحيرة الحولة صعودا الى الممرات التى تخترق وادى البقـاع العريض المرتفع بين سلسلة الجبال التى تفصل بين لبنان والأراضى غيـر اللبنانية ، وتقدمت القوات بثبـات :

« اخترقت قواته الشعاب الضيقة ، كما لو كانت تمشى فى شـوارع مصر » .

وفى وادى البقاع العريض ، وصل رمسيس الى مدينة « رمسيس التى تقع فى وادى الأرز » ، وربما يقصد بها كوميدى ، وهى قريبـة من عاصمة أوبى الادارية .

ففى مدى شهر واحد فقط من مبارحة الأراضى المصرية ـ أواخر مايو سنة ١٢٧٨ ق٠م٠ (السنة ٥ ـ شهر ٣ صيفا ـ يوم ٩) ، كان رمسيس « فى حملته الثانية الناجحة » قد عسكر فى خيمته على تل (كيموات هرميل) جنوب قادش . وبدا بهيا كأنه الشمس المشرقة ، وقد لبس درع منتو » . وكان كل شىء يبدو مطمئنا صباح هذا اليوم ، على بعد أميـال قليلة من قـادش .

وتعجل الملك الشاب فى الوصول الى قادش . فسـار فى حاشـيته وأركان حـربه وحرسه الخاص ميمما نحو الشمال ، تتبعـه أولى فرق الجيش ، فرقة آمون . أما الفرق الثلاث الأخرى فكانت منتشـرة على بعد عدة أميال من المقدمة ، لذلك شرعت فى التجمع تدريجيا قبل الزحف . وفى أثناء اختراق غابات لابوى للوصول الى المخاضة عبر نهر العاصى

بالقرب من شبتونة ، وقع فى أسر قوات الملك رجلان من قبيلة الشاسو من المنطقة الحدودية شبه الصحراوية ٠

وتعهد الرجلان أن يضمنا تأييد شيوخ قبيلتهما وولاءهم لمصر والانسلاخ عن الحيثيين ٠ وفي الحال أمر رمسيس باستجوابهما : أين كان هؤلاء الشيوخ ؟ فأجاب الرجلان على الفور : « انهم موجودون حيث يوجد امبراطور الحيثيين ، وأن الحيثيين الأعداء فى حلب شمال تونب ، وأن الامبراطور يخشى التقدم نحو الجنوب منذ سمع أن الفرعون يزحف نحو الشمال ! » ٠

الوصول المأمون

وسر الفرعون سرورا بالغا بهذه الأنباء ٠ فالامبراطور الحيثى قابع فى الشمال وبينه وبين سوريا ١٢٠ ميلا ، ومتقاعس عن القتال لا يريد صداما ٠ وصدق الفرعون الخبر لأنه أراد تصديقه ، واعتبر أن ما قالاه هو الحقيقة ٠ ولم يحاول الملك ولا مخابراته الاستمرار فى استجواب الشاهدين أكثر من ذلك ٠ واجتاز الملك المخاضة وهو فرحان ثم عبر السهل المؤدى الى قادش ، تتبعه عن قرب فرقة آمون ٠ لقد كان النصر سهلا فى الحملة السابقة ، والآن تبدو الأمور حسنة ، واطمأن الملك ومرافقوه الى ذلك ومضوا متثاقلين وقد تركوا الحفر متجهين شمالا فى السهل ليختاروا مواقعهم ، ويعسكروا شمال غرب قادش ٠

وتقع قادش فوق ربوة على لسان أرضى بين نهر العاصى ـ الذى يجرى شمالا ويخترق الجزء الشرقى من المدينة ـ وبين رافد آخر يجرى من الغرب ويصب فى نهر العاصى نفسه شمال غربى المدينة ، مما يوفر بعض الحماية للمدينة ٠ وقد شق أهل المدينة قناة صناعية عرضية من الرافد تصب فى النهر جنوبى المدينة ٠ وبذلك تحولت قادش عمليا الى جزيرة محمية يصعب اقتحامها ٠

تحطم الأوهام

ما أن عبر رمسيس وحاشيته وفرقة آمون المصاحبة له الرافد الغربى عصر ذلك اليوم ، حتى شرع الجميع فى نصب معسكراتهم فى مواجهة المدينة مباشرة ٠ وجمح بهم الخيال فتصوروا أن بامكانهم وضع الحصار عليها فى اليوم التالى ، واستقر الفرعون على عرشه الذهبى انتظارا

لوصول الفرق الثلاث الأخرى · ولكن سرعان ما وقع شيء لم يخطر لهم على بال · ويتلخص هذا الحدث فى أن جهاز الاستخبارات العسكرية المصرية أوصل بعض الكشافين للاستكشاف والتجسس · وتمكنت احدى الدوريات من أسر جاسوسين من جواسيس الحيثيين ، فأحضروا بسرعة للمثول أمام الفرعون الذى عقدت الدهشة لسانه :

« فسألهم الفرعون ـ من أنتم ؟ فردوا ـ نحن من جنود امبراطور الحيثيين ! أرسلنا لنستكشف موقع جلالتكم · فقال لهم جلالته ـ وأين هو ·· أين امبراطور الحيثيين ؟ احترسا فقد سمعنا أنه فى حلب شمال تونب · فأجابا ـ رويدا أيها الملك ، ان امبراطور الحيثيين قد أتى فعلا بجيشه يؤازره حلفاؤه من بلاد كثيرة ·· ولعلمك فهم معسكرون خلف قادش القديمة على تعبئة ومتهيئون للحرب والقتال » ·

واندهش الملك ، فقد صدق أن الحيثيين فى حلب على بعد مائتى ميل واذا بهم لا يفصله عنهم سوى ميلين اثنين ·

وغضب الملك غضبا شديدا وجمع هيئة القيادة العليا وقص عليهم هذا الخبر الرهيب :

« انظروا يا حضرات حكام المناطق ويا كبار ضباطى لما يجرى · لقد ظلوا (المخابرات) يرددون : « ها ! ان امبراطور الحيثيين فى حلب ، بعيدا فى الشمال ؛ شمال تونب ! ·· والآن ، فى هذه الساعة ، سمعت من هذين الجاسوسين الحيثيين ، أن امبراطور الحيثيين وحلفاءه فى جيش جرار ، وهم متوارون الآن خلف قادش القديمة ، ومع ذلك لم يستطع قوادى وضباطى أن يكتشفوا أنهم أتوا ! » ·

وصب الملك جام غضبه على جهاز مخابراته ·

وحسب المعلومات الجديدة شرع رمسيس فى اتخاذ اجراءات مضادة فعالة وسريعة تحسبا من أى هجوم مفاجيء · وفى ذلك الوقت كانت فرقة

رع قد بدأت تعبر السهل نحو المعسكر · ولكن فرقتا بتاح وست كانتا متأخرتين ولم تعبرا نهر العاصي بعد · وأسرع الملك بإرسال وزيره متبوعا بحامل كئوسه واحد الكشافين لاستعجال فرقة بتاح التي كانت ما تزال في غابات لابوى · وأرسل معه رسالة عاجلة نصها : « اسرعوا بالزحف ! سيدكم الفرعون يقف في المعركة وحيدا ! » ورتب الفرعون تأمين ابعاد العائلة الملكية من الميدان بالفرار غربا تفاديا للخطر المحدق ، وجعل على رأس المسيرة الأمير برحرونمف · عندئذ وقعت الواقعة ·

ثبت صدق أقوال الجاسوسين تماما · اذ أن الملك مواتالليس بعد حشد جيوشه الكثيفة ـ التي قد يكون عددها قد أربى على ضعف جيش مصر ـ زحف بالجيوش داخل سوريا الغربية · وعسكر خلف سلسلة الأشجار والمخابىء الأخرى على الشاطىء الشرقي في مواجهة قادش · وكان كشافوه يراقبون مسيرة الجيش المصري في الجنوب · فأرسل الامبراطور هذين الرجلين من قبائل الشاسو ليحتالا على تضليل الفرعون المختال · وفي هذه الأثناء اخذ يعبىء قوته الضاربة المكونة من العربات الحربية كي تندفع غربا عبر مخاضة العاصي المنخفض ـ جنوب قادش مباشرة ـ لينقضوا عليها في اللحظة الحرجة بقيادة الأمراء الحيثيين ·

الـكارثة

كان رمسيس وقواده يتشاورون في خطط الطوارىء ، فجأة حلت الكارثة · فقد ظهرت عربات الحيثيين الحربية على حين غرة وهي تتجه صفا صفا من النهر غربا لتعبر سهل قادش ، وأخذت تطيح بصفوف فرقة رع التي فوجئت بالهجوم ، فشقتها شطرين ثم انذارت عليهما لتشتت شملهما · وتحطمت صفوف فرقة رع من هول الهجوم والمطاردة الدموية من عربات الحيثيين الحربية وفرت نحو المعسكر ، حيث فرقة آمون المرافقة للملك · وكانت فرقة آمون حتى هذه اللحظة سليمة لم تمس · وعند رؤية الفارة ـ الفارين تتبعهم عربات العدو مصفرة الجو من حولها ومندفعة نحو المعسكر في شراسة ـ تفرق شمل فرقة آمون هي الأخرى وتشتتوا شذرا مذرا · واندفعت عربات الحيثيين لتطوق المعسكر وتصول فيه وتجول بدون رادع · واندفعت فصيلة من المقاتلين والعربات في دروعهم نحو الجانب الجنوبي للمعسكر ولكن بدون جدوى · وبدا للعيان أن الخسارة لا محالة واقعة ، وأن الفرعون سوف يهزم ، وأن احلامه لابد أن تتبدد · وبدا أن الامبراطور الحيثي مواتالليس قد امسك بزمام الأمور ، وأنه في طريقه الى القضاء على احلام منافسه قضاء مبرما ·· الى الأبد ·

لكن رمسيس لم يذهله الموقف امام هذه الأحداث المتلاحقة ، وأدرك أن عليه أن يتصرف بسرعة · وفى الحال صاح بقائد عربته وقفز اليها · وأخذ يحاول تجميع قواته لكى تشد ازره ولكن دون جدوى · والفى نفسه وحيداً ! لكنه كان مستعدا حتى وهو وحيد لمقاتلة الحيثيين ومقارعتهم · وفى ذلك يقول :

« عندما رأى منا حامل درعي عربات العدو الكثيرة تحاصرني اصفر لونه وتسمر مكانه رعبا · وصاح فى جلالتى : « يا الهى الطيب ، والأمير الجبار ··· نحن نقف وحدنا امام العدو ، وقد فر مشاتنا وعرباتنا وتركونا ! لماذا تبقى لتنقذهم ؟ لنكن واضحين ، انقذ نفسك واياى ، يا أوسر ماعت رع ! » عندئذ قال جلالته لحامل درعه : قف مكانك ، واثبت يا حامل درعى! ساواجههم مثل منقار الصقر ، وساعمل فيهم تقتيلا وتذبيحا والقيهم ارضا ! » ·

ولم يتمكن الملك الا من جمع شرذمة ممن حوله ، بهم اخذ يهاجم المغيرين هجوم اليائسين ، وآلاف من الأفكار تتوارد على خاطره : الى متى تصمد فيالقه الفارة المذعورة ؛ والصلاة لآمون الذى طالما اخلص فى خدمته كى يخرجه من ورطته ، وكثير غير ذلك · وست مرات على الأقل التحم مع العدو فى قتال شرس ليحدث ثغرة وارتباكا فى صفوفهم ·

فى ذلك الوقت العصيب ، جاءته النجدة من جماعة منسية تماما فى خضم المعركة ؛ اذ جاء المدد من ساحل أمورو ، وقوامه النيريانيون الذين وصلوا الى الميدان فجأة على تعبئة رائعة والتحموا فى القتال على الفور · والفت عربات الحيثيين نفسها بين المدد الذى يهاجم جناحها الأيسر ، ورمسيس والقلة التى معه تهاجم بضراوة جناحها الأيمن · واحست القوة المهاجمة بالخطر الذى يتهددها وخشيت مغبة حصارها والقضاء عليها ، فتقهقرت ولكن بثبات نحو الجنوب مبتعدة عن طائلة المصريين حتى تعيد تنظيم صفوفها لتعاود الكرة من جديد ، فتقضى على الهجوم المضاد للمصريين ، قبل ان يتعزز ويستفحل امره · لكنهم فى ذلك لم يفلحوا ؛ لأن رمسيس الثانى لم يعطهم الفرصة وانقض عليهم ، فبدأ القتال يحتدم بين الطرفين ، وضغط المصريون على عربات العدو فدفعوها للخلف جنوبا ثم شرقا حتى بلغوا شاطىء النهر من حيث اتوا · ولم تفلح موجة العربات الثانية التى دفعت على عجل لنجدتهم فى انقاذ الموقف ، بل وجدت نفسها متورطة فى الارتباك الذى حدث فى صفوف العربات الحيثية ·

فى ذلك الوقت كان امبراطور الحيثيين الحذر ـ مواتاليس ـ مستعدا بين قواته المعباة المستريحة . وكان صوت المعـــركة يصله فى معسكره فيتهلل راضيا ، ظنا منه بأن عرباته قد نفذت ما عهد اليهـا به . وفجـأة تحول رضاه الى ذهول ، وهو يرى عرباته قد بدأت فى الظهور فى حـالة فرار واضحة ، وهى تتجه نحـو النهر لا تلوى على شىء ، وفى أعقـابها القوات المصرية تطاردها بلا هوادة وعلى رأسها الفرعون نفسه . وأصاب الامبراطور الذهول وهو يشاهد بنفسه أن جيشه يتشتت ، ويقع جمعهـم فى الماء ، اميرهم وحقيرهم ، سابحين الى الضفة اليمنى طلبـا للنجـاة والرجوع الى صفوفهم الآمنة ، وهم يتدافعون فيقعون فى الطين . ومن المضحك المبكى أن أمير حلب نفسه قد أصابه ما أصابهم نوقع اثناء تقهقره فى النهر وابتلع كمية كبيرة من المياه ، لدرجة أن أعوانه قلبوه من عقبيه ليفرغوا ما بجوفه من ماء .

الفرار مع العار

بعد أن عبرت آخر فلول الحيثيين الى الضـــفة الأخـرى ، وبدأت العربات المصرية فى الانتشار لحراسة البر الغـربى للنهر ، أصبح رمسيس الثانى هو المسيطر على الموقف . وأخيرا ، قرب انتهاء المعركة ظهـرت طلائع فرقة بتاح وعلى رأسها الوزير . وبسرعة انشغلوا فى حصـــار الأسرى ، وأخذوا يجمعون الأسلاب ويحصلون الخسائر البشرية بأسلوب رهيب بقطع يد من كل جثة ثم احصائها .

فى هذه الأثناء كانت فلول فرقة رع المذعورة ، وفرقة آمون المدهوشة تنضم بالتدريج الى قوات المدد الرئيسية من فرقة بتاح والحلفاء . وأوجز رمسيس وصف ما حدث فيما يلى :

« وجاء جيشى لتقريظى مدهوشين مما صنعته ... » فأسرع بشجب جبنهم وعدم تنظيمهم « ماذا تنتظرون أن يقول الناس عندما يسمعون (انكم) فررتم عنى ، وتركتمونى وحيدا ؟ وأنه لا جنـدى ولا ضابط ولا قائد حاول أن يساعدنى فى القتال ! لقد قهرت الملايين من الأراضى الأجنبية ، وخرجت بالنصر فى طيبة وحـدى والآلهة تموت راض . وللحق وجـدت جيـاد عربتى العظيمة ! هى التى وجدتها وأعانتنى وأنا وحيد أحارب الجيوش الأجنبية . وسوف أنحنى لها بنفسى وهى تتناول علفها كل يوم أمام ناظرى فى قصرى . واليكم من وجدته يمد يد المساعدة فى المعركة : انهم قائد عربتى ومنا حامل درعى

وحملة كئـــوسي ، فهم شهود المعركة ، وهم من وجـــدتهم (بجانبى) ٠

ومع الغروب والحضور المتوانى لفرقة ست، ذهب المصريون الى معسكرهم ليستريحوا بالليل ٠ أما عبر النهر فكان معسكر الحيثيين يعج بالنشـاط ويحتشد لتقييم المعركة والتعرف على نواحى الخلل فى حربهم ، وأدركوا واقع الأمر ؛ فقد منيت فرقتا آمون ورع من جيش مصر بخسائر جسيمة ، وخرجت فرقتا بتاح وست سليمتين ، ومعهما الامداد والقوات المعاونة ٠ أما فى معسكرهم هم فكانت كل قوات المشاة الكثيفة سليمة لم تمس ، بالرغم من أن خسائر العربات كانت فادحة ٠ لكن الخطب الجلل الـذى أقض مضجع مواتالليس ومجلس حربه كان خسارة عدد من القـادة ، وان كان أمير حلب قد نجا بعد حادث تجـــرعه الماء ٠ وخسر الملك اثنين من اخوته ، واثنين من حاملى دروعه ، وأمين سره ، ورئيس حرسه المخصوص، واربعة من قواد عربات المقدمة ، وستة من قيـــادات الجيش من مختلف الرتب ، فيما عدا الخسائر الأخرى العرضية ٠ وكانت نتيجة تقييمهم للوضع تتلخص فى أن الفشل سببه الرئيسى بنية رمسيس الثانى القوية وشجاعته الفائقة ، ثم وصول المدد الذى لم يلحظوه ، ثم القبض على جاسوسيهم ٠

نهـــاية المعـــركة

فى وقت مبكر من صباح اليوم التالى ، اعتقد رمسيس الثـانى أنه يستطيع أخذ زمام المبادرة ٠ فعبـــأ قواته بسرعة وأخـــذ يهاجم الحيثيين بعنف ٠ مثل هذا الهجوم لو كان على غرة ومعززا بعربات حربية تفوق ما لدى العدو ، كان من المرجح أن يؤتى ثماره ويزعزع مراكز الحيثيين ويدفعهم الى التقهقر ٠ ولكن الحيثيين كان لهم التفوق العددى ، كما أن قواتهم كانت جيدة التنظيم ، لكن سلاح عرباتهم كان جريحا ٠ لذلك وجـد كل من الفريقين نفسه فى وضع لا يحسد عليه ٠ فلم يستطع الحيثيون رد المصريين على أعقابهم ، كما وجد المصريون أنه ليست بهم طاقة لمقابلة قوات مواتالليس المتماسكة ٠ فانفصـل الجيشان وكفا عن القتـال ترقبـا لمـا ســـوف يحـــدث ٠

ورأى مواتالليس الحكيم ، الأمين على سياسات بلده أن الطـــرق الدبلوماسية هى خير وسيلة لحل العقدة ٠ وكان هذا الملك المجرب هـو بعينه ــ منذ خمسة عشر عاما مضت ــ الذى حقق السلام مع سيتى الأول على أساس اعتراف الطرفين بالأمر الواقع ، وضمن احتفـاظ الحيثيين بامورو وقادش ٠ فكان أن بادر مواتالليس بارسال وفد للفرعون حـاملا

معه مقترحات الصلح . وتفاصيل ذلك كله مجهولة ، لكن يمكن القول بأن مواتالليس بدأ بتهنئة الفرعون على بسالته ثم دخل في الموضوع : الصلح على أساس الأمر الواقع .

وجمع رمسيس مستشاريه وعرض عليهم مقترحات الحيثيين ليستشف ما في صدورهم :

« وقالوا في نفس واحد : السلام شيء عظيم ، يعلو على كل شيء ، يا مولانا الملك ، ولا يوجد من يعارض التسوية اذا أبرمتها أنت ، فمنذا الذي يجرؤ على الوقوف في طريقك يوم غضبك ؟ » .

واستنتج رمسيس أن الجيش قد اكتفى وليست لديه رغبة في مزيد من الصدام مع الحيثيين ، أو حتى مجرد مهاجمة قادش ؛ كذلك لم يستسغ أن يقر السلام على أساس نقلات قادش وأمورو من أيدى المصريين ، وهو الذى كان معترضا على ذلك في نفسه أيام أبيه .

لذلك عزم رمسيس على حل المشكلة بصورة مؤقتة محتفظا لنفسه بحق العودة عندما يتيسر الحال مستقبلا . فرفض توقيع أية معاهدة تحتوى بنودها على اتفاقية بشأن قادش وأمورو . وفى مقابل ذلك وافق على وقف القتال هذه المرة . ورأى أنه بذلك يمكنه أن يأمر جيشه بحزم متاعه وبدء التحرك الطويل في الطريق الى الوطن ، وفى خاطره أنه يستطيع معاودة الكرة ومهاجمة سوريا في أى وقت يشاء . وكان في هذا متفائلا أكثر مما يجب ، وربما يكون قد خانه بعد النظر . فعلى الرغم من فشل مواتالليس في ابعاد عدوه الزئبقى السريع الحركة ، أو توقيع سلام حقيقى معه ، الا أنه حصل على فرصة ذهبية يلتقط فيها أنفاسه .

العودة للوطن في جو عاصف

تحرك الجيش المصرى الضخم جنوبا ، في أواخر شهور الصيف الثالث ، فعبر نهر العاصى عند شبتونة الى كنعان ويمم وجهه شطر مصر . وفى بداية السنة السابعة ، في الشهر الرابع ، كان قد جاوز القلعة الحدودية المصرية عند سيلى ، متوجها للدلتا ليصل الى العاصمة الصيفية ؛ ودخل رمسيس المدينة في موكب حافل يتقدمه الأسرى والغنائم راكبا عربته المتلألئة واتجه نحو ساحة قصر بي رمسيس في ذروة حرارة شمس يونيه / يوليه ١٢٧٤ ق.م .

اما فى الشمال فما كاد رمسيس يرحل حتى اصبح مواتالليس هو سيد الموقف . والحقيقة أن انتصار رمسيس عند قادش كان نصرا شخصيا هزيلا ، اذ ترك رمسيس ـ ثانى ايام المعركة ـ الميدان وآثر ألا يورط جيشه فى قتال آخر ؛ وعاد للوطن . واثبتت الأسابيع التالية انه فى ميدان السياسة انهزم رمسيس هزيمة مؤثرة . فما أن خلا لمواتالليس الجو والتقط انفاسه حتى أحكم قبضته على قادش ثم تحرك غربا لاخضاع امورو . وهناك خلع مواتالليس ملك امورو المذكور بنتوشينا عن عرشه ، واحل محله ملكا جديدا هو شابيلى . وابقى الامبراطور على حياة بنتوشينا لكنه نفاه الى هاتوساس حيث استعبده خاتوسيلى اخو الامبراطور بعد ذلك .

اذن فقد حقق مواتالليس هدفه السياسى الرئيسى برد قادش وامورو الى حظيرة الحيثيين ، رغم عجزه عن دحر رمسيس الثانى . وبعد أن فرغ من ذلك رأى أن بامكانه تحقيق المزيد من اطماعه ودفع المصريين الى الوراء اكثر فأكثر . ففى الوقت الذى كان رمسيس يقترب فيه من اراضى الوطن ، كان مواتالليس يقود جيشه ويتجه به جنوبا بدلا من العودة به الى وطنه فى الشمال ؛ فعبر وادى بيكا ، وهدد المركز المصرى فى كوميدى ، ثم اتجه شرقا خلال جبال لبنان القديمة لاحتلال دمشق ومستعمرة أوبى المصرية . وكان لدى المصريين ما يشغلهم من الهموم عن التفكير فى امر قادش وامورو . وكانت النتيجة أن توسع الحيثيون وضموا الى ملكهم ما ضموا غنيمة باردة . فاذا كان رمسيس قد كابر ورفض التوقيع على معاهدة « معقولة » ، فقد كان عليه أن يدفع الثمن .

فى ذلك الوقت حل موعد الأعياد فى خيتا ، وكان على الملك أن يعود الى بلاده ليشهد الاحتفالات الدينية ويشكر الآلهة على الانتصارات التى حازها . لذلك توجه الى الوطن ، وترك خلفه أخاه العنيف وذراعه اليمنى ـ خاتوسيلى ـ لتنظيم شئون المستعمرة التى وضعوا يدهم عليها حديثا ، مستعمرة أوبى .

ولكن نجاح الحيثيين فى هذه الجبهة جاءت مقابله خسائر مؤثرة على جبهة اخرى . ففى غمرة احداث قادش الدموية ، انتهز ملك آشور الجرىء حداد نيريرى الأول الفرصة ، ووضع عينه على أرض هانيجالبات ، وهى ما تبقى من امبراطورية ميتانى العظيمة وقت حكم اخناتون .

وقد كانت هانيجالبات موضع نزاع قديم بين الحيثيين والاشوريين ، وفى موقعة قادش تحالفت مع مواتالليس واصابها بعض الخسائر بلا شك .

وفى وقت لم يتوقعه الحيثيون ولا أهل هانيجالبات زحف الآشوريون غربا وقهروا الملك واساشاتا وضموا هانيجالبات الى الأملاك الآشورية ، التى امتدت بذلك حتى منعطف نهر الفـرات الغـربى ٠

وفى أعقاب الغزوة ، وفى نشوة النصر ، كتب حداد نيريرى الى مواتالليس رسالة ليس فيها شىء من الكياسة والدبلوماسية المعهودة بين الأقران ٠ وفى الرسالة ادعى لنفسه ، بحق الغزو ، لقب « الملك الأعظم » (مركز القوة العظمى) ، وعرض على الامبراطور أخوته أو الدخول فى حلف معه ؛ وفى حالة رفضه فسوف يقتحم عليه سوريا الى جبال عمانوس، ومن يدرى فربما توغل فى خيتا نفسها ٠

وازاء هذه الرسالة الاستفزازية ، اشتعل الامبراطور غضبا ورد عليه ردا لاذعـا :

« انك تطنطن بانتصارك على واساشاتا وأرض الحوريين ، وقد غزوتها ولا شك عنوة ٠ وهزمت حليفى ونصبت نفسك «ملكا أعظم » ٠ لكن ما هذا الذى لا تفتأ تردده عن «الأخوة» ؟ أنت وأنا هل ولدنا من أب واحد وأم واحدة ؟! (بالعكس) ان ابى وجدى لم يتعودا على الكتـابة الى ملك آشور عن « الأخوة » ؛ فكف عن معـاودة الكتـابة عن الأخـوة والملك الأعظم ٠ فلست أرغب فى مناقشة الموضوع » ٠

اذن لم تكن محصلة حرب قادش كلها مغانم للحيثيين ٠ فأوبى التى ضموها ضئيلة الأهمية ازاء تهديد سوريا كلها من الشرق بعد ضياع الدولة التى كانت حامية لحدودها ، دولة هانيجالبات ٠ وللحقيقة قام على حكم هانيجالبات ملك جـديد ـ شاتوارا الثـانى ـ وكان مستعدا للنضال ومحالفة الحيثيين ضد آشور ، ولكن ما حدث بعد ذلك لم يفلح فى تعزية مواتالليس عن مصابه بأسر واساشاتا ووقوعه بين براثن الذئب الآسيوى بعد انتهاء معركة قادش بفترة وجيزة ٠

الصراع من أجل سوريا

الاحتفالات والترقيات والانشاءات بأبى سمبل

استقر رمسيس الثانى فى عاصمته الصيفية بى رمسيس التى أخذت تتسع بسرعة حينئذ ٠ وفى قصره بالقر رأى رمسيس الثانى أن يخـلد

انتصاره الذى انتزعه من براثن الهزيمة فى قادش • فلو لم يخاطر بنفسه فى شرذمة من مرافقيه الذين جمعهم على عجل ويحقق الانتصار ، فماذا كان يحدث لمصر ؟، كانت طبعًا قد أصبحت بلا قيادة ، وفقدت امبراطوريتها، ولكن الشجاعة والبسالة والجرأة التى ظهرت منه شخصيا هى التى حسمت الموقف • وان كانت المعركة لم تسفر عن احتلال قادش ؛ أو أن الحيثيين بعد رحيله استرجعوا أمور وضموا أوبى المصرية ، فان ذلك فى نظر للفرعون المتفائل المختال شيء يسير يمكن معالجته خلال سنة أو اثنتين ما دام القائد سليماً معافى • فسوف يتطور بآلات الحرب ويجدد جيشه ويرفع مستوى قيادته وكفاءتهم ويهتم بموضوع الذكاء الحربى (المخابرات) •

فبطولته فى قادش لم تكن فى نظره نهاية حلم ، ولكنها كانت بداية مرحلة استفاد منها • فهى لديه المقدمة لانجازات كثيرة وعظيمة سوف يحققها فى مقتبل الأيام •

واحتفالا بالحدث العظيم : الفرعون وحده بشجاعته وبسالته وجرأته يحول الهزيمة نصرا ، رأى أن تسجل « ملحمة » مصورة بالنقوش البارزة السامقة تصف الموقعة • فأمر كبار كتابه وفنانيه بتأليف وتصميم هذه الملحمة ، قبل تنفيذها على الجدران والصروح بمعابد مصر الكبرى •

وسرعان ما فرغوا من وضع التصميم المطلوب بأسلوب التصوير ذى البعدين ، الذى لم تعرف مصر غيره طوال العصر الفرعونى :

اللوحة الأولى :

تحتوى على مشهدين فى قصة ملحمية : تصوير المعسكر المصرى وعرش الملك واستجواب كشافى الحيثيين وهجوم العربات الحيثية على المعسكر ، ثم وصول المدد •

ويصحب الصور نصوص للشرح •

اللوحة الثانية

للملك فى عربته وهو يهاجم الأعداء ويقاتلهم بشراسة وبسالة • واضطرار العدو للتقهقر بلا نظام لدرجة وقوعهم فى نهر العاصى، بينما يقف ملك الحيثيين على الجانب الآخر للنهر عاجزا عن التصرف ، وحوله جيشه الذى لم يشترك فى المعركة مشلولا عن الحركة • وباللوحة

اطار علوى بداخله تصوير لقلعة قادش الحصينة . ولم تخل اللوحة من روح الفكاهة بتسجيلها لأمير حلب فى وضعة المقلوب عندما كان أعـوانه يفرغون جوفه من الماء .

اللوحة الثالثة :

لوحـة فرعيـــة عبـــارة عن منظـر مثول الأسرى أمام الملك ؛ ثـم الملك والأبناء يسوقون الأسري والغنـــائم ويهبـونها للآلهة ؛ يصـاحب ذلك عدة نصوص شعرية تتحدث عن بدء الحملة . ثم المفاجأة التى حلت بالجيش المصرى ، وطرد الحيثيين ، ثم معركة اليوم الثانى ، ثم «التماس» الحيثيين للصـــلح .

هذه خطة لتصميم عظيم لا يقل روعة عن برامج الصـوت والضوء الحديثة ، سرعان ما شرع فى تنفيذه على الجدارين الخارجيين الشـمالى والغربى لمعبد رمسيس الجديد بأبيدوس ؛ ثم على كل الجـدار الخـارجى الجنوبى لبهو الأساطين الكبيرة بالكرنك (استبدلت هذه المشاهد فيما بعد بمناظر تعالج حروبا اخرى) ؛ ثم بطول مدخل الكرنك الجنوبى من الجانب الغربى ؛ وكذلك فى ثلاثة مواضع بمعبد الأقصر : واجهة الصرح ، وخارج البهوين ؛ ثم مرتين فى ساحات معبد الرمسيوم الخارجية عبـر النهر . وسوف نرى أن نموذجا آخر خلدته آثار النوبة البعيـــدة (فى القـاعة الرئيسية لمعبد ابى سنبل الكبير) .

وعندما تيقظ رمسيس الثانى لفشل جيشه المزدوج ، فى حـــرب الذكاء (المخابرات) وفى المعركة ، [illegible] أجــرى تغييرات جذرية فى مراكز القيادة العليا بالجيش ، الا أن [illegible] الموضوع القى عليه التـــاريخ ستارا كثيفا كالعـادة . ولما كانت الترقيات تتبع التخفيضات عادة فان الاستنتاج يكون له ما يبرره . فنـلاحظ مثـلا أن آمون ام اينت ـ رفيق الفرعون القديم ـ رقى الى منصب رسول الملك لكل البلاد الأجنبية . ويقول الرجل بهذه المناسبة موضحا طبيعة عمله الجديد : « أرفع له (الفرعـون) تقارير عن احوال البلاد الأجنبية كلهـا » . وواضح من هذا أن رمسيس قد اجرى تغييرا فى « جهاز المخابرات والمعلومات » . ومنا هـــذه الا عينـــة .

ولكن رمسيس الذى لا يتطـرق الكلل الى نفسه كان لديه مزيد من الوقت يمضيه فى وضع مشاريع معمارية بعد الفراغ من مشاكل الحـرب والسياسة . واتجهت عيناه هذه المرة نحو الجنوب ، الى النوبة . فعلى

بعد أميال قليلة من أكشا شمالا ، وعلى بر النيل الغربى يوجد جرفان عاليان ميلهما شديد جدا ، يتركبان من صخور رملية وردية اللون ، ظاهران من الوادى الضيق · هذه هى صخرة أبشك ـ أبو سمبل الحالية· فقرر الملك نحت معبدين فى هذه الصخور الحية · ففى الجرف الجنوبى نحتت واجهة كبيرة يتناسب حجمها مع الصروح الضخمة ، اقيمت فيها أربعة تماثيل عملاقة للملك وهو جالس ، يزيد ارتفاع الواحد منها على ٦٥ قدما ؛ لتكون بمثابة مدخل يؤدى الى معبد كل أبهائه منحوتة فى الصخر الحى بطول ١٦٠ قدما فى قلب الجبل نفسه · وعلى الجدار الشمالى من الداخل لأول هذه الأبهاء ـ وهو بهو معمد ـ صورت معركة قادش لتشغل كل هذا الجدار ·

هذا الصرح الكبير كرس كمعبد تذكارى لرمسيس الثانى فى النوبة، تحت رعاية الاله آمون ـ رع · وفى الجرف الشمالى الذى يبعد عن الأول عدة مئات من الياردات ، أقيمت واجهة أخرى كمدخل لمعبد صخرى آخر منحوت داخل الجبل لمسافة ٨٠ ياردة · وقد كرس رمسيس هذا المعبد لعبادة الالهة حتحور ، باسم الملكة نفرتارى · فى هذا المعبد يخيم الجو العائلى على صورة ستة تماثيل واقفة عملاقة للملك والملكة تزين الواجهة، ومعها تماثيل أصغر حجما لأطفالهما · وبذلك استغل الفرعون موضع الجرفين الفريد فى بناء معبدين واحد له والآخر لملكته المقربة ·

وترك منفذو هذين المشروعين التوأم بصماتهم للأجيال التالية منوهين بعملهم الضخم · فقد صور ايونى ـ نائب الملك ومدير المشروع التنفيذى المقيم ـ مشهدا لنفسه وهو واقف أمام الملك ، بالضبط بحذاء حافة الواجهة الشمالية لمعبد الملكة ـ تنويها باشتراكه فى العمل · وعلى العموم كان هذا آخر أعماله الكبيرة ، اذ عين بعده نائب ملك جديد ليكمل العمل ، هو حقا نخت · وكان الرجل الثانى على المستوى التنفيذى فى بدء تشييد معبد أبى سمبل ، هو آشا ـ هبسيد وهو من اتباع الفرعون الثقات وساقى الملك الذى رقى الى منصب كبير السقاة وتسمى باسم رمسيس ـ عشاحب سد، تعبيرا عن ولائه للفرعون ·هذا الرجل ما أن وصل الى الموقع ـ كمشرف مقيم ـ حتى وجه نشاطه المعهود نحو عمل الاجراءات اللازمة للبدء فى تشييد المعبد الكبير · وقد ترك لنا بطاقته ـ كما فعل ايونى ـ فى نقش بارز عميق يبدو فيه واقفا أمام الفرعون معلنا :

« انظر ، ان ذهن الملك متيقظ لتحين اللحظة المناسبة لتقديم القرابين لأبيه ـ الاله حورس محا ـ فى الحقيقة ليبنى له معبدا يعيش ملايين السنين ، ويقوم بتنفيذه قوة من العمال

قوامها الأسرى الذين طالتهم ذراعه القوية من كل البلاد الأجنبية ؛ فملأ مزارع الآلهة بالأطفال السوريين كغنيمة ٠ وقد كلف ساقي الملك مجددا بالسيطرة علي أرض كوش ، باسم جلالته العظيم ٠٠ » ٠

وهكذا نرى أن عشاحب سد كانت له سلطات مطلقة ، للسيطرة على النوبة ، وهو ما قد يكون ايوني منى بالفشل فيه ٠ فأضيف الى أعبائه تسهيل العمل فى المعبد الجديد الضخم ٠ وقد أطلق اسم محا على الجرف الجنوبى ، وخصص لعبادة الاله حورس المحلى ، تحت اسم ابشك ٠ أما الجرف الشمالى فأطلق عليه اسم حتحور ٠ ولكن حورس المحلى لم يقدر له أن يكون له ظهور فى معبد الملك بعد ذلك ٠

الصحوة والثورة

لم تشهد فترة الاثني عشر شهرا بين منتصفي سنة ٦ ، ٧ الملكيتين ـ بما فيها صيف ١٢٧٣ ق٠م٠ ـ حركات حربية ذات بال ٠ ويبدو أن رمسيس الثانى ركز اهتمامه فى هذه المدة على اعادة بناء جيشه المهلهل وتنظيمه ٠ ومن الطبيعى أن تكون آلة الحرب فى شكلها الجديد بحاجة الى التدريب والتجريب ٠ ومن المرجح أن يكون الملك قد اختار ميدان التدريب بعد تحديث جيشه فى جبهة يذكرها جيدا منذ شبابه هى جبهة ليبيا الساحلية ؛ فى حملة سهلة لردع هذه الجبهة وكفها عن اثارة أية مشاكل له اذا رأى التوجه الى سوريا ٠

فى ذلك الوقت كانت سحب الاضطرابات تتكثف على الجبهة السورية بالذات ٠ فقد أدى انسحاب رمسيس من قادش ، وخروج أوبى من قبضته بدون أن يظهر من الملك أى رد فعل مناسب بالاضافة الى عدم عودة الملك الى سوريا فى حملة صيفية فى ذلك العام ، كل هذه العوامل أدت الى اعتقاد كنعان بأن ذلك دليل ضعف ٠ فبدأ حكام كنعان يتغاضون عن دفع الجزية لجباتها من المصريين ٠ وفى نفس الوقت كانت هناك ممالك فتية قد بدأت فى الظهور ، منها مثلا مملكة مؤاب التى تلى البحر الميت ، ومملكة ادوم سير جنوبها مباشرة ، وهاتان المملكتان رفضتا السيادة المصرية ٠ ومن جهة أخرى بدأت قبائل البدو من سير ـ المعروفة بالساشو ـ فى الاغارة على قلب كنعان ٠ وخلاصة ذلك كله أن جبهة سوريا شهدت فى هذه الفترة اضطرابات خطيرة لم تشهد مثلها منذ عشرين عاما ـ أى منذ أيام سيتي الأول ٠ ومع ذلك فلم يستطع رمسيس الثانى أن يحرك ساكنا هذا الموسم بالذات ٠

فلما كان الربيع التالى بين سنتى ٧ ، ٨ (صيف ١٢٧٢ ق٠م٠) أخذ رمسيس بين يديه أزمة الأمور ، وقاد حملته الصيفية فوصل غزة بسرعة، وأوقف حكام كنعان التابعين عند حدهم ، فأيقنوا أن الوضع لن يتغير ٠ وفى هذه الحملة تمكنت احدى الفرق المصرية خفيفة الحـــركة من طرد الساشو ودفعهم نحو الشرق خارج حدود كنعان كلية ٠ وبعد ذلك تعامل رمسيس مع شرق فلسطين ، فأرسل الأمير الكبير آمون حرخيشف (عرفناه من قبل باسم آمون حرونمف) على رأس فرقة سريعة الحركة فعبر تلال النقب عبر الوادى الصخرى جنوب البحر الميت ثم صعد الى ادمون سير فغزا مدنها ٠ ثم اتجهت قوات الأمير شمالا عبر منحدر زرد العميـــق الى قلب مؤاب وعلى طول الطريق التقليدى المعروف باسم « الطريق الملكى السريع » لغزو بوتارتو (رابا باتورا) ٠ وفى نفس الوقت كان رمسيس نفسه يزحف صانعا قوسا فى اتجاه عقرب الساعة ليتمم تحركات الأمير — عبر جبل كنعان المركزى الرملى ويتجاوز أورشليم (القدس الحالية) ، ثم فوق الأردن حتى يتجاوز أريحا والحد الشمالى للبحر الميت ، ثم يتجه جنوبا فيخترق مؤاب لضرب مدينة ديبون ٠ وبعد الاستيلاء على هـــذه المدينة اتجه رمسيس جنوبا عبر وادى أرنون وروافده ، للالتحام بالأمير آمون حرخيشف ٠

بهذا تكون كنعان قد أخضعت وهدأت ، ويكون فى وســع رمسيس أن يتطلع الى الشمال مرة أخرى ، فيستمر صعدا فى « الطريق الملكى السريع » فيمر بهشبون ، وعمون ، ويتجاوز عشتروت — قرنايم الى دمشق صاعدا منها الى كوميدى ، فيسترد مســــــتعمرة أوبى المفقودة ويعيدها للسيادة المصرية ٠ وبانجاز كل ذلك يصبح رمسيس فى حل من العودة للوطن مطمئنا ظافرا ٠

العـودة لمهاجمة ســـوريا

أخيرا أحس رمسيس أن بامكانه خوض المغامرة واسترداد سوريا٠ فقـــام فى الربيع بين سنتى ٨ ، ٩ (١٢٧١ ق٠م) بالقضـــاء على آخـــر جيوب المقاومة فى شمال كنعان ؛ وسيطر على الخارجين فى تلال الجليـــل (ماروم وبيت عنات) ، واحتل ميناء عكا ٠ ومن عكا أصبح فى وسعه أن يصول ويجول على طول ساحل فينيقيا الجنوبى ، شـــمالى عكا ، وبذلك يثبت حقوقه فى ميناءى صور وعكا ، وفى بيروت وجبيل وأولازا وارقاتا ثم سامراء ٠ ويعتقد أنه اشاد بذلك فى نقوش حفرها فى صخور مدخـــل بحـــر الكلب ٠

الى هنا لم يحرك الحيثيون ساكنا ، ولم يحاولوا رد الاعتـــداء ٠ فلو توقف رمسيس عند هذا الحد لكان خيرا له ٠ لكنه لم يفعل ، بل واصل تقدمه وأسرع بفـــرض الحصار على أمورو وقادش ؛ فاتخذ طريقه الى الشرق ثم توغل الى الداخل عبر وادى الاوليفيروس هابطا شمالا الى وادى نهر العاصى ٠ بذلك يكون رمسيس الثانى قد توغل فى أرض يسيطر عليها الحيثيون ، لم تطأها قدم الجيش المصرى منذ مائة وعشرين عاما ٠ ولم يكتف بذلك بل افتتح دابور [« المدينة التى افتتحها جلالته فى أرض أمورو » ـ عن نص سجل سنة ٨] ، الواقعة على حدود أمورو الشمالية٠

بعد ذلك اتجه رمسيس شمالا واحتل مدينة تونيب المستقلة٠وفى دابور نفسها ، أعلن الفرعون صراحة عن امتلاكه لهـا باقامة تمثـال لنفسه فى هذه المدينة ٠ وبامتلاك مجرى نهر العاصى الأوسط أمل رمسيس الثانى أن يتمكن من تضييق الخناق على شمال سوريا الواقع تحت سيطرة الحيثيين، فقد شـطرت أمورو وعزلت عن قادش واســتحال عليهما الاتصـــال بالحيثيين وحكامهم فى حلب شمالا ، أو قرقميش وبلاد خيتا الحقيقيــة ٠ وحقق رأس الجسر هذا الذى صنعه رمسيس نصرا مؤقتا له على أمورو وقادش المعزولتين ، وهذا بدوره خطوة كبيرة للتوســع فى شمال سوريا نفســـــها ٠

وحيث ان كل حمـــلات رمسيس موسمية ، لذلك يرجح أنه عاد الى عاصمته بى رمسيس فى أوائل السنة التاسعة محققا انجازات عظيمة ـ وان كانت وقتية ٠ خصوصا أن الحيثيين لم يحركوا ساكنا هذه المرة ٠

أما السبب فى صمت الحيثيين فكان له ما يبرره ٠ فبعد ربع قرن من حكم حافل مات امبراطورهم مواتاللِيس ـ وقت حملة سوريا المشـــار اليها غالبا ـ فحدثت أزمة فى تولى العرش ٠ وسبب الأزمة أنه لم يتـــرك وريثا شرعيا لأنه لم ينجب من كبرى ملكاته ولدا ذكرا ، وكل ما كان له من ذكور غلام صغير اسمه أورحى ـ تيشوب من احدى محظياته ٠ وأصبح هذا الغلام ملكا تحت اسم مورسيل الثالث ٠ وشعر الملك الشاب بتضاؤل نفوذه بجوار نفوذ عمه هاتوسيل رجل خيتا القوى ، الذى يعتبر رجـــل الساعة ٠ ولما كان مورسيل لا يثق فى عمه هذا فقد عمل على ابعـــاده الى حدود خيتا الشمالية ولم يبق فى حوزته سوى قوات ضعيفة ، وحدد له مهمته التى تنحصر فى السيطرة على قبائل الكاسكيان القوية الشكيمة٠ لذلك كله توجس مورسيل من مبارحة الوطن كى يعالج مشكلة ســـــوريا تاركا خلفه عمه الطموح ٠ وكانت النتيجة أن فوض نائبه فى سوريا ـ ملك قرقميش ـ فى التصدى للهجمات المصرية على الجبهة السورية ، وهو اجراء ولا شك قليل الفاعلية ٠

بمجرد عودة رمسيس الى مصر ، لم يجد جواسيس خيتا وقرقميش صعوبة تذكر فى تحريض المدن المحتلة مثـــل أوبى ودابور على ابعـــاد المفوضين المصريين والعودة الى حظيرة الحيثيين · فمصر بعيدة جـدا ، وجيوش قرقميش وحلب ونوحاس قريبة جدا مشكلة لها تهديدا مباشرا · لذلك عادت هذه المراكز بعد فترة احتلال مصرية قصيرة الى الخضـــوع لـــحكم الحيثيين ·

لذلك عاد رمسيس على راس حملة جديدة فى الســـنة العـــاشرة (١٢٧٠ ق·م) · وأعلن عن اجتيازه لأراضى فينيقيا باقامة نصب تذكارى عند نهر الكلب · ثم سار فى اتجاهين شرقا وشمالا فاسترد دابور · ولم ينس الفرعون المتباهى وهو فى منتصف الثلاثينيات ان يتيه بقوته البدنية، وتوجد له فى ذلك نقوش فى الأقصر والمسيوم يظهر فيها رمسيس الثانى وهو يطلق سهامه على دابور ، ومعها نص مسجل يقول :

« هذا الأسلوب فى حصار ومهاجمة هذه المدينة الحيثيـــة التى بها تمثال لجلالته ، قد طبقه جلالته مرتين ، فى حضور فيالقه وعرباته التى يقودها لمهاجمة هذه المدينة الحيثيـــة العدوة الواقعة فى منطقة مدينة تونيب فى أراضى النهرين · وقد أخذ جلالته درعه الواقى ليلبســه ـ بعد ساعتين (من القتال السافر) وهو واقف امام فيالقه وعرباته مهاجما تلك المدينة الحيثية ، بدون دروع · عندئذ فقط عاد جلالته ليأخذ درعه الواقى مرة اخرى ، كى يلبسه · والآن ، لقد اســتمر ساعتين يهاجم مدينة الحيثيين العـــدوة ··· بدون ان يلبس درعـــه » ·

هذا النص الثقيل الممل يدل على شيء واحد ، وهو ان رمسيس كـــان على راس جيشه يقاتل ببسالة · ولا شك انه كان محظوظا اذ لم تصـــبه سهام العدو · والذى لا شك فيه أنه أخضع دابور ثم عاد الى مصر ·

وكالعادة ما كاد رمسيس يبتعد حتى ارتد السوريون ببساطة الى الحظيرة الحيثية · ترى كم سنة ضاعت فى هذا الأخذ والرد ؟ لا احـــد يدرى ، لكنه رمسيس المكابر الذى ظن انه يمكنه السيطرة على الأحداث ·

وعلى الرغم من عناد رمسيس واصراره ، الا انه ادرك أخيرا أنه ما دام قد عجز عن اخضاع شمال سوريا كله حتى نهر الفرات وطوروس ، فلن يتسنى له المحافظة على وسط سوريا هادئا ·

من أجل ذلك أوقف حملاته الشمالية على سوريا فى السنوات من الحادية عشرة الى السابعة عشرة ، وقنع بالسيطرة على مستعمرات مصر التقليدية ، وكف عن محاولات التوسع ؛ وحول بصره الى جبهات اخرى ·

أما على الطرف الآخر فى خيتا فقد كانت الأمور بين الامبراطور مورسيل الثالث (أورحى ـ تيشوب) وعمه الشديد المراس قد وصلت الى نقطة اللاعودة ·

الخروج ـ حول بنى اسرائيل من مصر

كانت شرق الدلتا منذ العهود القديمة من المناطق التى تعددت بها الجنسيات والألسن · وبعد نهاية الدولة القديمة بدأ توافد الساميين عليها يتزايد أثناء الدولة الوسطى حتى بلغ الذروة فى عصر الهكسوس · وبعد أن استقروا فى شرق الدلتا بدأوا فى التغلغل فى خدمة البيوت المصرية فانتشروا لدرجة أنهم عرفوا فى أعالى النيل ·

ومن الأمثلة المشهورة فى تيار الهجرة الى مصر فى عصر الهكسوس هجرة يوسف (عليه السلام) [خروج : ٣٧ ، ٣٩ ـ ٥٠] · وفى عصر الدولة الحديثة ، أحكم عظماء فراعنة الأسرة الثامنة عشرة الرقابة على ممر سيلى الحدودى · لكن المستوطنين فى الدلتا كان عددهم قد زاد بشكل ظاهر الى عدة ألوف ، معظمهم من الكنعانيين والعموريين والحوريين من أسرى الحروب الذين سخروا للعمل فى مزارع المعابد الكبرى ومرافق الدولة الرسمية · فلما نشطت حركة بناء المخازن والصوامع لتخزين الريع من الغنائم والجزية حشد عدد كبير من الأجانب بالدلتا للعمل فيها بالسخرة · كذلك جندوا للعمل الاجبارى فى بناء السدود وغيرها من الأشغال العامة ·

وتغلغل هؤلاء الأجانب فى المجتمع المصرى ، فلم يقتصر وضعهم على الطبقات الدنيا فى المجتمع · فبالاضافة الى التجار وأعضاء السلك الدبلوماسى ، كان هناك أحرار من المستوطنين تدرجوا فى وظائف الدولة الى أعلى الدرجات مثل القائد أورحيا الذى وصل الى رتبة الفريق فى

الجيش وأصبح منتميا الى الطبقة العليا فى المجتمع · وكان من هؤلاء أيضا بعض المقربين من الفـرعون نفسه ، حملة كئوس (سقاة) بل ومستشارون للملك ·

وفى عهد الملك حور محب يحتمل أن يكون الملك قد سخر الدرجـات الدنيا منهم فى أعمال البناء بشرق الدلتا نفسها ، عندما قام بتوسيع معبـد ست بأفاريس · ومن بين هذه المجموعات كانت هناك مجموعة عرفت باسم الهابيرو وأصلها غامض ، وسخرت فى أعمال كثيرة منها العمـل المضنى فى مشاريع البناء · وعندما كان رمسيس الثانى فى أواسط عمره ، كانوا يعملون له : « الجنود والعابيرو الذين ينقلون الحجارة لعمل الصرح ·· من أجل رمسيس الثانى » · ومعنى ذلك أن هذه الفئة كانت تعمل بالسخرة الى جانب الجنود المصريين المجندين تجنيدا اجباريا ، فتوجه جانب منهـم للعمل فى المشاريع العمرانية وهى حالة كانت شـائعة جدا فى مصـــر القـــديمة ·

هذه الفئة ــ الهابيرو أو الخابيرو أو العابيرو ــ يختلط معهم بصفة عامة من ذكرتهم التوراة باسم العبرانيين ، وخصوصا العشائر الاسرائيلية التى استقرت فى شرق الدلتا منذ وقت طويل عندما دخل أجدادهم وعـلى راسهم يوسف ويعقوب أرض مصر هربا من القحط · وقد سخر اليهود بدورهم ضمن الحشود التى جمعت فى المشاريع الخاصة بالفـــرعون ، « وعاشوا عيشة ذليلة ، يؤدون كافة الأعمـال الحقلية » (خروج ١ : ١٣ ــ ١٤) · وتذكر التوراة كيف نجا طفل اسرائيلى من اجراءات الفرعون الصارمة لتحديد نسل الاسرائيليين (بقتل كل المواليد الذكور) : اذ ادخلت احدى الأميرات الطفل فى الحريم · ولما شب الطفل أعان واحدا من قومه على مصرى فمات المصرى · وخوفا من القبض عليه واتهامه بجريمة القتل فر من مصر هاربا ·· هذا هو النبى موسى عليه السلام بعينه (خروج ٢) ·

وقد عمل الاسرائيليون بالسخرة فى صناعة الطوب أيام سيتى الأول من اجل مشاريع البناء العديدة لهذا الملك · كما استمروا فى العمل فى أوائل عهد رمسيس الثانى لانتاج الطوب من اجل عاصمته الصيفية الجديدة بى رمسيس · وتذكر التوراة أنهم « بنوا للفرعون مدنا للتخزين (صوامع ضخمة لتخزين الغلال) منها بيثوم ورمسيس » (خـــروج ١ : ١١) · وواضح من النص أن المقصود بمدينة رمسيس فى التوراة ، مدينة بى رمسيس عاصمة الفرعون الصيفية ·

وتذكر التوراة أن موسى عاد الى مصر ليطالب الفرعون باطـــلاق الاسرائيليين من نير السخرة ٠ وبعد أخذ ورد ومقابلات متعددة وافق الملك العنيد على السماح للاسرائيليين بأن يرحلوا عن مصر ٠ وهـو لم يفعـل ذلك على رضى منه ولكن بعد أن رأى من الآيات ما جعله يؤثر رحيلهم ٠ فتحت ضغط ما شاهده من كوارث : فيضان مدمر للنيل ، تدمير للمحاصيل، انتشار الأمراض وتفشى الطـاعون ٠ ثم جـاء موت ولى العهد (آمون حرخبشف) فكسر صلف الملك وغروره فأجاب موسى الى طلبه ٠

واتخذ اليهود فى هجرتهم من مصر طريقهم من بى رمسيس جنوبا ثم شرقا حتى سكوت ؟ ، ثم اتجهوا شمالا بحـذاء البحيرات المرة ٠ لقد أصبحوا محصورين ! ولم يفلت رمسيس هذه الفرصة ، فأرسل فى اثرهم تجريدة كبيرة من العربات الحربية حاصرت « هذا العدد الضخم من عمال السخرة » (خروج ١٤ : ٧) ٠ لكن رياحا عاتية هبت على البحر الأحمـر والبحيرات ، ففرقت الماء فرقين وأوجدت للاسرائيليين طريق الفرار ٠ وما أن تابعتهم العربات حتى انطبق عليها البحر فغرقت ووقعت بين المصريين خسائر فادحة ٠ « وعلى الشاطىء المقابل كان النصر لبنى اسرائيل ، لا لجحافل الفرعون » (خروج ١٥) ٠

وآثر الاسرائيليون الا يتخذوا طريقا نحو كنعان لكى لا يقعوا تحت طائلة الفرعون واتباعه بسهولة ٠ لذلك مضوا جنوبا وشرقا متوغلين داخل سيناء نفسها ٠ وعند جبل سيناء ، أصبحوا شعبا لهم « ملكهم الكبير » ، وباركهم اله آبائهم الذين أخرجوهم من مصر ، ووفروا لهم الفرصة (خروج ٢٠) للحياة بصورة اكثر استقرارا وعقلانية بعد أن طرحوا فكرة الخضوع لأيديولوجية اليـد الحديدية ٠

هذه الواقعة التى تسميها التوراة بواقعة الخروج ، لا نجد لهـا اثرا فى نقوش رمسيس الثانى المتصفة بالتعالى والغرور ٠ ولعل ذلك أمر طبيعى ، فمنذا الذى يشيد بذكر خسارة مثل سرب عرباته الذى أغـرق فى اليم ، أو المتاعب المتوقعة لفقدان مثل هذه القوة العاملة الضخمة التى اصبحت تفتقدها الورش وقمائن صناعة الطوب ٠ وبسرعة غطى عـلى اخبار المحن ، فالطاعون والمرض والسيول كلها ذكريات اليمة مضت يجب نسيانها ؛ وحتى العبرة التى تدل عليها هذه الأحداث سرعان ما أسدل عليها السـتار وذهبت فى زوايا النسيان ٠

على أى الحالات كانت خسارة مصر الامبريالية خسارة مؤقتة بخروج اليهود ٠ لكنه بالنسبة لليهود انفسهم كان حدثا تاريخيا ضخما ، أحـدث

تاثيرا عميقا فى مجريات التاريخ العـام خصـوصا من النـاحية الروحية والعقائدية · وتذكر الأدبيات الاسرائيلية (خروج ١ : ٢٠) شيئا عن الدولة الحديثة فى مصر ، فتذكر طرفا من أخبـار مجتمـع دير المدينة (العمالى) ، وشيئا عن حصص الطوب الموكولة للمسخرين ، واسـتعمال التبن مما له أهمية فى المقارنات مع البرديات فى الدولة الحديثة · وفيها ذكر حتى لنظام الاجازات بدير المدينة · كذلك تذكر قسوة الفرعون فى معاملة العمال الأجانب – فى النوبة تحت اشراف نائب الوزير ستاو – وتجـرى مقارنة بين هذه المعاملة والمعاملة الرفيعة التى يجـدها العمال المصريون · كذلك تتحدث هذه الأدبيات عن صلف رمسيس وعناده المستمر · والمعتقد أن هذه الوقائع حدثت فى وقت ما خلال الثلاثين سـنة الأولى من حـكم رمسيس الثانى الطويل – ربما سنة ١٥ ؛ والكتابات اليهودية تتوافق على أية حال مع هـذا التـاريخ ·

المغـامرة الافريقية

الجبهة الشـمالية الغـربية

كان رمسيس الثانى مشغول البال دائما بالجانب الآخر من الدلتا ، الجبهة الليبية ، وهى جبهة شارك أباه فى حملتـه عليها وهو بعد أميرا · والآن ، وقد أصبح ملكا وأثناء فترة الهدوء الاجبارى بعد قادش ، قـرر رمسيس الأخذ بسياسة طويلة المدى للسيطرة على الشريط الليبى الساحلى وفرض الرقابة الدائمة على سكانه · من أجل ذلك أخذ فى دعم سلسلة من المستوطنات بطول حافة الصحراء الغربية بالدلتا من منف وحتى البحر ، كان يبنى فيها أحيانا معابد جديدة لآلهة المنطقة الغربية المحلية · هـذه المستوطنات ما هى الا مدن صغيرة قديمة لم يبق منها اليوم سوى أطلالها وهى : أكوام أبوبللو ، والحصن ، وقيرين ، وعبقان ، والبرنوجى ·

بعد ذلك بنى الفرعون سلسلة من الحصون على حافة الدلتا قرب البحر المتوسط وتنتشر غربا لمسافة طويلة نحو الغرب ، خلف السـاحل الليبى ؛ هذه المنطقة تبدأ من الغربانية الحديثة والعلمين (ذات الشهرة العـالمية الآن) وتنتهى فى أم الرخم وطولها ٢٠٠ ميـل من منبع « النهـر العربى » · والمعروف حاليا من هذه السلسلة من الحصون ثلاثة فقط بين الواحد والآخر مسيرة يومين على الأكثر للمترجل ويوم واحد لراكب الدابة أو العربة التى تجرها الدواب · تمثل هذه الحصون يسهل عليها أن تراقب تحركات قبائل البدو الليبية أو أية جماعات أخرى قد تأتى من الغـرب الأقصى · بذلك يكون من السهل كشف أية تحركات مريبة وارسال أخبارها

بسرعة ، أو طلب الامدادات العسكرية لمواجهة أى تهديد بالغزو فى وقت مناسب ٠

وبذلك تكون حماية مصر من هذه الجبهة قد توفرت ٠ هذا المخطط أثبت نجاحة طوال حياة رمسيس الثانى ، كما انه فعال فى فرض رقابة عادية روتينية على المنطقة ٠ وأيا كان الحال ، فهذا النوع من الحصون الذى يضم حاميات وثكنات عسكرية كان ضروريا للغاية فى تلك الأيام ٠

وتذكر الروايات التاريخية انه فى زاوية أم الرخم ، على بعد ٢٠٠ ميل من أرض الوطن كان قائد أحد الحصون هو نب رع الذى كان كاتبا ملكيا وقائدا عسكريا ومحافظا فى نفس الوقت (يعنى أنه حكم القلعة حكما عسكريا مدنيا معا) ٠ وكان الحصن الذى يحكمه يضم داخل أسواره ثلاث بنايات رئيسية واحدة منها على الأقل كانت معبدا ٠

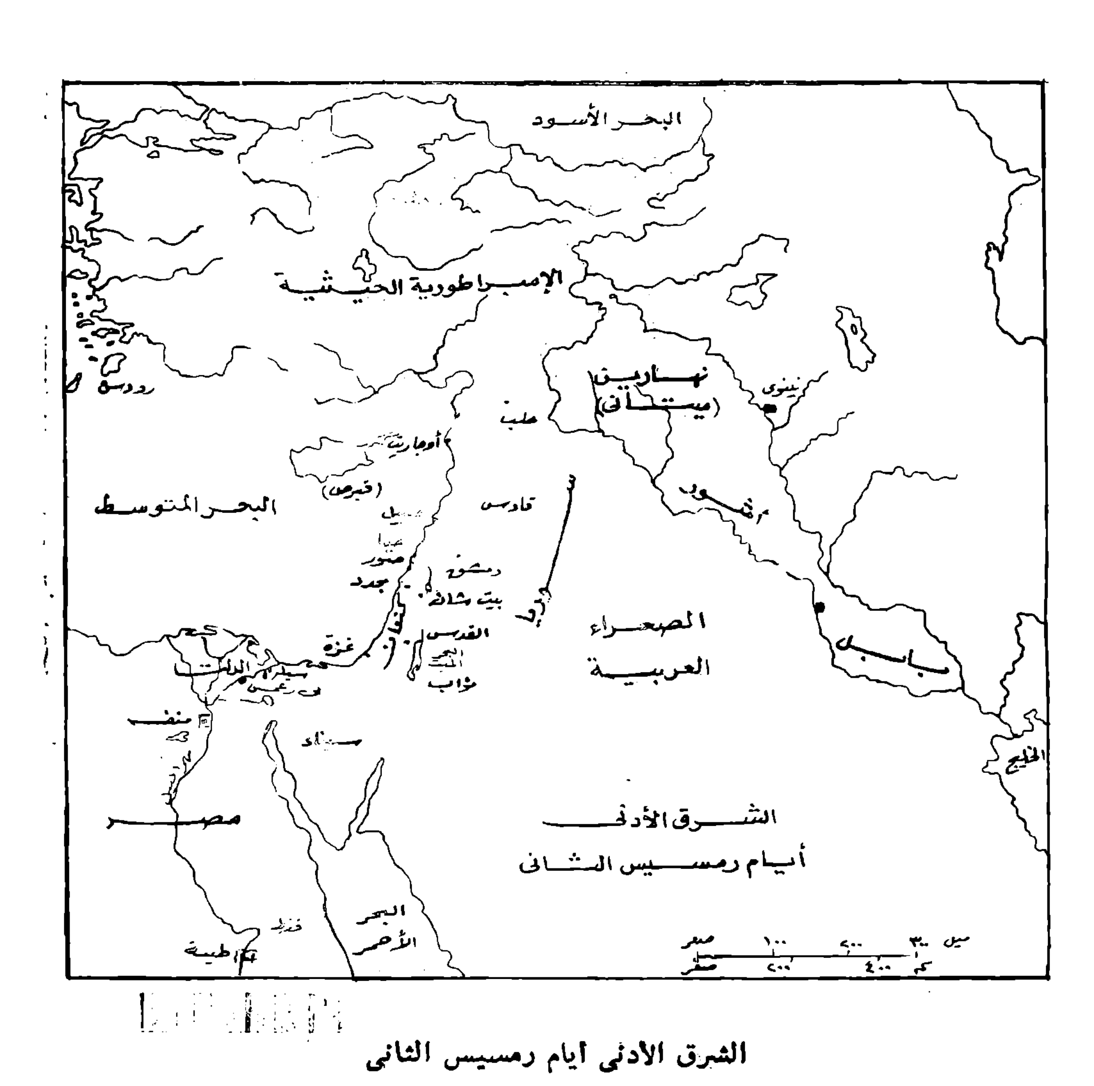
العودة الى ارم فى النوبة العليا

ظلت النوبة ساكنة لمدة تقرب من جيل كامل ٠ وقبل ذلك كان الملك سيتى الأول قد أدبها بشدة ، كما قام الأمير رمسيس اثناء نيابته بحملة عسكرية صغيرة لتاديب منطقة بالنوبة السفلى ٠ ويبدو أنه خلال العشرين سنة الأولى من حكم رمسيس الثانى ثارت الذكريات القاتمة لهاتين الحملتين فى نفوس النوبيين ٠ ومما أشعل الموقف وزاده سوءا تصرفات نواب الملك بالنوبة ، فقد كان حكمهم المستمر ، وافراطهم الدائم فى استغلال مناجم الذهب وتسخير الأهالى فى أعمال التنقيب واستخراج الذهب ، وفرضهم للضرائب التى تثقل كاهل الاقتصاد النوبى الضعيف ـ شيئا يثلج صدر الملك لا الأهالى ٠ لذلك لم يكن هذا الحكم من عوامل استقرار المنطقة ، لأن هذه التكاليف المرهقة كانت عاملا من عوامل الاثارة التى تدفع الشيوخ المحليين الى الثورة والتحدى ـ شجاعة أو يأسا ـ للتخلص من الادارة المصرية ٠

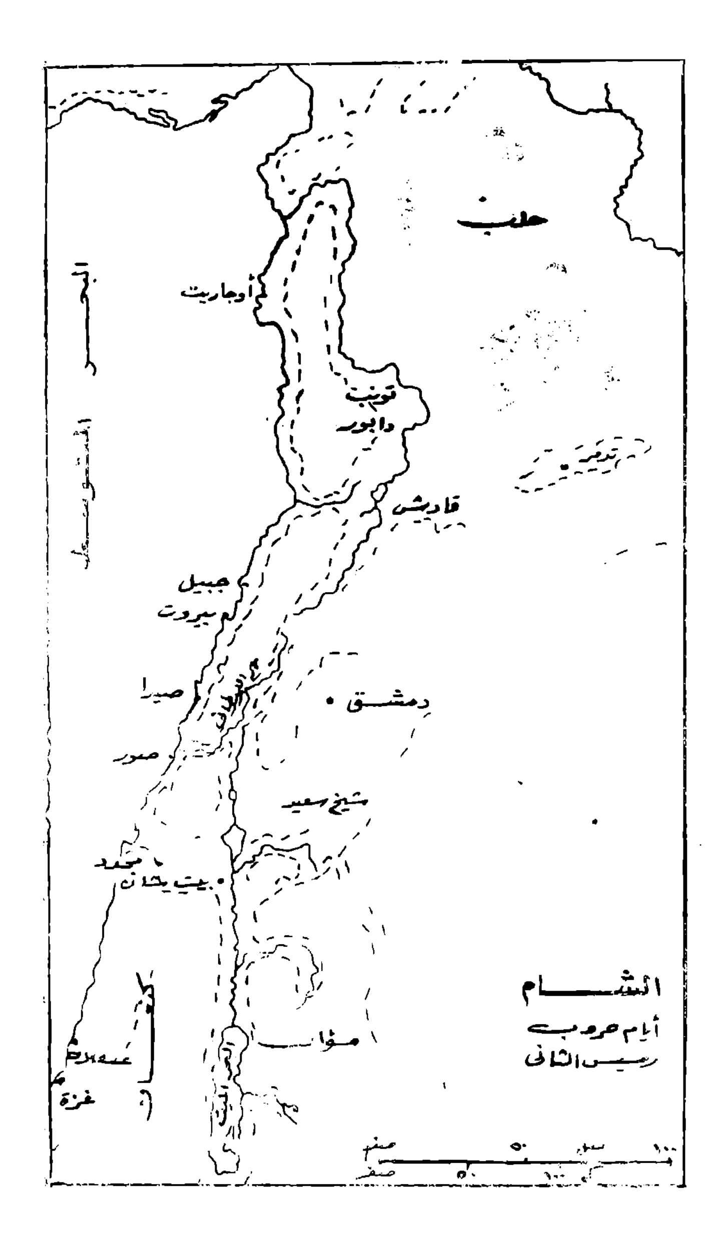
فى ذلك الوقت فكر رمسيس الثانى بتذكيرهم بأيام سيتى الأول ، فأرسل حملة عسكرية فى الوقت المناسب لتعزيز موقف نائب الملك فى النوبة ٠ وأشرك رمسيس فى الحملة اربعة من أولاده الأمراء منهم ست ام ويا ولده الثامن ، والأمير مرنبتاح ولده الثالث عشر وكانا فتيين فى العشرينيات من عمرهما ٠ ولتوقف العمليات على الجبهة السورية كانت تلك الحملة بالنسبة لهما فرصة جيدة للتدريب واكتساب شىء من الخبرات العسكرية ٠ ولا شك فى أن الحملة أدت ما عليها بسرعة ٠ وكانت حصيلتها

اسر سبعة آلاف أسير نوبى ، والقضاء على ثورة ارم وقمعها بصـــورة تجعلها غير قادرة على القيام بأية محاولة مستقبلية لمقاومة الحكم المصرى - وعندما أريد الاشادة بالحملة وجد أن جدران معبـــد العاصمة الاقليمية « رمسيس المدينة » ليس بها فراغ لتسجيل مثل هذا الحدث المحلى ، فنحتت مشاهد القتال المطلوب حفرها على الطلاء الخارجى السميك لجدران بوابة المدينة الرئيسية ، مع البوابة الغربية حتى يراها الرائح والغادى فلا ينسى جبروت رمسيس الثانى وافاعيله فى أهل الجنوب ، وبذلك لا تسول له نفسه محاولة اشعال الثورة مرة أخرى ٠

وسجل هذا النصر فى ابيدوس ايضا بشكل مختصر ، اضيف الى البوابة البرجية الثانية لمعبد رمسيس الثانى هناك ٠ ولكن يبدو انه حدثت بعض الارتباكات والموانع فلم تستكمل تلك النقــوش ٠



الشرق الأدنى أيام رمسيس الثاني



الشام أيام حروب رمسيس الثانى

الفصل الخامس

الســـــلام

العاصفة قبل الهدوء ـ أزمات الحيثيين

الأزمة الأولى : ثورة القصر فى خيتا

مضت سبع سنوات كان الملك مورسيل الثالث (هو نفسه الفتى أورحى تيشوب) يحكم امبراطورية خيتا بصفته الملك الأكبر أو امبراطور الحيثيين · وكانت ثقته فى عمه هاتوسيل شبه معدومة · وقد سبق أن ذكرنا أن الامبراطور نفى عمه هذا الى أقصى حدود خيتا الشمالية بحجة الدفاع عن الحدود · وتحت نفس الستار أخذ العم يجمع المنشقين من كل نوع ويضمهم لخدمته · ولارتيابه فى عمه أخذ الملك يقلص بالتدريج حجم مقاطعة هاتوسيل ، حتى قصرها على مدينة رئيسية واحدة هى هاكبيس ، التى كان هاتوسيل ملكها المحلى وأسقفها منذ عينه الملك الراحل مواتالليس هناك ·

وأخيرا انقطعت الشعرة التى كانت تربطهما : عزم أورحى تيشوب على تجريد هاتوسيل حتى من هاكبيس نفسها ، فأحس هاتوسيل أن العزل والاعتقال سوف يتبعان هذه الخطوة حتما ، فلم يعد يحتمل ، فاتهم أورحى تيشوب بأنه هو الذى فتح باب العداء ؛ وجاهر بذلك برفع موضوع النزاع بينهما للحكم فيه الى كل من الربة عشتار ربة ساموحا ، التى يعتبرها الحامية له وراعيته ؛ وكذلك الى اله الجو بمعبد نيريك · وتقدم أورحى تيشوب بقواته نحو عمه لاعتقاله ، لكن هاتوسيل أفلح فى تطويق الملك عند ساموحا نفسها وتمكن من أسره · وظهر هاتوسيل فى صورة المنتصر ، وأصبح للحيثيين ملك جديد هو هاتوسيل رجل العصر القوى · وقد اعتلى العرش تحت اسم هاتوسيل الثالث وبجواره زوجته التى أصبحت الملكة بودوخيبا · ولم يقم هاتوسيل باعدام غريمه أورحى تيشوب واكتفى بنفيه الى امارة نوهاسى الواقعة شمال سوريا ·

وقعت هذه التطورات فى السنة السادسة عشرة من حكم رمسيس الثانى · ومن الطبيعى أن رسل الملك ومخابراته كانت تحيطه علما بمثل هذه المعلومات والأحداث الدامية أولا بأول ، خصوصا وأنها كانت تحــدث فى قلب امبراطورية خيتا العظيمة ـ غريمته اللدود · ومن عجائب القـدر أن يجد رمسيس الثانى نفسه قد غرق الى أذنيه فى خضم هذه الأحداث ·

الأزمة الثانية : التهــديد بالحرب مرة أخرى

لم يقنع الفتى أورحى ـ تيشوب بالمكوث ساكنا فى منفاه بنوهاسى ، فبدأ فى التآمر بمؤازرة بلاط ملك بابل البعيدة · ولكن مؤامراته اكتشفت فنفاه هاتوسيل الى مكان ما على ساحل البحر ـ ربما يكون قبرص · ثم ان هاتوسيل الثالث أجرى اتصالات دبلوماسية مكثفة بملوك الدول الكبرى الأخرى للحصول على اعتراف كامل بمشروعية حكمه · وبمضى الـوقت أمكنه أن يدخل فى حلف مع كاوشمان تورجو ملك بابل · كذلك ســعى للتقارب مع شلمنصر الأول ملك آشور الجديد الذى اعتلى العرش فى وقت قريب عقب اعتلاء هاتوسيل عرش خيتا · ولم يبق غير مصر التى استمرت العــلاقات بينها وبين بابل متوترة · ورغـم نجـاح دبلوماسية هاتوسيل الشرقية ، الا أن مشاكله لم تنته · فقـد أفلح غريمـه الثـائر أورحى تيشوب فى الفرار الى مصر نفسها · وفى حدود السنة الثـامنة عشرة من حكمه كان فرعون مصر رمسيس الثانى قد وجد نفسه مضـطرا للترحيب بامبراطور خيتا المخلوع ـ فى بهو الاستقبال بعاصمته الصيفية بى رمسيس ـ الذى هـو ابن قرينه اللدود مواتاليش الذى اشتهرت قادش اســمه ·

هذا الذى حدث يعتبر أكبر تهديد يمكن أن يواجهه هاتوسيل · فما العمل اذا آثر عدو قديم رهيب مثل رمسيس أن يؤيد حق أورحى تيشـوب فى المطالبة بعرش خيتا ؟ لذلك بادر هاتوسيل ـ بكل حزم ـ الى مطالبة رمسيس بتسليم الفتى اللاجىء ، ولكن رمسيس رفض ·

ولم يكن لذلك معنى الا الحرب ! فاستعد هاتوسيل لتحريك قـواته وبادر كاوشمان تورجو حال علمه بقطع العلاقات الدبلوماسية مع مصر ؛ كما عرض استعداده لارسال فيالق من جيشـــه ـ بل وقيادتهم بنفسه ـ لمؤازرة هاتوسيل فى نزاعه مع مصر · ورفض هاتوسيل هذا العرض بلباقة وآثر أن يباشر حربه بنفسه · ولم يحدث فى تاريخ الشرق الأوسط القـديم أن تلبدت الغيوم بمثل هذه الكثافة ولا حتى فى قادش · أما رمسيس الثانى فيحتمل أن يكون قد عبأ جيشه واتخذ العديد من فيالقه مواقعهم شـمال مستعمرة كنعان ـ فى مجدو وبيت شـــان ـ فى حالة استعداد للحرب

الشـــمال دفاعا عن الامبراطورية المصرية ، فيما تحول التهديد الحيثى – البابلى الى حـــرب حقيقية · وفى انتظـــار ما تسفر عنه معلومات مخابراته ، اخذ رمسيس فى تاكيد ولاء الحكام التابعين له · وقـد اقام رمسيس الثانى نصبا تذكاريا رسميا فى بيت شان : فى السـنة الثامنة عشرة ، فصل الشتاء الرابع ، اليوم الأول (فبراير ١٢٦١ ق·م·) – يعكس وجوده مدى حدة النشاط فى السنة الثامنة عشرة ·

الأزمة الثالثة – تحلل ملكة هانيجالبات

حـدث فى السـنة الثـامنة عشـرة او التاسـعة عشـرة على الأكثـر تحـول دراماتيكى ادى الى تصـعيد الأزمـة · ففى مملكة هانيجـالبات كـان اميـرها شـاتورا الثـانى قـد تمـكن لبعض الـوقت من المحـافظة عـلى عرشـه بالاقـرار بتبعيته للسـيادة الآشورية – بعد خلعهم للملك السابق واساشاتا · ولكن شاتورا الثـانى لم يلتزم بالولاء لملك آشور الجديد شلمنصر الأول ، وارتد ببساطة الى الحظيرة الحيثية · لكنه كان مدركا تماما ان رد الفعل الآشـورى آت لا محالة · فقام شاتورا بالتعاون مع جـاره الحيثى ملك قرقميش ببذل جهدهما لاتقـاء الضربة باحتلال الممرات والطرق ومراكز المياة ·

ولم يلبث شلمنصر الأول ان وجه ضربته الى شاتورا الثانى وحليفه الحيثى ، بمنتهى العنف : فحطم دفاعات هانيجالبات واجتاحها كلهـا حتى وصل الى ابواب قرقميش الواقعة غبر الفرات مباشرة · واسر من هانيجالبات ١٤٫٤٠٠ رجـل واحتلت عاصمتها وتسع مدن كبيرة اخـرى ودمرت ١٨٠ مستوطنة · والأهم من ذلك ان الآشوريين اظهروا انهم جاءوا هذه المرة ليبقوا ، لذلك ادمجـوا مملكة هانيجـالبات فى الامبراطورية الآشورية نفسها ، فلم تقم لها قائمة بعد ذلك ابدا · وكان من نتيجة ذلك ان اصبحت جبهة اشور الأمامية الممتدة عبر الفرات مواجهة للأمبراطورية الحيثية مباشرة ، وملاصقة – بل ومهددة احيانا – للمقاطعة السـورية التابعة لهذه الامبراطورية · وبذلك قضى بكل قسوة على الوجود الميتانى ثم الهانيجالباتى الذى استمر قرونا يثير القلاقل فى المنطقة ·

هذه الضربة الفجائية الفاجعة نزلت على راس هاتوسـيل كالدش البـارد · وادرك هاتوسيل من فوره ان عليه رغـم تحالفه مع بابل ، أن يجابه العـدو فى جبهتين ، الجبهة الشرقية والجبهـة الجنوبية على حـدود امبراطوريته الشاسعة · وكانت الحرب على الجبهتين معا مستحيلة ، فكيف يمكن التخلص من هـذه الورطة ؟

الســـلام

التحـول المفاجئ فى موقف هاتوســـيل

كان من المستحيل على هاتوسيل أن يتقدم بمقتـــرحات للسلام الى آشور المنتصرة فى مثل هذه الظروف المخزية ، فما كان الملك ولا مستشاروه بالذين يقبلون بمثل هذا الهـوان ٠

ولكن ماذا عن مصر ؟ يمكن تكييف موقف مصر حيال أورحى تيشوب وتأييد رمسيس الثانى له على أنه ترهيب أكثر منه تهديدا ٠ حقيقة أن مصر تستضيفه ويجـد الترحيبَ فى البلاط الملكى ، لكن مصر لم تحاول أبدا مهاجمة الأراضى الحيثية ٠ اذن يمكن أن تتغير السياسة الحيثية تجـاه مصر ، مع حفظ ماء الوجه والأحتفاظ بقدر معقـــول من مظاهر الشرف والكبرياء ٠ لذلك بدأ الملك فى جس النبض للتعرف على احتمالات تحقيـق السلام بين الدولتين ــ مصر وخيتا ٠ ولانجـاح مسعاه مكث مدة يعمــل على تصفية الجو ، لم يتخذ فيها اية اجراءات عدوانية فى سوريا ٠ وجرت بين الدولتين مفاوضات لا نعلم عن تفاصيلها شيئا ، لكن الطرفين توصـلا فى النهاية الى الاتفاق وأصبح فى الامكان توقيع معـــاهدة بين البلدين وتبادل الوثائق الخاصة بها ٠ وقد استمر الأخذ والرد للتوصل الى هذه المعاهدة سنتين قضاها مبعوثو الدولتين فى بحث التفاصيل ، ســـعيا بين العاصمتين العتيدتين ، بى رمسيس الوارفة الظـلال ذات النخيـل فى سهل الدلتا الدافىء ، وهاتوسا الوعرة المرتفعـة فوق ســهل الأناضــول العـالى المتفرع ٠ والرحلة بين العاصمتين يقطعها الرســول السريع فى نحو شهر ، أما الوفود الكبيرة فتحتاج لضعف هذا الزمن ٠

المعـــاهدة ــ اقرار الســـلام

واخيرا ، سنة ٢١ من حكم رمسيس الثانى (نوفمبر / ديسمبر ١٢٥٩ ق٠م) ، تحركت من هاتوسا كوكبة من العربات الفاخرة ، ميممة نحـــو بى رمسيس عبر سوريا ٠

« سنة ٢١ ، شهر الشتاء الأول ، يوم ٢١ ، تحت حكم ٠٠٠ رمسيس الثانى ٠ هذا اليوم ، تنبه ، كان جلالته فى مدينـة بى رمسيس ، يفعل ما يسر (الآلهـة ٠٠٠) وقد حضر (رسل مصر الثلاثة ٠٠٠) ومعهم المبعوثان الأول والثانى تيللى تيشوب وراموس مبعوثا خيتا ، ومبعوث قرقميش يابوسيلى حاملا معه اللوح الفضى المرسل من حاكم خيتا الأكبر هاتوسيل

الثالث الى الفرعون ، لطلب السلام من صاحب الجلالة رمسيس الثانى » .

لا شك أن الموقف كان مؤثرا ومفعما بشتى الانفعالات والمشاعر بالنسبة لرمسيس الجالس على عرشه شديد مظاهر الأبهة فى قصره الكبير بالدلتا ، وهو يدعو الرسل الستة ليتقدموا نحوه ويكشفوا أمام ناظريه عن اللوح الفضى الكبير المتلألىء ، محفورا عليه سطور طويلة من كلمات مرصوصة حروفها متشابكة ذات زوايا حادة يتميز بها الخط المسمارى . وفى وسط اللوح من وجهه وظهره صور محفورة للآلهة والملوك محاطة بحلية مستديرة ، تصحبها كتابة هيروغليفية غريبة الشكل لم يسبق لرمسيس ولا لبلاطه أن رأوا مثلها أبدا . هذا الشىء ـ اللوح ـ الأجنبى الغريب يعتبر التوقيع النهائى الشاهد على انتصاره على الحيثيين فى سوريا . وكما كان الحال مع الملوك السابقين بمن فيهم أبيه الذى ارتبط مع النظام الحيثى بمعاهدة سلام رسمية لا يمكنه التحلل منها . وانتهى عهد الحروب والانتصارات ، وضاعت منه الى الأبد قادش وأمورو .

فى مقابل هذه الخسارة ، كان هناك تعويض مناسب . لقد انقطعت أسباب الشك والتوجس فى سوريا ؛ فما كان فيها مصريا سيظل مصريا . كما ضمنت مصر حقوقها فى الهيمنة على المرافىء الفينيقية . والأفضل من كل هذا فقد وافق هاتوسيل على السماح للمبعوثين المصريين بالمرور شمالا حتى أوجاريت ، وهو حق لم تحظ به مصر منذ أيام أمنحتب الثالث السعيدة ـ أى منذ قرن تقريبا . ولا شك أن الفرعون الذى بلغ الآن أوسط العمر أصبح أقل استعدادا لخوض معارك حربية عنيفة ، لذلك فان حسم الصراع غير الحاسم سلميا يوفر له الجهد والوقت لتوجيه اهتماماته الى ميادين أخرى غير الحرب . هذه هى دلالات اللوح الفضى ، الذى حفظت منه نسخ أكثر تواضعا فى ملفات هاتوسسا ، بينما حفظ النص المصرى المكتوب على ورق البردى فى ملفات الخارجية المصرية فى بى رمسيس . والنص المصرى موجود بمصر ، أما الحيثى فغير موجود بتلك البلاد لكنه موجود فى بابل التى كانت لغتها هى اللغة الدبلوماسية فى ذلك العصر .

وحسب المتبع قانونا فى حالة توقيع المعاهدات الكبرى ـ تبعا للأعراف الدولية ـ كتبت المعاهدة المتكافئة بين النظيرين من نسختين متتامتين ، احداهما موجهة من هاتوسيل الى رمسيس الثانى والأخرى من رمسيس الى قرينه . وتتابعت فقرات المعاهدة لتقرير انتهاء الخصومة بين الدولتين؛ والتحالف الأخوى بينهما (عبر عنه فى المعاهدة برابطة الأخوة) ؛ والتعاهد على عدم الاعتداء بين الطرفين ؛ والدفاع المشترك

ضد أى طرف ثالث ـ غير مصرى ولا حيثى ـ يحاول الهجوم على أحد طرفى المعاهدة ؛ وتأمين حقوق تولية العرش فى الدولتين ؛ والتعهد بتسليم الفارين واللاجئين لبلدهم الأصلى على أن يلقوا المعاملة الانسانية اللائقة . أخيرا تنتهى المعاهدة بالتصديق عليها ووضعها موضع التنفيذ ، ويشهد الملكان ويباركان هذا الاتفاق ، وينضرعان الى الألف اله الحيثى والألف اله المصرى أن يصبوا لعناتهم على من تسول له نفسه خرق المعاهدة ، وأن يباركوا من يحترمها وينفذها .

مثل هذه الوثائق الرسمية الكبيرة كانت قليلة الانتشار فى مصر ، حيث كلمة الفرعون هى العليا . لكنها فى الامبراطورية الحيثية كانت شيئا مألوفا وشائعا بين الملك الأعظم والحكام الموالين له ، لذلك كان من السهل تكييفها لتصلح للتعامل بين ندين متكافئين . وقد ترجم النص المصرى للمعاهدة من مسودة مسمارية الى الهيروغليفية ونقشت على جدران معبد الرمسيوم فى طيبة .

والنص يبين بجلاء الأسلوب القانونى الوقور لهذا العصر . وفى النص المصرى يوجه هاتوسيل الخطاب الى رمسيس :

« الآن فيما يتعلق بعصر موتاالليس حاكم الحيثيين الأكبر ، أخى ؛ لقد حارب رمسيس الثانى ، حاكم مصر الأكبر . لكن، ومنذ الآن يشهد هاتوسيل ... [ويقر] معاهدة على أساس العلاقة التى أقرها كما أقرها ست ـ على المملكة المصرية والمملكة الحيثية أن تنهيا أسباب العداوة بينهما الى الأبد . يشهد هاتوسيل الثالث ... أنه يربط نفسه بمعاهدة مع رمسيس الثانى .. ابتداء من اليوم ، لاقرار السلام [وتوطيد] الأخوة الحميدة بيننا الى الأبد ، فيصبح هو ودودا مسالما معى ، وأصبح ودودا مسالما معه الى الأبد .

هاتوسيل الثالث حاكم الحيثيين الأكبر لن ينتهك حرمة الأراضى المصرية أبدا ، للاستيلاء على شىء منها . ورمسيس الثانى لن ينتهك حرمة الأراضى الحيثية أبدا للاستيلاء على شىء منها .

وبخصوص المعاهدة التى كانت سارية المفعول أيام سابيلى ليوما الأول ... كذلك المعاهدة التى كانت قد وقعت أيام مواتااللليس ، ... فانا الآن ملتزم بهما .

ويشهد رمسيس الثانى ... (أنه أيضا) ملتزم بهما . والسلام الذى أصبح مسئوليتنا منذ اليوم ؛ نحن ملتزمان به وسنعمل بمقتضى هذه العلاقة المستقرة .

واذا جاء عدو آخر ليعتدى على أراضى رمسيس الثانى فارسل الى حاكم الحيثيين الأكبر يقول ، « هلم ، تحالف معى ضده ! » ، فان حاكم الحيثيين سوف يعينه ويذبح أعداءه . لكن اذا لم يكن حاكم الحيثيين الأكبر قد طلب اليه الحضور بشخصه ؛ فى هذه الحالة سوف يرسل فيالقه وعرباته القتالية وسوف يذبحون أعداءه ... ، وبنفس الكيفية سوف يتصرف رمسيس الثانى حيال هاتوسيل .

واذا حدث أن فر واحد من المصريين أو اثنان أو ثلاثة ولجأوا الى حاكم الحيثيين الأكبر ، فسوف يقوم حاكم الحيثيين الأكبر باعتقالهم وردهم الى رمسيس الثانى حاكم مصر الأكبر . وعند رد أى شخص وتسليمه الى رمسيس الثانى، ليكن معلوما انه لن ينتقم منه ، وأن بيته وزوجاته وأطفاله لن يصابوا بأذى ، وأن اللاجىء نفسه لن يعدم . وليكن معلوما انه لن يضار بسمل عينيه او اتلاف اذنيه او فمه او رجليه . (والخلاصة) انه يجب عدم توجيه اية تهمة اليه ».

هكذا تستمر بنود المعاهدة معالجة موضوعات اخرى :

والآن بخصوص بنود المعاهدة المبرمة بين حاكم الحيثيين الأكبر ورمسيس الثانى حاكم مصر الأكبر ؛ فقد سجلت (البنود) على هذا اللوح الفضي .

وبالنسبة لهذه البنود ، فهناك الف اله ، ذكورا واناثا فى خيتا ، والف اله ، ذكورا واناثا فى مصر ــ كلهم شهود معى، وقد استمعوا الى هذه الشروط . (ونخص بالذكر) : ــ

اله الشمس ، اله السماء ، ربة السماء بمدينة عرينة ؛ اله العواصف ، اله السماء ، اله الأعاصير لدى الحيثيين ... اله عرينة ؛ آلهة العواصف فى زبالاندا وبتي ياريك ، وهساسبا ، وسارسا وحلب ... ؛ وعشروت ربه مملكة خيتا ؛ .. ربة كارانا ، وربة ميدان القتال ، وربة نينوى ، .. ملكة السماء ، والآلهة ــ الآلهة التى يحلف بها ، .. انهار دولة خيتا ، وآلهة كزووانتا .

آمون ورع وست ؛ الآلهة ذكورا واناثا ؛ وأنهـــار وجبـال المملكة المصرية · والسماء ، والأرض ، والبحـــر الكبير ، والريح ؛ والسحب الرعدية · (المقصود الآلهة الكبـــرى والصـــغرى) ·

وبخصوص هذه البنود المسجلة على اللوح الفضى : كـل من لا يلتزم بها ، فان الألف اله الحيثى مع الألف اله المصرى ستدمر منزله وأرضه وخدمه ·

اما من يحترم هذه البنود المسجلة على هذا اللوح الفضى، من الحيثيين والمصريين ، ··· فان الألف اله الحيثى والألف اله المصرى سوف تهبه الرخاء ، وطـــول البقاء ، هو وأهله وأرضه وخـدامه » ·

ولا شك فى أن المصريين قد انبهروا بالرسوم المحفورة وسط الحليتين المستديرتين على جانبى اللوح الفضى · وعندما أمر الملك بحفر المعاهدة فى طيبة ، أضاف الكتبة فى نهايتها وصفا قوليا لما هو مصور داخـــل الحليتين المستديرتين · وهـــذه فى الواقع ليست الا نسخا على الفضة لأختام الدولة الحيثية الكبرى وملوكها (كان التوقيع يبصم عادة على الواح طينية) :

« فى وسط اللوح الفضى ، يرى المشاهد : ـ
صورة مطعمة تمثل اله العواصف وهو يعانق ملك الحيثيين الأكبر ، وحوله اطار منقوش عليه : خاتم اله العواصف ، اله السماء ؛ خاتم معاهدة مبرمة بين هاتوسيل الثالث ، حـــاكم الحيثيين الأكبر ، الباسل » ، ابن مورسيل الثانى ، حـــاكم الحيثيين الأكبر ، الباسل » اما النقش المحيط بالصورة فهو: « خاتم رب العواصف ، اله السماء » ·

ويعقب هذا الوصف وصف مشابه للخاتم المنقوش على وجه اللوح الآخر ؛ حيث توجد صورة لربة الشمس بعرينة مع الملكة بودو خيبا ، مرفق معه بطاقة تحتوى على نصوص مناسبة · ونجد هنا أن كتبة رمسيس الثانى قد سجلوا بدقة اقدم وصفا لأختام الدولة الحيثية ، المســجلة على اللوح الفضى ، يتطابق مع اختام الوثائق بالملفات الحيثية ـ وعلى وجه التحديد نعرف اختاما مشابهة يظهر فيها اله العواصف معانقا لأحد الملوك الحيثيين، مصحوبا بحلقة منقوش عليها نص مسمارى محيطة بحـــافة الخـــاتم

المستديرة ، مع بطاقة منقوش عليها نص بحروف هيروغليفية حيثية (أى غريبة عن الهيروغليفية المصرية) داخل حقل الختم نفسه ٠

تبـــادل التهـــانى

كان توقيع المعاهدة مناسبة رسمية لاظهار السرور والبهجـة ، تبادل فيها بلاطا مملكتى مصر وخيتا رسائل التهانى والأمانى ٠ ولم يقتصر الأمر على الملكين بصفتهما الموقعين عليها ٠ ففى الجانب الحيثى كان هاتوسيل الثالث قد اعتاد أن يشرك معه زوجته بودو خيبا فى كافة شـــئون الدولة الهـــامة ٠

وما أن أرسل زوجها بالتهانى لرمسيس فى هـــذه المناسبة حتى أعقبتها بودو برسالة تهنئة مماثلة الى الملكة نفرتارى ، الملكة الرسـمية بجوار رمسيس فى سنة ٢١ ٠ وتملكت روح المعاهدة أيضا البلاط المـلكى المصرى ، فبالاضافة الى رمسيس نفسه ارسلت الملكة الأم النبيلة بتهانيها الى خيتا وكذلك فعل أمير التاج حينئذ ، الأمير ولى العهد ست حر خبشف والوزير باسر ٠ اما الملكة نفرتارى فقد عبرت عن شعورها الجياش حيال رسالة ملكة خيتا برسائل تهنئة مماثلة لأختها الحيثية ، على لوح طينى بالخط المسمارى الذى كتبه كتاب ادارة الخارجية المصرية فى بى رمسيس نفســـه :

« تقول نابتيرا (نفرتارى) ، ملكة مصر العظمى :

تسير الأمور معى ـ انا اختك ـ سيرا حسنا ؛ كذلك امور بلادى ٠ واتمنى ان تكون الأمور عندك أيضا على ما يرام فيما يخصك ويخص بلادك ٠ لقد لاحظت وشيكا يا اختى انك كتبت الى لتطمئنى على احوالى ؛ كما نوهت لى عن العلاقة الجديدة من السلام والأخوة التى التزم بها الملك العظيم ، ملك مصر الذى أصبح يساند اخاه ملك الحيثيين الأعظم ٠

واتمنى ان ينعم عليك اله الشمس (المصرى) واله الأعاصير (الحيثى) بالسعادة والسرور ؛ وأن يحفظ اله الشمس السلام ويباركه ، ويوطد روابط الأخوة بين ملك مصر العظيم واخيه ملك خيتا العظيم الى الأبد ٠

ومن الآن فانا على علاقة من الصداقة والأخوة مـــع اختى الملكة العظمى فى خيتــا ٠٠ من الآن والى الأبد » ٠

كانت العلاقات الدولية مجالا جديدا غير مألوف بالنسبة لنفرتارى وتكشف رسالتها المتكلفة ذلك بكل وضوح ٠

ولاثبات العلاقات الودية الجديدة عمليا تبادل بلاط الدولتين الهدايا. فأرسلت نفرتارى مجوهرات وأقمشة مصبوغة وأثوابا ملكية الى «اختها» ٠ اما أمير التاج ست حرخبشف فيقرر : « لقد أرسلت الآن هدايا الى أبى (ملك الحيثيين) حملها (الرسول) باريخ ناوا » ٠

وبدأت العلاقة الجديدة تتقدم بصــــورة مبشرة ٠ فكان المبعوثون المصريون يحملون أوانى الزهور باسم رمسيس الثـانى ويسلمونها للقصر المحلى بمدينة أوجاريت ٠ واصبح هاتوسيل الثالث مطمئنا الى امكان مواجهـة آشور أو الأعداء المحليين فى شمال أو غرب وطنه وهو عـلى ثقة بأن مصر ملتزمة قانونا بمساعدته ، أو على الأقل عدم عرقلته ٠ وهذا يناســبه تمـــاما ٠

وبعد سنوات معدودة مات كادشمان ــ تورجو ملك بابل ، تاركـا عرشه لشـــاب صغير هو كادشمان ــ انليل الثانى ، الذى وقع تحت تاثير زمرة مضادة للحيثيين ــ ومؤيدة للآشوريين ــ فى البلاط البابلى يتزعمها الوزير الرهيب اتى ــ مردوخ ــ بالاتو ٠ لذلك لم يسترح هاتوســيل من جهـة هذه الجبهة ٠

أما فى مصر فقد أصبح رمسيس الثانى فى وضع يمكنه من توجيـه جهوده الى مشاريع أخرى ، مثل اكمال حفر معبديه الصخريين الكبيرين بأبى سمبل ٠ ولكن هذه البداية الجديدة لم تخل مما يشوبها ، ففى ســنة ٢٢ ــ وربما ٢٣ ــ ماتت أمه الملكة الأم تويا ، السيدة الهادئة اللبقة ، التى رحلت وهى فى الستينيات من عمرها ٠ ومن أجلها أعد لهـا ابنها البـار مقبرة رائعة فى وادى الملكات بطيبة ، ثم قام بدفنها فيها ٠

مخلفـات الماضى ــ التوتر عقب المعـاهدة

هذا التحـــول الجذرى فى العلاقات كانت له مشـاكله ، خصـوصا اذا كانت الصداقة الواجبة يتحتم أن تحل بعد عقـــدين (٢٠ سنة) من الحــروب وما يقرب من قرن من الحروب المتقطعة ٠ فمثلا كان ملك دولة ميرا الصغيرة بآسيا الصغرى من الحمق بحيث سأل رمسيس الثانى عن أورحى ــ تيشوب الحيثى اللاجىء السياسى الى البلاط الملكى المصرى ٠ فرد عليه رمسيس بخشونة وغلظة :



شكل (١٦) خاتم رسمي حيثي : عليه صورة اله ، العواصف الحيثي ، يحتضنه الملك مواتاالليس ، الحروف الحيثية الهيروغليفية الى اليسار تقول الملك الأعظم مواتاالليس ، والى اليمين « اله العواصف » و « الملك الأعظم » ٠ الألقـــاب الملكية بالسمارية تحيط بالخاتم كله ٠



شكل (٦ ب) خاتم رسمي حيثي : مكتوب عليه بالهيروغليفية الحيثية والملك الأكبر حاتوسيل الثالث ، والملكة الكبرى بيدوخيبا الى اليمين ؛ وفي اسفل الخاتم قرص الشمس المجنح (نسخة حيثية) ٠

« اما عن مسالة اورحي ـ تيشوب ، فهى ليست كما تصورها وعليك ان تتذكر حسن العلاقات التي ارسيتها ٠٠ انا الملك العظيم ، ملك مصر مع اخي ملك الحيثيين » ٠

وعلى الرغم من اغلاق ملف الحروب ، ظل موضوع اورحى ـ تيشوب له حساسيته ٠ وربما يكون هاتوسيل قد رغب في تطبيق بنود المعاهدة باثر رجعي ليستعيد خصمه ٠ فان كان ذلك قد حدث فعلا ، فلابد ان رمسيس قد رفض طلبه فقد عاش اورحى تيشوب ضيفا على البلاط الملكى المصرى لأكثر من عشر سنوات تالية على المعاهدة ٠ وفى الجانب المقابل ، ربما يكون رمسيس الثاني قد حاول عمل تعديلات فى الحدود السورية لصالحه ، فرفضها الجانب الحيثى بدوره ٠٠ وفى الوقت الذى كان كلا الملكين يشعران فيه بالحساسية حيال مسالة اورحى تيشوب ، كان هاتوسيل يشعر بالحساسية ايضا تجاه اللهجة المتعالية التى اعتقد ان رمسيس الثانى كان يستخدمها فى رسائله اليه ، ويشعر انها لهجة لا تليق الا بمن هو دونه فى المنزلة ، لا لهجة الند للند ٠ فارسل له رمسيس منكرا لهذا الظن ومؤكدا لأخيه :

« سمعت توا بكل الكلمات التي حررها لي أخي قائلا : ـ

« لماذا تكتب لى يا اخى كما لو كنت واحدا من رعيتك ؟ » والآن كتبت لى تقول ، « كما لو كنت واحدا من رعيتك » ـ وكتب اخى يقول ان هذه العبارة تكررت منى ! ٠٠٠ لقد انجزت اشياء عظيمة فى كل الدول ؛ فأنت بحق الملك الأعظم فى بلاد الحيثيين ٠ وقد أقر اله الشمس واله العواصف بجلوسك على عرش الحيثيين ـ عرش اجدادك ٠ لماذا اكتب انا اليك اذن باعتبارك واحدا من الرعية ؟ لابد ان تتذكر اننى اخوك ٠ كان يجب عليك ان تكتب كلاما مبهجا (مثل) : « اسعد الله كل ايامك ! » ٠ ولكن بدلا من ذلك تتفوه بهذه الكلمات الجوفاء ، التى لا تصلح ان تكون رسالة ! » ٠

هذا جزء من رسالة ، نلاحظ فيه ان رمسيس اعترف بلباقة ـ بعد ان استوفى نقطة المساواة ـ بهاتوسيل المغتصب خلفا شرعيا لجده الصلب العود سوبيلو ليوما ـ الذى حاول رمسيس عبثا افشال نجاحه ! بعد ذلك تطرق رمسيس الى موضوعات اخرى : المبعوثين ؛ الهدايا المتبادلة حيث اشار رمسيس الى ان هاتوسيل لم يرسل الا عبدا واحدا ، وحتى هذا كان معوقا ! وارسال اطباء مصريين الى ارض الحيثيين ؛ وارسال

أعشاب معينة ـ وهذان (الأطباء والأعشاب) كانت قيمتهما كبيرة والطلب عليهما مستمر من الحيثيين فى السنوات المقبلة :

على أى الحـــالات توقفت الاحتـــكاكات بالتدريج ، بعد أن تعلم الشريكان كيف يتعايشان مع أوجه الضعف والقصـــور واختـــلاف وجهات النظر الثقافية · ووجه هاتوسيل ضيقه وتبرمه ، بدلا من ذلك نحو بابل حيث اتهمه ملكها الشاب كادشمان ـ انليل الثانى بمحاولة التدخل لافشال تجديد العلاقات الدبلوماسية بين بابل ومصر · وشجب هاتوسيل هـــذا الاتهـــام ، فهـــو الآن حليف لمصر ، فلماذا يعتـــرض على عـــودة العلاقات بين بابل ومصر ؟ وفى النهاية تحسنت العلاقات بين مصر وبابل بشـــكل ملحوظ لدرجة أن رمسيس قبل بضم أميرة بابلية الى حريمه · ورغم اظهار عدم المبالاة ، يبدو أن هاتوسيل كان متوجسا من هذا التقارب فى العلاقات المصرية ـ البابلية · وزاد من قلقه أن ملك بابل الجديد كانت علاقاته ودية مع ملك آشور ، فاذا تكون محور ثلاثى من مصر وآشور وبابل ، فســـوف يكون وبالا على الحيثيين ، فيصبحون معزولين تماما فى المجال الدبلوماسى للدول العظمى فى ذلك العصر · «اذا لم تتمكن من ضربهم فانضم اليهم !» وهذا المثل ليس حيثيا صرفا ، ولكن هاتوسيل تبناه بمضى الوقت · لقـــد انقضت فترة معقولة منذ تحللت وذابت دولة هانيجالبات · وأحس هاتوسيل أن بامكانه بدء التفاوض لتوثيق العلاقات بينه وبين شلمنصر الأول الملك الآشورى · بذلك تتم حلقة العلاقات ـ خيتا وآشور ؛ وبابل ومصر وخيتا (أى حلفين) ـ وبذلك فانه على كل الجبهات سيقف القراصنة وقبـــائل البدو الشمالية معزولين ؛ ويصبح عالم الشرق الأدنى القديم أكثر استقرارا وأكثر أمنا من عهود كثيرة سابقة ·

العـــرس الملكى الـــدولى

المساومات حـــول العـــروس

بمرور السنين استقر التحـــالف المصرى الحيثى بصـــورة جعلت هاتوسيل الثالث يطلب الى رمسيس الثانى أن يوافق على التقـــدم بخطبة ابنته ليتزوجها ، توثيقا للتحالف بينهما · وقبل رمسيس هـــذا العرض سريعا ، وعبر هاتوســـيل عن ســـعادته بذلك ، وبادله رمســـيس نفس الشـــعور ·

هكذا بدت الأمور فى أوائل السنة الثالثة والثلاثين من حكم رمسيس ، (خريف ١٢٤٦ ق٠م٠) ، والرسل الملكية تسعى بلا هوادة بين العاصمتين ·

وهبط الركب جنوبا عبـــر جبال طوروس واختـــرقوا قزوانة (سيليسيا الحالية) ، حيث اتجهوا شرقا فوق جبل عمان الى سهل حلب شـــمالى سوريا ٠ بعد ذلك توجهوا جنوبا الى نهر العاصى ليأخـــذوا الطـــريق الحـــدودى لمملكة امورو حتى قادش ويستمروا الى مشـــارف القطـــاع السورى الذى تحتله مصر ٠ وفى هذا المكان ودعت الملكة بودوخيبا ابنتها، واستقبلها وفد مصرى مخصوص توجه بالأميرة وركبها الى كنعان ثـــم اتخذوا الطريق الساحلى الى سيناء واستمروا فى مسيرتهم حتى وصلوا الديار المصرية ٠ فى النهاية وصل الموكب الى العاصمة بى رمسيس حيث جرت مراسم تسليم هدية العرس الثمينة للفرعون ٠ واخيرا ، فى فبـــراير سنة ١٢٤٥ ق٠م٠ استقبل رمسيس الأميرة الحيثية بعـــد طول انتظـــار فى قصره الكبير بمدينة بى رمسيس ٠ والمأمول أن العروس كانت أميرة حيثية جميلة ، فقد كان الفرعون فى الخمسينيات من عمره ما زال بعـــد وسيما ، رغم الاعجاب بالنفس الذى ظل يلازمه تفاخرا بانجازاته السابقة، ورغم معاملته كما لو كان الها يمشى على الأرض ٠ وعموما أقيمت الأفراح العامة احتفالا بهذا الحدث العظيم ، وتخلدت الذكرى بتصميم نقـــوش خاصة بها نسخت على جدران المعابد الكبرى فى مصر أهمها : فى طيبـــة (الكرنك) ، وفيلة ، واكشا ، وأبو سمبل ، والعمارة غرب ٠ أما بعـــد الربة موت فى الكرنك فقد اختص بنص مختصر أينقش فيه ٠ وكوفىء بهذه المناسبة الموظفون المخلصون الذين أسهموا أداء مهمتهم فى توصيل الأميرة الى مصر ، وكان ابرزهم هو حوى رئيس بعثة الشرف المصرية الذى رقى الى منصب نائب الملك فى النوبة حال خلوه ٠

وفى تنافر واضح مع الرسائل التى تبادلها الطرفان خلال السنتين الأخيرتين بالخط المسمارى طافحة بالمساومات والمفاوضات من أخذ ورد، جاءت المنظومات الشعرية العظيمة التى ألفها شـــعراء الملاحم فى بلاط رمسيس منمقة متكلفة ؛ وربما تكون قد أصابت هاتوسيل الثالث بغصـــة فيما يتعلق بموضوع تكافؤ القوى الذى يشعر نحوه بحساسية شديدة ٠

« سنة ٣٤ ، تحت ولاية ٠٠ رمسيس الثـــانى

تبـــدأ الذكرى الجميلة ،

لتعظيم سلطان ملك القـــوة ،

وتمجيـــد البسالة والاشادة بالنصر ،

والعجائب العظيمة الغامضة التى حدثت مع سيد القطرين ،

هو تجسيد رع بعينه ، أكثر من أى اله سابق (أى ملك)

وفى هذه الاتصالات وبايماءة من التفاخر الطائش ، وعد هاسوتيل المتباهى بهدية عرس (دوطة) رائعة مع العروس : « ستكون دوطتها أكبر من دوطة ابنة ملك بابل ، ومن دوطة ابنة ملك [بارجا ؟] ··· وسأرسل ابنتى هذا العام ، وستصحب معها أيضا خدما ومواشى وأغناما وخيولا ، الى ارض آيا ـ فهل يرسل أخى رجلا لتولى شئونهم فى آيا ·· ! »

واستجاب رمسيس للطلب وهو مسرور ، وأوجز ترتيبات اســتقبال العروس مع هدية العرس عند عمود الحدود الحيثى بآيا جنوب سوريا ، القريب من مقاطعة أوبى المصرية :

« لقد كتبت الآن الى محافظ سوتا ، فى « رمسيس المدينة » (كوميدى) بأوبا ، لكى يتسلم هؤلاء العبيد من الكشكان ، وجماعة الخيل ، وقطعان (المواشى) ، واسراب (الغنم) التى ستحضرها (العروس) ، وسوف يرافقهم حتى تصل العروس الى مصر ·

[اضافة الى ذلك كتبت] الى محافظ بتاح (····) فى مدينة رمسيس (غزة ؟) بأرض كنعان ·· (بمثل ذلك) · أما ما كتبته (الى) ، « تول أمر احتياجات مرافقى العروس ـ فان ما طلبته ـ سوف أصدر أوامرى بتنفيـــذه كما طلب أخى ! » ·

ويبدو انه عندما وصلت المفاوضات الى هذا الحد ، حدثت بعض المعوقات على الجانب الحيثى ، مما تسبب فى لوم رمسيس لهــم ، فبعــد الوعد بعروس وهدية عرس عظيمة ، تعطل كل شىء · لكن توبيخ رمسيس لم يصل الى هاتوسيل على الفور ، اذ لا شك فى أن الامبراطور كان «خارج العاصمة» لحضور أحد الأعياد أو الشعائر المحلية العديدة ، التى تضطر هؤلاء لكثرة التنقل فى البلاد · فوقعت الرسالة فى يد الملكة بودو خيبــا بدلا من الامبراطور فتولت هى الرد عليها · ولم تكتف بجواب عــادى كعادة زوجها ، لكنها ردت ردا مستفيضا لاذعا بدورها · وكان رمسيس قد قابل تباهى هاتوسيل بشأن الدوطة (خصوصا مع التأخير) بكثير من الحماس ، وأعلن انه فى انتظار ترضية مناسبة !

ولصدمتها بما اعتبرته تعريضا غير متحفظ من جانب رمسيس ، لــم تكترث الملكة الجريئة وهى تكتب بهذا الأسلوب النارى ، بما يسببه ذلك من حرج « لأخيها » الملك ، رمسيس الثانى :

« كما كتبت لى يا اخى ما يلى : ـ «اختى كتبت الى ، «سأرسل لك احدى بناتى » لكنك ما زلت تحجبينها بغلظة . لماذا لم تهبيها لى بعد ؟ » .

ـ كان الواجب عليك أن تثق فينا ولا ترتاب . كنت بصدد ارسالها اليك ، لولا [... معوقات متنوعة ...] ؛ [...] فاحترق القصر . وما تبقى وهبه أورحى ـ تيشوب لكبار الآلهة . وحيث ان أورحى ـ تيشوب عندك هناك فاسأله ، هل هذا صحيح أم خطأ ! أى فتاة فى السماء أو فى الأرض أهبها لأخى ؟ ... هل أزوجه فتاة من بابل أو من زولابى أو من آشـــور ؟

« اخى خالى الوفاض ؟ .. فاذا كان ابن اله الشمس أو ابن اله العواصف مفلسا ، فلابد انك مفلس (أيضا) ! وســـعيك ، ياخى، للاثراء على حسابى لا هو ودى ولا هو كريم !! » .

وصورة رمسيس الأكبر ، بانى المعابد الجبارة ـ المنمى لانتـــاج مناجم الذهب وهو يبرر فقره ويطالب بفظاظة بهدية العـــرس (الدوطة) الضخمة ، يعتبر داعيا للسخرية المريرة يصعب تصوره من بطل قادش ! لكنه بالنســـبة للملكة الحيثية الشـــامخة ، كـــان ذلك أدعى للغضب لا للســـخرية .

وفى نفس هذه الرسالة الطويلة توبخ الملكة الفرعون لانتقاده تعطيل ارسال العروس والأشياء الأخرى (الدوطة) . ومن الطريف أن نشـــاهد الملكة تنهى رسالتها بالاشارة الى الشائعات الدولية الذائعة فى القصـــور الملكية حينئذ حول السلام المربح . وكان رمسيس قبل ذلك بفترة طـــويلة قد ضم الى حريمه زوجة بابلية ، لكنه ـ كما فعل أمنحتب الثالث منـــذ قرن مضى ـ لم يسمح لرسل ملك بابل (أبوها) بزيارة الفتاة فى مصر . وقد سبق أن علقت الملكة بودو خيبا على هذا التصرف الحـــذر ، فتناول رمسيس هذه النقطة فى رسالته ـ المشار اليها ـ مما أشعل الموقف . فتنـــاولت الملكة هذه الحقائق لكشف «مصادرها» :

« هذه القصة رواها لى انليل ـ بل ـ نيشى ، رســـول ملك بابل . ولكن هل مجرد سماعى لهذه الحكاية يمنعنى من الكتابة الى اخى ؟ ولكن ما دام أخى يرتاب الآن فى ، فسوف أكف عن ذلك . ولن اتسبب يا أخى فى قول ما يؤلمك ! » .

الا أن تقريع الملكة بودو خيبا لم يردع الفرعون الهامح فلم يتردد في مواصلة الجدل . لكن الأحوال انصلحت اخيرا فأبدى الجانب الحيثي استعداده لارسال الأميرة ، لكنهم اشترطوا ضرورة حضور بعثة مصرية على مستوى عال الى خيتا ومعهم أنقى أنواع الزيوت لتطييب العروس ، واعدادها لرحلة العمر . واستجاب رمسيس لهذا الطلب على الفور كما تدل رسائله الى ملكي خيتا . وفي رسالته الى بودو خيبا يقول :

« لقد أطلعت على اللوح الذي بعثته لي أختي ، واستوعبت كل ما به من مسائل كتبت لي عنها أختي ، ملكة الحيثيين العظمى ذات الكرم ... وقد كتب الى الملك الأكبر ، ملك الحيثيين ـ أخي ـ يقول : « دع الوفد يحضر ، ليسكب الزيت النقي على رأس ابنتي ، ثم يرافقها الى بيت الملك الأعظم ، ملك مصر ! » .

« رائع ، رائع حقا هذا القرار بخصوص الموضوع الذي كتب لي أخي عنه .. (وسوف) يصبح بلدانا العظيمان بلدا واحدا الى الأبد ! » .

وقامت البعثة المخصوصة برحلتها وأدت مهمتها ، في أوائل صيف ١٢٤٦ ق.م على الأرجح ، وفي ذلك كتبت الملكة بودوخيبا متباهية :

« عندما انصب الزيت النقي فوق رأس ابنتي ، اختفت آلهة العالم السفلي ، ... في ذلك اليوم أصبحت الدولتان العظيمتان بلدا واحدا ، وأنتما أيها الملكان العظيمان صرتما أخوين حقيقيين ... » .

بعد انتهاء كل الاجراءات الرسمية ، سعد رمسيس ولا شك بالأنباء وأخذ يستعد للترحيب بالأميرة نفسها .

موكب الزفاف

في السنة الرابعة والثلاثين من حكم رمسيس الثاني (نهاية الخريف سنة ١٢٤٦ ق.م.) تحرك ركب الأميرة مغادرة وطنها الى غير رجعة في حراسة كوكبة متألقة من الجنود ، وفي معية الأشراف والمندوبين من الجانبين ، يسير بين يديها أسراب الحيوانات والعبيد وقافلة محملة بالأحجار الكريمة ، تظهر ثراء الشرق الأدنى القديم تمثل هدية العرس .

وهبط الركب جنوبا عبــر جبال طوروس واختــرقوا قزوانة (سيليسيا الحالية) ، حيث اتجهوا شرقا فوق جبل عمان الى سهل حلب شــمالى سوريا ٠ بعد ذلك توجهوا جنوبا الى نهر العاصى ليأخــذوا الطــريق الحدودى لمملكة أمورو حتى قادش ويستمروا الى مشــارف القطــاع السورى الذى تحتله مصر ٠ وفى هذا المكان ودعت الملكة بودوخيبا ابنتها، واستقبلها وفد مصرى مخصوص توجه بالأميرة وركبها الى كنعان ثــم اتخذوا الطريق الساحلى الى سيناء واستمروا فى مسيرتهم حتى وصلوا الديار المصرية ٠ فى النهاية وصل الموكب الى العاصمة بى رمسيس حيث جرت مراسم تسليم هدية العرس الثمينة للفرعون ٠ واخيرا ، فى فبــراير سنة ١٢٤٥ ق٠م٠ استقبل رمسيس الأميرة الحيثية بعد طول انتظــار فى قصره الكبير بمدينة بى رمسيس ٠ والمأمول ان العروس كانت أميرة حيثية جميلة ، فقد كان الفرعون فى الخمسينيات من عمره ما زال بعــد وسيما ، رغم الاعجاب بالنفس الذى ظل يلازمه تفاخرا بانجازاته السابقة، ورغم معاملته كما لو كان الها يمشى على الأرض ٠ وعموما أقيمت الأفراح العامة احتفالا بهذا الحدث العظيم ، وتخلدت الذكرى بتصميم نقــوش خاصة بها نسخت على جدران المعابد الكبرى فى مصر أهمها : فى طيبــة (الكرنك) ، وفيلة ، واكشا ، وأبو سمبل ، والعمارة غرب ٠ أما بعــد الربة موت فى الكرنك فقد اختص بنص مختصر لينقش فيه ٠ وكوفىء بهذه المناسبة الموظفون المخلصون الذين أحسنوا أداء مهمتهم فى توصيل الأميرة الى مصر ، وكان أبرزهم هو حوى رئيس بعثة الشرف المصرية الذى رقى الى منصب نائب الملك فى النوبة حال خلوه ٠

وفى تنافر واضح مع الرسائل التى تبادلها الطرفان خلال السنتين الأخيرتين بالخط المسمارى طافحة بالمساومات والمفاوضات من أخذ ورد، جاءت المنظومات الشعرية العظيمة التى الفها شــعراء الملاحم فى بلاط رمسيس منمقة متكلفة ؛ وربما تكون قد أصابت هاتوسيل الثالث بغصــة فيما يتعلق بموضوع تكافؤ القوى الذى يشعر نحوه بحساسية شديدة ٠

« سنة ٣٤ ، تحت ولاية ٠٠ رمسيس الثــانى
تبــدأ الذكرى الجميلة ،
لتعظيم سلطان ملك القــوة ،
وتمجيــد البسالة والاشادة بالنصر ،
والعجائب العظيمة الغامضة التى حدثت مع سيد القطرين ،
هو تجسيد رع بعينه ، أكثر من أى اله سابق (أى ملك)

ولد فى أى وقت

المكتوب له المجـــد ·· رمسيس الثانى » ·

ويتلو ذلك ثلاثون سطرا من نظم متكلف تقريظا للملك ، وتذكر كيف سعى ملك الحيثيين بلا جدوى الى رضا رمسيس ، حتى قرر أخيرا ارسال ابنته (الى مصر) · بعد ذلك يستأنف النص :

« ثم سمح لابنته الكبرى بالحضور (أى ملك الحيثيين) ، وبين يديها تقدمة جزيلة ؛ ذهب وفضـــة وكثير من البرونز ؛ وعبيد ، وجماعات من الخيول بلا عدد ، وماشية ، وماعز ، وكباش بعشرات الآلاف ـ لا حصر لها ـ هذه هى الرسوم التى أحضروها من أجل رمسيس الثانى ·

وجاء واحد ليدخل السرور الى قلب جلالته فقال :

« أشهد ، لقد بعث ملك الحيثيين الأكبر بابنته ومعها تقدمــة ثرية ، (عناصرها) تسد الطرق ؟ جلبتها الأميــــرة وكبراء مملكة خيتا · وقد اجتازوا جبالا شاهقة وطرقا وعرة ، حتى وصلوا الآن الى حدود سوريا الواقعة تحت سيطرة جلالتكم · فأمر الجيش والموظفين بالتقدم لتحيتهم ! » ·

وعندما دخل جلالته القصر سعيدا ، غمرته البهجة لدى سماع هذه الواقعة الرائعة ، التى لم يعرف مثلها أبدا فى بر مصر · فوجه الجيش والموظفين بسرعة لاستقبالهم ·

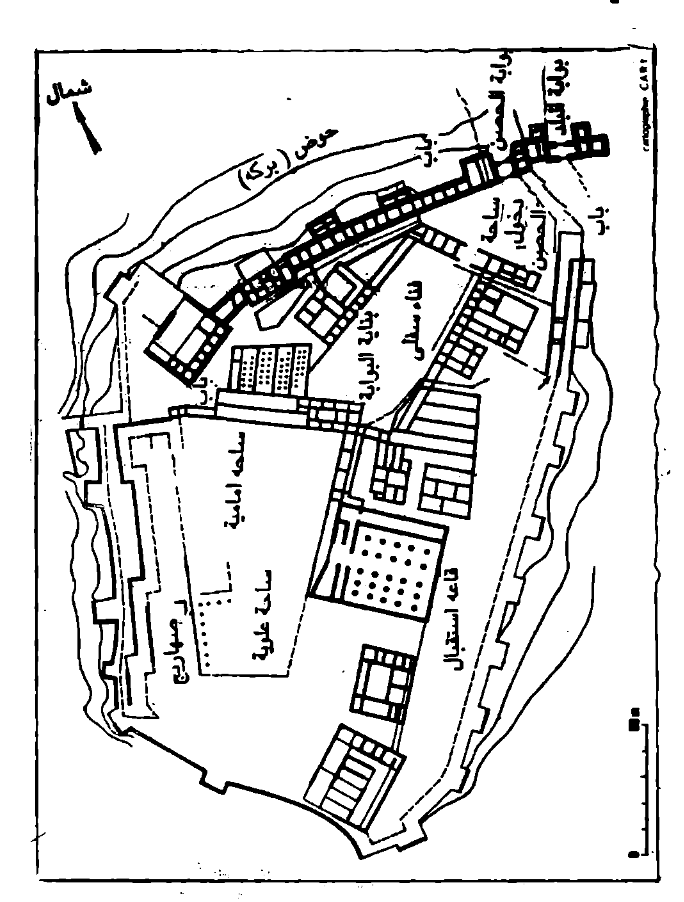
وقلب الملك الأمر فى ذهنـه ثم قال ، « كيف يمـكن لهــؤلاء الذين أرسلتهم الى سوريا أن يتحملوا ، ويجابهوا هذه الأيام المطيرة وصقيع الشتاء ؟ » لذلك قدم القـــرابين لأبيه ست (الاله) ·· وقــال : « الســماء بين يديك ، والأرض تحت قدميك ، ولا يحدث الا ما شئت ـ فأبتهل اليك الا تنزل المطر ، ولا الجليد ولا الصقيع ، حتى تصلنى المعجزة التى حبوتنى بهـــا ! » ·

فاستجاب له أبوه ست ، وهدأت السماء وتبدل الشتاء صيفا · فتم الأمر ومضى الجيش والموظفون فى طـــريقهم قدما ، فى خطـوات خفيفة وهم يفيضون بشرا ·

« أشهد أنه عند دخول ابنة ملك الحيثيين الكبير مصر ، كانت تحف بها فيالق جيش مصر وعرباته وموظفو جلالته ، وهم مختلطون بفيالق جيش الحيثيين وعرباته وموظفى المملـــكة ٠٠٠ وقد أكلوا معا وشربوا معا متحدين كالاخوة ـ لم يحتقر أحد زميله ، وحل الوئام بينهم وعمتهم الصداقة ، مقتدين بالاله نفسه ، رمسيس الثانى ٠

وأينما مر الركب (الميمون) انزوى الملوك والرؤساء وأصابهم الوهن ، لمرأى شعب خيتا متحدا مع جيش ملك مصر ٠٠٠ (أما رمسيس الثانى) ٠٠٠ فقد صارت مملكة الحيثيين له كما أن مصر له ٠

والســـبب أن الســـماء تحت ابهـــامه وتســتجيب لمـــا يشـــاء !



شكل (٧) هاتوساس : مسقط للحصن الملكى

والآن وقد وصل الركب الى بى رمسيس ، (جاءت ؟) كما لو كانت تحييهم ؛ جاءت معجزة النصر ... سنة ٣٤ ، شهر الشتاء الثالث ، من حكم رمسيس .

ثم ادخلت بنت ملك الحيثيين الاكبر .. ومثلت امام جلالته ، ومعها قافلة التقدمة العظيمة الثرية ، وبها كل شيء بدون حدود . ثم شاهدها جلالته ، وكانت جميلة الملامح ، فوق كل النساء ـ النبيلة [هكذا قدرها ؟] ، الالهة بعينها ! اشهد انه كان حدثا كبيرا غامضا ، عجيبا ثمينا ، لم يعرف من قبل ولا تحدثت عنه المرويات الشعبية ، ولم يرد له ذكر فى المدونات ، منذ زمن الأسلاف الأقدمين ـ ابنة حاكم خيتا الكبير تحضر ، وتتقدم فى قلب مصر ، حتى تلقى رمسيس الثانى . الآن راقت الأميرة لجلالته ، فاحبها اكثر من كل شيء ، وكان الحدث بالنسبة له عظيما ، وانتصارا وهبه اياه بتاح ـ تاتنن واعلن أن اسمها المصرى صار :

« الملكة ماعت ـ حور ـ نفرورع ـ حفظها الله ـ ابنة حاكم الحيثيين الكبير ، وابنة ملكة الحيثيين الكبرى » .

واستقرت فى القصر الملكى ، وأصبحت ترافق الملك كل يوم ، وانتشر اسمها كالشعاع فى أرجاء مصر (البلاد) ... » .

بجانب مظاهر الفخار والاحتفاء بهذه المناسبة الرسمية السعيدة ، واظهار الجموع للسرور فى شوارع وميادين واحياء بى ـ رمسيس ، والروعة المذهلة لهدية العرس ، ورشاقة الأميرة بجوار الفرعون الفخور فى قصره المزخرف وقاعات عرشه المعمدة ؛ بجوار ذلك كله كان هناك شبه تحلل من مفهوم التحالف القوى عبر عنه كتبة الملك كما يلى :

« من الآن ، اذا سافر رجل أو امرأة الى سوريا فى شأن ما ، فانه بامكانهما الوصول الى الأراضى الحيثية بدون أن يخلع الخوف قلبيهما ، بسبب انتصارات جلالته » ـ ناهيك عن انتصاره فى الزواج !

الملكة الجديدة

ومرت سنة حتى اتى شتاء سنة ٣٥ (اوائل ديسمبر ١٢٤٥ ق.م) ، وهذه المناسبة السعيدة ما زال لها صداها فى أرجاء مصر . وفى هذه السنة منح الاله بتاح بمنف بركاته لرمسيس الثانى ، على صورة نقش تمت

صياغته لينقش فى المعابد الكبرى بمصر والنوبة ، لتكون قرينة للوحات الزواج العظيم الذى أقيم فى السنة المنصرمة · فى هذا النقش ، يقول بتاح مشيرا الى الزواج الميمون : « لم نسمع منذ زمن حوليات الآلهة السرية الموجودة فى دار الكتب ، منذ أيام الاله رع حتى ايام جلالتكم (مثل هذا) ، ولم نعلم انه كانت هناك علاقة مودة ولا صداقة بين خيتا ومصر » ·

وفى أول الأمر سمح للملكة رمسيس الثانى الحيثية بالمشـــاركة فى التشريفات بالقصر مع قريناتها الأميرات الملكات بنت عنات ، ومريت آمون أو بنت تاوى · لقد ظهر اسمها ـ « هى التى تشاهد الملك الصقر الـذى هو رع المرئى (أى تجسيد رع) » ـ على آثار بى رمسيس ، ملكة كاملـة فى التماثيل الملكية وفى دبابيس الزينة (حلية الصدر المعروفة بالبروش) الملونة لاستعمالها كتمائم او لوضعها فى اساسات المبانى · ومع ذلك كله فسوف نرى أنه بمرور الزمن ، بعد ان أصبحت عقيلة نبيلة فى الخمسينيات من عمرها تقريبا نفيت لتنضم الى حريم الملك الكبيـــر باقليم الفيوم ذى الحـدائق بعيدا عن بى رمسيس ومن يزورها من الرسل الحيثيين بما يقرب من ١٢٠ ميــلا ·

الزيارات الملكيـــة الدولية

أمير التاج (ولى العهد) الحيثى يزور مصر

بعد انقضاء العقد الأول من الزواج (بين سنتى ٣٣ ، ٤٢) ، وبعد توطد أواصر الصداقة بين خيتا ومصر ، تلاشت الشكوك القديمة وتلطف الجـو بينهما بالتدريج ·

ولم تقتصر اتصالات الدولتين على زيارات المبعوثين من البـــلاطين بدون انقطاع ، بل تجاوزت الاتصالات هذا المستوى الى مستويات أرقى لشخصيات رضيت بالسفر اكثر من ٨٠٠ ميل من هاتوسا الصخرية الى بى رمسيس المحفوفة بالنخيل · وكان احد هذه الشخصيات العظمى هـو الأمير هاشمى ـ شاروما ابن هاتوسيل الثالث وولى العهد ذاته لمملـكة الحيثيين ، والذى تولى بعد ابيه باسم تودو خاليا الرابع ·

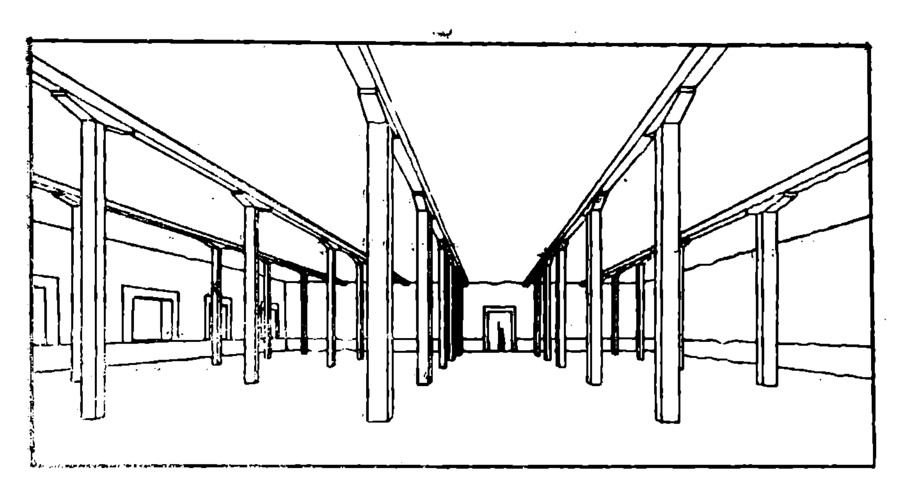
وكما فعلت اخته ملكة مصر فى ذلك الوقت ، اختار الأمير هاشمى ـ شاروما فصل الشتاء للرحلة الى مصر ، وقد اشار رمسيس الى ذلك فى رسالة منه لأبيه الملك هاتوسيل الثالث :

« انظر الآن ، عندما حضر هاشمى ـ شاروما الى مصر ، اختار أشهر الشتاء ٠٠ الباردة ! » ٠

وقضى الأمير فترة الشتاء فى جو مصر المناسب وهو « الموسم السياحى » بحق ! ثم عاد الأمير الى وطنه ـ فى الربيع تقريبا ـ «مع مبعوثين مرافقين له» ، محملين بالهدايا للبلاط الحيثى ٠ وحدث ولا حرج عن المشاعر التى احدثتها طبيعة الحياة فى بلاط رمسيس الثانى النابض بالحيوية والنشاط ، فى نفس ملك المستقبل على الحيثيين ٠ هل تأثر بالمنحوت والنقوش البارزة الملونة التى زخرفت بها المعابد الحجرية الشاهقة المكرسة للآلهة المصرية ؟ وهل سأل التراجمة عن طبيعة الديانة المصرية وأشكالها وتنظيمها ؟ أم هل استفسر منهم عن النظم السياسية والادارية وكيفية الاستفادة بجهود عظماء الرجال مثل خع ام واست ومرنبتاح ولدى رمسيس الثانى المتألقين بين باقى أولاده ؟ فمن الصعب تصور قضائه هذه الأشهر فى مصر فى عزلة ، ولكنا لن نحصل أبدا على جواب شاف للأسئلة التى طرحناها أو مثلها ٠ ولكننا نشير اشارة سريعة الى أن تودوخاليا الرابع بالذات هو الذى أمر بعمل مجموعة النقوش البارزة التى استخدمت فى زخرفة مجمع الآلهة الحورية ـ الحيثية فى الجناح الرئيسى للمعبد الصخرى المفتوح (لا سقف له) العظيم فى جازليكايا القريبة من العاصمة الحيثية هاتوساس ٠ ولم يكتف بذلك بل كانت له اقتباسات هيروغليفية تعدت بكثير ما اعتاد أن يفعله سابقوه ٠ كما أن تودوخاليا هو الذى قام بحركة البحوث والحصر للمذاهب الدينية فى مملكته، وبتنظيم الأرشيف (الملفات) ، وباستنساخ الوثائق وضبطها ٠ وسوف تعترينا الدهشة ان لم يكن وهو يذكر أيامه بمصر قد تشجع فيما بعد على زيادة جرعة الفن الأثرى التذكارى والنقوش فى الديانة الحيثية ، واجراء نوع من الجرد أو الاحصاء وهو شىء أغرم به فراعنة مصر رغم أنه لم يكن مجهولا فى الاستخدامات الحيثية المنظمة ٠

زيارة هاتوسيل الثالث لمصر

ما حققته الزيارات الرسمية الأقل فى مستوى التمثيل ، مثل زيارة ولى العهد هاشمى ـ شاروما ، تعتبر تمهيدا لزيارة رسمية كبرى : زيارة حاكم الحيثيين الأكبر ـ هاتوسيل الثالث ـ نفسه لرمسيس الثانى فى مصر ٠ والذى أرسل الدعوة هو الملك رمسيس نفسه ، وهو كما نعلم ملك دائم التفاؤل ٠ فأرسل دعوة حارة الى هاتوسيل كى يزور مصر ويتعارفا شخصيا ٠ ولكن هاتوسيل العبوس الحذر بطبعه تلقى الدعوة



شكل (٨) : هاتوساس : الحصن الملكي ـ قاعة العرش ببهو الاستقبال ـ منظر تكويني في اتجاه الباب الشمالي كما يرى من العرش الحيثي ٠

ببرود زائد وجفاء : « فليكتب لي اخي ويحيطني علما بما سوف نفعله بالضبط عندك ! » ٠

لكن رمسيس الشهم لم يثبطه ذلك بل رد عليه برسالة تفيض بشرا :

« ما هذا الذى تقوله يا اخي ؟ » ٠ ثم شدد في تكرار الدعوة: ان اله الشمس (في مصر) واله العواصف (في خيتا) سيدفعان اخي للقاء أخيه ؛ فهل يتكرم اخي ويلبي هذه الدعوة المفيدة والحضور لزيارتي ؛ فيمكن أن نلتقي وجها لوجه حيث يجلس رمسيس الثاني على عرشه ٠ وسوف أذهب بنفسي الى كنعان لاستقبال اخي ورؤيته وجها لوجه ، وارحب به في قلب أرضي ! » ٠

وبذلك يكون رمسيس قد عرض أن يستقبل ضيفه المنتظر في كنعان، وربما يكون أول لقاء بينهما في أحد قصور غزة ؟ بعدها يصحبه شخصيا الى مصر والأغلب الى بي رمسيس القريبة نفسها ٠

وربما تكون لهجة رمسيس الودودة المخلصة قد اقنعت الحاكم الحيثي المتجهم المريض بقبول الدعوة ٠ الا ان التنفيذ اعترضته عقبة ، اذ اصبح الملك يوما « وقدماه ساخنتان » ٠ وبلغة عصرنا الحديث يعني ذلك أن هاتوسيل أصيب بالتهابات في قدميه عاقته مؤقتا عن تنفيذ الزيارة ٠ وأخطر الحيثيون المصريين بذلك ووعدوهم بارسال تقرير مقنع بمدى تقدم حالة الامبراطور الصحية ، وبنيته على تنفيذ زيارته لمصر ٠

والحقيقة أن الملكة بودوخيبا رأت فى المنام وحيا يقول لها باسم الاله :

« اقسمى يمينا للالهة نينجال ، هذا نصه : اذا ذهب هذا المرض ـ مرض احتراق القدمين (الالتهاب) ـ عن جلالته ، فسوف أصنع لنينجال عشر قارورات ذهبية ، وارصعها باللازورد » ٠

وقد شفيت قدما هاتوسيل بالفعل ، وتكشف عن ذلك رسالة تشير الى أنه « غادر المدينة » فى طريقه الى مصر ٠ والأغلب أن رجلى العصر ـ هاتوسيل ورمسيس ـ التقيا فعلا فى كنعان وفى بى رمسيس ٠ ولكن هذا الحدث المهيب ليست لدينا عنه معلومات أكيدة ٠ قد يكون نصبا تذكاريا قد أقيم فى بى رمسيس تخليدا للذكرى ، لكنه اندثر بين أطلال بى رمسيس واختفى ٠ ولكن بردية «مدرسية» فى منف تروى فقرة خفيفة كتبها ملك الحيثيين الأعظم الى حاكم كود فى سوريا الشمالية يدفعه للاسراع فى الاستعداد للتوجه الى مصر وتقديم التحية لرمسيس الثانى ، مراءاة ورياء٠ وعثر فى طيبة على مذكرة متكسرة بها استهلال لرسالة نموذجية على لسان اينى ـ تيشوب الأول ، ملك قرقميش ٠ ومعنى ذلك أن هناك دلائل تاريخية على « اجتماع القمة » وانعقاده بالفعل ، رغم ندرة الدلائل المتوفرة لدينا عنه ٠

العرس الملكى الثانى

هل هناك طبيب بالدار

ظل تقدير البلاط الحيثى « للمعارف » المصرية يزداد ، وخصوصا فى عالم الطب ٠ وطارت سمعة الأعلام من أطباء مصر وأساليب علاجهم حتى طبقت الآفاق ٠ ومن ثم وجدت رسائل متبادلة مع البلاط الحيثى ترجع الى الأربعينيات من حكم رمسيس (١٢٤٠ ـ ١٢٣٠ ق٠م٠ تقريبا) نلاحظ فيها الاستخدام الملكى الجديد لاسم رمسيس الثانى ،.« رمسيس الثانى محبوب آمون » مضافا اليه « الاله ، ملك هليوبوليس »٠ ويعبر عنه باللسان الرسمى البابلى كما يلى : ايلوم شارو آنا ٠ فلما طلب أحد أتباع هاتوسيل ـ وهو ملك محلى صغير لدويلة كورانتا ـ اسعافه بعلاج طبى مصرى ـ طبعا عن طريق رئيسه امبراطور الحيثيين ، لبى رمسيس الطلب :

« الآن استدعيت طبيبا عالما · وسوف أرسله الآن لتحضير الأعشاب من أجل تارونتاس ؛ وقد وصف مجموعة مختارة من الأعشاب ، تتمشى مع طلبكم » ·

والظاهر أن براعة هذا الطبيب أساسها قدرته على وصف التداوى بالأعشاب · وفى زيارة من زياراته لخيتا تبادل مع طبيبين آخرين رجعا الى مصر · مثل هذه الغدوات والروحات كانت معروفة بين بلاط مصر وبلاطات الشرق الأدنى الأخرى ·

فأحيانا كان السوريون يستشيرون الأطباء المصريين بالمراسلة · وأحيانا كانوا يستدعونهم لاجراء الفحوص الطبية كما اعتاد أن يفعل ملوك دويلة أوجاريت الغنية ، بعيدا على ساحل سوريا الشمالى ·

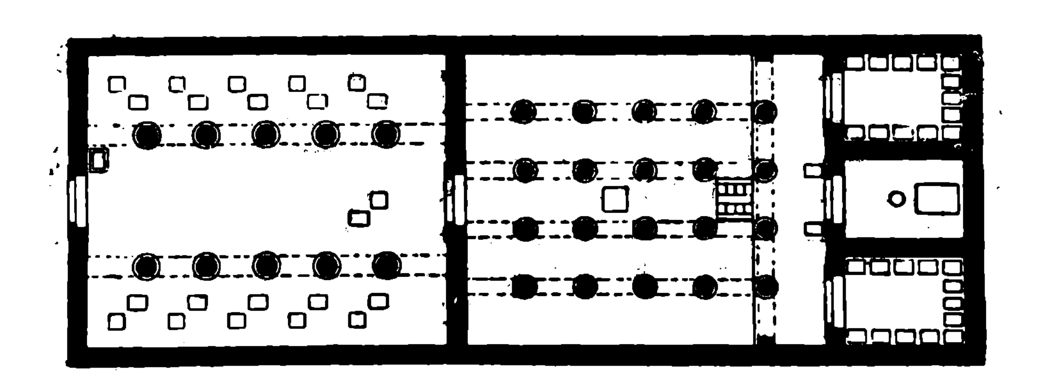
وكانت ثقة الحيثيين التى لا حد لها فى خبرات المصريين الطبية ، تربك رمسيس أحيانا · فلما طلب هاتوسيل من الفرعون ارسال طبيب لتحضير أدوية تساعد أخته على الانجاب ، كان رد الفرعون ردا صريحا ينقصه النبل والشهامة :

« انتبه لى يا أخى ؛ ففيما يخص ماتانازى أخت أخى ، فأنا أخوك الملك أعرفها · أليست فى الخمسين ؟ أبدا ! انها قطعا فى الستين (من العمر) ! ·· ولا يستطيع أحد أن يحضر لها دواء يجعلها قادرة على الانجاب · ولكن اذا شاء اله الشمس واله العواصف لها أن تنجب فستنجب ··· ومع ذلك فسوف أرسل لك طبيبا بارعا وساحرا عظيما ، قد يمكنهما تحضير بعض أدوية الحمل لها » ·

الأميرة الجديدة

توطدت العلاقات بين الدولتين بشكل كبير ، لدرجة أن هاتوسيل عرض على الفرعون تزويجه باحدى بناته الأخريات ومعها هدية عرس لائقة · « لا ترفض سيدة قط » (خصوصا اذا أمهرت مهرا كبيرا) ، شعار يرفعه رمسيس فى مثل هذه الأمور ، وبذلك تمت الصفقة ، وفى الوقت المناسب كانت أميرة حيثية ثانية فى طريقها الى مصر · وشارك الأمراء التوابع فى اضفاء الثراء والعظمة على هذا العرس الملكى الثانى · والاتصالات والمفاوضات فى هذا الصدد مجهولة لنا · ولكن شعراء البلاط الفرعونى شرعوا فى نظم مقطعاتهم بهذه المناسبة ، مظهرين هذا الحدث كهبة من الآلهة ، فى نص شعرى سجل على اللوحات التذكارية بالمعابد المختلفة :





(شكل ٩) : مكتب الشئون الخارجية الفرعونى

الصورة العليا : في الوسط جاي كاتم سر الفرعون يقدم قربانا لتحوت (اله الكتابة والعلم) - وصورة تحوت على اليمين في مظهره القردى داخل مقصورته وفى البهو الخـارجي يوقع وهو جالس على كرسي الوزارة الوثائق التى يعرضها المرءوسين وفى الاجنحة الخارجية كتاب يعملون بنشـاط فى تحضير الأوراق ·

الصورة السفلى صورة تكوينية للمبنى ·

« أمر الملك بتسجيل مجعـزات بتاح ـ تاتنن العظيمة عـلى نصب تذكارى ... (وكذلك الآلهة الأخـــرى ...) التى حققوها لرمسيس الثانى ، ابنهم الطيب ، وتتعلق بكيفية جعل الآلهة تحض ملوك كل الدول الأجنبية على احضار الجـــزية الى رمسيس الثانى ابن الآلهة الطيب ، مع الكثير من الذهب والفضة وكل انواع الجواهر النفيسة .

ارسل حاكم خيتا الأكبر مغانم خيتا الغنية الوفيرة ،
ومغانم كاسكا الغنية الوفيرة ،
ومغانم أرزاوى الغنية الوفيرة ،
ومغانم كودى الغنية الوفيرة ،

ويا له من اسلوب لم يعرفه رمسيس الثانى من قبل !

وبالمثـل جمـاعات من الخيل كثيرة ،
وقطعان من الماشـــية كثيرة ،
واسراب من الماعز كثيرة ،
ومجموعات من الصـــيد كثيرة » .

ولم يتقــدم موكب عروس خيتا هذه المرة فيالق الجيش ولا عرباته ، لأن جبروت الآلهة المصرية وغيرها من الأمم اخضعت للمركب الملوك وجندهم أينما توجه حتى وصل بسلام الى رمسيس الثانى .

« هذه الآلهة هي التي دفعت الملوك لحمل ذهبهم ،
وحمـــل فضتهم ،
وحمل الأواني الحجرية الخضراء (نوع ثمين من البازلت) ..

الى رمسيس الثانى :

والى احضار جماعات الخيل ،
والى احضار قطعان الماشية ،
والى احضار أسراب الماعـز ،
والى احضار طرائد الصيد ،

وكان أولاد الملوك هم الذين حملوا الهدية الى حـــدود أراضى رمسيس الثـانى .

وقد فعلوا ذلك ـ والحق يقال ـ من تلقاء أنفسهم ، فلم يذهب مسئول لاحضارهم ، ولا فيالق ذهبت لاحضارهم ،
ولا ذهبت العربات لاحضارهم ،

ولا ذهب أصحاب الألوية لاحضارهم ،
انه بتاح ـ تاتنن ، ابو الآلهة ، وهو الذى وضع كل البلاد
وكل الممالك تحت قدمى الاله الطيب (رمسيس الثانى) الى
الأبد » ٠

وعلى شذى هذه العلاقة من التوافق والانسجام بين البلاطين العظيمين ، ينسدل الستار على علاقات مصر الوثيقة مع خيتا فى حياة الملك رمسيس الثانى ٠ أما العروس فنحن لا نعلم شيئا عن اسمها أو مصيرها ، أكثر من انضمامها الى حريم رمسيس الثانى عقب أختها ٠ كذلك لا نعلم تحديد موعد هذا العرس الكريم ، واكبر الظن انه لم يتجاوز الأربعينيات من حكم رمسيس الثانى ، عندما الحق باسمه لقب «الاله ، حاكم هليوبوليس » وهو لقب منصوص عليه ايضا فى النصوص المسمارية ؛ وكان هاتوسيل الثالث ما زال حيا ٠ وربما بعد موت هاتوسيل الثالث ـ او كما يقول الحيثيون « لقى مصيره وصار الها » ـ وتولى تادوخاليا للحكم بعده ، تكون العلاقات بين البلدين قد اخذت تفتر حتى تلاشت تقريبا ٠ ولكن الحلف بين الدولتين استمر ، طوال حياة الدولتين ٠

واستمر حكم رمسيس عشرين سنة اخرى فى ازدهار ، حتى السنة السابعة والستين من حكمه (١٢١٣ ق٠م٠) نعمت فيها مصر بالأمن والرخاء على كل المستويات ٠

الأصداء على مر القرون

هذه «الأحداث الملكية» العظيمة البديعة بين هاتين القوتين العظمتين فى وقتهما ـ مصر وخيتا ـ كانت الأخيرة من نوعها لقرون عديدة تالية ؛ وان لم يتضح ذلك حال حدوثها ٠ واستمرت روابط المصاهرة لأغراض سياسية سمة من سمات هذه الحقبة وما تلاها ، لكنها لم يحتف بها أبدا على هذه الصورة من الأبهة والأشعار والزخرف ٠ ولكن فى مصر على الأقل خلدتها الحكايات الشعبية فى ذاكرة الشعب ، وخلدتها الآثار التى تركها رمسيس منقوشة عليها ٠

ومن ثم ، فبعد الف سنة ، فان المرويات الشعبية حول أميرة أجنبية تصبح ملكة لمصر، واطباء مصريين يسافرون للخارج كانت منتشرة بين كهنة طيبة لدرجة تطفلهم عليها لاشهار احد الآلهة الصغيرة فى طيبة فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ولم يكتفوا بذلك بل اقاموا نصبا تذكاريا جميلا تزيينا « لتخليد » الاله الصغير جنوس صانع الخرائط لدوره كشاف للمرض ، معتمدين على روايات ترجع الى عهد رمسيس الثانى والملكة « نفررو رع » ٠

الباب الثالث

مملكة الإله الشمس

الفصل السادس : العائلة الملكية والعواصم

الفصل السابع : دهاليز السلطة

الفصل الثامن : المعابد والآلهة

الفصل التاسع : العمل والعمال



الفصـــل السادس

العائلة المالكة وعواصم المملكة

مظـــاهر الجمـــال فى القصر

سيدة القصر الأولى ـ الملكة الأم تويا

رغم استغراق الحرب والسياسة والمبانى للجزء الأكبـر من وقت رمسيس الثانى ، الا أنه كان يفرغ بعض الوقت لرعاية أسرته الكبيرة التى كانت تقارن بضخامتها بحروبه ومبانيه . وكان لرمسيس منذ أن كان أميرا نائبا للملك عدد وافر من الحريم ارتبط من بينهن بست ملكات رئيسـيات على الأقل فى فترة حكمه ، وعمر قصور الحريم بالولدان ، فقد انجب مائة من الأولاد تقريبا ـ ذكورا وأناثا .

واثناء العشرين سنة الأولى من حكمه كانت الصدارة للملكة الأم تويا ، التى رافقت سيتى الأول طوال فترة حكمه كخير رفيق ومحظية ، الا انها لم تلعب أى دور مهم فى الشئون السياسية والعامة .

ولا نكاد نرى تويا فى آثار فترة حكم زوجها . ولكن رمسيس الثانى الوفى عندما صار فرعونا أعلى شأنها كثيرا ، فأمر بنحت تماثيل لهـا فى الرمسيوم بطيبة وفى عاصـــمته بى رمسيس . ويوجـد لتويا فى متحف الفاتيكان تمثال من تماثيلها الرسمية . ووجدت صورها مقترنة بصور رمسيس والملكة نفرتارى واطفالهما على واجهـــات معبدى أبى ســـمبل الصخريين على بعد ١٠٠٠ ميل جنوب الدلتا . كما بنى رمسيس الثـانى فى الجهة الشمالية من الرمسيوم بطيبة معبدا صغيرا من الحجر الرملى كرسه الى تويا . والمعبد مكـــون من رواق معمد وفنـــاء وعدة أبهاء ، وأساطين لها تيجان حتحورية . هذا المعبد يحتوى على صفين متوازيين من الغرف ويصلح ليكون معبدا تذكاريا للملكتين تويا ونفرتارى معا . من هذا المعبد تعرفنا على أبوى الملكة تويا ـ قائد العربات رايا وزوجتـه رويا . ومن الملامح الزخرفية الهامة بالمعبد مشهد يصور الميلاد الالهى للفرعون ؛ وهو ما استغله رمسيس الثانى فيما بعد لتأكيد الطبيعة الالهية

لمركزه الملكى · هذه الأسطورة الدينية مبنية على عقيدة لاهوتية تؤكـد أن آمون حل فى جسد أبى الملك لما حملت الملكة لتلد رمسيس (وكل فرعون أيضا) · لذلك فان ملك المستقبل الصغير منذ ولادته يعتبر ابنا للاله آمون الطيبى ، وابنا لأبيه الملك البشرى فى آن واحد · وهذا ليس اختراعا من اختراعات رمسيس بل سبق أن طبق هذا المبدأ امنموتب الثالث والملكـة حتشبسوت من ملوك الأسرة الثامنة عشرة فى اسطورة نقشت على جدران معبدى البر الغربى والأقصر على التـوالى ·

وحظيت الملكة تويا على التكريم الذى لا شك فى أنهـا جديرة به فى السنوات الأخيرة من حياتها · فقد كانت بعد على قيد الحياة اثناء السنوات العشرين التى شهدت حرب سوريا والصلح مع الحيثيين ، وشاركت بنفسها فى الاحتفال الرسمى بتوقيع معاهدة السلام مع الحيثيين سنة ٢١ ؛ بل انها وجهت بنفسها احدى الرسائل التى تم تبادلها بين بلاطى الدولتين للتهنئة بهـــذه المناسبة العظيمة ·

فى هذه الأثناء أعد لها ابنها مقبرة عظيمة فى وادى الملكات بغرب طيبة · والمقبرة لها درج يؤدى الى ثلاث قاعات منحوتة فى الصخر ، تنتهى ببهو معمد · وزخرفت المقبرة بزخارف جميلة وجهـــزت بجهاز فاخر · ووضع فى بهو الدفن تابوت حجرى من الجرانيت الوردى ليضم توابيتهـا الخشـــبية · وفى سنة ٢٢ على الأرجـــح (١٢٥٨ / ٥٧ ق·م·) عقب توقيع اتفاق السلام بقليل ، ماتت الملكة تويا فى نحو الستينيات من عمرها تقريبا ورقدت فى مقبرتها « بيتها الأبدى » فى سلام ·

اخـــوات الملك

اشتهرت من اخوات رمسيس اختان كانت لهما مكانة فى البـــلاط الملكى ، احداهما تكبره والأخرى تصغره · اما الكبرى وتسمى ثيا فقـد تزوجت قديما برجل يدعى تيا ـ قبل تولى جدها مؤسس الأسرة الملكية الجـديد للعرش · وعندما انفرد رمسيس الثانى بالعرش عين صهره تيـا فى مركز ادارى مرموق ، اذ جعله مديرا للخـزانة والثروة الحيـــوانية (الماشـــية) بمعبد الرمسيوم ، وهو عمل يجعله على راس الاداريين بهـذا المعبد · وكانت ثيا نفسها « مغنية آمون » [كبيرة الكورال الدينى] ، صاحب الانتصارات ، والحقت بعبادة آمون فى العاصمة الصيفية (بى ـ رمسيس) بالدلتا ، وكانت لها روابط بمنف وهليوبوليس ايضا ·

واما الأخت الصغرى حنت ـ مى ـ رع فقد اقترن بها رمسيس الثانى ، اذ انها ولدت وسيتى الأول على عرش مصر ، ومن ثم كانت معتبرة من وريثات العرش· وكان زواج الفرعون من وريثة العرش توطيدا للمـركز

من التقاليد المعروفة منذ الأسرة الثامنة عشرة · ولكن دور حنت – مى – رع كان على اية حال هامشيا ، وليس لهـا اثر يذكر فى المحـافل العـامة وفى آثار ذلك العهد · ولكنها تظهر مع امها فى تمثال الأم الموجود بالفاتيكان، كما انها ظهرت على احد تماثيل رمسيس الثانى المتأخرة · وقد توفيت حنت – مى – رع فى الأربعينيات من حكم اخيها ، ووسدت فى تابوت حجرى وجد فى طيبة ونقل الى المتحف المصرى بالقاهرة ·

الملكتـــان المتنافســتان

تميزت سيدتان من بين كوكبة النساء اللائى اهداهن سيتى الأول الى ابنه الأمير رمسيس عندما عين نائبا للملك ، هما الملكتان الرئيسيتان نفرتارى وايست نفرة زميلتها العتيـدة · ولكن لا توجد اية معلومات عن اصل هاتين الفتاتين او نشاتهما · لكنا نعـرف تماما انهما كانتا اقـرب رفيقات رمسيس الثانى اليه أثناء العشرينيات من حكمه ·

والسيدة الأولى نفرتارى كانت تتمتع بالرقة والرشاقة والجمـــال وخفة الظل بجوار زوجها الوسيم النشيط · وتماثيل هذه الملكة منحوتة ببراعة تضفى عليها مسحة من الجمال غير مؤكدة ، كأنما تريد ان تنصفها (المعنى واضح وهو أنها كانت وسيمة لا جميلة) · ومنذ البداية كـانت نفرتارى اقرب الزوجات الى قلب رمسيس · ولما كانت لها المكانة الأولى عنده فقد لعبت دور الملكة الرسمية التى تظهر معه أمام المجتمـــع وفى المحافل العــامة والأعياد الدينية الكبرى مهتمة بمظهرها ورشاقتها · وهى التى اختارها الملك لتقام لها التماثيل بجوار تماثيله فى معابد مصر فى السنوات العشرين الأولى من حكمه ·

اما السيدة الثانية فى هذه الفترة فهى الملكة ايست نفرة التى تخلفت عن نفرتارى فى سباق الحظوة لدى رمسيس · وهذه السيدة لا يوجـد لها اثر يدل على شهودها اية مناسبة عامة ، ولم يظهر لها أى تمثـال بجـوار تماثيل زوجها الضخمة ، ولا بنى لهـا الفـرعون معبدا باسمها · فكأنهـا بذلك كبرى ملكات الظل او كبيرة ملكات « الصف الثانى » ·

هل كانت هناك اسباب معينة لهذا التوارى ؟ مثلا هل يعزى السبب الى ... ضغائن وخلافات فى الحريم الملكى كان له اثره فى العـلاقة بين السيدة الأولى و « سيدة الصف الثانى » ؟ الحقيقة انه لم يتوفر لنـــا أى دليل مادى على وجود عداوة بينهما · ولعل اكثر التفاسير قبولا يكمن فى احساس ايست نفرة انها لن تفوز فى سباق المنافسة مع نفـرتارى على قلب الفرعون ، فآثرت الانزواء فى الظل حتى يحين الوقت المناسب ، وهو ما حـــدث بالفصـــل ·

والذى لا شك فيه أن رمسيس الثانى كان يعز زوجته الثانية • والدليل على ذلك أن احدى حلى أيست نفرة الفاخرة كانت بها خرزة ذهبية منقوش عليها اسم زوجها بجوار اسمها •

ويبدو أن المنافسة الحقيقية بين الملكتين كانت فى المجال الأسرى ـ مجال الانجاب • فنفرتارى هى أم أكبر أبناء رمسيس الثـانى ، وليست نفرة هى أم ثانى أبنائه وكبرى بناته • ثم أنجبتا بعد ذلك بطونا كثيرة • ولكن اللافت للنظر هو أن أبناء ايست نفرة كانوا جميعا نابهى الذكر وافرى المواهب ولمعوا فى سماء مصر ، لدرجة أن عرش مصر استقر فى النهـاية بين يدى أحـد أولادها •

دور الملكة نفـرتارى وآثارها

كـان دور الملكة نفـرتارى بارزا منذ البداية • فهى التى رافقت رمسيس فى أول زيارة له الى طيبة بعد توليه العرش فى السنة الأولى ، وأشرقت بلطفها ورقتها على شهود المحافل الملكية فى أبيدوس فى مناسبة تنصيب نب وننف كبيرا لكهنة آمون •

وفى السنة الثالثة من حكم رمسيس صورت بجانبه فى المشاهد المحفورة على الواجهة الخلفية لصرح معبـد الأقصر وفى بعض المشاهد الأخرى • ثم شكلت لها تماثيل بأمر ملكى من الجرانيت رصت حول الفناء الأمامى الجديد • كما أنها ظهـرت على آثار الكرنك ، وشاركت الملكة الأم تويا معبدها الصغير على الضفة المقابلة للنهر بالأقصر ، والذى يشغل الامتداد الشمالى للرمسيوم •

وقد اختصت بمقبرة فى وادى الملكات ، حفرها عمال المقابر الملكيـة فأحسنوها وأتقنوها • هذه المقبرة لها عدة قاعات كلها مزخرفة بأحسـن النقوش ، محفورة بالنقش البارز المنخفض وملونة بألوان جميلة • وهذه المقبرة بكل المقاييس هى أجمل مقبرة فى وادى الملكات « دار خلودهن » •

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل وصل صيت الملكة نفرتارى بعيـدا حتى النوبة فى أقاصى الجنوب • فقد خصص رمسيس أحد معبدى أبى سمبل الكبيرين لنفسه والثانى للالهة حتحور ثم كرسه للملكة نفرتارى •

وعلى جانبى الواجهة الأمامية لمعبـد نفرتارى أقيمت للملك والملكة تماثيل ضخمة وهما متجاوران ، يصحبها تماثيل أصغر حجما لأطفالهما الملكيين وكلها متجاورة • وعدد هذه التماثيل الكبرى ستة مطلة من فوق الجبل ، وهى الآن محاطة بنقوش هيروغليفية نصها :

« بنى رمسيس الثانى معبدا نحت فى الجبل ، ليبقى راسخا الى الأبد ، من أجل الملكة نفرتارى محبوبة موت ، فى النوبة، دائما وأبدا ــ نفرتارى التى تشرق الشمس نفسها من أجلها » .

وتظهر الملكة فى المعبد ظهورا واضحا لا يكاد يقل عن ظهور زوجها، فيما عدا الجدار الخلفى للضريح الداخلى للمعبد الذى صور فيه رمسيس وحده وهو يرفع قربانا للالهة حتحور ، التى تظهر على شكل بقرة وهى تحمى الملك .

وتظهر أهمية الملكة نفرتارى فى انفرادها بمعبد أهداه لها الملك فى الأراضى الامبراطورية بالنوبة ، لا يوازيه سوى المعبد الذى بناه أمنحتب الثالث لزوجته الملكة تى فى سيدنجا فى تلك الأراضى الجنوبية . وفى معبد الملك نفسه وهو قريب من معبد الملكة صورت الملكة نفرتارى مع الملك والملكة الأم تويا وأطفالهما الملكيين . لكن معبد الملك هذا ظهرت فيه فى المراحل الأخيرة من بنائه ملكة أخرى هى الملكة الأميرة بنت عنات خلف أحد الأعمدة وهى المرة الوحيدة التى تظهر فيها هذه الأميرة كملكة لا كمجرد ابنة لرمسيس الثانى كما ظهرت فى باقى تماثيل أبى سمبل .

وفى سنة ٢١ كان للملكة نفرتارى حضور عند عقد الصلح وتوقيع معاهدة السلام مع الحيثيين ، وكانت ضمن من تبادلوا التهانى فى البلاطين . وقد سبق أن أوردنا الرسالتين المتبادلتين بينها وبين بودوخيبا ملكة الحيثيين بهذه المناسبة .

فى هذه السنة أو حولها كانت الملكة نفرتارى قد وصلت الى أواسط العمر أى أوائل الأربعينيات تقريبا ، ولها عدد وفير من الأطفال لا يقل عن سبعة أو ثمانية . وآخر عمل كبير للملكة نفرتارى حسب علمنا كان سنة ٢٤ من سنى حكم رمسيس الثانى . فى ذلك الوقت كان العمل قد انتهى تماما فى معبدى أبى سمبل العظيمين وحانت ساعة افتتاحهما . لذلك اتجه الأسطول النهرى الملكى فى هذا الشتاء (فبراير سنة ١٢٥٥ ق.م) جنوبا نحو طيبة ليعبرها الى النوبة ويستمر فى سيره حتى يصل الى أبى سمبل . وكان الملك رمسيس على رأس الحشد ترافقه الملكة نفرتارى وابنتهما الكبرى مريت آمون ومعهم نائب الملك حقانخت وبطانة من كبار القوم والأتباع . ومع الشروق وقعت أشعة الشمس على الجانب المقابل للنهر فأضاءت واجهة المعبد الكبير ووقعت على تمثال رمسيس الصخرى الضخم لتنعكس منه ، كلما وقعت فى موضع غير مطلى معطية وهجا برتقاليا يخطف البصر . وفتحت الأبواب الداخلية للمعبد الضخم، ثم

فتحت أبهاؤه الواحد تلو الآخر فاخترقتها أشعة الشمس متوغلة الى الداخل حتى وصلت الى أقصى الداخل لتفترش وتقع على تماثيل رمسيس الثانى ومعه كبار الآلهة رع وآمون وبتاح ؛ وكلها منحوتة فى الصخر فى عمق قدس الأقداس بعمق ٢٠٠ قدم تقريبا فى جوف الجبل : « فى الاتحاد مع قرص الشمس » وهو تعبير الكهنة المصريين أنفسهم ، ويقصدون أن أشعة الشمس واهبة الحياة ، تنفخ الحياة فى التماثيل فتصير أشخاصا حية • وقد قام حقانخت باقامة نصب تذكارى صخرى فى مكان قريب تخليدا لهذا الحدث الفريد • وعلى هذا النصب صور رمسيس الثانى والأميرة مريت آمون يتعبدان لآلهة المعبد الكبير : آمون ، ورع ، ورمسيس الثانى نفسه • وأسفل هذا المشهد نجد نائب الملك حقانخت يتقدم بالهبات الى الملكة نفرتارى •

ترى هل تأثرت الملكة بهذه الرحلة الشاقة لمسافة ٢٠٠٠ ميل فى قلب النوبة ذهابا وايابا ؟ لعل ما وصفناه من ظهور الأميرة مريت آمون بصحبة أبيها بدلا من أمها يعطينا تفسيرا لذلك ، خصوصا وأن التى تلقت التكريم من نائب الملك كانت نفرتارى نفسها • وأرجح الاحتمالات يتلخص فى أن الملكة نفرتارى مرضت أو أجهدتها الرحلة فلم تتمكن من القيام بدورها فى الطقوس الدينية الشاقة المعقدة المصاحبة لافتتاح المعبدين الكبيرين •

لذلك ظلت مستريحة فى مركبها فى رعاية أطبائها يحرسها نائب الملك ، وأنابت عنها ابنتها مريت آمون فى مرافقة الملك الى حفل الافتتاح، لذلك ظهرت صورة البنت بدلا من الملكة عند تقديم قرابين الآلهة أثناء اقامة الطقوس المعبدية • وهذا هو التفسير المعقول لمرافقة البنت لأبيها بدلا من أمها رغم أن الأم كانت فى المعية •

على أى الحالات كان هذا آخر العهد بنفرتارى ، فلم تشاهد بعد ذلك أبدا ، وربما تكون قد توفيت بالفعل سنة ٢٤ أو بعدها مباشرة ، وحملت فى موكب جنازى رائع الى مقبرتها الجميلة فى وادى الملكات حيث « مرقدها الأبدى » •

الملكة ايست نفرة وابنتها بنت عنات

واخيرا جاء دور الملكة ايست نفرة لتنتقل من الصف الثانى الى مركز كبرى الملكات ، ولكن لفترة قصيرة • وفى نفس الوقت تزوج الملك من كبرى بناتها بنت عنات (فى الكنعانية تعنى بنت الربة عنات) التى هى كبرى بناته أيضا ووضعها فى مرتبة أمها السابقة كملكة مساعدة •

وترتب على ذلك ظهور ايست نفرة اخيرا على الآثار ظهورا عابرا : فظهرت على نصب صــخرى فى أســوان (بين سنتى ٢٤ ، ٣٠ ؟) يذكرها صراحة على انها كبرى الملكات ومعها ابنتها بنت عنات واولادها الثلاثة الكبار : رمسيس ، خع ام واست ومرنبتاح الذى كان صغيرا فى ذلك الوقت .

وبعد سنوات قلائل ظهرت ايست نفرة على نصب تذكارى صخرى جميل هى وابنتها ، تظهر فيه السيدتان وهما تقومان بخدمة الملك رمسيس الثانى الذى يقف امامه الأمير خع ام واست .

فى ذلك الوقت كان ابن ايست نفرة الأكبر قد صار «الوريث الظاهر» اى ولى العهد و « اكبر ابناء الملك » . واصبح مرنبتاح « كاتبا ملكيا » ووصف بانه « ذو الأصابع الخبيرة » .

وعلى اية حال كان اشتهار امو ايست نفرة مجرد لمحة لم تستغرق وقتا طويلا . ويبدو انها توفيت سنة ٣٤ وحملت الى مقبرتها بوادى الملكات . وحتى الآن لم يتيسر التعرف على مقبرتها ، ولكننا نعلم بوجودها من عمال المقابر الملكية . وفورا آل دورها الى ابنتها بنت عنات فاصبحت الملكة الكبرى ، وآل دور الملكة الثانية او الملكة المساعدة الى مريت آمون كبرى بنات الملكة الراحلة نفرتارى .

الدفعة الأولى من الأبنــاء

اخذ رمسيس فى الانجاب منذ السنوات الأولى لنيابته على العرش، وظل نسله فى زيادة حتى كون جيشا صغيرا اربى على المائة ــ بنين وبنات ؛ منهم من مات صغيرا ، واكثرهم امتد به العمر حتى صار فتيا ، ومنهم من عاش الى آخر ايام والده ــ الذى امتد به العمر ــ وبعدها .

انجب نفــرتارى اكبر ابنائه آمون حرونمف ، ثم ثالث الأبناء برى حرونمف (« آمون رع على يمينه ») . وانجبت ايست نفرة الابن رمسيس ثانى الأبناء ، ورابعهم خع ام واست (« الظاهر فى طيبة ») وكبرى البنات بنت عنات . وقد صحب الصغيران آمون حرونمف ، وخع ام واست اباهما قرب نهاية فترة نيابته فى اواخر عهد جدهما سيتى الأول فى حملة صغيرة الى النوبة تخلد ذكرها فى معبد بيت الوالى .

وعقب انفراده بالسلطة قام رمسيس الثانى بتغيير اسم ابنه الأكبر الى آمون حرخبشف (« آمون مع ذراعه القوية ») ونصبه كبيرا للأمــراء



شكل (١٠) الملكة نفرتارى ، الملكة الكبرى زوجة رمسيس الثانى (ابو سمبل) .

اى جعله « الوريث الظاهر » وهو ما يعنى أنه أصبح وليا للعهد ، وهى رتبة رمسيس نفسه قبل اعتلائه عرش مصر ۰ وازداد عدد الأبناء الذين رافقوه عندما قام بحملاته العديدة على الجبهة السورية ، اذا كان ما صور على جدران المعابد الكبرى بشأنها صحيحا كله ۰ ولكن مما لا شك فيه هو أن برى حرونمف بالذات خاض معركة قادش ، وكان برفقة الوزير الذى أرسل فى طلب المدد ؛ وكان حينئذ مراهقا صغيرا يخوض القتال لأول مرة ۰

حياة الجندية لبعض الأمراء

من الأمراء الذين ظهروا فى مشاهد القتال الأمير آمون حرخبشف وقد رقى هذا الأمير الى رتبة « القائد العام » ۰ وبعد ذلك بفترة طويلة رقى أخوه رمسيس الى رتبة « القائد العام الأول » ۰ وحاز الأمير برى حرونمف لقبا ضخما هو « أشجع شجعان الجيش » (تخليدا لدوره فى معركة قادش ؟) ، ثم التحق بسلاح العربات كقائد للخيل ، رقى بعدها الى رتبة القائد الأول لعربات الملك ــ خلفا لنا بعد قادش ؟ وقاسمه هذا الدور أخوه منتوحرخبشف خامس أبناء رمسيس ۰ وقد شارك أكبر أبناء رمسيس الأربعة عشر جميعهم فى حملات سوريا ۰ وشارك ولى العهد الأمير آمون حرخبشف بصفة خاصة فى القتال فى حملة مؤاب (فى السنة السابعة تقريبا) ۰

وكان دور الابن الثالث عشر مرنبتاح فى الحروب صغيرا ۰ أما أصغر ولدين لنفرتارى : مرى أتوم وست حرخبشف فيبدو أنهما لم يشاركا فى الحرب ۰

التغييرات التى طرأت على ولاية العرش

أثرت قسوة الحياة العسكرية ، وصروف الدهر من أمراض ومحن فى ذلك العدد الكبير من أبناء رمسيس الثانى ، فمات عدد منهم ۰ وعند حلول سنة ۲۰ نلاحظ أن آمون حرخبشف اختفى ذكره كوريث للعرش ، والمرجح أنه كان قد توفى ۰ وقد توفى من أشقائه الأصغر منه سنا فى تلك الفترة كل من برى حرونمف وسيتى ومرى رع الأكبر ، ولم يبق على قيد الحياة من أبناء نفرتارى سوى أصغريهما : مرى أتوم (الابن السادس عشر) وست حرخبشف الذى يصغره بقليل ۰ وأصبح بذلك مرى أتوم هو الابن الأكبر من نفرتارى ۰ الا أن رضا الفرعون تحول عنه الى ست حرخبشف فأصبح وريث العرش « وكاهن » عبادة أبيه (عبادة الفرعون كأحد الآلهة) ووزير الدولة الشمالى ۰ وبصفته وليا للعهد كان

ست حرخبشف ضمن من تبادلوا التهانى مع البلاط الحيثى عقب توقيـع معـاهدة الصلح بين الدولتين (سنة ٢١) . ولكنه مات قبـل حلول سنة ٥٣ (١٢٢٦ / ٢٧ ق٠م) بكثير ودفن باحتفال مناسب فى طيبـة ، وبذلك توارى عن مسرح الأحـداث .

وعلى العموم فقد كانت مناصب الدولة المؤثرة منذ أوائل العشرينيات من حكم رمسيس قد أصبحت فى أيدى أبناء ايست نفرة وخرجت من أيدى أبناء نفرتارى . وأصبح أمير التاج هو القـائد الأمير رمسيس أكبر أبناء ايست نفرة . واستمر رمسيس وليا للعهد لفترة طويلة ناهزت العشرين عاما ـ بين سنتى ٢٥ و ٥٠ (١٢٢٩ ـ ١٢٥٤ ق٠م٠) . ورغم شـغله للمنصب هذه المدة الطويلة لم يقدر له ان يخلف اباه على العرش .

وبدءا من الخمسينيات من حكم رمسيس عهد بولاية العـرش الى العالم خع ام واست الابن الرابع لرمسيس والثانى لايست نفرة ، الا انه لم يشغل المنصب الا لفترة قصيرة اذ توفى فى نحـو سـنة ٥٥ (١٢٢٤ ق٠م٠) .

واخيرا استقرت ولاية العهد فى الأمير مرنبتاح ـ خامس من تولوا المنصب ـ وذلك فى أواخر سنوات حكم رمسيس . هذا الرجل الذى كان منذ نصف قرن من الزمان مجرد ثالث عشر أبناء رمسيس الثانى هو الذى قدر له ان يصبح فرعون مصر بعد رمسيس الثانى الذى استمر حكمه فترة طويلة لا تقارن بها فترة حكم من سبقوه منذ قرون .

خع ام واست ـ الأمير عالم المصريات

الـدور المبـكر

خع ام واست كما عرفنا هـو رابع أبنـاء رمسيس وثانى أبنـاء ايست نفرة . هذا الأمر حاز شهرة فاقت شهرة كل معاصريه دهورا طويلة اذا استثنينا شهرة رمسيس الثانى نفسه . ولد هذا الأمير مبكرا عندما كان والده نائبا للملك . وقد صحب أباه وهو صبى حول الخامسـة من عمره فى حملة ثانوية الى النوبة . وشارك بعد انفراد أبيه بالحكم فى حمـلات سوريا كما تشهد بذلك المناظر التى على جدران المعابد .

لكن الجيش والجندية والحرب لم تكن المهنة التى استهوت رجلنا ، واختار لنفسه طريقا آخر . وكان خع ام واست منذ نعومة اظفاره متفوقا فى مواهبه العقلية ، فاتقن فنون القراءة والكتابة ، وتبحر فى الأمـور الدينية والعقائدية والسحر والكتابة .

ولوجود البلاط الرئيسى فى الشمال ، دخل خع ام واست خدمة الاله بتاح بمنف القريبة ، وبتاح المنفى اله على شكل مومياء حليقة الـراس وهو اله الصناعة والفنون · وكانت هيئة كهنته مشهورة بالعلم والثقافة ·

رعاية العجـــول المقدســـة

عندما بلغ خع ام واست العشرينيات من عمره كان عقله اكبر ممـا توحى به سنه ، فعين فى مركز « كاهن سم » بمعبـد بتاح ، وهو المركـز التـالى مباشرة للكاهن حوى « كبير الصناع » ، ومن ثم اصبح سـاعده الأيمن · وكبير الصناع هو مجرد لقب لكاهن بتاح الأكبر لا يعنى بالضرورة درايته بالصناعات · ويظن أن شغله للمنصب تم قبل موت العجل أبيس ، (حيوان بتاح المقدس) فى ذلك الوقت بزمن قليل (سنة ١٦ : ١٢٦٣ / ٦٤ ق·م·) · وأعدت لدفن العجل مقبرة نحتت فى صـخرة رملية فى جبانة سقارة بمنف حسب الأسلوب التقليدى · ويتكون المدفن من منحدر يوصل الى غرفة الدفن ·

وقد دفن العجل فى نطاق جبانة العجول المقـدسة المعروفة باسـم السيرابيوم ، وتتميز بان كل مقبرة فيها يعلوها هيكل صغير فوق الأرض· وعلى جدران غرفة الدفن الجديدة صور رمسيس الثانى وخع ام واست وهما يقومان بتقديس الاله ابيس (العجل المقدس) · وتقـدم كثير من الكبراء بكثير من الهدايا (تماثيل اوشابتى ، وتعاويذ فعالة قوية ·· الخ) لترفع الى آلهة دفن العجل الميت · وفى سنة ١٩ كان ضمن هؤلاء الواهبين المتميزين بخلاف خع ام واست أخوه الأكبر الأمير القائد رمسيس ، والوزير باســر ·

وكانت القاعدة تقضى بالبحث الفورى عن عجل حى ــ فى كل أنحاء مصر ــ يحل محل العجل الميت بشرط ان يكون حائزا للمواصفات المطلوبة فكل عجل يكاد يكون نسخة من سلفه الميت · وبعد ذلك يغين العجل الجديد ابيسا جديدا · وقد وجدوا العجل المناسب ونصبوه ثم مات بدوره سنة ٣٠ (بعد ١٤ سنة من سابقه) · وانهالت الهدايا فى هذه المناسبة ايضا بعد ان قام الأمير خع ام واست بدفن العجل الراحل مثل سابقه ·

وكان من الشخصيات البارزة التى قـدمت هداياها سوتى رئيس الخزانة وشخص يدعى حوى خلاف كبير كهنـة بتاح · اما ذوو الرتب الأقل فاكتفوا ببناء شواهد خارج المقبرة ، نذكر منهم بياى الكاتب القارىء كبير المحنطين ، والوصيف ، بتاح مس ، رئيس حريم منف ، وآمون مس مع غيرهم ·

وعلى مر السنين رحلت « الى الغرب » أى ماتت عجول أخرى ، يظن أن أحدها فى غرفة جانبية محفورة فى مهبط المقبرة المزدوجة التى كانت موجودة فى السنوات ١٦ الى ٣٠ ٠

الكهوف السرية ومعبد ابيس

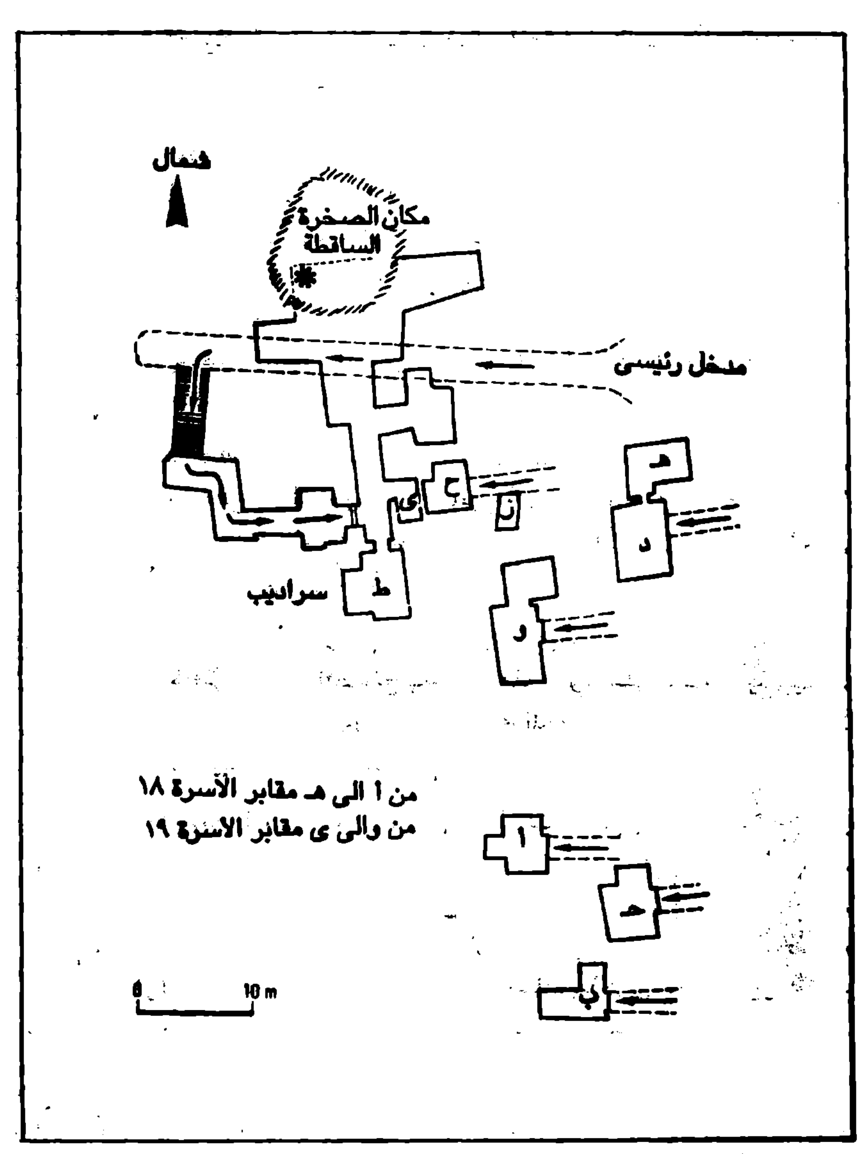
اهتدى خع ام واست الى خطة جديدة لدفن العجول المقدسة فى المستقبل ٠ وتتلخص الخطة فى شق نفق أرضى أو سرداب طـويل تحت الأرض تحفر غرف دفن العجول على جانبيه فى حائطى السرداب نفسه ٠ وبذلك يمكن حفر صفين من الحجرات متقابلين لدفن العجـول على التتابع بأسلوب بسيط يوفر لها الحمـــاية والأمان ٠ ولا يسـتدعى الأمر عنـــد التطبيق اكثر من اعداد حجرة واحدة فى كل مرة لتستقبل رفات العجـــل المطلوب دفنـــه ٠

ونفــذ خــع ام واست مشروعه فى أواخــر ايامه ٠ فنحت سـلما ذا ثلاث درجات قائمة الزوايا يصل الى سرداب تحت الأرض فى بطـن الصحراء يتجه شمالا ٠ ووضع خطته على أساس حفر حجـرة واحدة فى احدى جداريه لاستقبال رفات العجل الميت ٠ وما أن يدفن العجل حتى تحفر حجرة مجاورة استعدادا للذى يليه ، وهكذا ٠ وأدى هذا النظام الجـديد الى الاستغناء عن الشواهد الأرضية التى كانت تبنى من قبل ٠

بعد ذلك بنى خع ام واست معبدا يسمى « معبد أبيس » ـ أى معبـد العجل المقدس ٠ ومعبد أبيس وظيفته استقبال مومياء العجل الميت ليـوم واحد هو آخر أيام الطقوس قبل الدفن ، ويكون مركزا لأتباع عبادة أبيس الراحل (« الحى فى الأبدية ») ٠ وحفر فى المعبد نقش خاص يتحدث فيه الأمير الى الأجيال القادمة معددا طبيعة أعماله ، وفى النهاية يتوجه بالقول الى أبيس نفســه :

« كاهن سم ، الأمير خع ام واست ؛ انه يقول : ٠٠٠
يا كهنة سم ، ويا كبار الكهنة ، ويا كبراء معبد بتاح ٠٠٠
ويا كل كاتب جهبذ ، (ويا كل) من يشـــاهد هذا المعبد الذى بنيته محفورا فى الجـدران الحجرية ، تطوعا منى بشىء عظيم مفيـــد !

مثله لـم يعمـل قبـل ذلك ، وسـجل ذلك كتـابة فى قاعـة الاحتفالات الكبرى أمام هذا المعبد ٠ ان الآلهة الموجـــودة بالمعبد ٠٠٠ [صنعت صورهم] فى «دار الذهب» (المسابك)



(١١) : مسقط للسرابيوم بسقارة اثناء حكم رمسيس الثانى والأمير خع ام واست وبالرسم :

١ ـ المقابر القديمة المنفصلة .

٢ ـ سراديب دفن العجول المقدسة التى بناها الأمير (وربما لنفسه ايضا) .

(★) مقبرة خع ام واست .

ورصعت بأثمن الجـــواهر الكريمة · وكنت أقدم له العطايا الالهية ؛ وهى عطايا يومية منتظمة ، واقيمت له أعياد فى مواعيدها ، فوق الأعياد السنوية المعروفة ، بالاضـــافة الى التقديمات التى تقـدم فى الحضرة ، على راس العطـــايا المقـدمة للاله بتـــاح · وخصصت له الكهنة للدفن ، والقراء لترتيل المديح ، وهيئة موظفين (للادارة) ·· وبنيت له مقصورة حجرية ضخمة أمام معبده ليستريح فيها يوم تجهيزه للدفن · وصنعت له مائدة قرابين كبيرة فى مواجهة مقصورته العظيمة ـ من أجود الحجارة المجلوبة من طرة ، (وسجلت) عليهـــا بالحفر العطايا الالهية ، وكل الأشياء القيمة التى أهديت فى (احتفال « فتح الفم ») ·

لا شك أنه سيتضح لكم أن ذلك تطوع منى ، اذا شاهدتم عمل أسلافى ، الظاهر فى أعمالهم المتسمة بالجهل والتفاهة · ولا يمكن أن يلام أى عمل قصد به سلام الآخرين ··· ؛ [ومن يحترم غيره] يكافأ ويســعد !

تذكروا اسمى وأنتم تحكمون [مستقبلا على مثل هذه الأعمال] · كافئوا العمل الصالح بما هو أهله · ولتفعلوا مثله · يا أبيس ـ سوكر ـ أزوريس ، أيها الاله العظيم ، يا سيد مقصـــورة شتاييت ، أنا الكاهن سم ـ الأمير [خع ام واست] ! » ·

وقد استمر العمل على أساس خطة هذا الأمير المثقف ثلاثة عشر قرنا تالية · واستخدم سردابه حتى امتلأ ، ففتحوا سراديب جديدة · وبعد ألف سنة من موت خع ام واست بنى الملك نختـــانبو معبد أبيس جـديد أمام كهوف السيرابيوم · خلال هذه القرون الطويلة ترى كم من الكبـــراء رأوا وقرأوا ما خلفه خع ام واست · لقد تخلدت ذكرى هذا الأمير المثقف وذاعت شهرته ، واستمرت ألف سنة أو أكثر بعد رحيله ·

خع ام واست عالم المصريات

منف مدينة تاريخية عريقة اشتهر أمرها منذ عصر الأهرامات التى تقبع فى صحرائها من الغرب · هذه الأهرامات هى ديار الأبدية لملوك هــــذا العصر · وقد أولى خع ام واست اهتمامه بهذه الأهرامات ، وبذلك يكون فى الصف الأول من رواد علم المصريات · قام الأمير الكـــاهن بدراسة أهرامات سقارة القريبة وشمال الجيزة ، وأعجب بروعتها اعجابا شديدا · لذلك تأثر وأصابه الاحباط عندما وجدها مهملة غائصة فى الرمال ومعابدها

على وشك الانهيار • ومن ثم قرر خع ام واست ازالة الرمال الكثيفة عنها ، وترميم معبدها احياء لذكرى الملوك القـدماء •

ويبدو انه قد وضع لذلك مشاريع وخططا ثم عرضها على رمسيس الثاني ؛ مذكرا اياه أن تنفيذها سيجعل من الملك حافظا لذكرى « الملوك من أسلافه » ، ومجددا لأعظم ما تركوه من آثار ، فيضيف لعصره أمجادا فوق أمجاد • وصدر مرسوم ملكي يقر مشاريع خع ام واست الجاهزة للتنفيذ فتراس خع ام واست بمقتضى المرسوم « لجنة ثقافية » قامت بتحقيق أسماء الملوك واشرفت على نقشها على اسطح كل هرم وكل معبد من معابد الشمس تعريفا بصاحب الأثر ، وفى كل مرة كان يضيف الى اسم الملك القـــديم اسم الملك رمسيس الثاني صاحب الفضل فى ذلك العمل ، مع نص المرسوم الصادر لخع ام واست بالترميم • هذه النقوش المحفــورة بالهيروغليفية الواضحة تعتبر اكبر كمية من « بطاقات العرض » فى التاريخ ومن أقدمها أيضـــا !

اجرى الترميم فى سقارة على هرم زوسر المدرج (الأسرة الثالثة) ومقبرة شبسسكاف (الأسرة الرابعة) الضخمة المستطيلة ، وهرم أوناس الصغير (الأسرة الخامسة) • ثم اتجهت الأعمال شمالا الى هرم ساحورع ومعبد الشمس الذى بناه ني أوسر رع (الاثنان من الأسرة الخامسة) • ونقشت بطاقة تعريفية على هرم خوفو الأكبر ، قرأها على هيرودوت الأدلاء الذين رافقوه فى الزيارة بعد ثمانية قرون من نقشها •

فى كل مرة كان ينقش ، تحت ألقاب الملك صاحب الأثر وألقاب رمسيس الثاني ، نص مرسوم الترميم مصحوبا « ببطاقة العرض » الخاصة بالأمير خع ام واست نفسه هو وأبيه ونصها :

« يعلن جلالة الملك انه رسم بما يلى :

« ان كبير كهنة بتاح ، كاهن سم ، الأمير خع أم واست هـو الذى خلد ذكر الملك •• (ويذكر اسم الملك) •• ولم يكن اسمه حتى الآن منقوشا على هرمه• وكان الأمير خع ام واست تملؤه الرغبة فى ترميم آثار ملوك مصر العليا والسفلى (عرفانا) بما عملوه ؛ وكانت هذه الآثار قد تدهورت وعطبت •• واصــدر خع ام واست مرسوما بتخصيص العطايا المقدسة (للأثر) •• وامداده بالمياه •• وتقرير الأوقاف اللازمة له من أرض زراعيه وموظفين •• » •

وفى نطاق مجمع زوسر الهرمى الكبير بدأت أعمال الترميم غالبا فى سنة ٣٦ ، الشهر الثالث من الصيف ، اليوم العاشر (صيف ١٤٢٢ ق٠م٠) ، وهو اليوم المسجل على حجر بناء هناك بخط سريع من المخربشات ، باعتباره « أول يوم بدأ فيه عمال المحاجر عملهم ٠٠ » ٠

خع ام واست ـ مدير المعبد

لم يستأثر علم الآثار وعجول أبيس المقدسة بكل وقت خع ام واست بل وجد وقتا للأعمال الادارية ٠ وقد اكتسب خع ام واست خبرة ادارية طويلة ومتنوعة بالأعمال الادارية العليا خصوصا ما يتعلق بالمعبد وأوقاف الاله بتاح ٠ وكان تبادل الرسائل مستمرا بين قصر بى رمسيس وخع ام واست فى منف٠ ففى صركى مركب من سنة ٥٢ (ديسمبر ١٢٢٨ ق٠م٠) وجد ثبت بالرسائل المبعوثة الى « كاهن سم » : شهر الصيف الثانى ، أيام ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ؛ وشهر الصيف الثالث ، يومى ١ ، ٤ ٠ وكان الذى يسير السفينة هم « نوتية سم » وتسلموا من منف قائمة بأسماء اشخاص تربطهم صلة بكاهن سم بمعبد بتاح ، خع ام واست نفسه ٠

من هذا السجل ومن مصادر اخرى عرفنا البعض من أعضاء اسرة خع ام واست وكبار موظفي منف ٠ فعرفنا مثلا ان ابنه الأكبر رمسيس انعم عليه بلقب « امير » وأن خع ام واست نفسه كان هو ولى العهد سنة ٥٢ وله من العمر ستون عاما ، مما يؤهل ابنه الذى كان فى الأربعينيات ليكون الثانى بعده في ترتيب ولاية العرش ٠ وقد عاون هذا الأمير اباه وكانت له ضياعه الخاصة وكاتبه (كاتم سره) الخصوصى ـ حوى ـ الذى كان يتولى تسليم الرسائل بنفسه الى الساعى مريوتف فى بى رمسيس ليوصلها الى المنشدة رننوت صديقة الأمير بمنف ٠

وتشعبت مسئوليات خع ام واست فوصلت شمالا حتى بى رمسيس وجنوبا حتى نينسو عند مدخل الفيوم على بعد ٦٠ ميلا من منف ٠ وتوجد رسالة مرسلة من خع ام واست الى وكيله فى نينسو المدعو سونرو يقول فيها : « ابحثوا عن رسل الأمير ايوت ـ آمون فهم موجودون بمنطقة نينسو ، واجعلهم يوضحون مهمتهم ، وامر حامل الدرع نفرحور باعادتهم » ! من الواضح ان هؤلاء السعاة التابعين لأخيه الأصغر قد ابقوا أو فروا ٠ وسرعان ما وجدهم سونرو وكان بعضهم مسجونا فى سجن نينسو ٠ لذلك أرسل فى طلب المشورة من سيده مراعاة لعدم الخروج عن اللياقة بين خع ام واست وأخيه الشديد المراس مرنبتاح ٠

وفى الوقت الذى كان رمسيس يشارك اباه مسئولياته الادارية ، كان ابنه الثانى حورى قد التحق بهيئة بتاح متأسيا بوالده ، وتدرج فى سلكها

الكهنوتي حتى اصبح بعد زمن طويل كبيرا للكهنة هناك . أما أصغر ابنائه فكان اسمه حورى ايضا ، ونجده بعد جيل كامل من رحيل رمسيس الثانى قد لمع فى الادارة المدنية وأصبح وزيرا للشمال ثم نقل وزيرا للجنوب بطيبة .

خع ام واست والأعياد الثلاثينية (اليوبيلات الملكية)

جرى العرف على اقامة شعائر الأعياد اليوبيلية كل ٣٠ سنة لتجديد شباب متولى العرش . وجرت العادة على الاعلان عن اليوبيل فى منف تحت رعاية الاله بتاح ـ تاتنن . وقرر رمسيس الثانى أن يحتفل بعيده اليوبيلى فى بى رمسيس . لكنه مراعاة للتقاليد قرر أن يفعل ذلك بعد الاعلان عنه والاحتفال به فى منف أولا ، برسامة ابنه خع ام واست ، كاهن سم . واستمر العمل بهذه القاعدة فى اليوبيلات الخمسة الأولى (بين سنتى ٣٠ ، ٤٢) . وفى كل مرة كان يعلن نبأ قرار الاحتفال اليوبيلي فى منف أولا ، وبعد ذلك تحمل النبأ الى عواصم مصر لجنة برئاسة الأمير خع ام واست . وكان من أعضاء اللجنة وزير الجنوب الجديد خاى خليفة باسر . وخط سير هذه اللجنة معروف لأنه ذكر فى اكثر من مصدر . فقد نقش فى معبد الربة النسرية فى نخب ، ونقش فى هيكل حورمحب الصخرى القديم فى السلسلة ، وفى بعض نواحى اسوان .

واستمر الأمير يترأس اللجنة خمسة يوبيلات ، لكنه اعتبارا من اليوبيل السادس (سنة ٤٥) تخلى عن هذه المهمة للوزير خاى أو غيره . فقد كبرت سنه على مثل هذه السفريات الشاقة . والحقيقة انه لم يمتد به العمر ليشهد يوبيلات كثيرة بعد ذلك .

مقبرة خع ام واست ومدفنه

عند اقتراب اجله بدأ الأمير خع ام واست مثل غيره فى الاهتمام بأمر مثواه الأخير . وكان أسلوبه فى اختيار مقبرته الخاصة فريدا فى نوعه ، اذ اختار أن يدفن بين عجوله المقدسة التي ظل يرعاها طيلة حياته . فوقع اختياره على السيرابيوم نفسه ـ جبانة العجول المقدسة ابيس ـ وحفر لنفسه فى سرداب الدفن غرفة بين غرف دفن العجول ، وهو عمل ولا شك فريد فى نوعه . ولكنه فوق السرداب بنى هيكلا مقبريا تقليديا وزخرفه بنقوش بارزة جميلة نفذها خير الفنانين بمنف .

ولما توفى الأمير خع ام واست فى السنة الخامسة والخمسين من حكم رمسيس الثانى كان قد قضى فى خدمة الاله بتاح بمنف اربعين عاما ، واصبح فى هذا المكان كالعلم ، كما كان والده هو العلم فوق عرش مصر .

وقام مجمع كهنة بتاح بمنف بتكريم الأمير العظيم الراحل بما هـو اهله ، عرفانا منهم بجهوده التى كانت سببا فى اعـلاء شأنهم ورفعـة نفوذهم والتنويه بعبادتهم (عبادة بتاح) الى آفاق لم تبلغها ولا فى العصور القديمة · واخيرا وسد الراحل العظيم فى تابوت خشبى متين يحـوطه جهازه الجنازى من قناع ذهبى الى حلى ثمينة منقوش عليها اسمه ؛ وقـد جهز مدفنه باثاث جنازى يفوق الحصر · وفى النهاية رقد فى سلام فى غرفته بين عجوله فى سرداب السيرابيوم تحوطه عناية الاله ابيس نفسه · وحفظ ابيس سره العجيب فلم يطلع عليه احد · وعلى مر القرون بنى فوق رواق خع ام واست الرواق تلو الرواق لدفن عجـول ابيس ·

بعد ذلك انهار السقف ، فاخفى معالم مدفن خع ام واست ثم نهبت سراديب العجول وجردت من كنوزها · كل هذا وخع ام واست قابع مكانه لا يزعجه احد حتى سنة ١٨٥٢ ميلادية عندما نبش مارييت رفاته ، ولـم يصدق وجوده بين عجول ابيس · وهكذا رحل خع ، تاركا امر ولاية منف والعناية بها امانة بين يدى اخوته وخلفائهم ·

الملكـات ـ الأميرات

الأميرتان الملكتـــان بنت عنات ومريت آمون

تزوج رمسيس بعض بناته الأميرات فصرن ملكات · وقد صـعد هذا الجيل من هؤلاء الملكات الشابات الى عرش مصر فى النصف الثانى فى فترة حكم أبيهن رمسيس الثانى · فارتفع قدر بنت عنات واصبحت كبرى الملكات بعد موت امها الملكة ايست نفـرة · ولم يقتصر دورها كملكة على الأمور الرسمية الشكلية بل كانت زوجة حقيقية · فقد حملت من ابيها وانجبت له بنتا ، وتدل على ذلك المشاهد المصورة فى مقبرة بنت عنات فى وادى الملكات ولكن كم من السنين قامت فيها بنت عنات بدور الرفيقة الأولى للملك قبـل أن تنسحب وتنزوى فى الحريم ؟ لا احد يدرى · ولكن من المؤكد انها عاشت بعد ابيها حياة حافلة اذ ثبت انها تزوجت اخاها مرنبتاح خليفة رمسيس الثانى واصبحت مرة اخـرى ملكة رسمية واحـدى رفيقـات الفرعون الجـديد ·

ومنذ البداية كان مع بنت عنات ملكة مساعدة من الأميرات هى اختها غير الشقيقة مريت آمون ابنة نفرتارى · وشهدتا معـا سـنة ٣٤ استقبال زوجة الفرعون الجـديد ماعت ـ حور ـ نفـرورع اميـرة خيتـا ·

واحتلت الملكة الجديدة الوافدة من خيتا مكانة مرموقة ، كان الملك فيها يحبوها بالعطف ويفضلها على من سواها · لكنها بعد فترة من الزمان انسحبت الى الحريم، ثم انضمت لحريم نينسو على مدخل الفيوم · وفى نينسو تراست هذه السيدة الجليلة قصر الحريم ، وأصبحت عميدتهن فى وقت متزامن مع وصول شقيقتها الملكة الشابة الجديدة الى مصر ، فى الأربعينيات من حكم رمسيس الثانى ·

حيــــاة الحــــريم

لم تكن حياة الحريم فى قصر « مى ور » القريب من نينسو حياة فراغ وبطالة تتخللها الزيارات العرضية التى كان الفرعون يقوم بهــا هنـــاك ، بل كان هذا المكان خلية نحل يعج بالنشاط والحيوية · فقد تحملت سيدات الأسرة الملكية هناك مسئوليات حقيقية عن انتــاج « الصناعات المنزلية » وخصوصا الملابس · وكان عليهن تدريب الصغار بمن فيهم الغرباء من خا... الأسرة المالكة على فن الغزل والنسيج وصـــنع الملابس الكتـــانية الرقيقة لاستعمالهن الشخصى ، ولاستعمالات الفرعون ورجال بلاطه ـ ثياب كتانية ملكية حقيقية ! ليس ذلك فحسب بل ان اليافة الكتان التى يحتاجها القصر الملكى فى بى رعمسيس لصنع الملابس كانت تورد اليه من مخـــازن قصر الحـــريم فى مى ور ·

كانت اقمشة الأردية توزع على الأميرات بسخاء بالغ على هيئة لفائف من مقاسين : الأول بطول ٢٨ ذراعا و ٤ كفوف فى عرض ٤ اذرع (مقاس ٤٠ × ٢ قدم) ، والثانى بطول ١٤ ذراعا وكفين فى عرض ٤ اذرع (مقاس ٤٠ × ٢ قدم) ، فالاختلاف ليس فى العرض ، ولكن فى الطول حيث المقاس الأول ضعف الثانى · وقد علمنا ان للسيدة المهيبة «الملكة ماعت حور نفرورع ، طويلة العمر ، بنت ملك الحيثيين الأكبر ، قــد اختصت بثــوب من كل مقاس ·

ومن تحصيل الحاصل الاشارة الى ان هاتيك السيدات الرفيعات القدر كن يحصلن على المؤن واللوازم بغزارة ، وكما تشتهى أنفســـــهن · فكان يصــلهن السمك الطــازج من مصايد النيل أو بحيرة الفيــوم بانتظــام · وقد أوقفت عليهن أوقاف للوفاء بما يحتجنه من حبوب لصنع الخبـــز ؛ وقطعان من الماشية تمدهن بالغــــذاء الحيوانى من لحوم للشى والبان وما أشــــــبه ·

ولم يكن همهن الوحيد فى الطعام ، بل كن مولعات بالتزين ايضا · ... عثر على قائمة تدل على مدى شغفهن بأدوات الزينة من مجـــوهرات

وزهور منها حجارة اللازورد الكريمة الزرقاء الداكنة ، والملاخيت الأخضر الثمين ، وكان يقايض عليها بالفضة ٠ أما التوابل كالهيل والعصفر فقد كانت تورد اليهن بالكيل ٠

اذن فقد توفرت لحريم مى ور الجليلات كل أسباب الحياة الرغدة ، وكانت احتياجاتهن اليومية من السلع الخاصة والمنزلية متوفرة بسخاء ٠ وكانت زيارات الفرعون العرضية لهن فى هذا المكان القريب من مقاطعة الفيوم الفيحاء تضفى على المكان جوا من الاثارة والبهجة والتحرر البرىء ٠

بعض الملكات الأخر

فى أخريات أيام رمسيس الثانى اختفى ذكر الملكة مريت آمون وحلت محلها الملكة نبت تاوى ٠ فهى آخر الملكات الأميرات فى فترة السنوات العشر الأخيرة من حكم رمسيس الثانى ٠ ولا نكاد نعلم عن هذه الملكة الأخيرة شيئا أكثر من أنها كمن سبقنها من الملكات ـ نفرتارى وايست نفرة وبنت عنات ومريت آمون ـ قد نقرت لها مقبرة عظيمة فى وادى الملكات بطيبة ٠ وعلى مر السنين حصد الموت عددا من بناته وكثيرا من أبنائه ، ولم يبق الا القليل ليعيش فى عصر مرنبتاح ابنه الذى خلفه على العرش ٠

وان كنا قد علمنا طرفا من أخبار بعض أولاده وبناته ، الا أن معظمهم لا نكاد نعرف عنهم شيئا ٠ وأحيانا نستطيع أن نلتقط خبرا من هنا أو من هناك له علاقة بالبعض منهم ٠ ومن تلك ما ذكر حول الأميرة أيست نفرة الثانية ٠ هذه الأميرة نكر أنها كانت تمتلك ضيعة خاصة وكانت تربى الماشية ، ويبدو أنها كانت محسنة اذ نرى أنها كانت تبعث لوصيفاتها بجرايات من اللبن والخبز بل والمواشى ٠ ويبدو أيضا أنها كانت محبوبة اذ أن اثنتين من وصيفاتها هما المغنيتان بنتاورت وباوخد كتبتا اليها رسالة تفيض حرارة تستفسران فيه عن أحوالها ، وربما كان السبب سفرهما الى منف فقد كانتا من منشدات القصر :

« المغنيتان بنتاورت ، وباوخد تسلمان على الأميرة أيست نفرة ٠

تحياتنا ! هذه رسالة لابلاغك أننا دعونا كل الآلهة والربات فى بى رمسيس وقلنا « نرجو أن تتمتع (الأميرة) بالصحة ، والهناء ، وطول العمر ! » رعاك الهى الاله بتاح ٠

وبعد ، نحن اليوم أحياء ، ولكن لا ندرى ما يتمخض عنه [الغد] ... نرجو أن يعيدنا الاله بتاح سالمتين حتى نراك ! ... نحن فى منتهى الشوق اليك ! » .

مرنبتاح وصغار الأمراء

صغار ابنـاء رمسيس الثـانى

رغم كثرة أبناء رمسيس الثانى الا أن الذين تم ذكرهم من صغار أبنائه قليلون جدا . من هؤلاء الأمير مرى أتوم ابن الملكة نفرتارى . وترتيب هذا الأمير فى القائمة الرسمية هو السادس عشر بين أبناء رمسيس الثانى . وقد زار مرى أتوم وهو صغير سيناء زيارة واحدة فى رعاية عشاحب سد ، فى النصف الثانى من حكم أبيه . وفى وقت توقيع معاهدة السلام مع الحيثيين كان مرى أتوم حيا فى حين كان أشقاؤه الخمسة الأكبر منه سنا قد ماتوا . لذلك أصبح هو « الابن الأكبر للملك » ، ابن رمسيس الثانى ونفرتارى ، ونال رتبة « حامل المروحة » الشرفية . وقد سار هذا الأمير على نهج أخيه خع ام واست والتحق بالسلك الكهنوتى ، ولكن أداءه فيه كان متواضعا جدا اذا قورن بأداء أخيه الكبير . فبعد وفاة أمه (حوالى سنة ٢٦) عين مرى أتوم كبيرا لكهنة رع اله الشمس بهليوبوليس ، على بعد عدة كيلو مترات من منف مقر أخيه خع ام واست على الجانب الآخر من النهر ، وهى وظيفة على العموم لها قدرها . ومن المحتمل أن يكون أحد عجول منيفيس (المقدس عند رع) قد مات ودفن سنة ٢٦ فى أول عهد مرى أتوم بوظيفته أو قبل ذلك مباشرة . وقد شغل مرى أتوم هذه الوظيفة عشرين عاما لم يذكر أحد أنه قام فيها بأى عمل يسترعى الانتباه ، بعدها انتقلت هذه الوظيفة المرموقة الى أيدى وزراء الدولة . أما باقى صغار الأمراء فلا نكاد نعرف عنهم شيئا .

من القلة من هؤلاء الذين نعرف طرفا من أخبارهم ، الأمير سى منتو وترتيبه الثالث والعشرون فى قائمة الأبناء . من أخبار هذا الأمير أنه تزوج فتاة تسمى اربيت هى ابنة ربان سورى يدعى بن عنات كان يقود سفينة سورية . وكان هذا الأمير لفترة من الوقت قد كلف بالاشراف على « كروم ضيعة أوسرماعت رع المختار من رع (رمسيس الثانى) بمنف » . وربما يكون سى منتو قد تعرف على زوجته السورية فى هذه العاصمة الدولية . وقد وصفت بأنها تعرف خبايا « العواطف فى الميناء » - لكن البطاقة التى كتبت لها لم تدلنا على أكثر من ذلك (تاريخ البطاقة هو السنة ٤٢ - فبراير ١٢٣٧ ق.م.) - وباعتبار هذه البطاقة مذكرة موجزة

تنتمى الى طيبة يمكن أن نفهم منها أن هذه السيدة قد دفنت فى مقبرة خاصة بزوجها فى طيبة .

وهناك أمير أصغر منه لم يرد ذكره بالقوائم الرسمية هو الأمير رمسيس ـ ماعت ـ بتاح ، نعرفه عن طريق رسالة أرسلها له بمنف خادم القصر مرى يتف نصها بعد الديباجة :

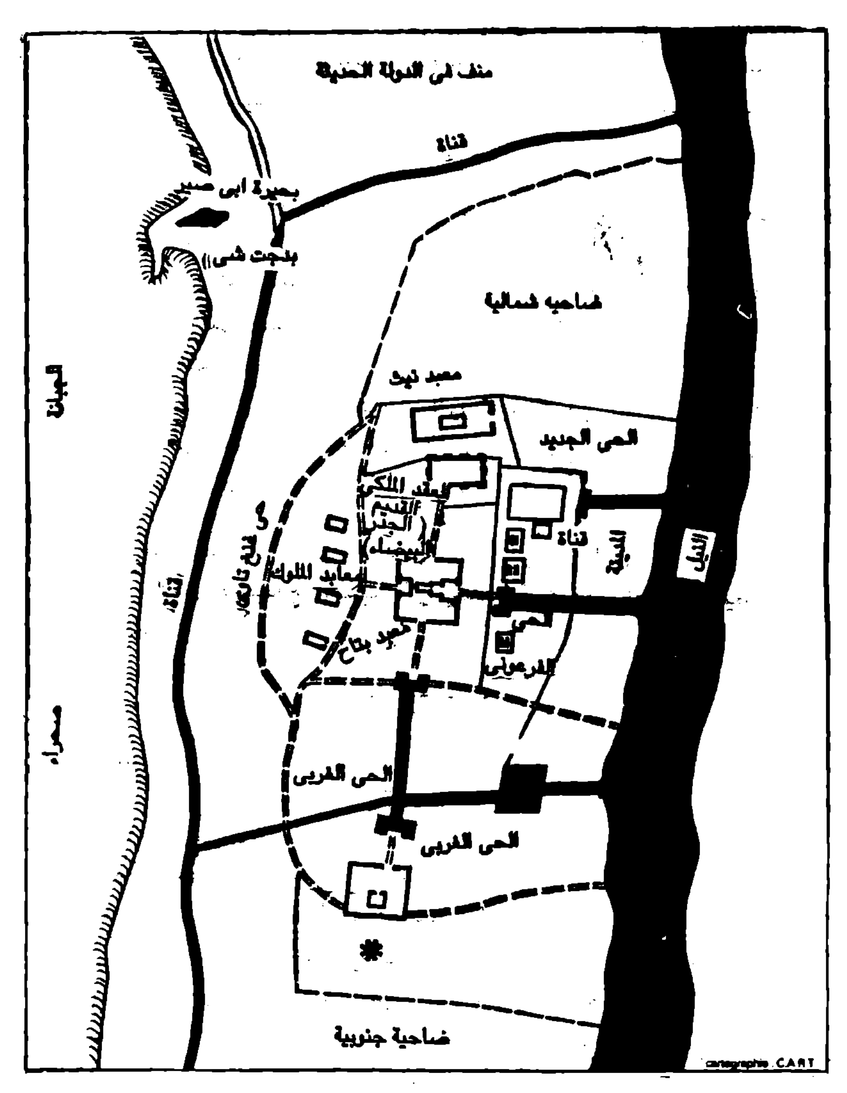
« خبرنى كيف يحدث الا يصلنى منك أية رسالة ؟ ما معنى أن أرسل لك سيلا من الرسائل فلا ترد على أى منها ؟ » .

وواضح من هذه الرسالة القصيرة أن أتباع هذا الأمير قد رفعوا الكلفة بينهم وبينه الى حد التجرؤ على توبيخه بدون وازع ، ومع ذلك كان من الواضح أن الأمير كان مهملا فى الرد على ما يصله من رسائل .

وهناك أمير آخر يخاطبنا فقط من خلال مقبرته . هذا الأمير الصغير هو رمسيس نب وبن ، وكان أحدب ومات فى الثلاثين من عمره . ومن المحتمل أن يكون موته وهو بين حريم مى ور واتفق على دفنه بطيبة . ويبدو أن موت هذا الأمير كان فجائيا بشكل غير متوقع . وأعد له تابوتان حجريان جميلان لكنهما قديمان جدا ـ على جناح السرعة . وتتلخص قصة التابوتين فى أنهما فى الأصل كانا يخصان جده الأكبر رمسيس الأول ، وكان هذا قد أمر بصنعهما لنفسه عندما كان وزيرا يحمل اسم بى رعمس ، فلما أصبح فرعونا استغنى عنهما فنقلا للمخازن باعتبارهما « مخزونا زائدا احتياطيا » . وفورا سحب التابوتان من المخازن لدفن الأمير ؛ وأرسل أحدهما الى طيبة ـ أثناء اجراء عملية تحنيط الجثة فى الشمال ـ ليدفن فيه هناك ، ولكن الذى حدث هو أن الأمر استقر فى النهاية على دفن هذا الأمير بالقرب من مى ور حيث مات ، فوسدت مومياؤه فى التابوت الثانى ودفنت هناك . أما التابوت الحجرى الذى أرسل الى طيبة فقد دفن هناك بالفعل ـ لكنه دفن فارغا .

الأمير مرنبتاح آخر أولياء العهد

بعد موت الأمير خع ام واست (سنة ٥٥) تطاول مرنبتاح ، شقيقه الذى يصغره ، وعلا فوق كل أولاد رمسيس الثانى الآخرين ـ سواء فى بى رمسيس أو فى منف . وكان مرنبتاح ، على أية حال ، قد ارتفع ذكره منذ سنوات وأصبح الساعد الأيمن لوالده فى تصريف شئون بى رمسيس وشرق الدلتا . ثم اتسع نطاق سلطاته عقب وفاة خع ام واست حتى شملت منف أيضا ، ودخلت فى اختصاصاته مسئولية الاشراف على دفن



شكل (١٢) : شكل تخيلى لمدينة منف اثناء حكم رمسيس الثانى

ـ (★) معبد حتحور .

عجـول أبيس من ذلك الوقت ، وكان دفنها يتم فى حضـــور ســـكرتيره الشخصى ثاى ٠

بذلك حان الوقت ليصبح مرنبتاح هو « الوريث الظاهر » و « راس الأمراء ـ أكبر أبناء الملك » وهو ما يعنى انه أصبح وليـا للعهد ٠ وقد تباهى مرنبتاح بهذا التنصيب وسجله على بعض التماثيل القديمة الموجودة فعلا فى بى رمسيس باذن من أبيه ٠ واحتفـل بالمناسـبة باصدار دفعـة من الأختام الجعرانيـة تخليدا لذكرها ٠

وفى آخر اثنتى عشرة سنة من حكم والده الطويل ، كان مرنبتاح عمليا هو حاكم مصر الفعلى ـ فرعوننا حقيقيا بلا لقب ٠ فى ذلك الوقت كان هو نفسه فى الستينيات من عمره ، وطعن فى السن ، فهدته حكمتـه الى التخفف من بعض أعباء مسئولياته ونقلها الى آخرين ٠ فعهد الى للوصيف الكبير يوبا (ابن القائد المسـن أورحيـا) والوزير نفررنبت بمسئولية الاعلان عن الاحتفالات اليوبيلية ـ من التاسع الى الرابع عشر التى تمت فى السنوات ٥٤ الى ٦٦ ـ فى جميع انحـاء البلاد ٠ واكتفى هو بالتركيز على شئون الادارة المركزية ٠

وهكذا فعندما رحل رمسيس الثانى وشيع الى مثواه الأخـير ، كان من حظ الأمير مرنبتاح الصبور أن يخلف أباه على العرش ويصبح فرعون مصر المطلق ٠

قصـة ثلاث مـدن

منف القــديمة

منف هى اقدم واعرق العواصم المصرية ، بنيت منذ البداية لتكون عاصمة للقطرين جميعـا ، فهى اذن عاصمة مصر الحقيقية ٠ تقع المدينـة وسط البقعة الخضراء الوارفة بين بر النيل الغربى وحـافة الصـحراء السمراء التى تحدها الأهرامات التى ترمز لعراقة المدينة وشموخها ، والتى يشوبها اللونان الوردى والذهبى عند طلوع الشمس وعند الغروب ٠ وعلى امتداد نهر النيل نحو الحى الجنوبى خاصة ، كانت تقع مراسى السفن والأحواض الجافة لاصلاحها ، والتى تسمى برو نفر (رحلة سعيدة) ٠ من برونفر كانت السفن تتخذ سبيلها فى النيـل حتى تخرج الى البحر الواسع فتزور موانى البحر المتوسط ثم تعود اليها مرة أخرى ٠

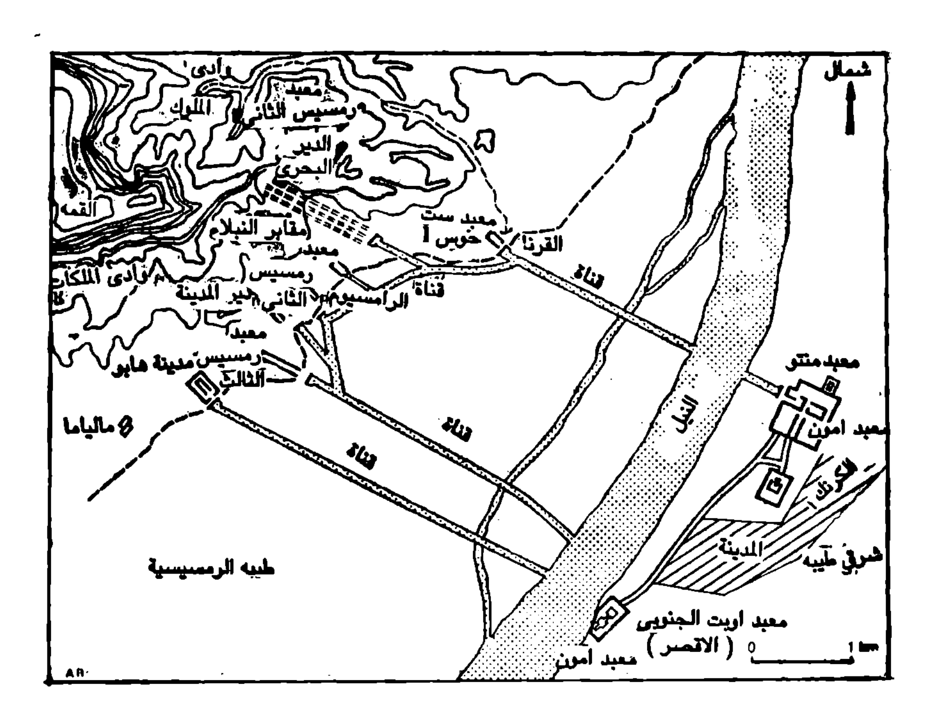
قرب هذا الحى يقع حى الأجانب ، الذى يموج بخليط من الجنسيات الأجنبية : كنعانيين ، وحوريين ، وسكان جزر ايجة ، وغيرهم ٠ وفى

هذا الحى كانت هنـاك مقاصير ومزارات للالهين الأجنبيين بعل وعشتارت، وكانت هناك أيضا المنطقة العسكرية والصناعية والترسانة حيث الورش ومخازن الأسلحة: عربات قتالية ودروع وغيرها من أدوات الحرب المعروفة فى ذلك الوقت · وفى حى برونفر هذا كان يوجـد مزار لآمون ، ولـكن السيادة كانت لحامية الحى الجنوبى : الربة حتحور محبوبة الجماهير ـ سيدة الجميزة الجنـوبية ·

ويقع حى الادارة شمالى هذا الحى وبه « المنشآت المكتبيـة » المبنية بالطوب اللبن الردىء · خلف هذه المنشآت على خط واحد يمتد من الشمال نحو الجنوب تقع أفنيـة متتابعة لمبـان كثيرة ، أولها شمالا هو القصـر الملكى القديم الرحب المتشعب وكان يسمى « ملكية عاخبر كارع » (تحتمس الأول) ، وقد استخدمه كثير من الملوك ؛ ثم المساكن الملكية ومسـاكن الحريم المحاطة بالحدائق وهذه كان يستخدمها سيتى الأول ثم رمسيس الثانى بعده ·

وفى قلب المدينة بالضبط كانت تقـع القلعـة الملكيـة « الجـدار الأبيض » الذى تسمت به المدينة أول الأمر · وفى الجزء الجنوبى التـالى للقلعة يقع معبد بتاح العظيم بأبهائه وبواباته البرجية ومقاصيره ، ولهـا واجهة شرقية توصل الى الداخل والى الغرب · وعلى الجانب الغربى للمعبد الرئيسى أضاف رمسيس الثانى وخع ام واست قاعة احتفالات يوبيلية مهيبة مكتظة بالأساطين الضخمة على قواعد بازلتية خلف صرح وتماثيل عملاقة ـ هذه هى القاعة الغربيـة لمعبد بتـاح · وكانت الاحتفالات اليوبيلية تقام فى هذه القاعة على ما يبدو فى وقت متزامن مع اقامتها فى بى رمسيس · وخارج الحى فى اتجاه الغرب يوجد حى عنخ تاوى ، حيث يمتد صف من المعـابد الجنازية للملوك المتتـابعين منـذ أيام أمنحتب الثـالث حتى رمسيس الثانى على أقل تقدير · أما الحى الواقع شـمال القلعة القديمة فكله ملك الربة نيت ، « شمال القلعـة » ·

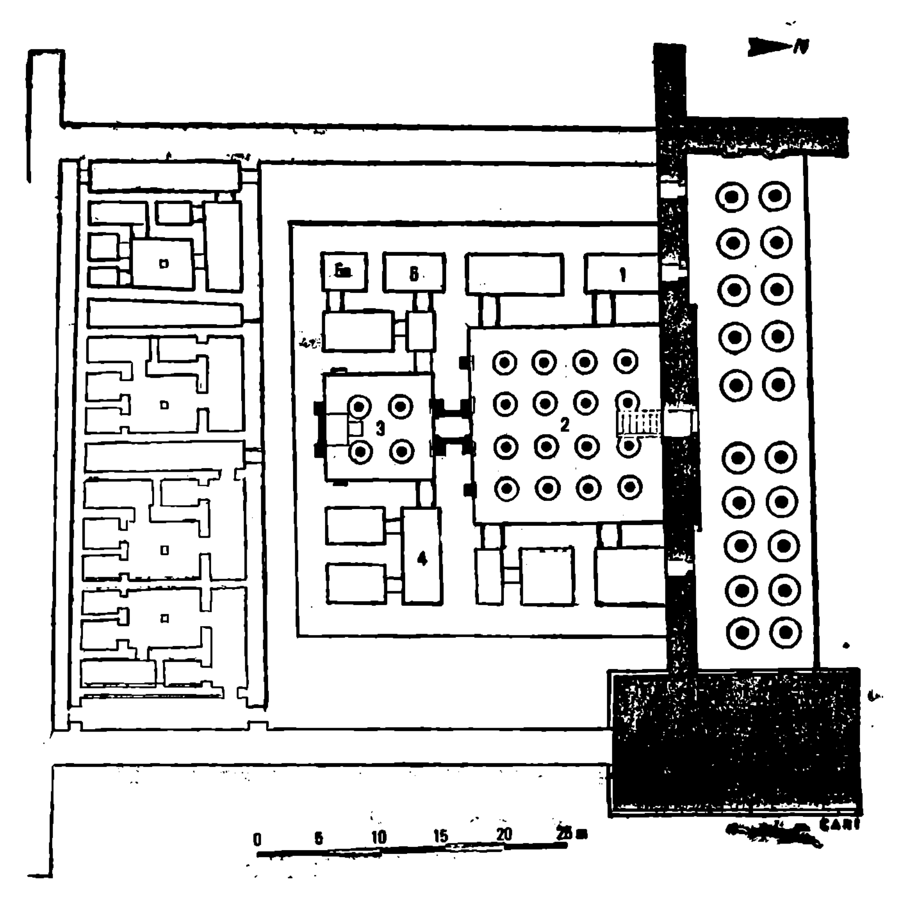
خارج الأحياء المركزية التى تمثل قلب مدينة منف ، على الامتدادين الشمالى والجنوبى تقع ضواحى المدينة ، وفيهـا دور الكبراء وفيلاتهم وحدائقهم · وكانت الآلهة بتاح وحتحور وغيرهما لها أعياد خاصة يحتفى بها ، منها ابحار المركب المقدسة للاله بتاح فى القنـاة جنوبا حتى معبـد حتحور ربه الجميزة الجنوبية وهى راعية الحى الجنوبى · وتتحدث بردية من هذا العصر عن احدى هذه المناسبات :



شكل (١٣) تخطيط لمدينة فى عصر رمسيس الثانى

« لم ير أحد مدينة مثل منف ··· وصوامع غلالهـا عامرة بالشعير والقمح (الايمر) ، وبركها عامرة ببراعم اللوتس ··· وبأزهار اللوتس ؛ والزيت طيب والدهن وفير ··· الأسيويون منف مستريحون مطمئنون ··· وبراعم اللوتس حول اعناقهم ··· ربة الجنوب المناضلة قد أتت ؛ لقد هزمت سيدة الشمال ، ووضعت قدميها فوق عنقها ، ويدها على الأرض · وسيدات منف النبيلات يجلسن خاليـات (البال) وأيديهن منكسة تحمل أوراق الشجر وكل نبت أخضر ·· (احتفاء بالعيد) ··· » ·

أما الشباب العائد من الحرب أو العمل فى الداخل والخارج ، فقد كان يملؤهم الشوق الى القـاء محبوباتهم · وفى احدى الأهازيج الشعبية، نرى تأثر الشاعر بالشروق حيث تبدأ بوصف شمس الصباح وهى تنشر اشعتها على حـدائق منف :



شكل (١٤) مسقط لقصر رمسيس الثانى المتصل بالفناء الأمامى للرامسيوم ، معبده التذكارى الكبير بطيبة ، من البهو المعمد المركزى تخرج سلالم تؤدى الى شرفة تجلى الملك فى المناسبات الرسمية يظللها رواق الأساطين الجنوبى للمعبد وفى مواجهتها غرفة العرش ذات الأربعة أساطين والأجنحة الملكية المنزلية ، ومجموعة أجنحة لأفراد الأسرة الملكية عبر الردهة الخلفية .

« انى أبحر مع التيار
ومزاميرى على كتفى ،
وأنا مشـدود الى عنخ تاوى ،
وسأطلب من بتاح ، اله الحق :
« هب لى محبوبتى الليلة »
النهر مثل النبيـذ ،
وبتاح دغل قصبه ، وسخمت باقته ،
وريات الندى هن براعم اللوتس به ، ونفرتم
هى زهور اللوتس به ،
انها الربة الذهبية التى تبتهج ،
حينما تضاء الأرض بجمالها ،
منف خمر من الفاكهـة ،
موضوعة أمام بتاح ذى الوجه الصبوح » ٠

طيبـة عاصمة الامبراطـورية

تقع طيبة على بعد عدة مئات من الأميـال جنوب منف ، يبحر فيها المسـافر بطول وادى النيل المغلق المحاط بالمرتفعات الصخرية ٠ وهذه المدينة فى نظامها وطابعها تختلف اختلافا تاما عن منف ٠ اما منف ففى وقت قصتنا يكون وراءها ألفان من السنين كانت لها فيها الهيمنـة ـ على باقى المدن ـ وأصبحت مدينة واثقة راسخة احوالها مستقرة ٠ اما طيبـة فيكون قد مر عليها ألف عام منذ عصر الدولة الوسطى كانت فى معظم فتراتها ذات تقـاليد ملكيـة شامخة ، فليست هى اذن بالمدينـة المستحدثة٠ وسهل المدينة يشطره النيل ويطل على الجبل الغربى الأخـاذ ٠ هذا السهل كان مقر ملوك الأسرة الثامنـة عشرة الفاتحين العظام ـ الذين طردوا الهكسوس وأخضعوا غرب آسيا ، مما اضفى على المدينة جوا من الأهمية ـ « طيبة المنتصرة » ، ذات النقـوش التى تشيد بالنصر على معـابد آمون بها ؛ وهذا الاله الذى بين الآلهة ارفعهم شانا واعلاهم ذكرا فى كل أرجاء مصر ٠ وظلت ثروات الامبراطورية تتقاطر على ارصفة مرفأ طيبـة حتى جاء اخناتون فخمد ذكر آمون ومدينتهم وحرمها من كنوز الامبراطورية ٠

لكن طيبة استردت مكانتها وعظمتها مرة اخرى على أيدى حور محب وأسرة رمسيس الثانى من بعده ـ لكنها اخذت تتطبع بطابع « المدينة المقدسة » ، مدينة الاله آمون • وصارت المدينة منذ ذلك الحين مدينة متميزة هى « المدينة الجنوبية » مقر وزير الجنوب المحلى •

على الضفة الشرقية للنيل ، تمتد المدينة الرئيسية خلف أرصفة الميناء ، وتعتبر « مدينة الحدائق » بالنسبة للقصر والمناطق السكنية ، التى تبعد عن المدينة القديمة الواقعة شمالها بحوالى ميلين ، وتمتد خلف أسوار معبد آمون بالكرنك جنوبا حتى معبد آمون الثانى فى « أوبت الجنوبية » • وفى مكان ما بجوار الكرنك كان القصر التقليدى لطيبة الحقيقية • وخلف خط النيل والمدينة كان يمتد سهل واسع فى اتجاه الشرق حتى يصل الى التلال وقمم تلال الصحراء العربية الثلاثية التى تمتد حتى البحر الأحمر • وفى الكرنك ، يمتد من القناة ورصيف المرفأ ممر كبير على حافتيه رصت تماثيل لأبى الهول • هذا الطريق يتجه شرقا نحو بوابة الصرح الضخم المؤدى لبهو الأساطين الذى بناه سيتى الأول واكمله رمسيس الثانى• ويلى البهو فناء ضيق، ومسلات وبوابة صرح خلفها الأبهاء المظلمة والصروح والممرات ومقاصير معبد آمون القديم، ومعظمه من انشاءات الأسرة الثامنة عشرة ؛ وهو يحيط بمقصورة رئيسية موجودة منذ الأسرة الثانية عشرة ـ أى منذ سبعمائة سنة قبل رمسيس الثانى • وغرب هذا الفناء الضيق ـ بعد البحيرة المقدسة ـ يمتد طريق مخصص للمواكب يمر بين أربعة صروح ضخمة جدا (بعد تجاوز معبد خنسو غربا) ، ليخرج الى طريق آخر لتماثيل ابى الهول يؤدى الى معبد موت ، رفيقة آمون ، محاط جزئيا ببحيرة مقدسة على شكل حدوة الفرس داخلة فى نطاق معبد موت نفسه • وفى شمال معبد آمون الكبير ، يوجد معبدان صغيران احدهما للاله بتاح والثانى لاله الحرب القديم منتو يكتمل بهما نطاق معبد الكرنك • وعلى بعد ميلين غربا ، يقع معبد آمون بالأقصر ؛ وفى ذلك الوقت كان قد بنى امامه صرح وفناء رمسيس الثانى الأمامى ـ بما فيه من مسلات وتماثيل عملاقة ـ وهو ملاصق لصفوف الأعمدة الضخمة والمقاصير الرسمية التى بناها امنحتب الثالث • وكان الاله آمون ـ فى عيد أوبت السنوى الكبير ـ يبحر فى زورقه الرسمى الذهبى العظيم قبيل اجراء المراسم الاحتفالية من الكرنك الى الأقصر ، حيث يمكث ثلاثة اسابيع ثم يعود بنفس الطريقة • وقد احترم رمسيس الأعراف الجارية فقام بحضور عيد أوبت بنفسه فى السنة الأولى من توليه العرش ، والمرجح انه حضر ذلك العيد مرارا بعد ذلك •

والضفة الغربية تغلب عليها المنحدرات الصخرية من « الجبل الغربى » ٠ وعلى طول الحافة الرملية ينتشر صف من المعابد الجنازية لكل ملوك الامبراطورية العظام ، يتوسطها تماما معبد رمسيس الثانى ـ المعروف بالرمسيوم ـ بما فيه من صروح ضخمة وساحات وصفوف من الأساطين ، ومن أبهاء وتماثيل عملاقة مفرطة الحجم يزن الواحد منها ألف طن ٠ وتتناثر هياكل النبلاء بمداخلها الداكنة على أسطح الجبل الغربى الأمامية ٠ ولكن هذه المداخل الكئيبة تؤدى الى غرفة أو جناح مبهج حقا ، ومزخرف بالصور الملونة الزاهية لصاحب المقبرة وعائلته ، ترافقها التكوينات الدينية اللازمة للحياة الأبدية ٠ وقد تحتوى مقابر هؤلاء أيضا على صور تخلد ذكر الانجازات الوظيفية والمناسبات المهمة الأخرى ٠

ويعبر الاله آمون نهر النيل مرة كل سنة فى مركبه النهرى الذهبى الفاخر للاحتفال « بعيد الوادى الجميل » فى معبد رمسيس التذكارى ـ وربما فى غيره ـ فتقيم الأسر الولائم المسائية فى المقاصير المقبرية ، فيتحد الأموات والأحياء احتفالا بالعيد ٠ وفى المعابد تقام المهرجانات العظيمة ، يصاحبها مواكب على أضواء الشموع تحمل طاقات الورد المهداة من كبار المسئولين ـ وكان أهل طيبة قد جرى العرف بينهم على الاحتفال بالعيد يومين ٠ وفى وسط التل الواقع جنوب غرب الرمسيوم مباشرة كانت هناك قرية صغيرة منعزلة تسمى « دير المدينة » خصصت لسكنى عمال المقابر الملكية سنتحدث عنها فيما بعد ٠

وقد أنشد هوميروس فيما بعد منوها « بطيبة ذات المائة باب حيث تتلألأ كتل الذهب » ، ولكن شعراء طيبة كانت لديهم أغانيهم الخاصة التى تتيه زهوا « بطيبة المنتصرة » كما فى النموذج التالى :

« طيبة أقوى من أى مدينة سواها
جعلت على الأرض سيدا واحدا بانتصاراتها ٠
هى التى رفعت القوس وحملت السهم
لا يطيق أحد أن يقاتل بجوارها ، لقوتها الهائلة ٠
طيبة رائدة كل المدن »

والأرض والنهر لها منذ الأزل ·
والرمال أتت فحددت حقولها ،
لتخلق ارضها فوق الجبل الأول عندما ظهرت الأرض ·
ومعها قام الرجال لبنــاء كل المدن على اسمها الحقيقى ،
وكلها سميت « مدينة » ،
على غرار طيبة ، « عين رع » ·

بى رمسيس المبهــرة

رأى رمسيس الطموح أن يضيف عاصمة جديدة زاهرة الى جوار منف وطيبة اللتين طالما استقطبتا الحياة في مصر ، ليس لأحد ســواه فضل فى انشائها ، وجعل نواتها أفاريس بشرق الدلتا حيث مقر أسرته التى بنى فيها أبوه قصره الصيفى · وصممت المدينة منذ البداية لتنافس أمجاد منف وطيبة · وقد تغنى أحد الكتبة بالعاصمة الجديدة حيث يقول :

« جلالته بنى لنفسه مدينة اسمها
« ذات الانتصارات العظيمة »
تقع بين سوريا ومصر ، غنية بالطعام وبالمؤن
على شاكلة طيبة بجنوب مصر ، وتدوم
دوام منف ،
تشرق الشمس فى سمائها ، وتغرب فى افقها ·
والكل هجر مدينته واستقر فى جوارها » ·

واهتم رمسيس الدءوب بالاشراف بنفســه على تجميــل مدينتــه الجديدة ، وكان لا يفتأ يفكر فى تدبير موارد جديدة لهذا الغرض · وذات مرة ، لحظت عينه الفاحصة وهو يسير في الصحراء القريبة من هليوبوليس منابت كثيرة لأحجار صالحة لتشكيل تماثيل المعــابد فى بى رمسيس ومنف وهليوبوليس · وفى ثورة حماسه وهو يحث طاقم العمال ورؤساءهم ، عقد معهم « صفقة انتاج » مبكرة ، فقال موجها لهم الخطاب الآتى :

« انتم مجموعة العمل المختارة ؛ رجــال بواســل خبــرتكم لا ينكرها أحــد ··· خبراء بالحجارة النفيســة ، خبــراء بالجرانيت ، أعتدتم على الكوارتز ، ··· ، رفقــاء صالحون، مجدون حذرون تعملون اليوم كله ، وتنفذون أعمالكم بنشاط وكفاءة ! ··· المؤن لديكم بلا حســاب ، ولا مجال للشكوى « ليتها كانت اكثر ! » ··· أنا الكفيــل الدائم ــ وجراياتكم اثقل من عملكم ، لأنى راغب في تغذيتكم ورعايتكم ! وعهدى بعمالكم الحماس والكفــاءة ــ وان العمــل مبعث سرورهم

ويطونهم ملأى · الصوامع مكتظة بالحبوب من أجلكم ...
لقد ملأت المخازن لكم من كل شيء : خبز ولحم وكعك ، من أجل غذائكم ، والأخفاف (صنادل) والثياب والمراهم لدهان رءوسكم ، قد قررت لكم كل عشرة أيام ، والثياب كل سنة ، وبذلك يمكنكم أن تثابروا كل يوم · لن يبيت أحدكم طاويا يشكو العوز · وقد عينت أشخاصا ليوفروا لكم المئونة : صيادين يجلبون السمك ، وآخرين يجلبون الخضروات (؟) ، وخزافا لتوفير القلل لتبريد الماء لكم في حر الصيف .. » ·

يتكون مركز المدينة من قصر سيتي الأول الصيفي وملحقاته ـ مصنع الزجاج والثكنات العسكرية · وقد وسع رمسيس الثاني وأثرى هذا القصر بشكل كبير · ويحيط بالقصر جدران وقورة المظهر مطلية بالجص الأبيض ، تليها ممرات ملونة تتخلل الأجنحة الملكية والأبهاء العمومية التي يغشاها الحضور ثم ممر يتألق بكساء من القراميد المزججة الجميلة، ألوانها غنية دافئة ـ صفراء وبنية فيها لمسة زرقاء ، أو حمراء وسوداء على أرضية سمراء (رمادية) · والسلالم المزينة على هذه الصورة ومنصة قاعة العرش مزدانة بأشكال أجنبية فوق افريز سفلي على شكل نباتات البردي أزرق اللون ، والعمود الطرفي للدرج مشكل على هيئة سبع يفترس أحد الأعداء البائسين ـ وكلها ذات لون أخضر فاتح وممزجة بلون أزرق · وكل المداخل والجدران والشرفات مسجل عليها ألقاب رمسيس الثاني بخط هيروغليفي واضح باللون الأبيض على بطانة زرقاء أو باللون الأزرق على بطانة بيضاء ، مصحوبة بمشاهد حية مستوحاة من انتصارات الفرعون استخدم في تلوينها الأحمر والأزرق والبني والأصفر والأسود · فاذا دخلنا الأجنحة الملكية نجد أن الوقار ومظاهر التباهي الرسمية قد اختفت وحلت محلها مشاهد مبهجة مثل حيوانات الصيد ونساء الحريم والاله بس الضئيل الحجم المرح الذي هو اله البيت والدفء · والتباين ظاهر جلي بين الجدران والأسقف الوقورة المطلية بالجص الأبيض حول الأجزاء الرئيسية من القصر وفوقها ، وبين الأجنحة الملكية التي تسود فيها الزخارف والألوان الفنية المبهجة · لذلك لا غرابة اذا وصف الشعراء من الكتاب بي رمسيس في أهازيجهم بأنها «جميلة الشرفات ، باهرة القاعات اللازوردية والفيروزية » · وفي موقع استراتيجي قريب كانت هناك منشأة عسكرية واحدة ، لكن كان يوجد غيرها في الأحياء الأخرى ، فقد كانت بي رمسيس « مركز قيادة عرباتكم ، ورئاسة مشاتكم ، ومرفأ أسطولكم » ·

وترتفع بعض المباني العامة الأخرى ـ مدنية ودينية · حول نواة القصر · وقريبا من القصر تقع مكاتب وبيوت كبار المسئولين بالحكومة ،

وتضم المقر الشمالى لوزير الجنوب باسر (مثلا) . ولكن مقامات الآلهة تطغى على ذلك كله . وفى الجنوب تقع مدينة افاريس ! عدا ة وفيها معبد ست الذى يقترن اسمه بالاله حورس منقذ رع . وشمال حى القصر يقع معبد رع العظيم المقام على الجانب الشرقى وواجهته تطل على الغرب فى مواجهة معبد آمون غربا والذى تطل واجهته على الشرق . وترتفع عدة أزواج من المسلات (من ٤ الى ٦) أمام معبد رع ؛ حيث بنيت هناك وداخل ساحات المعبد مقصورتان من الأحجار الصلبة ، وسلسلة من تماثيل الملك ، بالاضافة الى أربع لوحات تذكارية – وربما ست – تشيد بجبروت الفرعون . وعلى الحافة الجنوبية للمدينة الجديدة يوجد معبدان مستوى مبانيهما متواضع بالنسبة لما ذكرنا – هذان هما معبدا الاله بتاح والربة سخمت – أودجو . ولكن قرب هذين المعبدين ، يعتقد أن رمسيس الثانى فى الثلاثينيات من حكمه بنى أبهاء الاحتفالات اليوبيلية لتجرى فيها شعائر عيد « الحب سد » لتجديد شباب الحكم . وقد وضع هذا الصرح العظيم تحت الرعاية المشتركة للاله بتاح – تاتنن – واهب اليوبيلات ، ورع أتوم ، اله الشمس الذى ادعى رمسيس وجود علاقة خاصة تربطه به . وتوجد بوابة جرانيتية ضخمة – يصل ارتفاعها الى حوالى ٤٠ قدما – تؤدى الى بهو معمد ، اعمدته الأربعة المركزية ترتفع الى ٣٥ قدما يحيط بها عشرة اعمدة بارتفاع ٢٢ قدما ، واختلاف ارتفاعى مجموعة الأعمدة ينشىء منورا يضىء بين مستوى السطحين ، وهو تصميم موجود مثله فى الكرنك وفى البهو الغربى بمنف . بعد هذا البهو نجد بهوا معمدا آخر به ستة اعمدة ارتفاعها ٢٠ قدما ، يؤدى مرة أخرى الى حجرات اخرى . وامام هذه الأبهاء اليوبيلية الجبارة كانت ترتفع فى يوم ما ثلاثة ازواج اساسية من المسلات ، بالاضافة الى ثلاثة او اربعة أزواج اخرى عند البوابات الأخرى . كذلك زينت الممرات بالتماثيل العملاقة ذات اللونين الوردى والرصاصى . ولما كان رمسيس الثانى نافذ الصبر رغبة منه فى الفراغ من بناء صرحه الضخم للاحتفال باليوبيل بدون تأخير ، فقد امر بسرعة احضار الأعمدة . من اجل ذلك اعادوا استخدام اعمدة بعض المعابد القديمة المهجورة ، وكان ذلك على اية حال أقرب وأسرع من الاعتماد على محاجر أسوان .

تنساب « مياه رع » على الجانبين الغربى والشمالى من المدينة الرئيسية ؛ وهذه المياه كانت تكون الفرع الرئيسي الشرقى للنيل المتجه فى سريانه الى الشمال الشرقى . وبطول شمال المدينة وشرقها كانت تجرى قناة فرعية ربما كانت هى « مياه افاريس » المتصلة ببحيرة القصر . وبذلك تكون المدينة محصنة تحصينا طبيعيا وصناعيا بالمجارى المائية . بالاضافة

الى ذلك كانت المدينة من المرافىء الداخلية الهامة ، التى يسهل الدخول اليها من البحر المتوسط ، وتسيطر على حركة الملاحة الى منف وما يليها جنوبا · وكانت الطبقة العاملة الفقيرة تسكن فى بيوت متواضعة ، ولكن الأهم من ذلك هو أنه بخلاف بيوت العمال وأرصفة المرفأ وأحواض السفن كانت فى بى رمسيس مجموعة صوامع لتخزين مواد الجزية والضرائب العينية - وكانت من الضخامة بحيث يمكن أن يطلق عليها « مدينة الصوامع » · وهناك عبارة فى التوراة (سفر الخروج ١ : ١١) تقول : « صوامعها ملأى بالشعير والقمح (نوع الأيمر) ، تصل الى عنان السماء ··· وسفنها تروح وتغدو ، فيصلها الطعام والزاد كل يوم ، والمرح سائد هناك ، ولا يقول أحد : « هل من مزيد ! » » ·

تقع بى رمسيس من جهة الشرق قرب الصحراء ، لكن خلفها توجد عن قرب منطقة زراعية غنية بها قنوات ملأى بالسمك والطيور · وفى ذروة أيام الأعياد ، عندما كان يخرج موكب الفرعون الرسمى عن القصر متوجها الى معبد ست أو رع ، كان الجمهور يهرع لتحيته والترحيب به :

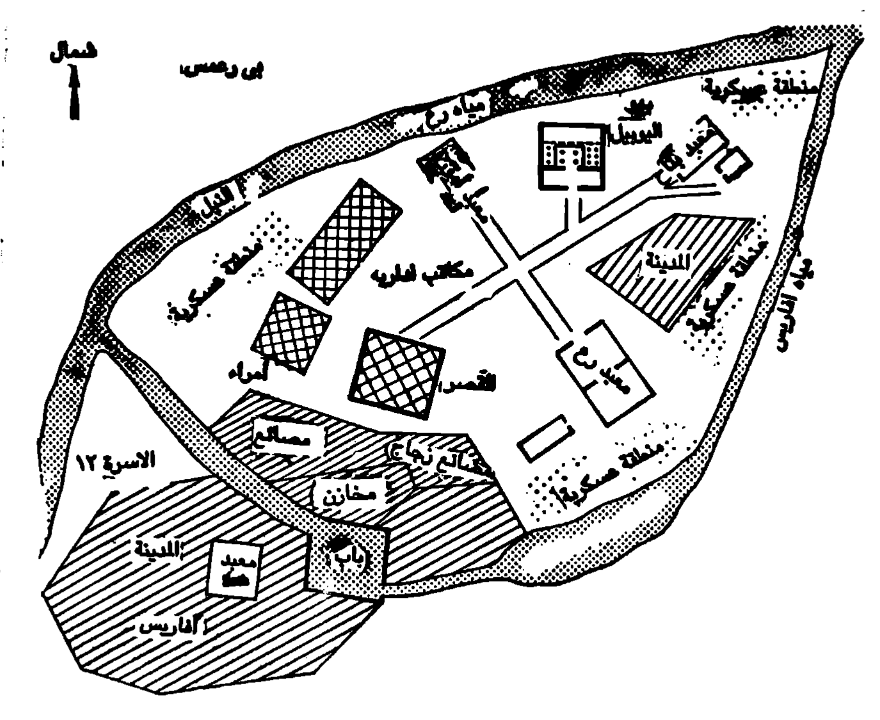
« شباب جماهير « عظيمة الانتصارات » فى ملابس العيد - كل يوم - والدهون المعطرة فوق رؤوسهم ، وشعورهم مرجلة · يقفون أمام بيوتهم ، ملوحين بالزهور والأغصان من بيت حتحور ··· فى يوم الاحتفال بتشريف رمسيس الثانى - منتو القطرين ، صباح عيد كيهك ، يتنافسون على الجهر بطلباتهم ، فى حضور المغنيات الفاتنات من مدرسة منف ·· » ·

وكانت روحات الملك وغدواته - فى حملاته على سورية أو فى جولاته التفتيشية فى ربوع مصر أو فى ذهابه وايابه من طيبة - من أهم ملامح الحياة فى عواصم مصر ، يواكبها استعدادات فعالة محمومة · ويعطينا أحد التمارين التدريبية باحدى مدارس الكتاب فكرة عن مدى ضخامة مثل هذه الاستعدادات الكبرى ، وفيما يلى نموذج من الأوامر الصادرة بهذا الشأن :

« امضو وهيئوا كل شيء (لاستقبال) الفرعون ··· اصنعوا مائة حلقة لباقات الورود ، وخمسمائة سلة للطعام · ولتعد قائمة الطعام كالآتى : ··· من الكعك مائة سلة ، ··· سبعون صحنا ، ··· ألفا مد (كيلة) ··· من اللحم المجفف مائة

سلة كل بها ٣٠٠ شريحة ٠٠٠ ومن اللبن ٦٠ مدا ؛ ومن الزبد ٩٠ مدا ؛ ومن بذور الخروب ٣٠ جرة ؛ ومن العنب ٥٠ جوالا: ومن الرمان ٦٠ جـــوالا ؛ ومن التين ٣٠٠ طـــوق وعشرون ســـلة ٠٠٠ » ٠

وتتوالى بنود القائمة : أعشاب ، وأوز مطبوخ ، وعسل وخيـــار وكرات وبخور وزيوت حلوة ، وكل أنواع السمك والطيور ، والفول ثم الخمور المعتقة ٠ كل ذلك مصحوب بفصيلة كاملة من الخدم ، بالاضافة الى العربات المزينة بشكل جميل ومختلف الأسلحة للعرض العســكرى ٠ بهذا تتم الاستعدادات لأى استقبال ملكى حسب أسلوب الحياة البهى فى مدينة بى ـ رمسيس ٠ هنا اختار رمسيس الثانى مقر حكمه « مخضـــع البـــلاد الأجنبية ، الثور القوى محبوب الحق » ٠



شكل (١٥) مسقط تخيل لمدينة بى رعمسيس مقر الملك بشرق الدلتا الذى بناه رمسيس الثانى حول قصر والده الصيفى شمال مدينة اواريس ٠



منظر لدلتا مصر الواسعة مصور بالقمر الفضائى

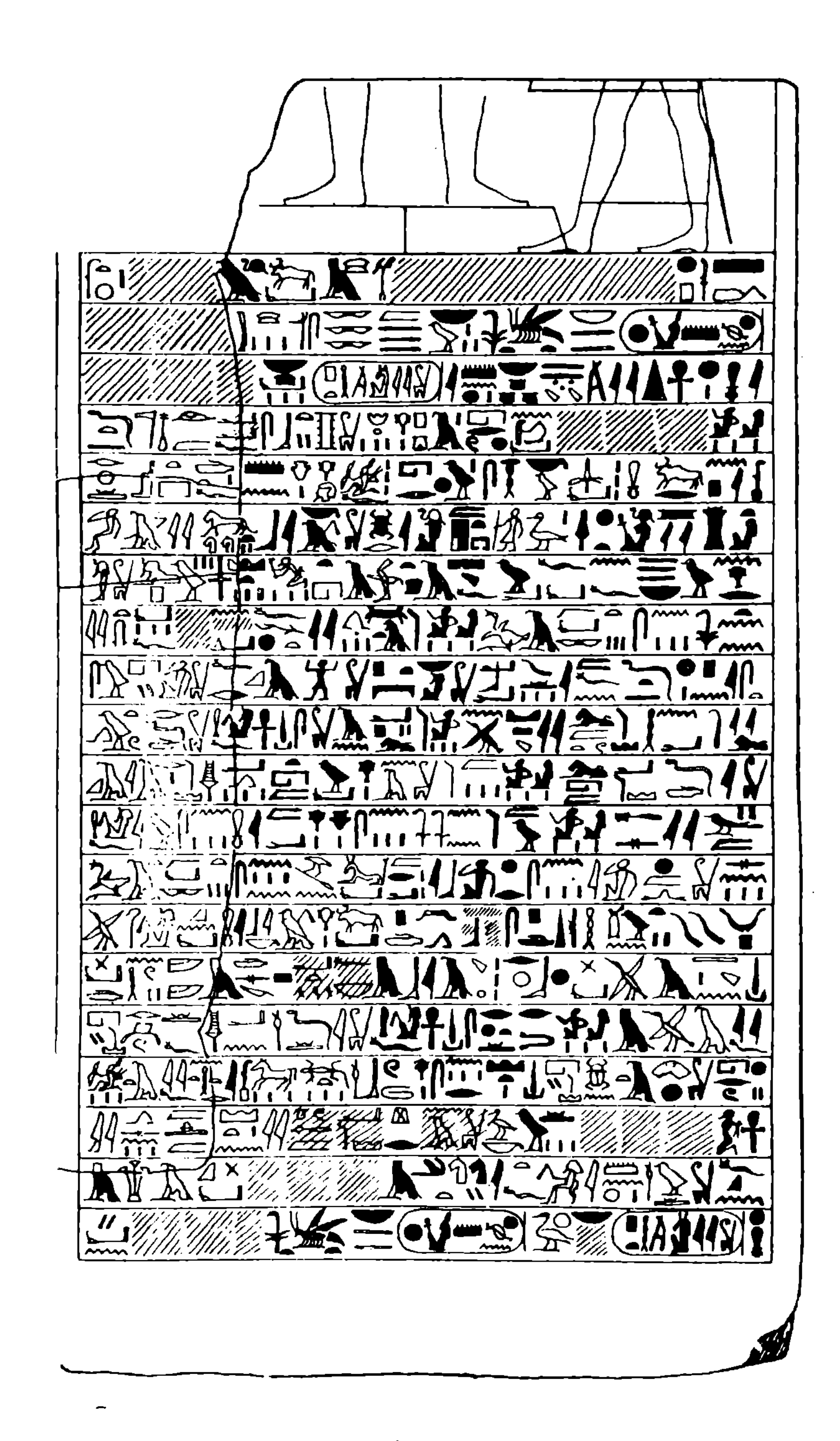


وادى النيل بصعيد مصر

سيتى الأول والأمير رمسيس يقدمان العطايا أمام خراطيش أسلافهما - (معبد أبيدوس)



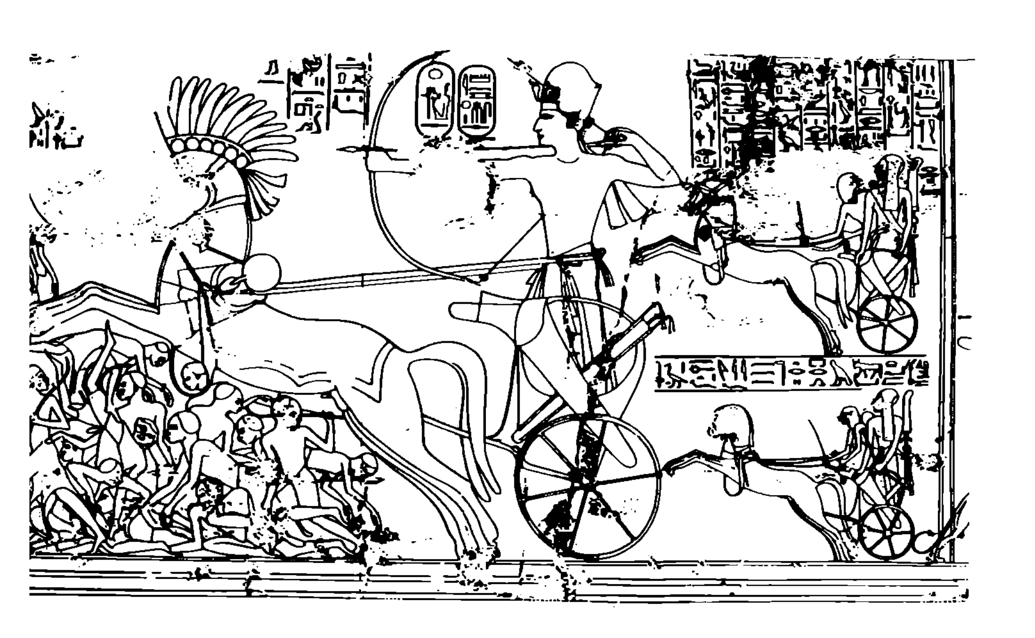
- رايا ورويا، والدا تويا (توى) أم رمسيس الثانى وزوجة سيتى الأول.



لوحة الملك سيتى الأول من بيت شان .

أ - رمسيس الثانى (وخلفه الأميران آمون حرونف وخع إم واست) فى مطاردة للثوار النوبيين. إلى اليسار جر
ينقل إلى الخطوط الخلفية وطفل يجرى لإعلان الهجوم المصرى وامرأة تطبخ وجبة طعام. -

ب - رمسيس الثانى فى جلسة رسمية يتلقى غنائم الحرب والجزية من النوبيين وتحتوى على خواتم ذهب
وحقائب مليئة بتراب الذهب، وأقواس، وجلود حيوانية مدبوغة، ودروع وكراسى، ومراوح، وبيض نعام ور
نعام، وسن الفيل وحيوانات أليفة وبرية. فى وسط الصورة العليا يكافأ نائب الملك فى النوبة بأطواق ذهبية. (م
بيت الوالى؛ البهو الخارجى).







- صورة لرمسيس الثانى وابنه بالنقش الغائر.

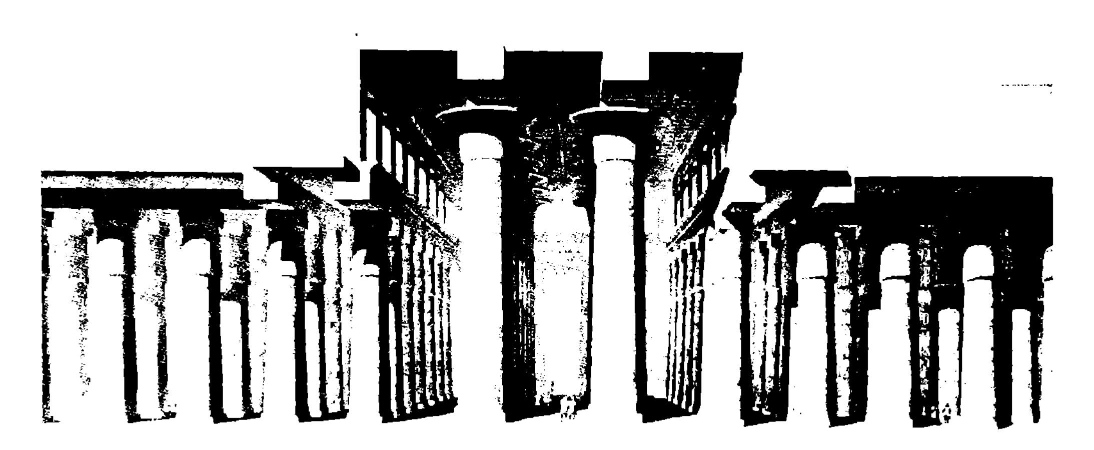


Drawing by Coleman

سيتى الأول فى حرب كنعان الجدار الشمالى الشرقى ببهو الأساطين بالكرنك .



نقش بارز للملك سيتى الأول(ابيدوس)



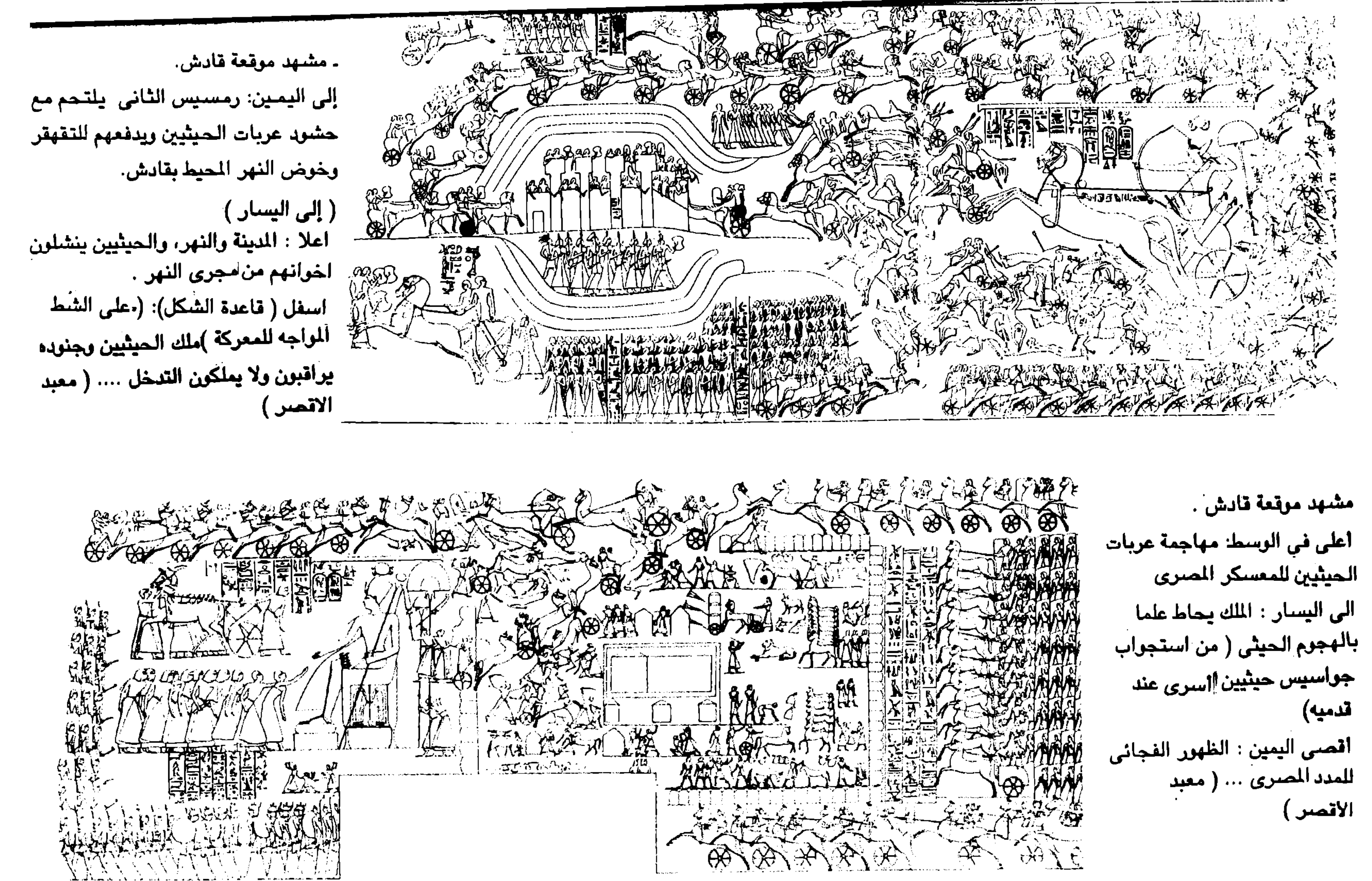
بهو الأساطين الكبير بالكرنك/قطاع راسى



- واجهة معبد سيتى الأول التذكارى بالقرنة.



تمثال لرمسيس الثانى فرعون مصر فى شبابه تورين (ايطاليا)



- مشهد موقعة قادش.

إلى اليمين: رمسيس الثانى يلتحم مع حشود عربات الحيثيين ويدفعهم للتقهقر وخوض النهر المحيط بقادش.

(إلى اليسار)

اعلا : المدينة والنهر، والحيثيين ينشلون اخوانهم من مجرى النهر .

اسفل (قاعدة الشكل): (على الشط المواجه للمعركة)ملك الحيثيين وجنوده يراقبون ولا يملكون التدخل .... (معبد الاقصر)

مشهد موقعة قادش .

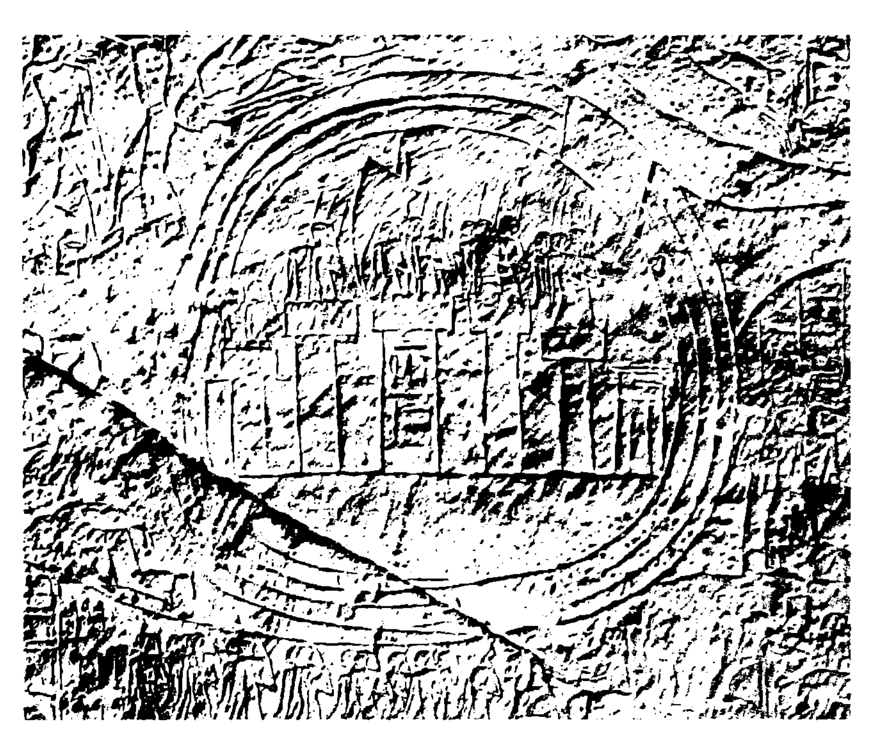
اعلى في الوسط: مهاجمة عربات الحيثين للمعسكر المصرى

الى اليسار : الملك يحاط علما بالهجوم الحيثى (من استجواب جواسيس حيثيين اسرى عند قدميه)

اقصى اليمين : الظهور الفجائى للمدد المصرى ... (معبد الاقصر)

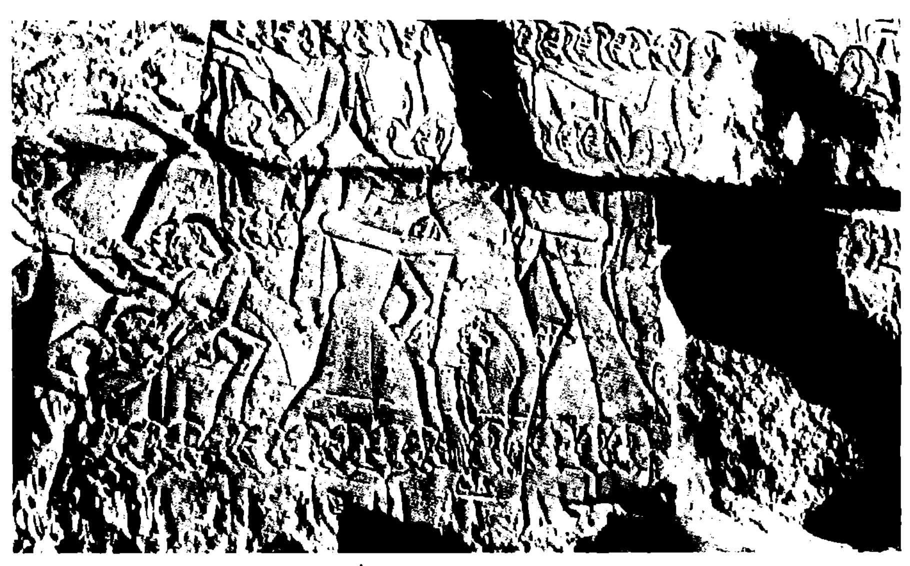


ا ـ رمسيس الثانى يحاط علما بهجوم الحيثيين (الرمسيوم ـ البوابة البرجية)



ب ـ مدينة قادش تطوقها الأنهار وقناة (أبو سمبل) .

جـ - الهجوم المصرى المضاد عبر نهر العاصى بقادش (الرمسيوم)



- موقعة قادش.

- امير حلب الحيثى مُنَكَّس لإفراغ جوفه من الماء الذى ابتلعه أثناء سباحته فى نهر العاصى! منهزمًا فى معركة (الرمسيوم).

أ ـ أبو سمبل :

واجهة معبد رمسيس الثانى الكبير

تظهر فى الصورة التماثيل الأربعة العملاقة للملك ـ منحوتة فى الصخور الرملية

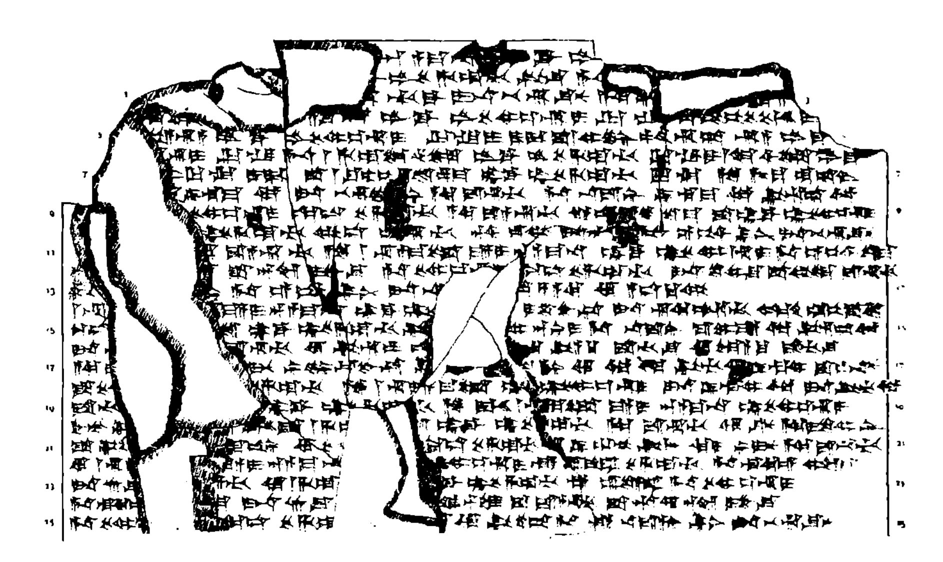


ب ـ أبو سمبل:

واجهة معبد الملكة نفرتارى.

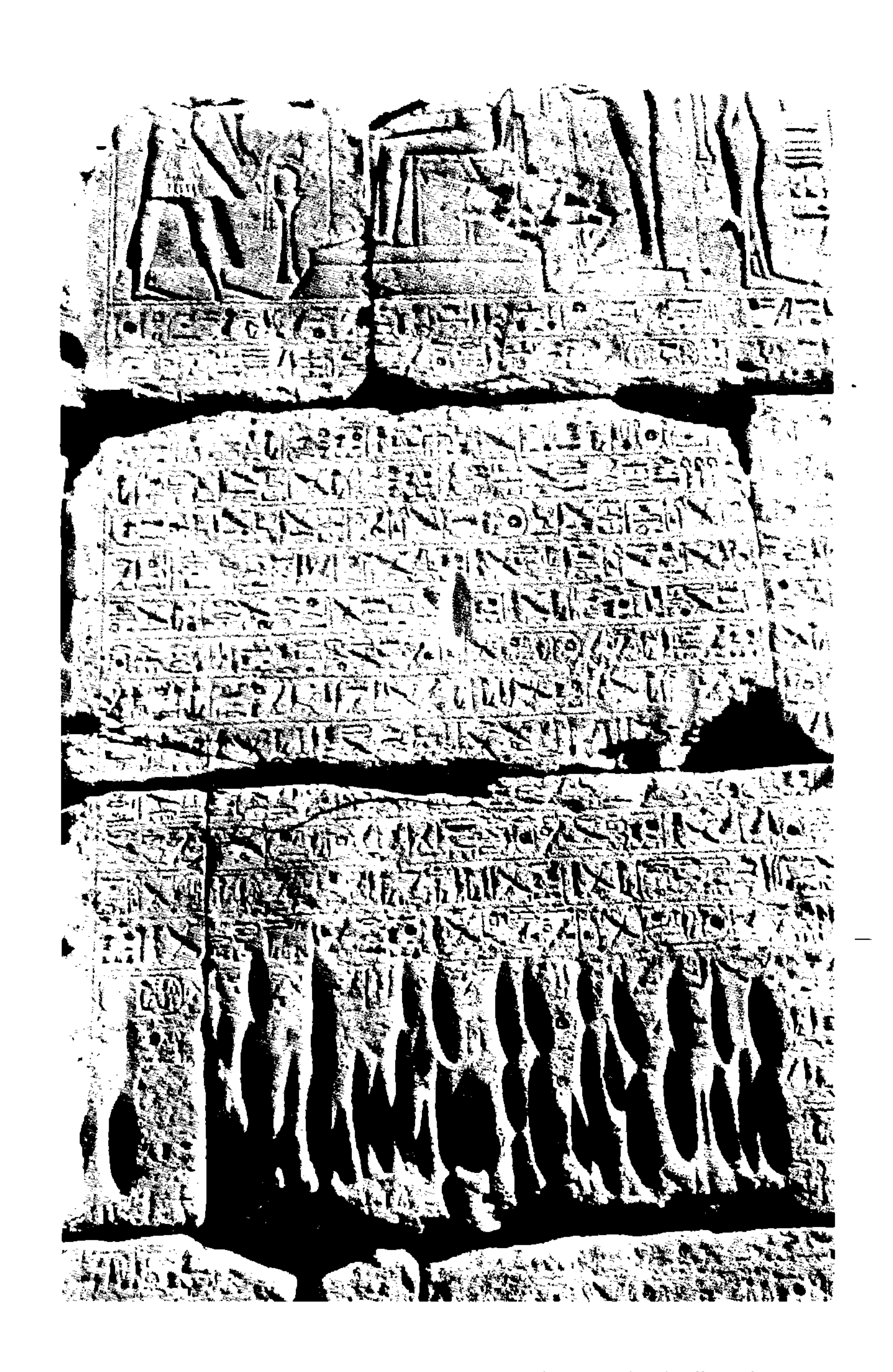
وتظهر التماثيل البارزة للملك والملكة ـ مقطوعة فى الصخور الحية.

رمسيس الثانى يستعرض الأسرى المؤابيين يحف بهم اثنان من ابنائه فى جبهة باتورا فى قواب . (معبد الاقصر)

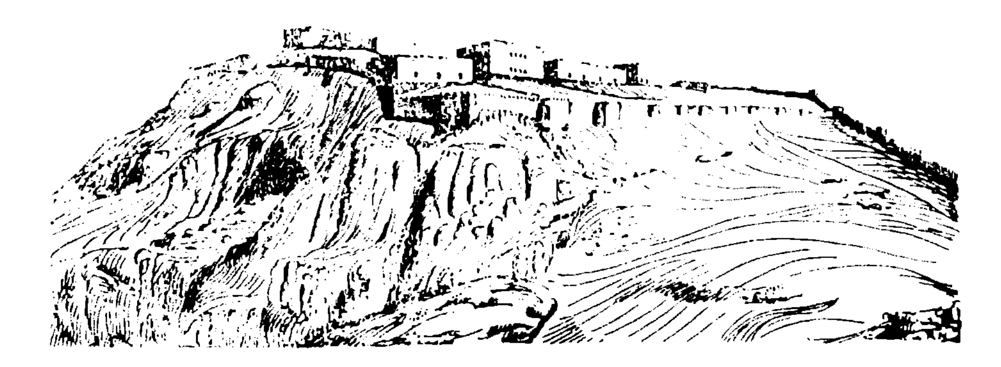


ـ معاهدة السلام المصرية الحيثية.

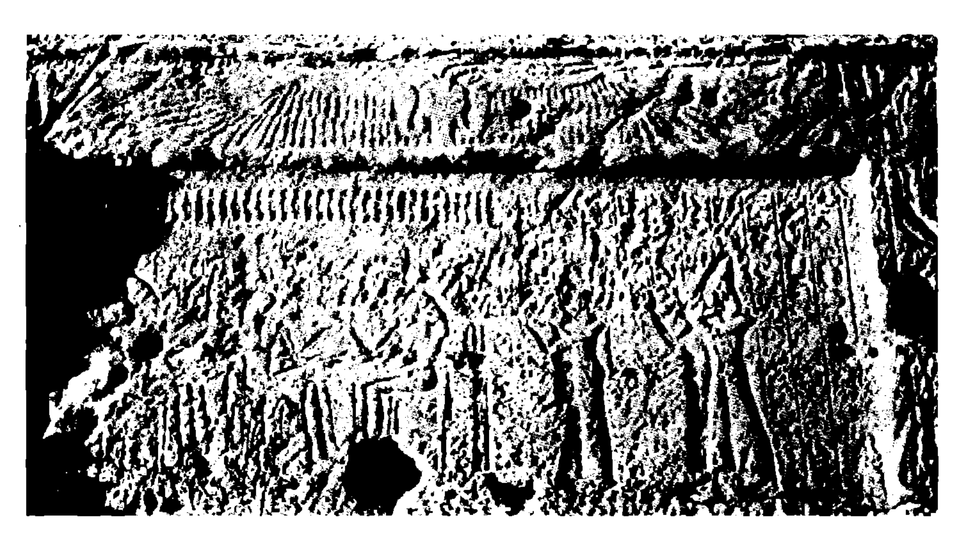
- النص الحيثى منقوش بالخط المسمارى البابلى (وهى لغة العصر الدبلوماسية) مسجلة على لوح طينى... (من عاصمة خيتا).



معاهدة السلام المصرية الحيثية .
النص المصرى مسجل على لوحة جدارية ضخمة فى معبد الكرنك،
المشاهد العلوية : رمسيس الثانى يقدس الآلهة .



هاتو ساس عاصمة الحيثيين، صورة تكوينية من الواجهة الشمالية للحصن الملكى . وقاعة العرش كانت فى العمارة ذات ألنوافذ فى وسط الصورة .



ابو سمبل منظر من لوحة الزواج . رمسيس الثانى يعظم بين الإلهين ست وبتاح تاتنن ويستقبل الأميرة الحيثية، يرافقها ابوها الملك هاتوسيل الثالث .



تمثال الملكة تويا، أم رمسيس الثانى
(متحف الفاتيكان بروما) .



الأمير خع إم - واست
(المتحف البريطانى ، لندن) .

الفصل السابع

دهاليز السلطة
والحياة والرسائل

الوزراء والقانون

باسر الوزير المثالى :

لم يكن الفرعون مجرد بؤرة تشع بالبهاء والعظمة على عواصم مملكته ، لكنه كان الينبوع الذى تتدفق منه كل السلطات ومظاهر النفوذ أيضا · وبالرغم من ذلك لم يكن ليستطيع ادارة ممتلكاته الواسعة وحده ، رغم كثرة الآلهة التى تشد أزره · وكان لابد من تفويض بعض سلطاته لمن يثق به · ومثل أى فرعون آخر استعان رمسيس الثانى بهيئة من وزراء الدولة ، يرأسهم حسب العرف وزيرا الجنوب بطيبة والشمال بمنف ·

واستمر باسر وزير سيتى الأول ـ ذلك الرجل المجرب ـ فى منصبه ما يقرب من ربع قرن آخر فى عهد رمسيس الثانى ، كوزير للجنوب بطيبة · ولم يحدث طوال هذه المدة أن وجد فيه رمسيس أى ملمس يأخذه عليه ، فقد كان وزيره الأول بحق مخلصا وفيا لسيده · وباسر من جهة أمه كان من أهل الشمال (منف) أصلا · لكنه كان مغرما بطيبة ذات الآثار العظيمة والمواكب الفخمة والموقع الفريد · وبلغ من شغفه بطيبة أن استقر رأيه على أن يدفن فيها فبنى لنفسه هناك هيكله المقبرى الجميل (رقم ١٠٦) ، وكان والده من قبله قد مات هناك ، وهو كبير كهنة آمون فدفن بها أيضا ·

وكانت مسئوليات باسر الجسيمة قد اضطرته لقضاء جل وقته فى الشمال قريبا من الفرعون ، لكن عينه لم تغفل عن مراقبة ما يجرى فى طيبة لضمان حسن سير العمل وكفاءة الأداء · وطبيعة عمله وضعته

مباشرة على رأس مجموعة عمال المقبرة الملكية بطيبة · والذى لا شك فيه أنه أحرز فى عمله هذا نجاحا ملحوظا ، تشهد به حتى يومنا هذا مقابر سيتى الأول ورمسيس الثانى وأقاربهم ، ذات الزخارف البديعة · ولم تكن مثل هذه المقابر لتبلغ هذا الحد من الروعة لولا رعاية باسر لهؤلاء العمال · وقد كون مع رعموس كاتب المقبرة ثنائيا متفاهما ، وأحبهما العمال فكانوا يذكرونهما باستمرار فى اللوحات والنقوش المقبرية هناك · وتبدو كفاءة باسر مع رقته من خلال رسالة معاصرة بعثها عمدة طيبة الغربية (يدعى باسر أيضا) الى هؤلاء العمال واثنين من رؤسائهم تقول :

« عمدة طيبة الغربية ، رعموس ، يحيى رئيس العمال (وكل) المجموعة ، (خصوصا) رئيس العمال نب نفر وقاها ومعهما كل المجموعة ، وبعد :

انظروا الآن ـ لقد أرسل لى المحافظ والوزير ما يلى :
« وفر جرايات عمال المقبرة الملكية من الخضروات والسمك وخشب التدفئة وجرار الجعة (؟) والمؤن واللبن · ولا تحجب منها كسرة ··· (ولا) تعلق أى بند من جراياتهم فى الموازنة· [وعليك] الاهتمام شخصيا [بذلك] ··· » ·

باسر اذن لم يكن بالذى يرضى بالتلاعب فى أقوات العمال ، ونفذت تعليماته على ما يبدو وشيكا · ولكن الذى حدث ربما يكون صرف حصة لكل منهم ؟

وعموما لم يكن الاهتمام بالعمال وأحوالهم ، ولا بأعياد آمون أو بعضها هى كل ما يخص الوزير ؛ فما هما الا وجهان لمهامه المتعددة · وقد سجل باسر باحساس تاريخى مرهف بالتقاليد الراسخة العرف المتبع منذ قرون بتوجيه « خطاب منتى للوزير » عند التولية · وقد سجل ذلك منقوشا على مقصورة مقبرته · وفى زمن باسر كان هذا « الخطاب » قد قدم به العهد كثيرا · ويتكون الخطاب من جزءين : الأول نصيحة الملك للوزير عند التولية ، والثانى يستعرض أعباء الوزير ومسئولياته · وكلا الجزءين يحوى مثلا عليا فى منتهى التجرد فيما يتعلق بتوفير العدل بين الناس ، وضرورة متابعته بالاضافة الى تحقيقه · وكانت مسئوليات الوزير واسعة المدى تستنفد كثيرا من الجهد وتثير الأعصاب ، فقد كان هو المسئول عن قطاع القضاء والخزانة العامة والقوات المسلحة والشئون الداخلية وشئون الزراعة والاتصالات الحكومية لتوفير الروابط داخل مدن القطر ، وكثير غير ذلك · فاذا كان فى العاصمة فعليه أن يرفع تقريرا يوميا

للفرعون ويراجع عمل مدير الخزانة بصفة مستمرة . كذلك كان يترأس جلسات المحاكم فى كل أنواع القضايا . وبعد ذلك كله هو المسئول النهائى عن كافة أنواع الجزية والضرائب . ومن ثم كانت زياراته لطيبة ، ولو بداعى العمل ، فرصة نادرة للترويح : فيها يتخفف من ضغط العمل المستمر فى عواصم الشمال .

ثم أتى اليوم الذى أحس فيه باسر بثقل السنين ، وآثر التقاعد . فى ذلك الوقت كان قد مضى زمن على وفاة نب ون نفر كبير كهنة آمون الذى وافاه القدر فى السنة الثانية عشرة من حكم رمسيس الثانى . واختار الملك للمنصب الشاغر ون نفر وهو والد رفيق طفولة رمسيس الثانى آمون ام اينت . وكان آمون ـ اينت نفسه قد نقل من وظيفته العسكرية الى الرمسيوم ليصبح مديرا لمشاريع الملك الأثرية هناك ـ ولا يزيد البعد بينه وبين أبيه كبير الكهنة بالكرنك عن عبور النهر الى الضفة الأخرى من النيل . وما لبث أن مات ون نفر سنة ٢٧ فأصبح منصب كبير كهنة الكرنك شاغرا مرة أخرى . فى هذه المرة كوفىء باسر الوفى مكافأة سخية بتعيينه كبيرا لكهنة آمون بالكرنك ، وهى وظيفة كان يشغلها أبوه منذ جيل مضى . ويبدو أن باسر لم يباشر بنفسه سوى أمر الاحتفالات الكبرى بصفته كبيرا للكهنة ، واستمر على هذا الحال عشر سنوات تقريبا حتى مات فى السبعينيات من عمره سنة ٣٨ تقريبا ؟ أما أمر أعباء الوظيفية اليومية والاحتفالات الصغيرة فقد ألقى على النبى الثانى والنبى الثالث لمن يليه من أمثال بلكن خنسو ورؤما المتمرسين فى الاجراءات الطقسية . كما عهد بالشئون الادارية والمالية لأملاك آمون الواسعة الى مسئولين رسميين مثل ستاو .

تطبيق القانون

نزاع عائلى صغير

كانت معظم القضايا تسوى محليا دون الحاجة للجوء لمجلس القضاء الأعلى برئاسة الوزير . والبعض من هذه القضايا مسجل فى بعض المدونات . وهى تعكس بشكل حى أسلوب الحياة فى ذلك العصر ، نعرض منها السيناريو التالى لقضية وقعت فى طيبة الغربية : حوالى سنة ٩ من حكم رمسيس الثانى تزوج ضابط شرطة الحى « مى موت » بالسيدة ارى نفرة ، وظلت ربة البيت النشيطة لمدة سبع سنوات متعاقبة تتولى بنفسها كافة الأعمال المنزلية ـ الا من خادم للأعمال الخارجية الشاقة ـ وحتى ملابسها كانت تقوم بتفصيلها بنفسها . وفى أحد أيام سنة ١٥ واتتها الفرصة الذهبية للحصول على ما يمكن أن يعفيها من كثير من مشقات العمل المنزلى المجهد . فقد طرق بابها نخاس يسمى رايا ، عارضا

للبيع ما كانت السيدة تصبو اليه تماما ، جارية سورية صـــغيرة من الأسرى • وبعد المقايضة اتفقا على ثمن الجــارية بوزن الفضة (٤ دبنات وكيت واحد ـ أي ٣٧٣ جراما أو ١٣ أوقية بالمعــايير المعــاصرة) •

وفي نشوة فرحها بالصفقة أطلقت على الجارية اسم « جمنى حر امنتى » ومعناه « التي احضرتها من الغرب » ، وسرعان ما أغرقتها بالعمل • وكان من الطبيعي في مجتمع لا يعرف النقود أن تكون المقايضة هي أســاس الدفع • ولم يكن بين يدى السيدة ارى نفرة فضة تدفع منها • لذلك جهزت من البضاعة الحاضرة التي لديها ـ بعض الأثواب الكتانية وكفن ودثار وكلها من صنع يديها ـ بما يوازى نصف الثمن (٢ دبن ، ٢½ كيت) • وفي مقابل نصف الثمن الثاني سلمت السيدة للتاجر اواني نحاسية وبرونزية متنوعة ، كان من بينها بعض أواني المطبخ بما قيمته دبن واحد وكيت واحد مستعارة من جاراتها ؛ ربما تكون قد حبستها لديها تحســبا لمثل هذه الصفقة التي تراها مربحة ، وكما يقولون كل زوجة تعلم « متى تحين الفرصــــة ! » •

وهكذا استقر الحال بالسيدة ارى نفرة وزوجها والصغيرة جمنى حر امنتى وانهمك كل في شئونه • لكن ذلك لم يدم طويلا ••• اذ ادعت احدى جاراتها ـ السيدة باك موت ـ حسدا منها لجارتها ، بأن ارى نفرة قد سددت بعض الثمن للنخاس من أدوات تملكها هــذه الجــارة ، وذلك يعطيها بعض الحق في الجارية ! وكان زوجها الشرطي ناخي مستعدا لمساندتها • وتصاعد النزاع بين الجانبين ولم يقبل أي منهما أن يحيد عن موقفــه •

وبعد مدة حوالى سنة ١٦ اضطرت السيدة ارى نفرة للدفــاع عن موقفها أمام محكمة غرب طيبة المحلية ضد الاتهامات الموجهــة اليها من ناخي وباك موت • وطلبت منها المحكمة أن تقدم دفاعها ، الذي قالته بشيء من الجرأة :

« [أنا زوجة ضابط الحي سي موت] ؛ لقد تزوجنا ، واشتغلت ••• حتى ملابسي كنت أفصلها • والآن في سنة ١٥ بعــد انقضاء سبع سنوات ••• عرض على النخــاس جارية سورية من العبيد ••• مجرد طفلة وقال لي : «اشتري الفتاة ، وحددى السعر ! » ••• وحددت السعر وسددته ثمنا لها ، وأمام سيادتكم أيها القضاة : ـ (أسرد قائمــة الكتــان والأدوات المعدنية وخلافها مع أثمانها) ـ ومجموع الثمن ٤ دبن وكيت واحد بمقياس الفضة ـ بضائع متنوعة ؛ ••• ليس فيهــا ما يخص السيدة باك موت ••• » •

وهنا طلب القضاة من ايرى ــ نفرة أن تحلف : « وقالت هيئـــة القضاء للسيدة ايرى ــ نفـــرة : ــ

« اقسمى يمينا باسم الملك ، وقولى : : اذا شهد شهود ضدى بأن بعض ممتلكات السيدة باك موت كانت ضمن الفضة التى دفعتها ثمنا لهـذه الجارية الأسيرة ، وأننى أخفيت (هـذه الحقيقة) ، فاننى أستحق أن أجلد مائة جلدة ، وتصـادر الجارية » ٠

١٦ ــ رسالة مكتوبة بالخط الهيراطيقى يشكر فيها رعموزا عمدة طيبة الغربية الوزير ياسر على أوامره بتقديم المؤن المطلوبة لعمال المقبرة الملكية بدير المدينة ٠

فحلفت السيدة فورا ٠

بعد ذلك طلبت المحكمة من ناخى تقديم شهود لتأييـد ادعاءات زوجته باك موت ٠ وكان هؤلاء الشهود مجمـــوعة لها وزنها : أولهم مين انوى ضابط البوليس المخضرم فى المقبرة الملكية ؛ ثم عمدة غرب طيبة ، ثم رعموس (الذى سبق ذكره) ؛ ثم أخو سى موت الأكبر ، وأخت باك موت الكبرى ، وثلاث شاهدات أخريات ٠ وقد تقدم كل منهم وأدى شهادته ٠

وهنا نجد أن الجـزء الأخير من البردية مفقود ! وهذا هو الجـزء المثير فى هذه الأقصوصة ٠ فربما يكون مدفونا فى الرمال وربما يكون قد أتلفه الزمن ــ أو الانسان ــ فهل كسبت ارى نفرة قضيتها ؟ الاجـابة تحتاج لمعرفة مصدر الوثيقة ؛ فان كانت ضمن الوثائق المنزلية لهذه السيدة ، يكون من المرجح أنها حازت النصر وحكم لها بضم خادمتها الصغيرة ٠

القضية التي عرضناها - قضية اوى نفرة - قضية صغيرة يمكن حلها على المستوى المحلى ٠ لكن هناك قضايا اخرى كبيرة يستغرق بعضها اجيالا أمام المحاكم المحلية والعليا فى هليوبوليس ومنف وبى رمسيس ٠ من هذه القضايا قضية يمكن أن يطلق عليها اسم « قضية القرن » نلخصها فيما يلى :

منذ اربعة قرون ، أيام المجد والبطولة حينما تمكن البطل أحمس الأول من طرد النظام الهكسوسى واعادة توحيد مصر ، كافأ الملك البارزين من أعوانه المخلصين فاقطعهم الأراضى ٠ وكان ممن أنعم عليهم فى ذلك الوقت حامل الأختام أمير البحر نسحى ؛ فحصل على ضيعة قريبة من منف أطلق عليها اسم « قرية نسحى » ٠ وكلما مر الزمن ومضت القرون ازداد تشبث ورثة نسحى وتمسكهم بقانونية امتلاكهم للقرية ؛ وكانوا يشتركون فى توزيع ريعها لأن القرية كانت من الوجهة القانونية وحدة واحدة لا تتجزأ ٠ واستمر الحال على هذا المنوال حتى انقضت أيام اخناتون الذى وصفه رمسيس الثانى بأنه « العدو الذى فى أخيتاتون » ٠

وكان يعاصر اخناتون من ملاك قرية نسحى سيدة تسمى شيريت رع ٠ وفى أيام حور محب بدأت المتاعب تظهر حول قرية نسحى على أيدى ذرية هذه السيدة ٠ فكانت الغيرة بين الأشقاء والشقيقات هى السبب فى القضية الأولى ، فصدر الحكم « بتقسيم التركة بين ورنورو وأشقائها وشقيقاتها بأمر دار القضاء العالى ، على أن يتم التقسيم فورا ٠٠٠ وتعيين ورنورو وصية على الضيعة لصالح أشقائها وشقيقاتها » ، وهكذا انتصرت الأخت الكبرى فحافظت على وحدة القرية القانونية ، مع تخصيص حصص شركائها فى الارث ٠

ولكن الأخت تاخورو لم يعجبها الحكم وارادت أن تستقل بنصيبها ، فرفعت القضية الثانية ٠ وأقرت المحكمة التقسيم وأوفدت مندوبا قضائيا « حدد وخصص لكل وارث نصيبه » للمرة الثانية ٠

وهذا الحكم ولاشك يحد من نفوذ ورنورو وهيمنتها على الأرض ؛ لذلك أسرعت هى وابنها الكاتب حوى برفع القضية الثالثة لتقرير الوحدة القانونية للقرية واسترداد حقها فى ادارتها ككل لا يتجزأ ٠ ولكن الاجراءات ظلت تتعرقل حتى ماتت الأم فأخذ حوى يستغل نصيبه « ويزرع أرضه

سنة بعد سنة كما يحلو له ... ويجنى محصول حقوله عاما بعد عام » .
وكذلك استمر الحال حتى مات حوى عن أرملته السيدة نب نفرة وولدها الصغير موسى .

ورأى باقى أفراد العائلة فى ذلك فرصة لهم ، فانتهزوها وحرضوا المحتال خاى فطرد الأرملة وابنها . وكعادة هذه الأسرة وشغفها بالتقاضى ما لبثت السيدة « المطرودة » أن رفعت القضية الرابعة التى نظرها الوزير فى هليوبوليس سنة ١٨ (؟) من حكم رمسيس الثانى . وأمام المحكمة طلبت السيدة الاطلاع على المستندات الرسمية : « احضروا لى السجلات الضريبية المحفوظة فى دار الخزانة وفى ادارة صوامع الفرعون . فأنا أعلن وبكل ثقة اننى سليلة نسحى ... والوكيل خاى يجهل حقوقى ... ! » وكانت واثقة أن ملف ضرائب زوجها كفيل باثبات حقها فى وراثته . ومن ثم ارسل أحد الموظفين الى بى رمسيس لاحضار السجلات للعرض على المحكمة ، لكن خاى كان يرافقه . وفى المحكمة بدىء فى فرد اللفافات الضخمة وأخذت عين الوزير الخبيمة وسكرتيره يفحصونها « صفحة صفحة » قبل أن يلتفت الوزير الى نب نفرة : « قال الوزير لنب نفرة : من وريثك بين الورثة المثبتين فى هذين الملفين المعروضين علينا ؟ » وبعد فترة صمت طويلة أقرت نب نفرة : « لا أجد فيهما اسم مورثى » . فقال الوزير : « اذن فأنت مذنبة ! » . وانتعش الأمل فترة وجيزة قام فيها موظف آخر بالتطوع لاعادة المراجعة على الملفات لصالح المدعية . ولكن بصيص الأمل تبدد عندما أعلن الموظف « ان اسمه ليس فيها » . وعلى الأثر رافق خاى متهللا نفس الموظف الذى سبق أن رافقه لجلب الملفات من بى رمسيس ، ليطالب بحصة فى «قرية نسحى» بعد تفتيتها ــ رغم عدم قانونية التجزئة ــ مثل باقى الورثة وكان خاى قد اتفق مسبقا مع رفيقه فى المرة الأولى عند ذهابهما الى بى رمسيس على محو اسم حوى من سجلات الورثة مقابل رشوة ، وبذلك يستفيد كلاهما ؛ وتركا السيدة نب نفرة مشدوهة تتساءل عما حدث لحسابات الضرائب التى ظل زوجها ثم هى من بعده يسددانها سنة وراء سنة .

وشب موسى ووصل الى سن البلوغ فى منتصف حكم رمسيس الثانى ، واصبح كأبيه كاتبا بخزانة معبد بتاح بمنف .. وكانت أمه لا تفتا تغذيه بالسخط على الجور فى الحكم الذى أدى الى خسارتهما ، وتذكره بغدر خاى وشريكه ، وتحثه على ضرورة العمل على استعادة حقوقهما المسلوبة .

ورفع موسى القضية بنفسه هذه المرة للنظر أمام دار القضاء العالى، لتكون القضية الخامسة من سلسلة قضايا هذه القرية التى لم تختف عن نظر القضاء أبدا لمدة قرن · وعند اعادة فتح ملف القضية وفيها موسى هو المدعى وخاى هو المدعى عليه ، استعرض موس بايجاز ظروف القضية ثم تقدم بالطلب المزدوج الآتى : ١ ـ أنه مثل أبويه سليل حقيقى لنسـحى وبناء عليه فله حق فى القرية شأن باقى الورثة ، (٢) أن خاى وشريكه زورا فى السجلات ليخفيا اسمى أبيه وأمه منها ·· فيكون خاى خائنا مذنبا ·

اما خاى فلم يزد على التمسك بمزاعمه مستندا الى السجلات نفسها، وأن القضية سبق نظرها وحكم فيها فتعتبر منتهية · لكن القضاة أثاروا من جديد السؤال الحاسم وهو : ما هى الأدلة ؟ فما كان من موسى الا أن تجاهل السجلات المزيفة ، وطلب من معارفه بالقرية أن يتقدموا بالشهادة لاثبات صحة نسبه · وتقدم الشهود أمام المحكمة واحدا اثر الآخـر لأداء الشهادة بعد أداء القسم على النحو التالى : « البقـاء لآمون ، والبقاء للأمير ؛ أقسم أن أقول الحق . ولا أكذب ! واذا ثبت أنى كذبت فلتبتروا أنفى وأذنى ولترسلونى منفيا الى النوبة » · بعـدها يؤدى الشـهادة · واعترف كل الشهود بالاجماع بأن حوى والد موسى هو ابن ورنورو ، وأنه كان يزرع هذه الحقول (المتنازع عليها) بنفسه بصفة منتظمة ؛ وأن ورنورو هى سليلة نسحى · ولما أجمع الشهود على ذلك ، لم يجد خاى لنفسه مفرا من الاقرار على غضاضة بصحة هذا النسب ·وبعد استيفاء هذه النقطة سمحت المحكمة لموس بتقديم ما لديه من وثائق خطيـة قديمة تعزز دعواه ·

واكتملت أمام المحكمة كافة أركان القضية وتيقنت من صحة نسب موسى ، وجدية ادعاءاته ، كما تيقنت من سـلوك خاى المعـوج · واتفقت المحكمة على نص الحكم ليقرأه الوزير بنفسه حسب التقاليد ، وهو حكم موجز يقول : « موسى على حق ، وخاى على خطأ ! » وما أن تلى الحكم حتى تهلل موسى ورفع يديه فرحا أمام كاتب الجلسـة والقضاة الجالسين· لكنه لم يتماد كثيرا فى اظهـار الفرح وتمالك نفسه ويكفى أنه اسـترد لأسرته حقوقها ·

وقد تمكن موسى بفضل ثروته المتنامية من بناء مقصـــورة لمقبرته زخرفها بزخارف منها مشهد متهرىء يصور لحظـة انتصاره المثير فى القضية · وعلى الجـدار الشمالى الداخلى للبهو الصغير بهذه المقصورة، نقش موس عدة مشاهد تلخص موضوع النزاع · وعلى جدار آخر سجل

بعض الوثائق الخطية الرئيسية التى دعمت دعواه · وكل ذلك توجه بالمشهد المهترىء للحظة الانتصار ·

وهكذا بعد قرن انتهت فصول احدى القضايا التى لم تشهد مصر مثلها فى طول المدة التى استغرقها البت فيها ، هى فعلا قضية القرن ، بدأت فى عهد حور محب ، ولم يغلق ملفها الا فى السنوات الأخيرة من حكم رمسيس الثانى الزاهرة ·

رؤساء الخزانة والاحتيال والاختلاس

جـذور الرخـاء

كانت ثروة مصر فى أيام رمسيس الثانى العظيمة تتركز فى الأرض الزراعية وفى القوة البشرية من الرجال المنتجين · وكانت الحاصلات الزراعية يقايض عليها بسعر التبادل باستخدام وحدات عيارية متذبذبة بأساس الذهب أو الفضة أو النحاس · وفى عرف ذلك الوقت كانت كل أراضى مصر نظريا ملكا للفرعون باعتباره الممثل والشريك للآلهة على الأرض · وفى عهد رمسيس تعقدت أمور الحياة العملية ، فاختلفت النظرية عن التطبيق شيئا ما · فكانت هناك أراضى التاج (أراضى الدولة) وتمثل مساحات شاسعة من أراضى مصر ، يتوجه ريعها من المحاصيل الزراعية والحيوانية الى الوفاء برواتب الادارة الفرعونية وقطاعاتها والنفقات العامة بصورة عينية · وأراضى الدولة الرسمية وقطاعاتها الزراعية كان يعمل بها الفلاحون بالأجر (أى أنهم يتعيشون منها) · وكان جانب من ريعها يوجه الى تمويل مؤسسات أخرى مثل الحريم الملكى فى منف أو مى ور · ولم يكن للملكيات الخاصة الخالصة قيمة اقتصادية تذكر ؛ الا أملاك الملك نفسه وبعض أعضاء العائلة المالكة التى كانت ايراداتها توجه للصرف على احتياجات عائلاتهم وتابعيهم ولا تدخل فى النشاط الاقتصادى الجماهيرى ·

وبجانب أراضى الدولة الرسمية والممتلكات الملكية كان كبار الملاك الآخرين هم «معابد الآلهة» · وكان الاله آمون الطيبى من بينهم هو الأكثر ثراء ، وكانت ممتلكاته الشاسعة منتشرة فى كل أنحاء مصر ، وتدر ريعا ضخما أساسه المحاصيل الزراعية والحيوانية توزع على هيئة العاملين كالكهنة والعمال العموميين من ذوى التخصصات المختلفة ، كما كانت العائدات تفى أيضا بأعباء عبادة آمون على مستوى يليق بها ، باعتبار آمون هو الاله الامبراطورى · وكان جانب من العائدات يدفع للفلاحين العاملين بهذه الأملاك بما يكاد يقيم الأود · وكانت الضرائب

تسدد لخزانة الدولة من جانب الفلاحين أنفسهم والاله آمون نفسه ممثلا في هيئته الادارية · وينطبق ذلك كله على باقى الآلهة على مستوى أكثر تواضعا · وكان حفظ هذه الثروة وتوفير الرخاء بالبلاد مضمونا طالما كانت مصر يحكمها اداريون يتسمون بالنزاهة والعدل والكفاءة على مختلف مستويات السلطة الحكومية والاجتماعية ، وطالما كانت الأرض يعنى بريها وخدمتها وزراعتها بالأسلوب السليم · ولم تكن هناك الا مشكلة واحدة تتكرر كل عام ـ الفيضان · فكان السؤال الذى يثار كل سنة : « هل سيكون فيضانا خصبا ، أم مدمرا ؟ » والجواب كان دائما جاهزا : الفيضان المنخفض هو المجاعة ، والفيضان العالى هو الدمار ، أما الفيضان المعتدل فهو المحصول الوافر والرخاء · وكان عليهم انتظار الرد كل سنة ·

مديرا الخزانة ـ بانحسى وسوتى

كان مدير الخزانة باستمرار هو أقرب المسئولين الى الوزير بحكم العمل كما كان أرفع الموظفين قدرا فى السلطة الوظيفية بمصر القديمة · بحيث يعتبر مدير الخزانة رجل الدولة الثانى بعد الوزير · وجرى العرف على أن يتبادل الوزير الأول ومدير الخزانة التقارير اليومية عن حالة الدولة وقطاعاتها الادارية فى حضرة الفرعون ـ اذا وجد الثلاثة بالعاصمة · ولا شك فى أن مسئوليات مدير الخزانة كانت جسيمة باعتباره المسئول الأول عن الضرائب والايرادات الحقيقية والتقديرية · وقد شغل هذا المنصب عدة رجال خلال فترة حكم رمسيس الثانى الطويلة ، أولهم نب ايوت وآخرهم باى تن حاب ، لكنهما لم يتركا أثرا يذكر · وفى السنوات الوسطى من عهد رمسيس الثانى كان هناك وزيران معروفان للخزانة هما بانحسى وسوتى · وهذان تركا لنا ما يعطينا فكرة عامة عن الشئون المالية للدولة ولمعبد آمون ·

وتوجد نسخة من رسالة يظن أن الوزير بانحسى كتبها فى منف وأرسلها الى الكاهن حورى بمعبد آمون بطيبة ، نستشف منها فداحة الثروة التى كان يملكها الاله آمون الطيبى فى السنوات الوسطى من حكم الملك رمسيس الثانى · وتقول هذه الرسالة :

« الكاتب الملكى ومدير الخزانة ··· فى المنطقة الشمالية بانحسى يحيى [نبى] آمون بالمدينة الجنوبية ، حورى :

تحياتنا : هذه رسالة لابلاغك [بحالة أملاك] آمون الموجودة في منطقتنا الشمالية الواقعة تحت نفوذي ... وتصل الى آخر أطراف الدلتا ، على أفرع النيل الثلاثة ، وهي بالتحديد النهر الكبير ، والنهر الغربي ، ومياه أفاريس ... وأقدم لكم عليه قوائم (تفصيلية) بها : عن كل رجل منهم [مع زوجته] وأولادهما . وقد خصصت الضرائب المستحقة عليهم ، ... سنة ٢٤ ، شهر الصيف الأول ، يوم ٢١ (ابريل ١٢٥٦ ق.م.) تحت حكم صاحب الجلالة ، [رمسيس الثاني] .

والقوائم تحتوى بيانا تفصيليا عن كل واحد منهم تبعا لحرفته (؟) . وملخصها كما يلي ... : الفلاحون ، عددهم ٨٧٦٠ رجلا ، انتاج كل واحد ٢٠٠ جوال من الشعير مقدرة بالبوشل . رعاة البقر ، [...] رجلا ، والبقر موزع على الرعاة ـ كل راع معه ٥٠٠ رأس يرعاها . رعاة الماعز ، ١٣٠٨٠ رجلا ، ... [حاضنو] الطيور ٢٢٥٣٠ رجلا ، كل واحد مسئول عن ٣٤٢٣٠ طائرا . صيادو أسماك ... انتاجهم يعادل ٣ دبنات من الفضة كل سنة ، المكاريون ٣٩٢٠ رجلا ، كل واحد معه ٢٨٧٠ حمارا . البغال (؟) ـ رعاتهم ١٣٢٢٧ رجلا ، كل واحد يرعى ١٥٥١ بغلا ...

هكذا سويت حساباتهم . والآن ، اخترت منهم رجالا ، وجعلتهم يبنون صومعة حبوب ضخمة لمعسكر العمال بمنف ، ومساحتها ١٠ قراريط . وبنيت على جوانبه الأربعة أجرانا لتخزين الغلة ، عددها ١٦٠ جرنا . [وقد جبيت ؟] السلع (الضريبة العينية) المستحقة للخزانة ـ ثروة من الفضة والذهب والنحاس والقماش » .

كان انتاج الحبوب والثروة الحيوانية لدى آمون شيئا مهولا حقا : فقد قدر انتاج الشعير السنوي بحوالي ١¾ مليون جوال ؛ وقدرت الملكية من الثروة الحيوانية بحوالي ستة ملايين رأس أو أكثر من البقر ومثلها من الماعز ، وملايين أخرى من الطيور البرية الجارى استئناسها انتاج مواقع كثيرة بالدلتا العريضة ومستنقعات وادى النيل وبحيراته الضحلة ، وملايين أخرى تقدر بحوالي ١١½ مليون حمار و ٧¼ مليون بغل (؟) . وليست هذه الاحصائية من نسج الخيال فمعظم ما ورد فيها

ليس مبالغا فيه • فاذا اخذنا محصول الحبوب المقدر بمليون وربع المليون من الأجولة – من انتاج الدلتا وشمال مصر الوسطى – نجده لا يزيد كثيرا على ½ الكمية التى كانت تنتج من الأراضى التى اوقفها رمسيس الثالث بعد ذلك بقرن على معبده الخاص الجنازى وأربعة معابد اخرى صغيرة جدا ، بدون شراكة مع غيرها • وشتان بين هذا وبين آمون الطيبى فى سعة الأملاك • كذلك فان انتاجية الفلاح الواحد فى أرض آمون الذى قدر بمائتى جوال متواضع جدا اذا قورن بما ورد فى برديات معاصرة تحتوى بنودا عن الانتاج الزراعى منها الحبوب حيث وصل متوسط ما سلمه الفلاح الواحد ١٦٠٠ جوال • وارقام الثروة الحيوانية معقولة للغاية فرقم ٥٠٠ من البقر او ٥٥١ من البغال يعهد به لراع واحد يتماشى مع متوسط عدد الرؤوس للراعى الواحد ايام رمسيس الثالث والذى ذكر انه كان ٦٢٤ رأسا فى خمسة مراع من مراعى آمون نفسه • من ذلك نخلص الى أن هذه البيانات فى مجملها صحيحة وليست من صنع مخيلة طالب تحت التدريب فى مدرسة الكتاب •

بعد انقضاء عشر سنوات من ذلك ، أى فى الثلاثينيات من حكم رمسيس الثانى ، أصبح سوتى مديرا للخزانة • وقد وصلتنا رسالة كتبها للفرعون نفسه يوضح فيها المصروفات العينية من المواد الغذائية المصروفة لمجموعة عمال المقابر الملكية :

« الكاتب الملكى مدير الخزانة سوتى يرفع التحية الى الفرعون : تحياتنا ! هذه الرسالة (الغرض منها) احاطة علم مولاى الطيب بالأحوال المزدهرة فى « بيت الحقيقة » ؛ وبالتحديد قوة العمل ، ونفقاتهم السنوية ؛ وكشف الحساب نقدمه (فيما يلى) :

ارغفة خبز انضاج القدور (محمص) ٣١٢٧٠ ؛ أرغفة خبز كلستية ٢٢٧٦٣ ؛ فول مقدرا بالبوشل ٢٥٠ جوالا ؛ حبوب اخرى متنوعة بالبوشل ١٣٢ جوالا ؛ أسماك متنوعة ٣٢٧٠٠ ••• خضروات غضة ٤٣١٥٠ حزمة ؛ اسماك تصفية انتاج خزانات التربية (؟؟) ، ٥٠ جوالا ؛ لحم مملح مقدد (بقرى محفوظ) ٦٠ لوط (حصة) مواش متنوعة ، ٣٢ رأسا ؛ قطع لحم من الأجناب ٢١٨ ؛ قطع لحم من البطن ٢٠٠ ؛ أمعاء (أحشاء) ، ١٠ حفنات (بقبضة اليد) ؛ •••

ويحمل لجلالتكم هذه الرسالة ، اكثر الرجـال فضلا ، الأثير لدى القصر ، ... وزير الشمال والجنوب ، الوزير خاى ، (الذى سيسلمكم التقرير بنفسه) .

وربما تبادر الى الذهن أن هذه الكميات اذا وزعت على عمال المقبرة ومن يعولونهم من نساء وأطفـال فانها تعتبر ضئيلة ، لكنها فى الحقيقة معقولة : فنصيب كل عامل عادى ثلاثة ارغفة يوميا (تضاعف لرؤساء العمال وكتبة المقبرة) ؛ وخمسمائة سمكة من مختلف الأنواع كانت تصرف لكل وردية من ورديتى العمل عن فترة أسبوعين (الأسبوع عشرة ايام) تقل فى الفترة الثالثة من الشهر ؛ وحزمتان أو ثلاثة من الخضـرواة الطازجة للعامل كل يوم . أما اللحم فكان من أصناف الغذاء الكماليـة يقتصر توزيعها على المناسبات الخاصة ولا يصرف يوميا - ولكن ٥ انصبة (حصص) من اللحم المقدد ، وقطعتان أو ثلاثة من اللحم البقرى ، و ١٦ الى ١٨ قطعة من لحم الأجنـاب والخاصرة ، كل شهر لكل عامل تغطى ولا شك مطالب عطلات نهاية الأسبوع والاجازات والأعيـاد على مـدار السنة .

ضرائب الدخل والفضـائح المالية

فى كافة الأزمنة وتحت مختلف الظروف كان موضوع الضرائب سببا فى كثير من المشاحنات . فالمسئولون يضعون تقديراتهم على اسس دفترية رقمية ، بينما دافعو الضرائب - خصـوصا المرموقين منهـم - يلحظون البون الشاسع بين الحقيقة والتقدير ؛ لا يختلف فى ذلك القرن العشرين الميلادى عن القرن الثالث عشر قبل الميلاد . فى هذا الزمن البعيد تقدم أحد دافعى الضرائب المتضررين - بعـد عشر سـنوات تقـريبا من نهاية حـكم رمسيس الثـانى - بشـكوى محتجا على مصلحة الضرائب هذا نصـه :

« حضر الى مندوبكم وأخطرنى انكم فرضـتم على كميـة اضافية من الشعير على حقلى بمنطقة « قرية رع » . ما معنى لفت نظرى بهذا الشكل ؟ انا اذن الذى وقع عليكم اختيـاره لتعاقبوه دونا عن سائر دافعى الضرائب . عظيم ! انا احد اتباع الفرعون ، قريب من حضرته لذلك لن اتصل بكم لعرض شكواى عليكم . وسأتصـل بمن هو ... (ارفع شـأنا بكثيـر) » .

ولم يكن هذا الموظف ذو النفوذ من رجال البلاط نسيجا وحده ، فقد استمرت أصوات دافعى الضرائب ترتفع بالشكوى ، فى عصر رمسيس الثانى ، كما في العهود التالية حتى نهاية العصر الامبراطورى .

لكن الطبيعة البشرية دائما ما تحاول فتح منافذ مالية خفية ، يحركها الطمع ويغذيها الجشع ، حتى تحقق أطماعها بالمكر والخداع .

ويحكى أنه فى سنة ٣٠ من حكم رمسيس الثانى احتفل بأول عيد من سلسلة الأعياد اليوبيلية لتجديد شباب الملكة . فأجريت الاستعدادات الضخمة وأقيمت الاحتفالات بكثرة فى الشمال . ولم تشهد البلاد مثيلا لذلك الا فى عهد أمنحتب الثالث الذى مر عليه مائة عام . وفى الوقت الذى تركزت فيه الاهتمامات الرسمية على الاحتفالات العظيمة وتنظيمها ، اتجهت أنظار موظف كبير المقام صغير النفس الى التفكير فى السلب والاختلاس .

كان فى طيبة ، فى ذلك الوقت موظف كبير مسئول عن مستودعات ومخازن معابدها المختلفة ـ فسوغت له نفسه نقل ما فيها الى مخزنه هو الخصوصى ، أو تهريبها الى بيت والده . وفى سنة ٢٩ أو سنة ٣٠ نقل هذا الموظف الى الشمال فى وظيفة جديدة ـ مفتش مواش على مراعى شمال الدلتا الغنية . وترك الرجل زوجته وابنته خلفه فى طيبة . فاستمرت السيدتان فى الاختلاس باسمه ، وبمنتهى البرود قامتا بنقل محتويات مخزنين (أحدهما بمعبد تحتمس الأول) الى مخزن الزوج الخصوصى ! وثبت أن الزوج لم يخطر أحدا بخصوص سفره الى الشمال وترك زوجته وابنته تتابعان تنفيذ مخططه بلا حرج أثناء غيابه . لكن برود هذه السيدة وجرأتها فى السطو على مخازن الآلهة كانت السبب فى جلب الخراب عليها :

« تقدم الكاتب حاتى آي بشكوى نصها : « ما ه ... بدها على مخزن الفرعون بدون علم مراقبى العهدة ؟ » وبناء على ذلك ونظرا لثبوت عملية نقل كبيرة من محتويات المخازن ، سيقت السيدة الى المحكمة العليا ، برئاسة الامير ولى العهد وعضوية كبار الشخصيات . وكان السؤال : « ما هو تفسيرك لما قمت به من فتح غرفتين من أملاك التاج دون علم مراقب العهدة ؟ فقالت : « زوجى هو مراقب العهدة هناك وهاتان الغرفتان من اختصاصه ، فلا غبار على فى ذلك ؛ فقال لها قضاة المحكمة : كان ذلك فيما مضى حتى كان مديرا

لهذا المكان ، لكنه الآن نقل الى وظيفة كبيرة أخرى يؤديها للفرعون – هو الآن مفتش المواشى فى شمالى أراضى جلالته . لقد اخطات بفعلتك هذه ! – وهكذا أدينت [الزوجة] » .

واحدى الفقرات التالية اكثر حيوية واثارة ، موجهة الى الموظف نفسه :

« [أصبح ذلك واضحا الآن ؟] حسب وثائقك الشخصية التى عثر عليها فى صندوق [أوراقك] الخاصة الذى وجد [... فى] بيتك . وهاك قائمة بما وجد : – حبوب ۲۰۰۰ جوال ؛ ... (الخ) ؛ ملح ۱۲۰۰ جوال أيضا ... (الخ) » .

لكن صاحبنا مختلس العهدة لم يرتبك – وأنكر كل التهم ، واقسم على ذلك – ثم قدم اتهاما مضادا وجهه ضد مرؤوسى الفرعون !

« [وأدى القسم] باسم الفرعون أمام القضاة ، ثم قال : اذا وجد شىء [فى حوزة] أبى فى مخزنه [فى هذا الوقت ؟] وقت العيد ، فلسوف أرده مضاعفا ! وإذا وجد العجز فى حوزته ، فليعرض الآن فورا فى قاعات (العدالة) الأربع الكبرى ! والآن ، انا اتهم حراس الضيعة الفرعونية بأنهم هم الذين سلبوها كلها ! وعندما يحضر الفرعون الهى الطيب فى عيد يوبيله ، سأبلغه عنهم ، فقد فعلوها فى السنة الماضية أيضا ! وضبطتهم فى ذلك الوقت » ، وتلقف القضاة هذه الشهادة ، وما لبثوا أن وضعوا الحراس تحت الاستجواب القاسى .

هنا تتوقف فجأة مصادرنا ، وعند نقطة الذروة فى الاثارة والتشويق ... المهم أن الحقيقة ولا شك قد انجلت ، وبرزت الفضائح المنصوص عليها ، وأجبر مرتكبوها على رد ما اختلسوه وتسوية الحسابات الدفترية . ولاشك فى أن رمسيس الثانى قد أولى القضية اهتماما كبيرا ، فهذه هى المرة الوحيدة التى عهد فيها برئاسة المحكمة العليا لولى عهده – الأمير رمسيس بن إيست نفرة – بدلا من الوزير كالمعتاد .

والخلاصة أن القضية هى قضية موظف جرىء غير أمين فى ادارة معقدة حاول عندما وجد الأعين غافلة عنه لانشغالها بأمور اخرى ، أن ينتهز الفرصة للفرار بغنيمة غير مشروعة · ولكن امانة طبقة الموظفين الوسطى ممثلة فى حاتى آى حالت دون ذلك · كما تدل القضية على مدى القوة والعنف التى قوبلت بها من قبل رمسيس الثانى وبلاطه حتى أجلوا ملابساتها وكشفوا ستر الضالعين فيها ؛ وفى غيرها ·

نواب الملك ، والذهب والزلازل

زلزال أبى سمبل

فى أول عهد رمسيس الثانى شغل المدعو ايونى منصب نائب الملك فى النوبة لمدة عشر سنوات متصلة · وهو الذى شرع فى بناء المعبدين الكبيرين التوأم فى أبى سمبل بالنوبة · وأعقبه حقانخت ؛ وعلى يديه اكتمل هذا العمل ، وغالبا ما يكون قد شهد الافتتاح سنة ٢٤ · بعده شغل المنصب (سنوات ٢٥ ــ ٣٤) النائب باسر سمى الوزير العتيد ، لكنه ليس من اقربائه · ثم تولى بعده النائب حوى لمدة خمس سنوات من سنة ٣٤ الى سنة ٣٨ ، وقد اختاره رمسيس الثانى لنجاحه فى رئاسة بعثة عرس الملك وأميرة الحيثيين · وفى النهاية عهد بالمنصب الى ستاو الذى استمر فيه لمدة ربع قرن (سنوات ٣٨ ــ ٦٣) وربما اكثر · وتميز عهدا ايونى وحقانخت بالهدوء والسلام بصفة عامة · لكن عهدى حوى وستاو تقلبت فيهما الأحوال ·

ويرجع الفضل فى صعود نجم باسر واختياره نائبا للملك الى مراكز أسرته · فابن عمه آمون ام اينت هو رفيق طفولة رمسيس الثانى · وكان عمه بن نست تاوى قائد فيالق النوبة وقت اختياره ، ثم خلفه ابنه ــ وابن عم باسر ــ على ذلك المنصب · وسارت الأمور فى أوائل عهده سيرا طبيعيا ، حتى انتهت احتفالات اليوبيل الملكى الأول فى أبى سمبل وغيره من المعابد · ولكن بعد ذلك بقليل (سنة ٣١ ؟) دهمت كارثة أصابت معبد أبى سمبل · فقد حدثت هزة أرضية عنيفة تخلخلت لها الصحارى الصخرية فى النوبة السفلى ، وتزلزلت المبانى الصخرية العظيمة للمعبد من أساسها · وكانت هذه حادثة فادحة تصدعت وانهارت بسببها الأعمدة الضخمة داخل المعبد ، وتحطم فيها العمود الثانى والتمثال الملكى بالجناح الشمالى ، وعضادة بوابة الدخول الرئيسية ، وانفصل الذراع الجنوبى (كذا فى الأصل ؟) للتمثال الضخم شمال ممر

الدخول مباشرة • وكان أسوأ الأضرار سقوط النصف الأعلى من التمثال الضخم الموازي للتمثال السابق ، محدثا دويا هائلا سمع على بعد أميال ، فوقع بما فيه – الرأس والكتفين والجذع – ورقد في الرمال • وللوهلة الأولى بدا صرح رمسيس الثاني بالنوبة حطاما بشعا ، وقطعا متناثرة مبعثرة من الحجارة المنقوشة • وقد جزع باسر لهذه الكارثة لكنه لم يقف حيالها مكتوف اليدين ؛ فشرع على الفور في أعمال الترميم والتجديد مسرعا في ذلك ما وسعه الجهد ، وعندما قاربت جهوده أن تكلل بالنجاح راسل الملك (على بعد ١٠٠٠ ميل شمالي أبي سمبل) • وشملت أعمال الترميم دعم أعمدة القاعة الكبرى بالطوب – وقد وفر ذلك سطحا كافيا نقشت عليه فيما بعد (سنة ٣٣) ابتهالات موجهة للاله بتاح • وأعيد بناء عضادة البوابة لكنها تركت بلا نقوش • وأعيد الذراع الجنوبي الى مكانه بالتمثال الضخم الواقع في الجهة الشمالية من المدخل ثم دعم بكتلة حجرية نقشت عليها ألقاب الملك الخاصة • لم يبق بعد ذلك سوى نصف التمثال الضخم الملقى على الأرض • وكل ما استطاع باسر أن يفعله حياله هو تنظيفه حيث هو في مكان سقوطه – وما كان يستطيع أكثر من ذلك حسب امكانات العصر • وتخليدا لذكرى مجهوداته في التجديد والترميم بني في المعبد المستصلح تمثالين صغيرين إختص نفسه بواحد منهما • أما المعبد التوأم فقد نجا من آثار الهزة المدمرة •

وحوالي سنة ٣٤ بدا لرمسيس الثاني أن يغير باسر • وكان قد جرى في هذه السنة عرس الفرعون بزواجه من أميرة الحيثيين ، وكان على رأس الموكب المرافق للعروس من خيتا الى مصر المسئول الدبلوماسي الرفيع المستوى حوى الذي تدرج من ضابط بسلاح العربات الى قائد قلعة سيل الحدودية ، الى « سفير الملك في جميع الأراضي » • وكان فخورا بدوره في اصطحاب العروس ، فوصف نفسه بأنه « الذي جاء من أرض الحيثيين وأحضر سيدتها الكبرى – وهو ما لم يحدث له مثيل – الكاتب الملكي حوى » وكافأه رمسيس على أداء دوره بكفاءة بأن عينه نائبا للملك في النوبة • ولم يستطع حوي أن يفعل في أبي سمبل أكثر مما تم • وكانت سنه بعد مدة خدمته الطويلة وتدرجه في المناصب قد كبرت فآثر أن يعتزل الخدمة • ولما يقض في الوظيفة سوى سنوات قلائل •

نائب الملك ستاو – الفائز في الذهاب – الفائز بالذهب

كان خليفة حوى على نقيضه تماما ، شابا كله حيوية وعنفوان ، ينطبق عليه وصف « الفتى البارع » • هذا هو نائب الملك في النوبة

ـ ستاو ، الذى عين سنة ٣٨ وسرعان ما نحت لنفسه نصبا تذكاريا فى صخور أبى سمبل ، ثم اتخم اقليمه خلال الخمسة والعشرين عاما التالية بالآثار على غرار مولاه الملك ! وقبل ترشيحه للوظيفة كان سجله الوظيفى يشهد بأنه موظف لامع متحمس مخلص قادر على تحمل أعباء الوظائف الكبرى · وقد سجل على نصبه التذكارى بأبى سمبل سيرة ذاتية جاء فيها :

« أنا واحد ممن كان لسيدى الفضل فى تعليمهم ··· ككل من شب فى القصر · وقد ربيت فى القصر فى شبابى ··· وكانت تقدم لى حصة من الخبز والشراب من كل الموائد الملكية ـ فى كل الوجبات · (والحق ؟) أننى تخرجت فى مدرسة الكتاب ··· وفى شبابى عينت كاتبا أول للوزير · فقمت بتقدير الضرائب لجميع القطر وسجلت ذلك على لفافة بردية ضخمة حجمها يوازى حجم العمل (؟) · ورووجع ما عملت (؟) وكتبت مذكرة بكل أعمالى · وأبلغ منسوب سيد الجميع (الفرعون) مولانا بكل هذه الأعمال العظيمة · ثم راقبنى وأنا أقدم القرابين لجميع الآلهة · وزاد ما فعلته ··· من صالح الأعمال · فملأت مخازنهم بالسلع ··· ولاحظ مولاى ذلك ، واطمأن لكفاءتى ··· فقد نميت الوقف ، والحقول ـ بشكل لا يصدق · وجعلت مخازن الحبوب تكتظ بالغلة ··· ولم أناصر والدا على ولده ، بل جعلت أولادهم يلهجون بالثناء على جلالته · [ورقانى جلالته] وجعلنى كبير أمناء معبد آمون · فخدمت آمون مديرا لخزانته وقائدا لمواكبه الاحتفالية ، حاملا فى يدى مجمرتين ذهبيتين أرفعهما أمامه ··· » ·

لما عين ستاو نائبا للملك فى النوبة وضع نصب عينيه زيادة العمال وزيادة الموارد هناك لنشر السيادة المصرية والتمكن من بناء المعابد :

« وجدنى الملك ـ مرة أخرى ـ أهلا للثقة ··· ومن ثم عينت نائبا للملك بالنوبة ··· وسقت الأقنان بالآلاف وبعشرات الآلاف ، والنوبيين بمئات الآلاف ، بلا حدود · وضاعفت الضرائب بأرض كوش ، وأرغمت الناس على الطاعة ، ولم يفعل ذلك أحد منذ بدء الخليقة · وأرغمت ارم على دفع الجزية ، وكذلك شيخ أكوياتا ـ هو وزوجته وأبناءه وكل أتباعه ···

بعد ذلك [عهد الى ببناء] معبد لرمسيس الثاني فى أملاك آمون ، فبنيته في الجبل الغربى راسخا الى الأبد ، وحشدته بالأسرى من عبيد جلالته ، وجعلت مخازنه مكتظة بالسلع [حتى عنان السماء ...] وأعدت بناء معابد آلهة كوش المتهدمة من الأساس ، فصارت جديدة باسم صاحب الجلالة المعظم ، ونقشت أسماؤه عليها الى الأبد » .

بالاضافة الى هذه المشروعات الجديدة ـ أى بناء معبد رمسيس الثانى بوادى الصبوة وحشده بالعبيد من أسرى الحروب ـ أتم ستاو نصبه التذكارى ببناء نصب مماثل ، للقائد العسكرى رعموس ، نقش عليه بعض ما جرى سنة ٤٤ نوفمبر / ديسمبر ، ١٢٣٦ ق٠م تقريبا) :

« سنة ٤٤ : أمر جلالته أمينه ، نائب الملك فى النوبة ، ستاو ، وكذلك هيئة القوات المسلحة بمعسكر رمسيس الثانى « حفظ آمون ابنه » ، بضرورة أخذ أسرى من بلاد ليبيا ، لبناء معبد رمسيس الثانى فى أملاك آمون ؛ كما أمر جلالته القائد رعموسى بتخصيص ؟ قوة من المعسكر (لذلك ايضا) ـ وامتثل رعموسى » .

ولما كان رمسيس الثانى متشوقا الى انهاء تشييد معابده فى اقصر مدة وبأقل التكاليف ، فقد أمر جيشه بشن الغارة على واحات كركور ودنقل وسليمة بجنوب ليبيا . وألزم الأسرى البائسين بالعمل فى بناء المعابد بالحجر والطوب بصورة تتنافى مع الانسانية ، كما فعل باليهود الذين سخرهم للعمل بقمائن الطوب من قبل (خروج ٥) ، مما يتنافر تماما مع حسن معاملة المصريين من العمال حسب النص المنقوش على النصب التذكارى للسنة الثامنة ، أو معاملته عمال قرية دير المدينة (المخصصين للمقبرة الملكية) المشوبة بالعطف والرعاية .

وكان ستاو هو آخر نواب رمسيس الثانى بالنوبة . ورغم نشاطه الزائد فى مجال البناء تظل مبانيه فى وادى الصبوة وجرف حسين ذات نوعية رديئة . ولا يمكن حصر السبب فى الصخور اللينة التى نحتت فيها هذه المعابد . فهناك سبب جوهرى آخر لذلك . فعندما انتهى العمل بأبى سمبل رحل أفضل الحرفيين من قوة العمل هناك الى الشمال لتعهد الأعمال الكبرى التى لا تنتهى للفرعون نفسه . وبذلك لم يجد مناصا من

الاعتماد المتزايد على المتوفر لديه من الخبرات المحلية وهى خبرات محدودة للغاية · حتى الكتاب الذين اعتمد عليهم كانوا على مستوى منخفض فى الأداء ، فلم يتمكنوا من كشف رداءة أسلوب الكتابة الواضح ، كما لم يتبينوا الأخطاء الاملائية الفادحة حتى على نصب ستاو التذكارى نفسه ·

الخاصة الملكيـة ـ والقوات المسـلحة

رجـــال البـــلاط ووظيفتهم

كان على رأس الادارة العليا فى البـلاد الوزراء ومديرو الخزانة ونواب الملك بالنوبة وأمناء مخازن الدولة وغيرهم · وفى خط موازٍ لهؤلاء كان الفراعنة الامبرياليون يحيطون أنفسهم برجال من الخاصة الملكيـة مسئولياتهم الرسمية محددة ، لكن نفوذهم الفعلى أحيانا كان يتجاوز مسئولياتهم الوظيفية بكثير لقربهم من الفراعنة وثقتهم بهم ·

فحامل كئوس الملك مثلا وظيفة محددة تقابل ساقى الملك المذكورة فى التوراة (خروج ٤٠) : مسئولية شاغلها تنحصر فى الاشراف على الخمور الملكية · لكن ثقة الملك فى بعضهم جعلته يعهد اليهم ببعض شئون الدولة العليا ، مثل اختصار الروتين الحكومى ، أو تخويلهم بعض سلطاته لانهاء أعمال محددة ·· الخ · وقد عرفنا من هؤلاء رمسيس عشاحب سد الذى أشرنا اليه فى فصول سابقة · وقد عهد اليه سيتى الأول أثنـاء ولاية رمسيس الثـانى بالاشراف على العمـــل بسيناء · وفى عهد رمسيس الثانى تولى الاشراف على بدء الأعمـال المعمارية فى أبى سمبل بالاشتراك مع أيونى ، كما عمـل مســاعدا للأمير مرى آتوم · ومن هذه الطبقـة ظهر باسر وخاى اللذان تعاقبا الوزارة فى الجنوب (طيبة) · وبعد أن كبرا كرما فعين أولهما كبيرا لكهنة آمون والثـانى كبيرا لكهنة بتاح حتى آخر أيامهما ·

ومن الوظائف المرموقة فى البلاط وظيفة الوصيف الأول (كبير الأمناء) ، وكانت وظيفة ادارية كبرى ، شاغلها مسئول عن ادارة الثروة الملكية من ضياع وأراض وتمتد مسئوليته الى تنمية الدخل الناتج عينا وتصنيفه حسب المحاصيل · وفى بعض الأحيان كان يضاف الى هذا العبء عبء ادارة ممتلكـات وأوقاف معبـد الرمســيوم · والمرجح أن أحـد الذين عهـد اليهم بهذه المهمة المزدوجة القـائد أورحيا بعد حياة عسكرية حافلة أيام الملك سيتى الأول · وأثناء معركة قادش كان يوبا بن أورحيا موظفا صغيرا فى سن المراهقة يعمل فى اسطبلات خيول الملك ، لكنا نجده

بعد ربع قرن قد ارتقى وأصبح بدوره الوصيف الأول للملك ولمعبد الرمسيوم معا مثل أبيه • كذلك كان له شرف الاعلان عن اليوبيل الملكي التاسع سنة ٥٤ (١٢٢٥ ـ ١٢٢٦ ق٠م٠) • أما ابن يويا واسمه حاتى آى فقد أصبح قائدا لميليشيات المدجاى ـ الوظيفة التى ذكرنا من قبل أن آمون ام اينت قد شغلها يوما ما • وقد أسهم حاتى آى هذا مع كبير كهنة آمون باكن خنسو فى بناء المعبد الشرقي بالكرنك • ومن هذه العائلة أيضا اخوة يويا ، وثانى أبنائه ، وابن أخيه ، الذين التحقوا جميعا بالسلك الكهنوتى وأصبحوا أساتذة من قراء الطقوس فى خدمة كبار الآلهة •

الأساتذة المثقفون

وكان من رجال الملك كتاب مثقفون وأطباء ، « وخبراء » فى الشئون الادارية • ومن كبار الاداريين فى الشمال رجل يدعى ثنوروى من منف عمل فترة من الوقت « مديراً لكل آثار الملك » بالاضافة الى وظيفة أخرى فى المقر الملكى بى رمسيس • هذا الرجل بنى لنفسه هيكلا مقبريا فى منف سجل عليه نصوصا تعبر عن ولائه للأسرة المالكة • لكن المهم انه سجل أيضا نصا يدل على معلوماته التاريخية • ويحتوى النص على قائمة تحتوى على ستين اسما من أسماء ملوك مصر منذ أقدم العصور حتى أيام رمسيس الثانى • وهذه القائمة يمكن أن تقارن بقائمة الملوك الطقسية الملكية المسجلة فى معبدى أبيدوس (ناهيك عن القائمة الطويلة المعروفة لنا باسم قائمة نورين للملوك) • كذلك كان تاخت شقيق ثنوروى كاتبا أيضا لكنه آثر الالتحاق بالسلك الادارى فعمل فى وظيفة « كاتب مائدة الملك ؛ والمشرف على حريم الملكة » •

وفى طيبة كان كبير الرسامين سى موت له ابن حاذق اسمه آمون واح سو تخصص فى « كتابة المواضيع المقدسة » بمعبد آمون ، كما كان حفيده خع ام اوبت « كاتبا للمواضيع الملكية المقدسة ؛ وهو الذى نقش حوليات جميع الآلهة فى « بيت الحياة » • وبيت الحياة كان يطلق على القطاع الجامعى سواء فى المعبد أو فى القصر ، وفيه كان يقوم الكتاب المثقفون بنسخ المواضيع الهامة من برديات قديمة ، وتأليف الكتب الجديدة فى علم العقائد ، وكتابة بعض المواضيع الأخرى ، هذا بالاضافة الى تدريب النابهين من صغار الكتاب على الأعمال الصعبة والتخصصية فى فن الكتابة •

ومن أكثر الأسر نباهة أسرة الكاتب القارىء الادارى ايونى (سمى نائب الملك لكنه لا يمت له بصلة قرابة) • وهذا الكاتب أصله من سيوط

(اسيوط الحالية) مصر الوسطى ، وحذا حـــذو ابيه أمنحتب واصـبح قارئا وكاتبا ملكيـا أيام سيتى الأول · أما سلالته كلها فاشتغلت بالطب : فكان ابنه حوى كبيرا للأطبــاء ، وحفيده خاى رئيس أطباء قصر الملكة ·

ولم تكن الأحوال فى الادارة الملكية تسير سيرا هينا سلسا فى كـل الأحوال · فقد احتك ايونى بضباط من الجيش بسبب الحاحهم على موظفى ادارته بطلباتهم ـ ربما سبب تجنيد الفـلاحين · واحتج ايونى على هذا التدخـل بشـدة · ويبدو انه شـكا الى مدير التجنيد حامل العـلم ماى ـ سوتخ ، فقـام هذا بتوزيع نشرة رسمية على قادة حاميـات الدلتـا يبدى ضيقه :

« سمعت بتدخلكم فى شئون موظفى الاله بجزيرة آمون ، الذين يراسهم الكاتب الملكى ايونى · ما معنى هذا التصرف ؟ اقسم بآمون وبالملك انه اذا بلغنى ما يفيد تدخلكم مرة أخرى فى شئون موظفى الاله باقاليمكم ، فسوف أوقعكم فى متـاعب أنتم سببها ! فان كبـار رجال الفرعون يسببون لى مشـاكل حقيقية !

لذلك ، عليكم باداء مهامكم بأسلوب سليم · ولا تتجاهلوا هذه الرسالة التى بين أيديكم منى · ولا تتغاضوا عن أى بند فى الرســالة ! ··· وعندما تصلكم هـذه الرسالة ، فـلا تتركوا أعمال الاله راكدة ؛ والا ستسجنوا ! وهذا تحذير منى بذلك ! » ·

الجيش : دوره فى الدفاع ودوره فى تدريب الكوادر

كان جيش مصر يتكون من الجيش العامل تسانده قوات الاحتياط · وكانت عدة الجيش العـامل من ثلاث الى أربع فرق كل منها مكون من ٥٠٠٠ فيلق · هذا بالاضافة الى فرقة قوية من العربات الحربيـة · وكان فيلق المشاة ينقسم الى عدة سرايا حجم كل منهـا ٢٠٠ جنـدى يقودها ضابط برتبة « حامل العلم » · وكانت السرية تنقسم الى ٤ فصائل كل منها ٥٠ جنديا يراسهم صف ضابط برتبة « رئيس خمسين » · وكان سلاح العربات هو الســلاح المخصوص الذى لا يدخله الا الصفوة · وكانت قوات الجيش الرئيسـية تتمركز فى الوجهين القبلى والبحرى · وكانت هيئـة القيادة العليا تضم فيمن تضم قواد سلاح العربات الحربية برتبـة لواء

واقرانهم من قواد الخيـل ، الا أن أعلى الرتب كانت رتبـة قائد الفيالق (فريق) يعلوها الفريق الأول ثم القـائد العـام للقوات المسـلحة ٠

ولم يخـلف كبـار قادة الجيش ما يذكرنا بهم فى عهـد رمسيس الثانى - لا آثارا ولا تاريخا ٠ ويبدو أنه بعـد كارثة قادش أقصى من كبار القادة عدد كبير ، كما تزعزعت ثقة الفرعون فى العسكريين الا من تثبت جدارته ٠

وكان من علية القوم من اتخذ من الخدمة العسـكرية ذريعة للوثوب الى الوظائف المدنية العليا ٠ وقد تعرفنا من هؤلاء على سوتى الذي أصبح مديرا للخزانة (وزير ماليـة) ، واورحيا - وكلاهما كان قائدا سابقا برتبة فريق - ومنهم حوى رئيس بعثة الشرف عنـد ابرام الزواج بأميرة خيتا ، ثم أصبح نائبا للملك بالنـوبة ، وآمون ام ايت القـائد بسلاح المركبات ثم ميليشيات الدجاى ؛ بعدها عين مديرا للمصانع (وزير صناعة) ٠ وعلى العموم كان دور الجيش فى الحيـاة المدنية ثانويا ، لكن البعض استغل الجيش فى اكتساب الخبرات الادارية والتدريب من أجل الاسـتعداد لشغل وظائف مدنية ٠

فغالبيـة رجال الجيش كانوا يظلون فيه ليتدرجوا فى مختلف الرتب ، ولكن قلة منهم كانت تعتبره القنطرة المؤدية الى وظائف ادارية عاليـة ٠ وكانت أرقى وظائف الدولة هى وظيفـة السـفير « رسـول الملك الى كل البلاد الأجنبية » ، وكانت الترقية اليها قاصرة على كبـار ضبـاط سـلاح العربات الحربية ٠ وكان شاغلها كثير التنقـل بين البـلاطات الملكيـة والعواصم الأجنبية فى الدول العظمى بالمنطقة ؛ لذلك كان يتنافس عليهـا شـباب ذلك الوقت بشـكل أضجر معلميهم واقلقهم - لاهمالهم العلم ٠

ايام الدراسة والحيـاة الطـلابية

اسـفل الدرج (أدنى السـلم)

لم يرتفع أعضاء أركان النظام فى مصر القديمة من وزراء ورؤساء وأساتذة وقواد ويعلو شأنهم من فراغ ٠ فقد كانوا يوما ما صغارا ، اهتم بهم أهلوهم فدللوهم وقوموهم وحبوهم بالعطف والرعاية صغارا وكبارا ٠

وكانت الكتابة هى البوابة التى تؤدى الى النجاح فى النهاية ، وهى ما كان المعلمون يرددونه بلا ملل ٠ فحرص الآباء على الحاق أبنائهم منذ سن

الخامسة تقريبا بمدرسة أو كتاب · وكانت المدارس فى العواصم الكبرى ملحقة بالمعابد الكبرى ولها ادارات مستقلة بالقصور الملكية · وفى مدن الأقاليم المهمة كانت الكتاتيب ايضا ملحقة بالمعابد والادارات المحلية · اما فى القرى فقد كان كاتب القرية هو الذى يقوم بالمهمة ويراعى عددا محدودا من الأولاد حسب ظروفه ·

كان الطفل يقضى السنوات الأربع الأولى فى الدراسة فى التدريب على كتابة الخط المتشابك المتصل المعروف بالهيراطيقى · اما الخط الهيروغليفى الأصيل الواضح فكان يدرس فى مراحل تالية · لكن المدهش أن النصوص المدرسية لم تعتمد على كتابات معاصرة ، وانما على نصوص قصيرة مقتبسة من الأدب الكلاسيكى ، بلهجة الدولة الوسطى المهجورة ، يرجع تاريخ نصوصها الى ٧٠٠ سنة سابقة · أول هذه المؤلفات كتبت به بعض « الاقتباسات المفيدة » ويحتوى على فقرات وعبارات قيلت فى العصور القديمة (سنة ٢٠٠٠ ق·م·) ـ واسم الكتيب « خم ايت » ، وهو مكتوب فى سطور رأسية مقسمة الى مقاطع من الكلمات (شبه جمل) · بعد ذلك ينتقل الطالب الى كتب اخرى يرجع عهدها الى الأسرة الثانية عشرة ، منها عجالة تسمى « مساخر المهن » هدفها اعلاء شأن مهنة الكتابة ورفعها فوق سائر المهن ؛ ومنها تعاليم امنمحات الأول ؛ وأنشودة النيل ؛ وكلها من مختارات الكاتب خيتى بن دواف · بعد ذلك يتدربون على قصة سنوهى المشهورة و « نبوءة نفرتى » و « تعاليم الفتى المخلص » التى تحض على الولاء للتاج · واحيانا كان يضاف الى ذلك « نصائح جارجى دف » ·

وكان التعليم فى هذه المرحلة قاصرا على تعلم اتقان الخط · لذلك حفلت الواح الطلاب بالأخطاء الاملائية الفادحة وهم ينسخون بلا فهم مثل هذه المواضيع الجادة بلغة عتيقة كانوا لا يستخدمونها فى عصرهم · وكان فهم المواضيع واستيعابها يتم فى مراحل تالية ·

وكان النظام فى المدارس والكتاتيب صارما ، يتمشى مع المثل السائد فى ذلك الوقت « دع العصا ، يفسد الولد » · وقد عبر احد المعلمين عن ذلك خير تعبير حيث يقول :

> « اكتب بيدك ، واقرأ بفيك (أى بصوت مرتفع) وخذ بنصيحة معلمك ··· لا تضيع يوما فى الكسل ، والا ضربت · ان اذن الطفل حقا خلف ظهره (أى لا ينتبه) ، ولن ينتبه الا اذا جلد · تقبل الجلد ، واستمع لما اقول ، فتكون انت الرابح » ·

عندما يتجاوز التلميذ العاشرة يبدأ بتعلم الكتابة واللغة المصرية المعاصرة . بعد ذلك يلحقون بمراكز التدريب بأعداد صغيرة أو يدربون فى قطاعات الدولة الرسمية أو فى المعابد أو فى الديوان الملكى . وببلوغ سن العشرين تقريبا كانوا يعينون كتابا تحت التمرين ، كصبيبان لكتاب مستديمين مخضرمين ليعدوا لشغل الوظائف الأرقى . وكان هؤلاء الفتية يمتحنون امتحانا عمليا فى « الرسالة الساخرة » وهى رسالة للكاتب حوى يهاجم فيها زميله أمنمؤبى ويعنفه دون رحمة متهما اياه بالجهل والتقصير . ويظن أن الرسالة من الموضوعات التى اضيفت حديثا للمقرر فى عهد رمسيس الثانى عندما تقرر زيادة حجم الموضوعات المعاصرة المقررة على الكتبة . ويستخدم حوى فى الرسالة اسلوبا لاذعا نادر المثال يصور فيه ما تخيله من مهازل زميله ويعيره بفشله فى عمله سواء كقائد عربة حربية أو كمبعوث (سفير) بالخارج :

« انت مقاتل متمرس فى أعمال البطولة ! ... (لكن) الدرب ضيق منحدر مملوء بالبدو ، المختفين فى ثناياه . رجال مردة طول أحدهم من أخمص القدم الى مفرق الشعر ٦ ــ ٨ أقدام . متوحشون فى مظهرهم ، ليسوا مهذبين ولا متحضرين ؛ لا تؤثر فيهم التوسلات ... وأنت وحدك ، ليس معك معين ، ولا وراءك جيش فى كمين ... ومع ذلك تصر على التقدم ؛ ولو ضللت طريقك . هانت ترتجف ، (وشعر) رأسك يقف ، وحياتك فوق (كفك) . طريقك تملؤه الحجارة والحصى ؛ ليس فيه ممر سالك ، بل تغطيه الحشائش والعليق ، وكل نبات شائك ، براثن الذئب فيه ظاهرة ، الهاوية عن شمالك ، وشوامخ الجبال عن يمينك ... وتستمر رغم ذلك فى طريقك . فتتعثر عربتك وتميل على الأرض ... وتتخيل العدو على اثرك فيتملكك الفزع ! ثم تصل الى جوبا فتجد المروج مخضرة والموسم فى أوجه . فتندفع فى مرج وتتوغل . فتجد فتاة ترعى الحدائق ، فتغويك الفتاة فترافقها ، ثم تعانقها . لكنهم رصدوك ، فاعترفت بجرمك . وحوكمت كمقاتل (محاكمة عسكرية) ؛ واضطررت لبيع قميصك المهفهف لدفع الغرامة . ثم نمت منهكا . فسرق الصعلوك قوسك ، وجراب خنجرك وجعبة سهامك .

وانقطعت أزمة عربتك ... وبالليل فر جوادك على الأرض
الزلقة ، والطريق ممتد أمامه ، فحطم عربتك ، وعلى الأرض
تناثرت أسلحتك ثم ضاعت فى الرمال » .

وهكذا يعطينا خوى صورة كاريكاتورية ، حية ، ولاذعة ، عن زميله الذى يعتقد فى رعونته . هذا الكاريكاتير الساخر يتوج وينهى فى نفس الوقت سلسلة ن الصور التوبيخية القولية : عجز أمنمؤبى وأمثاله عن رد التهم ؛ وعجزه عن تنظيم انشاء المنحدرات أو نقل المسلات أو التماثيل الكتلية الضخمة . كذلك عجزه عن تموين جيش مصر ، وجهله بجغرافية سوريا ومسالكها ومدنها ، وفلسطين أيضا . ومثل هذا الشكل فى الكتابة له هدف تعليمى تثقيفى . فلهجته الساخرة الهازلة لها صفة ترويحية مشوقة تدفع عن الطلبة السأم ، وتتيح لهم الفرصة كى يلموا ببعض الأساسيات الجغرافية مثل أسماء المقاطعات والمستعمرات السورية ، وتهجى الأسماء الأجنبية ، وتعطيهم صورا ولمحات عن التنظيمات العملية .

ومع ذلك لم تكن هذه الأعمال وأشباهها برغم براعة تأليفها كافية ؛ لا لشغل معظم أوقات الطالب ولا لترغيبه فى الانتظام بالدراسة . لذلك أخذ المشرفون والمدرسون يعهدون الى المبتدئين بأنواع أخرى من الكتابة منها ثلاثة مشهورة . فأولها وأكثرها املالا نوع يعرف بقائمة الكلمات . وهو نوع من الكتابة يتدرب فيه الطالب على تسجيل بعض المصطلحات العلمية ، والأسماء الجغرافية ، والمهن الانسانية ... الخ . والنوع الثانى كان يتضمن نسخ رسائل متنوعة قديمة أو مواضيع أخرى من الوثائق التى يحتفظ بها المعلم فى ملفاته ، حيث يميلها عليهم بنفسه أو يعطيها لهم لينسخوها ، بمعدل ثلاث الى أربع صفحات كل يوم . وهذا ولا شك أكثر تشويقا من القوائم ، فقد كان لها على الأقل ميزة المعاصرة وتعطى الطالب فكرة عن أوضاع البلاد وشئون الحياة بها . أما النوع الثالث والأخير فموضوعه « التعاليم والنصائح » وكلها تهدف للاعلاء من شأن المهنة ، وتحث المتدربين على التمسك بالوظائف المكتبية ليصبحوا من « أصحاب الياقات البيضاء » ؛ كما ترشدهم الى السبل الموصلة الى أعلى الوظائف أو الوظائف ذات النفوذ الكبير فى الدولة . وهم فى ذلك يقتفون أثر « مساخر المهن » ليؤكدوا فضل الكتاب على غيرهم :

« كن كاتبا ! تعف من المشقة ، وتتجنب العمل بكل أنواعه .
وتوفر على نفسك استعمال المعول والمجرف ، ولا تضطر

لحمل القطف . وستعفيك من استخدام المجداف وتدفع عنك النصب ، فلا تخضع لسادة كثيرين ، ولا لرؤساء لا يحصرون ... اما الكاتب ، فهو المدير لكل عمل ، فى انحاء البلاد » .

او : « انتبهوا لأنفسكم : فالمهن امامكم . فالغسال يمضى وقته رائحا غاديا ؛ وتتعب اطرافه وتكل (أى يداه ورجلاه) فى تبييض ثياب جيرانه ، كل يوم ... والخزاف يعفره التراب فيبدو كمن مات لديه عزيز ؛ ويداه ورجلاه مغمورتان فى الوحل . والاسكافى يخلط المحاليل (مواد الدباغة ؟) ، فتفوح رائحته ! » .

وكذلك : « انتبه الآن ، فانا ادربك .. كى تمسك اللوح (للكتابة) بيسر ورشاقة ، واعدك لتصبح من مستشارى الملك ، وامرتك لفتح الخزائن والصوامع ، (وطرق) تقديم القرابين المقدسة ايام الأعياد ، وانت مدثر بثياب كتانية ناعمة ، والخيل بين يديك ، والزورق على الشاطىء فى انتظارك ، والأتباع من حولك ، يلبون رغباتك . ثم تبنى لك فيلا فى المدينة ، وتتوفر لك وظيفة ذات نفوذ لأنك من موظفى الملك ، والعبيد ... تهرول من حولك ؛ والقرويون فى الغرب ، وفى الحقول التى رعيتها ونميتها ، سيشدون يدك ... افتح قلبك لفن الكتابة ، لتحمى نفسك من كل انواع المشقة والعذاب وتصبح وجيها محترما » .

وهكذا كان المعلمون يعرضون على طلابهم الحوافز والفرص التى تتوفر للكاتب .

ولا يكتفون بذلك بل يشيرون الى السلبيات ايضا ، فيحذرون الطلاب من مغبة الجرى وراء ملذاتهم ورغباتهم المجنونة ، ليحصلوا على متعة وقتية تتسم بقصر النظر ؛ او يعارضون ويقاومون مغريات مهنة الجندية التى تشجع على خوض المغامرات بالخارج . ففى رسالة يوجهها مدرس الى تلميذ عاق يلومه فيها لوما شديدا ، يقول المدرس :

« لقد انبئت بهجرك لدروسك ، جريا وراء اللهو ؛ وانك تهيم على وجهك من شارع الى شارع فيفوح المكان الذى تتركه

برائحته الكريهة . الجعة لا تصلح الانسان ، بل تذهب بعقله ؛ فتصبح مثل ساكن السفينة المائل لا يثبت فى أى اتجاه ... وقد رصدوك وأنت تتسلق الجدران بعد أن حطمت سلع المكان ، والرجال مطروحون أمامك بعد أن ادميتهم . اذا فهمت مرة أن الخمر نقمة ، لاجتنبت خمر الرمان ، ولطرحت عشق الجعة من رأسك ... لقد تعلمت كيف تغنى مع المزمار ، وتصدح مع الأرغول ، وتفرد على أنغام القيثار ... (لكنك) تظل بالدار ، وتدعو الفتيات ليلتففن من حولك ... وتجالس الفتاة ، وأنت غارق فى الأدهنة ، وملفوف فى رداء العيد من عنقك الى نحرك . أيها السكير فلتقع على الأرض منبطحا على بطنك ، ولتغطك القذارة » .

فاذا كانت هذه شئونا شخصية فردية ، فان طبقة الموظفين باكملها كان يقض مضجعها تسرب الشباب الواعد من بين أيديهم تحت اغراء الخدمة العسكرية خارج البلاد ، وكانوا لا يكفون عن ابداء ضيقهم بسعى الشباب وراء الوظائف العسكرية :

« ما هذا الذى بلغنى أنك قلته ؟ ، فهل الجندى أفضل حالا من الكاتب » ؟ تعال ، ودعنى أخبرك عن حياة الجندى ، الحافلة بالعذاب ؛ يؤخذ صبيا فيصبح سجين المعسكر . ويظل يضرب ؛ فضربة موجعة فى بطنه ، وأخرى تدمى حاجبيه ، وثالثة فى رأسه فتشجهـا . وقد يمد ويجلد فيصبح كالبردى ... ولأذكر لك طرفا عن رحلته الى سوريا ، وتسلقه للجبال راجلا ! وزاده وماؤه فوق كتفه مثل الحمار يحمل أسفارا ، فتظهر آثار الحمل على عنقه مثل الحمار » .

« ويشرب الماء كل ثلاث مرة واحدة ، ماء مالحا مرا كريها ؛ فتصيبه الدوسنطاريا وتؤلم بطنه . ثم يظهر العدو ، فيمطره بوابل من سهامه - فيصير أمله فى النجاة بعيدا ... فاذا أفلح فى الاياب بدا نحيفا كالعصا ، ومريضا منهكا محمولا على ظهر حمار . وتسرق ثيابه ، ويأبق تابعه ويفر . أيها الكاتب اطرح من ذهنك فكرة أن الجندى أحسن حالا من الكاتب ! » .

وغير هذا كثير ، فحتى قائد العربة الحربية ليس أسعد حالا - فهو يركض جياده « فتلقيه فى العشب والشوك ، وتفلت قدماه من الركاب ، وتعض اللسعات جبينه ... » ومن نافلة القول أن نذكر أن حقيقة الحياة

العسكرية لم تكن بهذا السوء ، فقد كان فيها ولا شك من الاغراء ما حمل الكتبة على مهاجمتها بهذا العنف .

واخيرا ، لئن كان فن الكتابة والتعليم يفتح الباب على مصراعيه لنيل الوظائف المرموقة التى وعد المدرسون بها طلابهم ، ومثلها منصب الوزير او نائب الملك أو كبار موظفى الفرعون ؟ فاذا كانت التقاليد الموروثة تقضى بأن يخلف الولد أباه في وظيفته (فحورس هو الذي يخلف أوزوريس) ؛ الا انه فى العصر الامبراطورى الذى يقع فيه عهد رمسيس الثانى أصبحت الكفاءة لا المركز الاجتماعى هى مفتاح أبواب النجاح ، سواء اكان الفتى غنيا أم فقيرا . وعقب عهد رمسيس الثانى مباشرة ، نجد المرحوم انحور موس آخر رؤساء كهنة تانيس يقول مفتخرا : « كنت صبيا واعدا ، وفتى ماهرا ، ذكيا منذ طفولته ، كفئا رغم فقرى . كنت فقيرا ، لكنى التحقت بالمدرسة ، بلا مشاكل (؟) . وكنت مرموقا ، فوقع اختيارهم على (للترقية) » .

هذا الكاهن كان أبوه من طبقة الموظفين الوسطى . ولكن فى العصر الامبراطورى كانت التقاليد الجديدة قد اخذت فى الانتشار ، وأصبح الترقى يعتمد على الكفاءة الشخصية ــ خصوصا فى وظائف الديوان الملكى مثل الوزير باسر . واتسع نطاق تطبيق هذه القاعدة فزاد عدد الموظفين من « المواطنين » بأقاليم طيبة على حساب المختارين من « اسر طيبة ومنف القوية » ، واصبحوا يصلون الى أعلى المراتب . وبذلك اصبحت فرص الترقى فى عهد الرعامسة أساسها التنافس فى العلم والجهد فى العمل اداريا أو عسكريا ؛ وأصبح مقياس المثابرة والكفاءة ــ وان لم يختف تماما اثر النفوذ والسلطة ــ هو الموصل الى القمة .

الحياة الكريمة والمشاهد الثقافية

بدءا من رمسيس الثانى فى قصوره الشاهقة ، وبروجه العالية ، حتى أصغر فلاح يعيش فى كوخ فى قرية نائية ، كانت المثل العليا فى المجتمع تدور حول الأسرة ، والبيت ، والأهل :

« اذا أردت أن تكون وجيها ، فابتن دارا ، واختر لنفسك زوجة عاقلة ، لتلد لك ابنا » . هذه العبارة قالها الحكيم حرجدف فى أوائل عصر الأهرام ، قبل ثلاثة عشر قرنا من مولد رمسيس الثانى ! ثم كررها الحكيم آنى فى عهد رمسيس فى نصيحته التالية :

> « تزوج وأنت صغير ، كى تلد لك ابنا ! ... وعلمه كيف يصبح رجلا . فالسعيد من كثر نسله ، فسوف يحترمه الناس من أجل أولاده » .

هذه النظرة العائلية هى التى سادت فى كل طبقات المجتمع ـ اغنياء كانوا ام فقراء ، ووزراء كانوا ام قرويين .

كانت حياة عظماء رجال الدولة أمثال الوزير باسر أو نائب الملك ستاو حياة متنعمة فعلا . ففى عواصم مصر الثلاث الكبرى فى ذلك الوقت ـ منف وطيبة وبى رمسيس ـ كان لمثل هؤلاء حى فى كل مدينة منها غير بعيد عن القصر الملكى ودواوين الحكومة ، يمتلك الواحد منهم فيها دارا واحدة على الأقل . وربما تيسر لبعضهم بناء فيلا فى ضاحية راقية بالمدينة ، ذات أسوار وحديقة ، ومرآب لعربته واسطبل لخيوله ، ومرافق غير ذلك كثيرة .

فاذا كانت الفيلا فى حى الحدائق فسوف تكون من طابق واحد متشعب ، محتوية على حديقة مزروعة بالأشجار والأزهار حول بركة زاخرة باللوتس والأسماك . والباب الأمامى لمثل هذه الفيلا يصعد اليه على درج قصير ، ويفتح على رواق يؤدى لغرفة المعيشة . هذه الغرفة فى الحقيقة ما هى الا بهو رقيق الجدر مدعوم بعمودين أو اربعة من الخشب الملون . هذه الغرفة فى الواقع هى غرفة جلوس ينعم فيها رب الدار وزوجته بالجلوس فى راحة على مقعدين خشبيين جميلين او على متكأ مبنى فى الحائط ، وهما متدثران بخير ثيابهما ـ عباءتين من الكتان الناعم ـ وفوق رأس كل منهما شعر مستعار (باروكة) جميل ، وفى جيد كل منهما طوق لطيف من الأزهار . وهكذا اذا جاء زائر يقفان لتحيته ويرحبان به . فاذا استخدما المتكأ فقد كانا يرصان عليه الوسائد الجميلة . وكان أطفالهما الكبار يلبسون الثياب الخفيفة ، أما الصغار فربما تركوا عراة . يلى البهو الرئيسى غرف النوم . وهذه تحتوى على أسرة ذات أطر خشبية مثبت فيها قاعدة من الحبال المعقودة (ملة) موضوع عليها قماش من الكتان فى طيات كثيرة (بديل المرتبة) ، والسرير مزود بمسند للرأس بدلا من الوسائد . ومن المعالم المهمة هناك الخزن او صناديق حفظ المستندات والادوات ، ففيها يحفظ السيد وثائقه فيصبح صندوقا للملفات ، او ربة الدار اقمشتها واغراضها فتغنى عن الدواليب . ويكتمل اثاث الفيلا بالمقاعد المتنقلة الخالية الجوانب (الاستدلات) وبمائدة صغيرة ومساند للقناديل . ويوجد الحمام فى مؤخرة الدار ، وأرضه من البلاط وبه مجار لتسريب الماء ، وفيه رشاش وابريق ، ثم المرحاض . وكان من المعتاد الاحتفاظ بأدوات مائدة خزفية فى غرفة المعيشة . وكان الأغنياء يفخرون باقتنائهم لأرقى الأدوات المصنوعة من المرمر القشدى ، ومن الخزفيات المزججة باللون الأزرق الزاهى ، وبالأوانى الزجاجية المتعددة الألوان . وقد يقتنى البعض احدى الأوانى الذهبية

أو الفضية التى كانت فى العادة حكرا على القصر الملكى ٠ أما زينة البيت فكانت لها منضدة للزينة ترص عليها أدواتها الخاصة بالتجميل ـ قوارير بها مراهم ومكاحل وخلافها ـ فان لم تتيسر المنضدة فقد كان يكفيها صندوق صغير تحفظ فيه أدوات التجميل ٠ ولم تكن أدوات زينة السيدة تخلو من المرايا الجميلة ذات الاطار المصنوع من الفضة أو البرونز ٠

والبيت فى المدينة مثل الفيلا تقريبا لكنه بلا حديقة حيث يحول الازدحام دون ذلك ٠ والفرق الجوهرى بينهما أن بيت المدينة يمتد رأسيا فيحوى أكثر من طابق ، بينما تتشعب الفيلا أفقيا ٠ وفى بيت المدينة تبنى غرفة المعيشة وملحقاتها على مستوى سطح الأرض أو أعلى بدرجة واحدة أو اثنتين على الأكثر ، ومنها يخرج درج يؤدى الى الدورين الأول والثانى حيث غرف النوم والغرف الداخلية ، ثم السطح المنبسط الذى يحتوى على صناديق كبيرة لتخزين الحبوب وفيه فتحات مزودة بأنابيب لتسريب الدخان الى الجو ٠ وكانت الاضاءة الطبيعية تتم عن طريق مناور مفتوحة فى أعلى الحوائط تحت السقف مباشرة ، ويسمح هذا النظام بتلطيف حرارة الضوء النافذ وينشر فى الدار ضوءا متجانسا فاترا لطيفا يريح البصر ويناسب احتياجات سكان الدار ٠ وكانت المراجل النحاسية الصغيرة يحرق فيها الفحم النباتى شتاء للتدفئة ٠

وكانت هناك وسائل كثيرة للترفيه ٠ فمن وسائل الترفيه الخارجى التى شاعت فى ذلك الوقت صيد السمك بالشص سواء بالصنارة أو بالخيط ٠ أما صيد السمك بالحراب أو صيد الطيور البرية فى البرك والمستنقعات الطبيعية فكان أقل انتشارا ولا يقدر عليه سوى ذوى اليسار ٠ وكانت للمصريين القدماء أعياد كثيرة يحتفلون بها ٠ وكان كبار رجال الدولة والوزراء يظهرون فى الأعياد الكبرى ويشاركون فيها ٠ وكانت باقات الزهور تهدى اليهم فى الوقت الذى كان فيه جمهور الشعب يهتف ويهلل بحماس شديد ابتهاجا بالمواكب النهرية الكبرى وهى تسير احتفالا بالآلهة ٠

وكانت الولائم من أهم وسائل الترفيه داخل الدور ٠ وكانت موائد الكبراء والأغنياء عامرة بكل ما تشتهيه الأنفس من بط مشوى ولحم البقر والضأن والخبز والكعك والفواكه من عنب وتين ورمان وتمر ثم عسل ٠ أما الأنبذة والجعة فكانت توزع بغير حساب ٠ وكان الضيوف يجلسون على الكراسى العادية ذات الظهر أو بدونه وفوقها الوسائد المريحة ، أو يجلسون فوق حصر من البوص ٠ وكانت السيدات يضعن فوق رءوسهن أقماعا من المراهم والدهون المعطرة تذوب فى حر الغرفة

وتسيل على شعورهن المستعارة وارديتهن ، ناشرة شذاها فى ارجاء الغرفة . وكانت الثرثرة وتبادل الحديث تتم وسط انغام تعزفها جوقة موسيقية أهم آلاتها القيثار والعود والمزمار بمصاحبة الصفاقات (الصاجات) لضبط الايقاع . وكان يعهد بالصفاقات الى صغار الفتيات ، بينما يرقص بعضهن لامتاع الضيوف . واحيانا يقوم شاد او شادية بغناء انشودة تناسب المقام . فاذا ادخلت فى الجلسة آلات واغان أجنبية تكون المتعة قد بلغت ذروتها . وكانت النساء يتحلين بالأطواق الزهرية حول أعناقهن ، وبالأساور فى معاصمهن ، فتكتمل زينتهن المعقدة بما فيها من شعور مستعارة كثيفة سوداء . تضفى عليهن فى ثيابهن البيضاء مظهرا حسنا لطيفا . وفى هذه الأثناء كان الخدم يوزعون على الحاضرين باقات الزهور والروائح والأشربة . لكن الأيام لم تكن كلها اعيادا . ففى الحياة اليومية العادية كانت الموائد ابسط من هذا بكثير . فالوجبة العادية كان يكتفى فيها بتقديم الخبز والخضار والكعك والحليب ، مع الماء والجعة . أما وقت الفراغ فكانوا يقضونه عادة فى اللعب بالسيجا التى تشبه الضاما او فى لعبة شبيهة بالشطرنج . فالحياة في عهد رمسيس الثانى كان من الممكن ان تكون حياة رغدة هنيئة لمن لديه الوسائل لتوفير الكماليات مثل شرائح المجتمع العليا . والحقيقة ان الطبقة المرفهة فى ذلك العهد زادت كثيرا بانضمام الطبقة المتوسطة من الحرفيين والضباط وبعض مستويات الكهنة اليها لرخص وتوفر وسائل الحياة الكريمة . وفى سنوات الفيضان المناسبة كان يتسنى لطبقة المزارعين حتى صغار الفلاحين تدبير حياتهم وحفظ اسرهم بعد تسديد الضرائب العينية للدولة وتسليم الايجارات لملاك الأراضى . وكان يمكن للفلاح العادى ان يحصل على الضرورى من الخبز والخضر والجعة والماء من انتاجه الخاص . فاذا احتاج لشىء آخر فقد كان يلجأ لمبادلة محاصيله للحصول على سلع اخرى .

القصص والسياحة

كان المثقفون المصريون فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد يعرفون الكثير من ماضى بلادهم وتاريخها الطويل . وكان هناك قصاصون يروون الحكايات الممتعة التى يستمتع بها الناس صغارا وكبارا ، اثرياء وفقراء . فكانوا يحكون لهم القصص عن عجائب السحرة ببلاط ملوك بناة الأهرام من عهد زوسر الى عهد خوفو . او يروون لهم قصة القائد سى سنت وهى قصة بوليسية من عهد ببيى الثانى آخر ملوك عصر الأهرام الحقيقى . وقد يروون لهم حكايات عن المنافسات الرياضية الميدانية ؛ وربما قصوا عليهم اخبار طرد الهكسوس ، او البطولات العسكرية فى عهد تحتمس

الثالث . ومن ضمن ما كان الرواة يروونه قصة فتح جوبا وهى قريبة الشبه من قصة على بابا . وغطت حكاياتهم ايضا الخيال شخصيات مشهورة مثل حرمى رئيس حريم منف فى عهد سيتى الأول .

اما المثقفون من الكتبة فكانوا فخورين بمعلوماتهم المتخصصة عن زملائهم الأقدمين ، ولا يكفون عن التباهى بذلك فيقولون مثلا : « هل بيننا الآن مثل حرجدف ، أو مثل ايمحتب ؟ ... ليس بيننا شبيه ببتاح ام جد توتى ولا خع خبر رع سنب ... هل يوجد الآن من يضارع بتاح حتب أو حتى كا اروس ؟ » . ويمزح طالب ساخر مع زميله فيقول : « لقد رويت لى كلاما مقتبسا من حرجدف ، مع أنك لا تعلم صحته من خطئه ، ولا تعرف أى فصل سبقه أو لحقه » . أما الأساتذة أمثال ثونوروى فقد الفوا قوائم جمعوا فيها ما لديهم من اسماء الملوك القدماء ونقشوها على هياكلهم المقبرية أو أعدوا فى مقابرهم أروقة سجلوا فيها أسماء الرجال المشاهير من زمن ايمحتب الى عهد رمسيس الثانى .

ودرج الكتبة المصريون من قبل زيارات الأمير خع ام واست الشهيرة لمنطقتى أهرام سقارة والجيزة ، ثم بعدها على زيارة هذه المناطق منفردين أو مع طلابهم لزيارة معابد ومقابر الملوك الأقدمين ، فى مبادرات سياحية هى الأولى من نوعها فى العالم . وكانت دوافعهم على ذلك مركبة : « مشاهدة روعة » الآثار القديمة ؛ وتقديم الاحترام الواجب للملوك الأقدمين الذين وضعوا فى مصاف الحشد الكبير من آلهة مصر ؛ ثم التماس بركتهم بصفتهم وسطاء الآلهة الكبرى على الأرض . فنجد على هرم الملك خنجر من ملوك عصر الدولة الوسطى المتأخرة (١٧٤٠ ق.م) ، نصا كتب فى زمن رمسيس الثانى فى يوليه سنة ١٢٤٦ ق.م. يقول :

« الكاتب ناس حويو حضر الى منطقة هرم تيتى - محبوب - موت وهرم زوسر رائد البناء بالحجر ... وهو يقول : « كن كريما ، أيها الملك ... » ، مع كل آلهة غرب منف ، وكذلك : « اسمح لى بقربك ، فأنا خادمك ! » . السنة ٣٤ ، الشهر الرابع صيفا ، يوم ٢٤ ؛ يوم عيد بتاح ... اله منف عندما يظهر خارج المعبد (؟) فى المساء . (كتبه) الكاتب ناس حويو » .

وفى عهد رمسيس الثانى كانت مكانة الملك زوسر (٢٧٠٠ ق.م. تقريبا) مازالت رفيعة باعتباره أول من استخدم الحجر فى البناء . ومازلنا ننظر لزوسر على هذا النحو فى عصرنا هذا . ويوجد نقش داخل نطاق مجموعة زوسر العظيمة هذا نصه :

« سنة ٤٧ ، شهر ٢ شتاء ، يوم ٢٥ (يناير ١٢٣٢ ق٠م٠) ، حضر كاتب الخزانة حد ناخت ، ابن « ثنرو » و « توسرت » للتجول والتنزه فى غرب منف بصحبة اخيه باتمت ـ كاتب الوزير ٠ فقال : « يا جميع آلهة غرب منف ، ٠٠ ويايها الموتى الأمجاد ٠٠٠ أمنحونا حياة طويلة فى (خدمتكم) وتحقيق ما يسعدكم ، وهبوا لنا قبرا حسنا نستقر فيه بعد عمر مديد سعيد ، مثلكم ! »

كتبه كاتب الخزانة الملكية حد ناخت ، والكاتب باتمت » ٠

وفى طيبة ، زار الوزير باسر الهيكل المقبرى لخيتى وهو احد كبار أسرة منتوحتب الثانى من الأسرة الحادية عشرة (٢٠٤٠ ق٠م٠ تقريبا) ـ اى قبل باسر بسبعمائة سنة ـ لمشاهدة اثر سلفه العظيم ٠ وتمت هذه الزيارة فى سنة ١٧ من عهد رمسيس الثانى ٠ وفى مناسبة اخرى ابدى اعجابه الشديد بمشهد الفتيات العازفات الجميل فى مقبرة قن آمون التى بنيت قبل ذلك بمائة وخمسين سنة فقط وسجل عليها بخطه عبارة مقتضبة: « جميـــــل جـدا » !

وهكذا كان المصريون فى عهد رمسيس الثانى ـ كعهدنا اليوم ـ يعجبون بآثار اسلافهم ويكنون لهم كل توقير واحترام ، لدرجة انهماك بعض المثقفين مثل خع ام واست فى البحوث الأثرية ٠ هؤلاء هم الرواد الأوائل لعلم المصريات ٠

الميـــراث الثقـــافى

اذا كانت الفنون الحسية كالمجوهرات الفاخرة ، والرياش الفخمة ، والتماثيل الجميلة والصور البديعة ، ميزة قاصرة على الأغنياء ، فان الأشكال الأخرى من الثروة الثقافية ـ كما راينا ـ كانت ميسرة بشكل او باخر لكل طبقات المجتمع عن طريق الرواة والقصص الشعبى ، كما انها كانت جزءا لا ينفصل من ميراث الكتبة وعالم التأليف والكتابة ٠

فبجانب الأدب التاريخى قديمه وحديثه ، كانت هناك مقطوعات لا حصر لها فى الأدب الخيالى العاطفى ٠ فهناك مثلا « قصة الأخوين » ، و « أسطورة اله البحر » ، و « الصدق والكذب » ، وهى من القصص الرمزى ، و « قصـــة الشبح » ٠ وتعتبــــر قصة « الأمير ومصائره » من قصص المغامرات الخيالية الساحرة المشوقة ، وهى مليئة بالمفاجآت واحكام

القضاء والقدر ، والأسماء المستعارة ، وفتيات الجن وحالهن مع أمير صغير باسل ؛ جرت حوادثها فى بلد أجنبى بعيد :

« كان فى سالف الزمان ملك لا يولد له ولد ٠٠ فتضرع الى الآلهة أن تهبه ولدا ٠٠٠ ورسمت الآلهة بأن يكون له ولد ٠٠٠ ولما آن الأوان ولدت الملكة الولد ٠ فهبطت الحتحورات السبع ، الهات الأمومة الجنيـات ، لتقرير تسميته ونصيبه ٠ فما لبثن أن قلن : « مكتوب عليه أن يموت مقتـولا من تمساح أو ثعبان وان لم يكن فكلب ! » ٠

وارتاع الملك ورأى أن يحفظ ابنه فى عزلة ، لعله يحتال على الأقدار ٠ وفى أخذ الأيام ، أطل من شرفته الغلام ٠ فرأى رجلا كلبه معه ٠ فقال لخادمه : « ما هذا ؟ » ، فقال له : « هذا كلب ٠ » فقال الغلام ، « أريد مثله فاجلبه لى ! » ٠ فما كان من الخادم الا أن قص على الملك ما كان من الأمير ، فقال جلالته : « أعطوه جروا لطيفا ولا تحزنوه » ٠ ولما شب الغلام ، وصار فتى ثبت الجنان ، سئم حياة الأسر ، ومل عيشـة الخمول والكسل ، وخاطب اباه طالبا منه أن يدعه لقدره ، ويتركه يرحل ويجرب حظه ، على أن يرافقه كلبه ٠ فتـركه الملك وشأنه بعد أن أعطاه عربة وتابعا يخدمه ٠ وظل الفتى هائما حتى وصل الى بلاد النهرين بأرض ميتانى ، بشمال سوريا ٠

« وكان ملك النهرين له ابنة وحيدة ، فى حسنها فريدة ، وقد حان وقت زواجها ، فكثر خطابها ، وحار أبوها فى أمرها ٠ فبنى لابنته برجا شرفته سبعون ذراعا فى علوها ٠ وجمع أبناء ملوك سوريا اليه وقال : « من يصل منكم لشرفة الفتاة ، يفز بها فتتزوجه ! » ولكن لم يتمكن أحد منهـم من الوصول اليها ٠ فى هذه الظروف ، وصل بطلنا للبلد ٠ ورأى ما يفعلون فعجب ؛ ولمحته الفتاة فى علوها ، فوقع حبه فى قلبها ٠ فجرب الفتى حظه « فوثب فكان فى الشرفة مع الأميرة ذات النسب ــ بنت ملك النهرين ٠ فعانقته الأميرة ، وأوسعته تقبيلا ٠ » وأخبروا اباها أن من افلح فى الوصول اليها ، لاجىء مصرى بسـيط ، ولم يتبينوه ، ولو لم يكن مستخفيا لعرفوه ٠ فغضب الملك غضبا شديدا ، ورفضه رفضا عنيدا ٠

لكن الفتاة تشبثت به واقسمت بالاله وقالت : « اقسم بالله الشمس ، لئن اخذتموه منى ، فلن اكل ولن اشرب حتى اموت الساعة ! » وبعد اخذ رود ، قبل ابوها بالفتى ، وصار الفتيان زوجين • وحكى الأمير لزوجته حكاية مصائره الثلاثة ، فقررت الزوجة أن تنتبه وتتيقظ عساها تنقذه من المقدور •

وذهب الفتى للفراش ، فغلبه النعاس فنام • فملأت زوجته جرة بالنبيذ ، وجرة اخرى بالجعة • وبرز ثعبان من مكمنه وتوجه نحو الفتى ليلسعه ؛ لكن زوجته كانت يقظة بجواره • فوضعت فى طريق الثعبان النبيذ والجعة • فنهل منهما الثعبان وشرب ، حتى سكر وثمل • فتمدد على ظهره مبسوطا • فوثبت عليه الزوجة بالفاس ، وقطعته اربا اربا • ثم ايقظت زوجها النعسان ، وحدثته بامر الثعبان ••• ثم قالت : « انظر لقد وضع الهك واحدا من مصائرك بين يديك ، وما أرى الا أنه سيرعاك [بعد الآن] » • فصار الفتى كل يوم يقدم العطايا للاله ، ويتعبد له ، مشيدا بقوته وجبروته •

ثم ذهب الفتى للتجول ، فحدث ما دفعه للهرب من كلبه • ووقع المحظور فالتهمه التمساح بين فكيه • ولكن بدا للتمساح أن يطلقه بعد أن أملى عليه شروطه ••• » •

ولا شك فى أن رمسيس الثانى وأهل زمانه كانوا يعرفون القصة ونهايتها • لكنها فى النسخة التى لدينا مبتورة عند هذا الحد • لذلك لا نعرف نهايتها • فهل استسلم الفتى لأقداره ، أم ساعده الحظ فعاش سعيدا قرير العين ؟ ومن يدرى فقد نوفق يوما فى العثور على الجزء الناقص فتكتمل لدينا القصة •

لكن الأدب لم يقتصر فى عهد رمسيس الثانى على ما ذكرنا، فلم يكن كله تاريخا وقصصا • فالقلب فى كل زمان له حاجات واشجان • وقد عبر عنها اهل ذلك الزمان بشعر غنائى جميل ، بأسلوب رشيق لطيف لا يقل فى روعته عن صور الراقصين والحفلات التى خلدوها لنا فى نقوشهم • ولعلهم لحنوها وصدحوا بها على انغام الأرغول او المزمار او العود • وكان منتهى الحب ان تناجى الفتاة فتاها فتقول «اخى» ، ويناجيها فيقول « اختى » •

فنجد فتاة تناجى حبيبها الغائب :

(١)

« اتوق لحبك ليلا ونهارا

وأبيت يقظى حتى الشروق !
مراك يبهج قلبى ،
واتحرق شوقا اليك !
وصوتك هو الذى يقوى جســدى » ·

★ ★ ★

وعندما تنفرد بنفسها تتأمل فتقول :

(٢)

« [أعرف كيف أطرد] عنه [التعب] ؛
لكنى أقول ، أين [ذهب] ؟
[وليس هناك من تناسبه ، الا أنا ! » ·

★★★

ثم تلخص رغباتها :

(٣)

« حبك ، أتوق اليه
··· مثـل الزبد والعســل
[أنت لى] ،
مثل أغلى المراهم ، على أيدى العظماء
ومثل أنعم كتان تتدثر به الآلهة
ومثل البخــو فى أنف [سيد الجميع] » ·

وتعود للتأمل :

« هو كالعشب الغض فى يد الرجل
هو مثل العجوة عندما تغمس فى الجعة
هو مثل [جرة نبيذ] موضوع بجوار خبز » ·

★★★

ثم يظهر الفتى ويجيب :

(٤)

« سأظل رفيقك على مدى الأيام ··· (كلها) ،
وأرضى بذلك حتى آخر العمر ·
سأبقى بجوارك كل يوم
وأبثك حبى على الدوام » ·

★ ★ ★

ويدفعه حبه للتظاهر بالشجاعة :

(٥)

« أختى حبها على الشط البعيد
ودوامات النهر تلف قـدمى ،
فالسيل جارف وقت الفيضان ،
والتمساح مترصد فوق البر ،
متلهف لنزولى الى الماء ،
لكنى اقتحم السـيل ،
فليس فى فكرى سوى الشط البعيد ،
فرأيت التمساح فولا صغيراً (الفول : فأر الغيط) ،
وصار الماء تحت قدمى أرضا ٠٠ جافة !
حبها هو الذى قوانى ،
لأنها ستصنع لى تميمة تقينى من الماء ،
هانا أرى حبيبة فؤادى
بانتظارى على الشط المقابل ٠٠ لتلقانى » ٠

★ ★ ★

وتدعو الفتاة فتاها فتقول :

(٦)

« أريد النزول الى الماء ،
واغتسل وأنت ترانى ،
واسمح لك بمشاهدة جمـالى ،
فى أرق ثياب ، كتانية ملكية ، مغموسة فى زيت رائحته شذية،
فى بركة يحيط البوص بها ،
لأنزل الى الماء معك ،
وآتيك وشبوطة تتلألأ بين أصابعى » (الشبوط : نوع من السمك الصغير)
[وادعو] أخى ، هيا ، تعال ، وشاهدنى ! » ٠

★ ★ ★

لكن الفتى يحن لمعشوقته الصعبة المنـــال :

(٧)

« ليتنى كنت جاريتها ٠٠ الزنجيـــة ،
رهن اشارتها ٠٠ اذا دعتنى ،
فستفرحنى بنواياها ،
وترضى فتكشف لى عن أطرافها ومحتواها ،

* * *

ليتنى غســـال لثياب أختى ،
ولو لمدة شهر واحد !
فاحرص على أخذ كل ثيابها ،
التى مست [illegible] أطرافها ،
فأكون منظفها [illegible] زيوتها ،
الموجودة فى أثوابها ،
وأدلك جســـدى بفضلاتها (؟)
فتعترينى النشـــوة ويغمرنى السرور
وتعود أطرافى لشبابها

* * *

أتمنى أن أشهد حضورها ،
فتنعم عيناى بجمـــالها ،
أحيى الاله الذى يحول دون ذهابها ،
وأدعوه كى يهبنى اليوم مولاتى ، فلا تغيب عنى أبدا ! » ٠

* * *

هذا الذى اقتبسناه ، قليل من كثير يسير فى ايقاعات لطيفة ، صريحة وخفية ، جريئـــة وحية ، يطارح فيها الفتيان الغزل معشوقاتهم « اللائى يطحن بروؤس الرجال » ، ويغردون لهن تغريد البلابل فى الحدائق المشمسة أو فى الخلوات الليلية فى مصر الزاهرة أيام رمسيس الثانى ٠ فحاجات القلب واحدة فى كل زمان وأوان ، ومطارحة الهوى قديما مثلهـــا حديثا ، فالأمانى واحدة والبشر سواء فى كل عصر ومكان ٠



الفصـــل الثامن

معــابد وأعيــاد الآلهــة

احترم هذا الاله ، كما تحب اله مدينتك ..
فهو اله يحب الصدق ، وهو اله يحب البشر ،
وابغض الأشياء اليه الأكاذيب ! في البلاد القاصية .

في عصر رمسيس الثاني كان بناء الأهرامات الضخمة قد انتهى منذ دهر طويل . ولم تعد قصور الفراعنة العظيمة ، ولا بيوت النبلاء ، ولا المدن ولا القرى ، ولا حتى المقابر المنحوتة في الصخور ، أو المبنية تحت الأرض تعلوها المقاصير ؛ لم تعد هذه كلها هي أروع المباني . وانما كانت معابد الآلهة هي اكثر المباني روعة وجلالا . وكانت أروع المعابد هي معابد آلهة الامبراطورية العظام ، تليها معابد الآلهة المحلية في المدن الكبرى . وحتى يومنا هذا ، رغم ما اصابها على مر الزمن ، ما تزال بقاياها وأطلالها الجميلة هي أعظم ما يراه المشاهد من آثار ابطول وادى النيل . وهي في ضخامتها وشموخها وتصميمها تعبر تعبيرا واضحا عن مدى تدين ملوك مصر الجبابرة ــ ولم يكن رمسيس الثاني في هــذا أقل شأنا من غيره . وما زالت هذه المعــابد تؤثر في النفوس وتدعو الى الاعجــاب حتى اليوم . وعموما فقد اشرنا اليها في مواطن كثيرة متفرقة ، فمنها ما هو في الكرنك ، ومنها ما هو في أبيدوس أو في الرمسيوم أو أبي سمبل ..

مواطن الآلهــــة :

ينظر الناس اليوم الى معــابد الآلهة المصرية القديمة على أنها أماكن يحيطها الغموض . وقد كان الأمر كذلك حتى في عنفوان الامبراطورية ، وان اختلفت الأسباب . ففي ذلك الزمن البعيد ــ الزمن الامبراطوري ــ لم يشاهد الشخص العادى سوى الأسوار الطوبية المحيطة بالفنــاء الواسع للمعبد المقدس ، والبوابات الحجرية المتباعدة . فاذا حدثت مناسبة تدعو لفتح البوابات ــ كما في مواكب الأعياد ــ فقد يمكنه أن يرى الصروح الضخمة وأسطح الأروقة الحجرية الواسعة ، ورؤوس المسلات المصقولة ، ورؤوس تماثيل الفراعنة العملاقة ؛ وأحيانا كانت التماثيل الضــخمة

للفرعون ترص أمام الصروح · وكان جمهور الناس يتعبد فى هياكل خارجية صغيرة ملحقة بالمعبد ، أما أتباع عبادة الفرعون فكانوا يؤدون شعائرهم أمام تماثيل الفرعون الخارجية · أما داخل المعبد فلم يدخله الجمهور أبدا لأداء الشعائر والطقوس · وكانت الشعائر التى تجرى فى الحرم الداخلى لأى معبد يقوم بها كهنة من أجل مصر ، نيابة عن المصريين جميعا ، وتجرى باسم الملك ؛ ولا حق لأى مصرى عادى أن يؤديها بنفسه · لذلك كان المصريون العاديون لهم فى العبادة توجهات أخرى · فكأن الملوك كانوا فى واد وشعبهم فى واد آخر ، كما سوف نرى ·

فكأنما كانت معابد الآلهة الكبرى ليست أماكن للعبادة وإنما بيوت ومساكن للآلهة ، أو مقر خصوصى لها · ولا يحق لأحد أن يتجول فى مثل هذه المعابد سوى هيئته الكهنوتية التى تخدم الاله وتوفر له حاجاته · وفى الحالات النادرة التى يمكن أن يتسلل فيها المرء ضمن موكب ما الى داخل معبد من « معابد الدولة » فسوف يشاهد عن قرب احتفالا بأحد آلهة الامبراطورية ، ويشهد الطقوس ويتعرف على فلسفة العبادة هناك · مثل هذا المعبد له بوابة خارجية تؤدى الى طريق مرصوص على جانبيه تماثيل « أبى الهول » · هذا الطريق ينتهي ببرجين توأم والى صرح يؤدى الى داخل المعبد نفسه · هذه الواجهة الأمامة منظرها يخطف البصر فى جو مصر المشمس الحار ، مثلها كمثل الجدران الطويلة التى لا ملامح لها للأحواش الخارجية ، والأبهاء والأجنحة الداخلية · هذه السطوح المطلية بالجص الأبيض ، عليها مشاهد متزاحمة للآلهة والملوك ملونة بألوان زاهية · أما الصرح العظيم فعليه تشتهد بصور الفرعون لحظة انتصاره على العدو ـ بينما يمنحه الاله سيف النصر · والجدران الخارجية للأفنية وما يليها من أروقة وأبهاء مزخرفة بمشاهد المعارك الكبرى التى خاضها الفرعون فى سبيل الامبراطورية ـ مثل حملة رمسيس الثانى على سوريا · والجدران الداخلية حافلة بصور الفرعون يقدم القرابين والعطايا للآلهة · هذه الصور تبدو لأول وهلة كما لو كانت متشابهة ، لكنها فى الواقع اقتباسات عن موضوعات أو أحداث تتعلق بطقوس المعبد المعقدة · فقد كان الفرعون فى الحرب هو المدافع عن مصر نيابة عن أهلها وآلهتها · وفى العبادة ، كان الفرعون هو الذى ينوب عن مصر فى الاحتفاء بالآلهة وتقديم العطايا الفاخرة لها · وبالمقابل كانت الآلهة تمنحه البركة وتنعم بالسلام والرخاء على أهل مصر · والآلهة حسب مفهوم ذلك العصر كانت تكرم الفرعون أيضا بصفته وكيلها ونائبها البشرى على الأرض · وأحيانا كانت تقام أمام الصرح

مسلات عالية رءوسها مكسوة بالذهب تعكس أشعة الشمس عند الشروق وعند الغروب فتخطف الأبصار . وقد تقام أمامها أيضاً التماثيل الضخمة العملاقة للفرعون .

يؤدى الصرح الى فناء واسع مفتوح تحفه صفوف أساطين تعطى شيئا من الظل . فى هذه الظلال يشاهد المرء على أسطح الجدران الداخلية ، للمرة الثانية ، مشاهد متنوعة للانتصارات الحربية أو عبادة الفرعون أو الأعياد ؛ فاذا تجاوزنا الفناء أو الأفنية ، نجد بوابة ضخمة ثانية تقودنا الى بهو معمد واسع جدا (هيبوستايل) يبدو كالغابة من كثرة الأعمدة ؛ يتوسطه ممر ضيق على جانبيه أعمدة تولمية علوها أكبر من علو الأعمدة التى يرتكز عليها سقف باقى البهو ، مكونة حواجز تسمح بانتشار ضوء فاتر الحرارة ، على أجسام الأعمدة المركزية وصفوف الأعمدة القريبة فتضفى على صور الآلهة والملوك الملونة المرسومة عليها اضاءة متلألئة مثل الجواهر . وتخف الاضاءة تدريجيا كلما زادت كثافة صفوف الأعمدة حتى يسود الظلام .

وكل متنزهات المعبد ، وأفنيته الخارجية ، وأبهاء الأعمدة به ، كانت معدة لاستقبال ضيوف بيت الاله (المعبد) . وفى الأعياد والمناسبات كان الاله – أى تمثاله الرمزى – يتجلى على الفرعون ورجاله ، وخدامه من الكهنة . وهنا منتهى ما يصل اليه أى كبير أو وزير ينيبه الملك لرئاسة الحفل « وقيادة الموكب » .

بعد تجاوز الأبهاء المعمدة نصل الى جناح الاله الخصوصى الداخلى ، الذى تلفه الظلمة بالتدريج . ويصل الضوء للجناح من خلال مناور صغيرة فى السقف تسمح بمرور ضوء خافت قد يقع على صورة هنا أو هناك من الصور الجدارية ، أو على احد الأعمدة أو على قطعة أثاث ذهبية متلألئة . ثم نصل الى غرفة طويلة ضيقة تتوسطها قاعدة يوضع عليها الزورق الالهى المتنقل ، وهو نموذج صغير لمركب نيلية مطلية بالذهب . وفى وسط الزورق توجد قمرة يلمع فيها تمثال الاله المتنقل . وبهذا الشكل كان الاله يتنقل على أكتاف كهنة يلبسون عباءات بيضاء فى المواكب والاحتفالات ؛ داخل حرم المعبد ، أو أمام الجمهور فى الخارج . بعد هذه الغرفة يقع قدس الأقداس ، حيث مقصورة الاله وتمثاله الرسمى حسب الديانة . وربما يوجد بهذا القدس مقصورتان اخرتان أصغر من مقصورة الاله احداهما لرفيقته الالهية والأخرى لابنهما الالهى ، وذلك اذا كانت العبادة ثلاثية . ويحيط بقدس الأقداس من كل جانب ردهات مظلمة وغرف للخدمات تحفظ بها مستلزمات طقوس العبادة ،

مثل المنابر والقوائم والشارات والأوانى والمباخر وأنواع البخور وخلافها : وفيها أيضا تحفظ ممتلكات الاله ومقتنياته من الأشياء الثمينة الموروثة ٠ ولا يدخل هذا القدس أحد قط سوى الكاهن أو نائبه فى معظم الأحوال ، بالاضافة الى الكهنة المخصصين لخدمة الاله ، لاقامة الشعائر اليومية والطقوس الدينية فى الأعياد فى مواعيدها المقررة ٠

وعندما يمتد الزائر عبر الأبهاء والأفنية الى الخارج حيث نور النهار ، فسوف يلاحظ أن المعبد لا يقف وحيدا داخل الحرم ٠ فكثيرا ما تبنى فى الحرم معابد أصغر لآلهة وآلهات أخرى ترتبط بالاله الكبير ، لكنها أصغر كثيرا من معبده ٠ كذلك توجد بحيرة مقدسة للماء المقدس المطلوب لطقس الاغتسال والشراب والطقوس التمثيلية فى الأعياد حيث تسير فى البحيرة مراكب مقدسة صغيرة الحجم ٠ وخارج الحرم وحوله توجد مساكن الكهنة ، وسلسلة طويلة من المخازن والورش مبنية بالطوب ٠ هذه المخازن مهيأة لاستقبال عوائد ضياع الاله العينية من حبوب وغيرها ٠ أما الورش فيعمل فيها الصناع والحرفيون للوفاء بحاجات العبادة المادية ــ مثل منصات القرابين الذهبية والمباخر والأطواق الذهبية والتماثيل الصغيرة والنعال والأردية الكتانية ، وباقى المستلزمات ٠ ويكمل محتويات النطاق الداخلى للمعبد مراع للطيور وسلخانات لذبح المواشى والطيور ثم بعض الحدائق ٠

خدمة الآلهة :

هذه الازدواجية فى الجمع بين التألق والبهاء فى الخارج وبين الظلام الدامس فى الداخل ، هو رمز للجمع بين الوضوح الخارجى والغموض الداخلى يطوى المبدأ القائل بأن معبد أى اله هو مسكنه الخاص وداره فى الحياة الدنيا ٠ لكن السؤال الذى يطرح نفسه هو : ما هى أشكال العبادة فى المعابد ، ومن الذى يؤديها ؟ والجواب على ذلك من الصور الجدارية بالمعابد الكبرى ، هو أن الفرعون هو الذى يقوم بها بنفسه ٠ ففى كل المناظر والصور نراه بنفسه يرفع القرابين والعطايا للآلهة ، وهم يباركونه ٠ لكن الحقيقة أن عبادات الآلهة الكبرى الظاهرة ما هى الا ديانات مظهرية لارضاء الاله فى سبيل الحصول على عونه وبركاته ٠ وكافة الطقوس والشعائر فيها مستمدة من أنماط الحياة اليومية الحسية ٠

لذلك فالاله له عاداته مثل البشر ٠ فهو يصحو فى الصباح ــ كأى مصرى ــ ويأكل ويعمل ثم يتناول غذاءه ثم عشاءه ثم ينام ليستريح ٠

ومع خيوط الشمس الأولى تعج الورش والمخازن بمن يجهزون قربان الصباح : خبزا طازجا وكعكا وجعة وأباريقا من النبيذ وخضرا وفاكهة ولحوما (لحم طير ولحم عجل ـ وثورا كاملا فى المناسبات والأعياد) وباقات زهرية . وأول ما يفعله كهنة الخدمة يوميا هو الاغتسال (طقس التطهر) . ثم يمشى موكب كهنة الخدمة ومعهم العبيد يحملون مواد القرابين ، يتقدمهم كاهنان أحدهما يحمل مبخرة تنشر روائحها الشذية ، والآخر يحمل التمثال الرمزى للملك وهو يقدم القربان للاله . وهذا التمثال الملكى الصغير هو فى الواقع نائب الملك فى هذه الطقوس لأن المفروض أن يقود الملك بنفسه مثل هذه الطقوس .

بعد ذلك توضع مواد قربان الصباح على المناضد والمذابح ثم تبدأ شعائر طقس الصباح . وأول هذه الشعائر نشيد ايقاظ الاله ، بعده يرفع كاهن اقفال أبواب المقصورة ، ثم يفتح بابها فينكشف الوجه المقدس . ثم يتقدم الكاهن من الاله (أى تمثاله) ويضعه فى أبهى زينته ثم يبخره ويقدم له الشراب ، ثم يقوم بابدال « اربطته التيلية » ويدهنه بالمراهم الشذية ، ويجدد زينته . بذلك يكون الاله مهيأ لتناول فطوره ، فترفع اليه عينات من كل أصناف القربان ـ الموجودة على المناضد . وكل ذلك له اجراءات طقسية طويلة بطيئة معقدة بمصاحبة شعائر قولية (أناشيد) . وكان المعتقد أن الاله كائن روحانى يحل فى تمثاله . ولذلك فهو يستمتع بما تنطوى عليه العطايا من ايحاءات ذات مغزى . بذلك ينتهى الجزء الأول من الخدمة الصباحية .

بعد ذلك يبدأ الجزء الثانى من خدمة الصباح . فيعاد الاله الى مكانه بالمقصورة ويعاد اغلاقها وينصرف الكهنة . وبعد ذلك يجرى طقس يسمى « عكس القرابين الأول » . وفى هذا الطقس تؤخذ من قرابين الاله هبات رمزية وتجرى شعائر معينة تقدم فيها هذه الهبات للفراعنة السابقين والفرعون الحالى ، تأكيدا لارتباطهم بالآلهة ؛ بل هم فى مصاف الآلهة ثم ترفع الأطعمة الفاخرة من كافة الموائد . بعد ذلك يجرى طقس « عكس الهبات الالهية الثانى » وفيه توزع القرابين كطعام عادى على كهنة الخدمة ، وهم كما قيل فى وقت ومكان آخرين « الذين يخدمون المذبح ، هم الذين يشاطرون المذبح » .

كانت خدمة الصباح هى الخدمة الأساسية فى الأيام العادية . أما الغداء والعشاء الذى يقدم للاله كل يوم فكانت طقوسه مقتضبة وقصيرة . وعلى مدى الأربع والعشرين ساعة كانت تجرى طقوس أخرى قصيرة

وبسيطة · وعندما يهل القمر الجديد كل شهر ، ثم عند ظهور أوجه القمر المختلفة ، كانت هناك شعائر أخرى تضاف للطقوس المعتادة · وبالمثل كانت هناك شعائر وطقوس خاصة بالأعياد الدينية للاله تجرى داخل حرم المعبد ولا يشارك فيها الجمهور · وفى مقابل كل هذه الخدمة والعناية ، كانوا يتوقعون من الآله أن يشمل مصر كلها برعايته وبركته ·

هذا التمثيل الطقسى للحياة اليومية من يا ترى كان المسئول عنه ؟ كان على رأس الهيئة كبير الكهنة أو « الرائى (النبى) الأول » — وهو الذى يمثل الفرعون · · ولقب الرائى أو النبى ما هو الا من المترادفات ففى معبد آمون يسمونه نبيا وفى هليوبوليس يسمونه رائيا · وكان كبير الكهنة يرأس بنفسه القداس فى المناسبات الكبرى ، لكن مشاغله الادارية والمالية كانت كثيرة بصفته المشرف على الأعمال الجارية ، وعلى ادارة المعبد وأملاكه ، وعلى الانشاءات الجديدة والاصلاحات · وفى كثير من الأحيان كان يشغل هذا المنصب واحد من خارج السلك الكهنوتى ليست لديه خبرة بالخدمة الكهنوتية ، كما لو كان مجرد موظف من موظفى الفرعون ، أو أحد من أمضوا فى الخدمة المدنية وقتا طويلا أدى فيها من الخدمات ما جعل الفرعون يعطيه الوظيفة بمناسبة اعتزاله على سبيل التكريم · وفى بعض الأحيان كان يشغلها أحد أمراء البيت المالك مثل خع ام واست الذى كان يوما ما كبيرا لكهنة منف ·

يلى كبير الكهنة (النبى الأول) فى المرتبة ثلاثة نواب هم النبى الثانى والنبى الثالث والنبى الرابع فى معبد آمون ، يقابلهم ثلاثة يطلق عليهم « نائب الكاهن » فى منف · والصف الثالث من الكهنة هم جماعة « آباء الآلهة » · وجماعة آباء الآلهة كهنة متفرغون وظيفتهم اداء كل الطقوس اليومية والدورية وادارة الأعياد الصغرى · وكان « كبير قراء الكهنة » هو الأستاذ العالم المتخصص فى كل الشئون الطقسية ، والباحث فى علم العقائد ، الذى لديه العلم الصحيح عن كيفية اداء الطقوس جميعها — كما هو مدون فى البرديات · كما انه هو المرجع والمشرف على النشاط العلمى وأعمال الكتاب الأساتذة الذين يدرسون وينسخون المخطوطات الدينية وما يتعلق بها فى « بيت الحياة » وهو « القطاع الجامعى » بالمعبد ·

أما التنظيم الأساسى الذى يضم « كهنة الخدمة » فكان افراده يسمون « الكهنة المطهرون » (وعب) ، وكانوا يقسمون الى مجموعات كل مجموعة تخدم المعبد ثلاث فترات فى السنة — كل فترة مدتها شهر · أما فى غير أوقات النوبات فكانوا يعملون بالورش داخل الحرم الآلهى حسب مهنهم ·

أو بالزراعة فى مزارع الاله ؛ واحيانا كانوا يكلفون بمهام خارج المعبد • وكان هؤلاء عندما يستأنفون الدورية فى خدمة المعبد يؤدون طقوسا خاصة قبل أداء الخدمة اسمها « الطقوس التطهيرية » يداومون عليها أساسها الطهارة والاغتسال ثلاث مرات أو اكثر كل يوم •

ولم يكن النساء بعيدات عن خدمة المعابد ، بل كان لهن دور فى الأنشطة المعبدية • ففى كل معابد مصر القديمة كانت بعض زوجات الموظفين يعملن « كمنشدات » للآلهة • ودورهن فى هذا مصاحبة الخدمات بالموسيقى والغناء ، فى الخدمة اليومية صباحا ومساء ، ويصدحن بالأناشيد بمصاحبة الصلاصل والطنابير وغيرها • وكن مسئولات عن اعداد باقات الزهور الطقسية ، ويشاركن أحيانا فى طقس تقديم القربان • كذلك كانت زوجة كبير الكهنة تقوم عمليا بدور كبيرة الكاهنات ، ولقبها فى الغالب هو « كبيرة المنشدات » •

كل هذه الخدمات والاحتفالات ، وكل هذه القرابين التى كان يتناولها حشد الكهنة والخدم الذين يؤدون الشعائر اليومية (١٠٠ كاهن وخادم) وغيرهم من عمال المعبد ـ كان لابد لها من مصدر يمولها • والحقيقة أن الفراعنة خصصوا للآلهة ومعابدهم أوقافا ضخمة من الأراضى الزراعية والمراعى ومصايد الأسماك والطيور ، ومعها مخصصات اخرى لهيئة المعبد من الموظفين والكهنة والخدم وزوارهم • وكانت هذه الأوقاف من نوعين : مستديمة تعتبر من أملاك الاله ، وموقتة تغطى فترة فرعون معين ثم ترد لأملاك التاج • أما الأراضى التى يثبت أنها لم تستغل فكان الفرعون ينظر فى أمرها ، ثم يعيد توزيعها • لكن الظاهر أن أملاك المعابد ومخصصاتها كانت خاضعة للضرائب العامة التى تسدد لخزانة الدولة الفرعونية • وكانت اجراءات حيازة أراضى المعابد أو تأجيرها معقدة وليست لها قاعدة ثابتة فى كل المعابد • وكل سنة ، فى وقت الحصاد ، كانت المراكب التى يملكها المعبد تنقل المحاصيل المختلفة الى المعبد من مختلف الأنحاء ، فقد كانت ممتلكات المعابد مبعثرة فى أماكن متفرقة • وفى المعبد كانت المحاصيل الواردة تصنف وتحفظ فى الصوامع حسب نوعها • وهذه الخدمة كان يقوم بها متخصصون مدنيون ملحقون بهيئة موظفى المعبد منهم أمين عام المخازن والمدير المالى وموظفون آخرون يقومون تحت اشراف كبير الكهنة بادارة هذه الأوقاف • وهم فى عملهم يتصلون بصفة مستمرة بوزير الخزانة المركزية بالدولة •

وفى مصر حيث كان اسلوب الحياة يسير على نمط ريفى ، وكان الاقتصادى الزراعى فيه هو الأساس ـ كانت المعابد هى الهيئات الممثلة

للآلهة ، وكانت بمثابة أصحاب العمل الرئيسيين فى البلاد ويعمل لديهم المزارعون من فلاحين ورعاة كما يعمل لديهم الصناع من حرفيين وفنانين ؛ وكانت المعابد من الناحية العقائدية ليست مقرا للآلهة فقط ، ولكنها كانت عالم مصر المصغر ، ومصدر القوة الروحية حيث تضفى الآلهة على الفرعون والشعب رضاها وبركاتها ، فى مقابل ما يرفعونه اليها من قرابين ·

الآلهـــة ومواطنهـــا

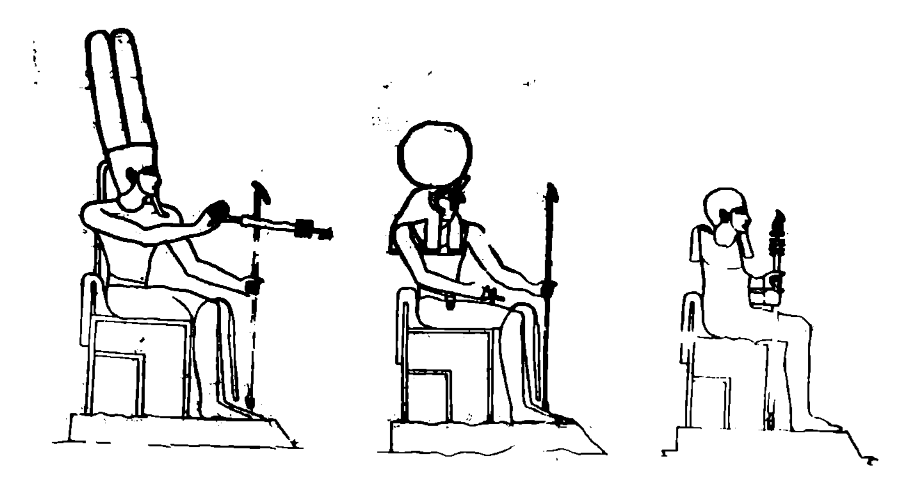
من هم هؤلاء الآلهة العظام الذين كان الفرعون وشعبه يلتمسون بركاتهم ؟ لقـــد ألمحت معاهدة الصلح الكبرى التى أبرمت بين رمسيس الثانى والحيثيين الى « الألف اله » مصرى كما لو كانوا آلهتهم أيضا · ومن المستحيل تصور تغطية هذا الكم الهائل من الآلهة الكبرى ، والآلهة العادية ، والآلهة الصغرى ، ناهيك عن أنصاف الآلهة والأرواح · وحتى فى عصر رمسيس الثانى نفسه كان عدد الآلهة الرواد فى نظر الفرعون ورعيته محدودا ·

كان على قمة النظام يقف آلهة الدولة الكبار ويترأسون مجمع الآلهة ، ويعتبرون حماة الفرعون · وكان كبير الآلهـــة فى عصر رمسيس الثانى هو الاله آمون الطيبى ومقره طيبة ؛ وهو اله قوى التناسل الخفية (الفحولة والخصوبة) · ولما كان هو الاله الامبراطورى فقد كان واهب النصر للفرعون وجنوده · وبعد أزمة العمارنة المعروفة كان رد فعـــل سيتى الأول ورمسيس الثانى من بعـــده على التعالى أخناتون بالآلهة التقليـــدية عنيفا · فأعادا لآمون وضعه فى تصدر الآلهة ·

ومع ذلك لم يعد أبدا كما كان ، لأن الملكين حرصا حرصا شديدا على الحد من طغيانه باعلاء شأن الالهين رع وبتاح أيضا · ويصور الاله آمون فى الآثار على هيئة رجل كامل الخلقة ، على رأسه خوذة مفرطحة مزينة بريشتين طويلتين · وقد حظى آمون بكافة معـــابد طيبة الكبرى · وكان له رفيقة هى الربة موت التى جمعت بين صفات ربات الأمومة (مثل حتحور وباستت) والربات الأسدية التى تحمل رأس أسد مثل سخمت · وكان لطيبة اله محلى هو خنسو ، وكان ينظر اليه باعتباره ابنا لآمون وموت فى ثالوث طيبة ·

وكان الاله رع ـ اله الشمس ـ هو ثانى الآلهة الكبرى · وهو اله عريق مقدس منذ القدم فى جميع أنحاء مصر ، وموطنه هليوبوليس على

البر الشرقى للنيل شمال منف بقليل • وكان يصور كرجل برأس صقر ومتوج بقرص الشمس • وقد اشتهر كهنة هذا الإله بالتبحر فى علم العقائد • وقد دخل كثير من الآلهة مجال الشهرة العالمية بمجرد اضافة اسم رع الى اسمها الأصلى ، حتى الاله آمون نفسه اله الامبراطورية الأكبر كثيرا ما أشير اليه باسم آمون ـ رع • وفى مصر كما فى بلاد كثيرة أخرى كان ينظر للشمس فى السماء الصحوة باعتبارها حامية العدل على الأرض • من أجل ذلك اعتبروا الربة ماعت ابنة للاله رع ، وصارت تجسد المثل العليا فى الحياة ـ العدل والحق والاستقامة ـ وهى مثل يجب أن يخضع لها الكل ، من آلهة وفراعنة وعامة الناس ، وعلى أساسها يمكن الحكم على تصرفاتهم • حتى الاله ست اله شرق الدلتا (موطن رمسيس) جعلوه نظيرا للاله رع فيطرد الثعبان الخبيث عن سفينة رع كلما عبرت أفق السماء كل يوم • كذلك تظهر الربة حتحور كثيرا فى رفقة رع • وعند ظهور رع فى الصباح فهو خبرى (الذى ينشأ) وعند الغروب فهو أتوم (الشكل العتيق للخالق واله الشمس) • ويرمز لعبادة رع بالمسلات الطويلة الرشيقة المكسوة بالذهب فى قممها فتعكس الشمس عند الشروق وعند الغروب •



شكل (١٧) من اليسار (أ) الاله آمون (ب) الاله رع (ج) الاله بتاح •

وثالث الآلهة الكبرى هو الاله بتاح اله منف نفسها • وهو اله قديم يعتبره أهل منف اله الصناعة • ويصور هذا الاله كثيرا على شكل رجل مومياوى حليق اللحية يلبس خوذة على شكل جمجمة بشرية • وأحيانا أخرى يصور على هيئة رجل يتوجه قرنان وقرص وريشتان وهى صورته

فى مظهره المعروف باسم بتاح تاتنن · وبتاح تاتنن هو الاله الخالق ، واله الأرض ، وراعى اليوبيلات الملكية · ورفيقته الالهية هى الربة سخمت صاحبة المزاج النارى ، وثالثهما ابنهما نفرتم ـ اى اللوتس · ويزامل بتاح فى منف اله كبير آخر هو الاله سوكر اله الجبانة ورأسه على هيئة رأس صقر · وسوكر ينسبون اليه قدرات كثيرة وكثيرا ما ينضم هو وبتاح الى الاله اوزيريس فى الثلاثى الالهى المعروف (بتاح ـ سوكر ـ أوزيريس) وهو أحد مظاهر أوزيريس اله العالم السفلى ·

وقد اكتسبت الدورة الأوزيرية شعبية طاغية أيام رمسيس الثانى · فأوزيريس هو النسخة الأصلية للملك الطيب ، واول من ادخل المدنية الى مصر فى الزمن الأول · وتحكى الأساطير ان اخاه الحسود ست قد قتله وشتت اشلاءه · ثم قامت ايزيس زوجة أوزيريس الوفية بجمع هذه الأشلاء لكى يقوم بتحنيطه الاله انوبيس (له رأس ابن آوى) رب التحنيط · وباستخدام السحر تمكنت ايزيس من احياء أوزيريس ليصير ملك العالم السفلى والحياة الآخرة ·

وأفلح حورس بن أوزيريس البار فى كسب معركة الصراع على السلطة مع عمه ست ، فخلف أباه فى حكم الأرض · واصبحت أبيدوس التى تقع على بعد ١٠٠ ميل شمال طيبة هى مدينة أوزيريس المقدسة لعدة قرون · وقد بنى فيها رمسيس الثانى وأبوه من قبله اجمل معابدهما هناك · ويصور أوزيريس فى صورة مثيرة مومياوية ممسكا بصولجانين متعاقدين وعلى رأسه تاج على جانبيه ريشتان طويلتان ·

أما زوجته ايزيس فصورتها الشائعة هى صورة امرأة متوجة بتاج يعلوه قرص الشمس وقرنان · وقد أصبحت أسطورة أوزيريس هى النظرية التى تبنى عليها المؤسسة الملكية فى مصر · وحيث ان الأسطورة تقول بأن حورس الوريث الشرعى لأبيه أوزيريس هو الذى اهتم بدفنه ، لذلك صار لزاما على كل ملك جديد ـ بصفته حورس الجديد ـ أن يعتنى بدفن سلفه ـ الأوزيريس الراحل ـ حتى تثبت اركان ملكه · لكن أوزيريس على المستوى الشعبى كان تأثيره أكبر من ذلك بكثير · فمنذ زمن طويل جدا وضعت الجماهير فيه آمالها فى التمتع بحياة أبدية هنيئة · وكانوا يؤمنون ايمانا راسخا انهم فى العالم السفلى رعايا للاله أوزيريس · فأى ميت لابد أن ينتقل للعالم الآخر تحت اسم « أوزيريس ··· فلان » ·

أما الآلهة المحلية فقد كان لها المقام الأول فى مواطنها ، ولها كثير جدا من الأتباع المحليين · وكان ينظر للاله المحلى فى موطنه باعتباره كبير الآلهة هناك · ومن أشهر هؤلاء : الربة نيت ربة الجنود القديمة وموطنها سايس بغرب الدلتا · ثم الربة باستت بتل بسطة بشرق الدلتا وكانت رأسها على هيئة رأس قطة · ومنهم أيضا الاله حرى شف ورأسه رأس كبش وموطنه ننسو القريبة من الفيوم · وكذلك الاله سوبك وله رأس تمساح فى نفس اقليم الفيوم المزدهر ·

وبالصعود فى وادى النيل جنوبا تتتابع الآلهة المحلية بكثرة · فنجد أول مدينة هرموبوليس موطن الاله تحوت اله الحكمة والكتابة واله القمر ويحمل رأس عجل (أبيس) · وسيوط هى موطن الاله وبووات الحارس للطرق الصحراوية ورأسه رأس ذئب · وفى أخميم شمال أبيدوس وكذلك فى قفط جنوب شرق أبيدوس أيضا كانت السيادة لاله الخصوبة مين ذى الريشتين الطويلتين · وفى النواحى المجاورة لآمون كان الاله مين معروفا أيضا باعتباره حارس الصحارى ومرتاديها · وبجوار أبيدوس كانت ثنى (طينة) عاصمة الاقليم هى موطن الاله أنحور (أنوريس) أو أنوريس شو « ابن رع » وهو شخصية أسطورية بطولية وصنو لحورس · وتتوسط دندرة مدينتى أبيدوس وقفط وهى مقر الربة حتحور التى تحمل رأس بقرة ، وهى ربة الأمومة والحب والسرور وتقترن بالربة باستت فى الشمال · وكانت حتحور هى الرفيقة الالهية للاله حورس الى ادفو الذى يحمل رأس صقر · وكانت تزوره كل سنة فى موكب عظيم لاجراء طقوس « الزواج المقدس » · وكانت أرمنت هى موطن الاله منتو اله الحرب ذى الرأس الصقرية · وكان هذا الاله مقدسا أيضا فى طيبة وما حولها · بعد ذلك فى منطقة نخب نجد موطن الربة نخبت حامية نساء مصر العليا ذات الرأس النسرية ، وتضاهى الربة الأفعى (واجيت) راعية نساء مصر السفلى · وأخيرا نجد الاله خنوم الذى خلق الانسان وشكله على عجلة صناعة الفخار فى موطنه باسنا قرب ادفو · وكان لهذا الاله مقر فى أسوان أيضا عند الشلال الأول باعتباره اله الشلال ، وباعتباره «منبع» النيل الأسطورى فى المنطقة · وكانت للنوبة الهتها المحلية أيضا ، ومنها الاله ددون الذى عرفه المصريون وقدسوه · وكانت هناك سلسلة من الآلهة ذات الرؤوس الصقرية فى المدن الرئيسية بطول مجرى النيل فى النوبة ، وكلها صور للاله حورس : فهناك حورس اله باكى ، وحورس اله معام وحورس اله بوهن ·· الخ · وقد فرض رمسيس الثانى على النوبة رفع آلهة الامبراطورية العظام آمون ورع وبتاح الى مكان

الصدارة فوق كل الآلهة المحلية · ولا يفوتنا فى النهاية الاشارة الى « الاله المحلى » حابى الذى كان الها محليـا لكل المصريين ـ فهو النيل نفسه فى فيضانه ، جالب الخصب والنماء والذى هو السبب فى جعل الحياة بمصر ممكنة · وكانت عبادته فى مصر عبادة شعبية · وفى مضيق السلسلة اقتفى رمسيس الثـانى أثر أبيـه واختص النيل هناك بعطايا رسمية عظيمة مرتين كل سنة · ولم تنقطع هذه العادة ايام خلفه مرنبتاح ثم رمسيس الثالث من بعده ·

ودخلت الآلهة الأجنبيـة الى مصر مع أسرى الحروب والتجـار والدبلوماسيين الأجانب وغيرهم من الوافدين من سوريا وفلسـطين · وقد تمت مضاهاة ومماثلة بعض هذه الآلهة بآلهة مصرية شبيهة · فالاله بعل اله العواصف السـورى تمت مسـاواته بالاله ست المصرى · وتمت مساواة الاله حورون بالاله حورس المصرى شبهه فى الاسم · ولكن بعض الآلهة الأجنبية احتفظ بشخصيته المستقلة وانفرد بصفات خاصة به مثل اله الصواعق رع رشف ، ومثـل الربة عنات ثم الالهة المشهورة عشتروت ربة الحب والحرب ·

وكانت الحيوانات المقدسة من أجمل معـالم الديانة المصرية ، فقد نسب المصريون الى كثير من الآلهة صفات بعض الحيوانات حتى لقد أصبح لمثل هذه الحيوانات دلالات على الآلهة نفسها · فقـد صـور الاله تحوت على عدة أشـكال منها الثور ، والقرد · وصورت الربة باستت على شكل قطة ، كما صور خنوم على شكل كبش ، وسوبك على شكل تمساح ، وآمون على شكل كبش وأحيانا أوزة ، وحورس على شكل صقر · كمـا صورت حتحور على شكل بقرة ·· وهكذا ·

وفى عهد رمسيس الثانى برزت ظاهرة جديدة بالذكر ، وهى تتابع آلهة حيوانية حية كل منها يعقب سلفه و « يحكم » بعده ، أشهرها عجـل أبيس المرتبط بعبادة الاله بتاح بمنف وكان يرعاها الأمير خع ام واست ابن الملك بنفسه · وكان صنو أبيس فى هليوبوليس هـو عجـل منفيس · وكان لهذه الحيوانات المقدسة مجال آخر مستقل ، فقـد سـاد اعتقـاد بأنها « صور حية » يحل فيها الاله نفسه اذا شاء ، بل زادوا بأن اعتقدوا أنها أحيانا مهبط وحيه الذى ينقل نبوءاته ، ولذلك قدسوها ·

الطقوس والأناشيد والعقـائد :

أدى تكرار الطقوس والشـعائر أجيالا بعد أجيال الى تكوين تراث أدبى دينى متخصص ، لا نهاية له · فهناك الاناشيد صباحية لايقاظ الاله

وأخرى مسائية لوداعه ، كما صنفت كثير من الكتب تشرح كيفيـة أداء الشعائر · مثل هذه الكتب محشودة بمقطوعات لا حصر لهـا للتـلاوة والترتيل ، وشروح مستفيضة للطقوس التى يجب أن تؤدى · وهى مؤلفـة خصيصا لارشاد الكهنة المناوبين فى الخدمة · وهنـاك مؤلفات شبهة لكنهـا قاصرة على الأناشيد والابتهالات للآلهة ، بعضها لا يستخدم الا فى المناسبات الخاصة · ثم هنـاك فرع آخـر من الأدب الدينى هو الأدب الأسطورى ، مثل قصص الآلهة ، ومنشأ الخلق وما شابهها · فاذا نظرنا بسرعة فى مثل هذه الأدبيات فقد نستطيع تفهم وتذوق الخدمة المعبدية ، بما فيها من أناشيد وأدبيـات أخرى عقائدية كانت شائعة أيام الملك رمسيس الثـانى ·

فالاله يوقظ يوميا على أنغـام نشيد يغنيه كاهن الخدمة بمصاحبة كورس من المنشدات يلعبن بأوتار الصلاصل والطنابير · وكانت الربة موت فى طيبـة تختص بنشيد يساويها بقريناتها الربات الأخريات :

« استيقظى بسـلام ، استيقظى وانشطى بسلام ؛
ولتكن يقظتك بسـلام !
استيقظى بسلام ، استيقظى يا نيت بسلام ؛
ولتكن يقظتك بسـلام !
استيقظى بسلام ، استيقظى يا أودجو بسلام ؛
ولتكن يقظتك بسـلام !
استيقظى بسلام ، استيقظى يا منحت بسلام ؛
ولتكن يقظتك بسـلام !
عابر الصحارى لا يستريح ؛ الذى يعبر المروج ···
لعلك تسمع هذا الكلام موجها اليك من الملك ·· » .

هكذا يمضى النشيد فى عبارات رتيبة متكررة عمرها بعمر الأهرام قبل رمسيس الثانى بألف عام وخمسمائة · ومثـل هذا النشيد أصـبح مقدسا بكثرة الاستعمال على مر الدهور ·

وفى المعبد الرئيسى بالكرنك ، خصوصا فى الأعيـاد العظيمة ، كان كهنة الخدمة يوقظون الاله آمون اله الامبراطورية على أنغـام نشـيد اكثر عمقـا :

« نشيد تنشده ضفتا النهر لآمون فى الصباح :
« فتحت أبواب قدس الأقداس »
وفتحت المقصورة فى القصر ··

فطيبة فى عيد ، وهليوبوليس فى فرح ، والكرنك فى سرور ٠
والمهرجان عام فى السماء والأرض ٠٠٠
والنشيد يغنى لهذا الاله الكريم آمون ـ رع اله عرش القطرين،
وآمون اله الأقصر ٠

وشذاه تجاوز محيط البحر الهائل الأخضر ،
والسماء والأرض يملؤهما جماله ،
فقد أغرقهما بالذهب بأشعته ٠٠٠ » ٠

وكل شعيرة من شعائر طقس ما كان يصاحبهـا النص أو التعويذة التى تناسبها ؛ وهى مليئـة بالايحاءات المستمدة من عوالم الميثولوجيا المصرية الثرية ٠ وكان المصريون ـ خصوصا الكهنة المثقفون ـ يرونها حافلة بالمعـانى ٠ فاذا رأى القـارىء الحـديث أن مستوى مثل هـذه النصوص منخفض ، فذلك ولا شك أثر من آثار الزمن وآلاف السنين التى مرت عليها ٠ فمثلا ، عندما كان كهنة الخدمة الصباحية يقومون برفع القفل عن أبواب الضريح الداخلى الأقصى لرؤية تمثال الاله الصغير وأداء الشعائر نجد « دليل الخدمة » يقول (مقتبس من دليل خدمة اله الشمس رع) :

« تعـويذة لرفع قفـل الباب :

« (هكذا) أبعد اصبع ست عن عين حورس ؛ هذا حسن !
اصبع ست أبعد عن عين حورس ؛ هذا حسن !
انفك الحبل عن أوزيريس ، وذهب المرض عن الاله ٠
يا رع حر آختى ، خذ ريشتيك الطويلتين ،
اليمنى على يمينك ، واليسرى على يسارك ٠
أيها المتجرد ، البس ثيابك ؛ أيها المدثر ، احفظ دثارك ٠
اننى حقا نبى ،

كلفنى الملك أن أرعى الاله ٠
أنا أبو الهول الذى لك فى هليوبوليس ،
وقد سالمته ؛ هذا الموجود فى بحيرة العالم السفلى ٠٠ » ٠

وعندما تقدم القرابين نجد « دليل الخدمة » يعدد أصناف (قائمة الطعام) مستندا الى مصادر موغلة فى القدم ٠ والنموذج التـالى خاص بالقربان الذى يقدم للاله آمون فى يوم العيد :

« قائمة طعام العيد لآمون رع ۰۰۰ يقرؤها (الكاهن) :
نبيذ ، صحنان : يا آمون ، خذ لنفسك عين حورس ، التى بها
يفتح فمك ۰
كعك شاييت ، ٢٠ : يا آمون خذ لنفسك عين حورس ، فهى
لن تفلت منك ۰
لحم مشوى ، صحن واحد : يا آمون ، خذ لنفسك
هذا الشواء ! » ۰۰

ويستمر الترتيل على هذا النحو مع الأصناف الأخرى ۰ ويضيف « دليل الخدمة » الى شعائر تقديم القربان وابتهالات قائمة الطعام ، فصولا خاصة بالكاهن القارىء :

« يقرأ الكاهن القارىء الذى يتلو الابتهالات (ما يلى) :
« يا كاهن سم قدم ابتهال القربان الملكى لآمون ۰۰۰ :
« أيها الخبز اسع اليه ! » ۰

« وعندما يرفع الكاهن القارىء القرابين لالهه ، فليقل
تعالوا أيها الخدم ! احملوا قرابين الحضرة ،
وارفعوا القرابين لآمون ۰۰۰ » ۰

وعندما تحين لحظة « عكس القرابين » لتحول من مائدة الاله الى أرواح الفراعنة جميعا (الفرعون الحالى وكل من سبقوه) ، يعدد « دليل الخدمة » أسماء عدد محدود منتخب من فراعنة الدولة الحديثة ومعهم واحد أو اثنان من القدماء — فى خط تنازلى يبدأ بالفرعون الحالى (رمسيس الثانى) حتى أقدم الملوك :

« احضروا أيها الخدم ! ارفعوا قرابين الحضرة ، وقدموها للملك ، سيد القطرين ۰۰۰ ، رمسيس الثانى ؛ وسيتى الأول ، ورمسيس الأول ، وحور محب ، وأمنحتب الثالث ؛ وقدموها لتحتمس الرابع ، وتحتمس الثانى ؛ وقدموها لتحتمس الأول ، وأمنحتب الأول ، وأحمس ، وكاموس ؛ وقدموها لسنوسرت الأول ، ومنتوحتب الثانى ؛

— وقدموها لكل ملوك مصر العليا ، ومصر السفلى ۰۰۰ الذين توجوا ، واستقرت التيجان فوق رؤوسهم ۰۰۰ لكى يقدموا رع فى الدنيا » ۰

وهكذا ، فى عمق الأبهاء الواسعة والمحاريب ، كانت هذه الشعائر الرسمية المتقنة ، تنفذ فى أروع صورة لخير الآلهة ، وخير الملك ، من أجل مصر ورخائها ·

وفى العصر الامبراطورى — ويشمل عصر رمسيس الثانى وما بعده ، وضعت أناشيد جميلة تمجد القوى الخلاقة للآلهة الكبرى ، وتقرظ عنايتهم بالبشر ، وتشير الى التماثل بينها باعتبار كبار الآلهة مظاهر وصور لبعضهم البعض ، كما لو كانوا أوجها مختلفة لاله واحد — علما بأنهم لم يبلغوا أبدا حد التوحيد الخالص · وقد تغنى الرسام مرى سخمت بنشيد ، يعتبر معاصرا لأواخر أيام رمسيس الثانى وخلفائه :

« المجد لك ، يا آمون — رع — آتوم — حورس · الأفقين !
يا من نطقت بفمك ، فظهرت الموجودات ، من بشر وآلهة ،
والماشية والحيوانات المصيدة فى الأبدية ، مع كل ما يطير وينير
لقد خلقت الأرضين ، الوطن والأرض النائية ، وعمرتها بالمدن ،
والمروج الخضر التى يخصبها الفيضان ، فتنتج من الخير
ما لا يحصى كى يعيش الناس ·
أنت الشجاع الذى يرعاهم الراعى ، الى الأبد ·
أجسادهم تشبعت بجمالك ، وأعينهم تبصر (بك) ·
والكل يخشاك ، وقلوبهم ترنو اليك ·
والكل يقول ، نحن عبيدك ! » ·
أنت العظيم ، أنت الجبار ، أنت الواحد ،
والغنى والفقير سواء ، متساوون أمامك ·
لطفك بأسرهم جميعا ، ولا ينكر أحد جمالك ·
ألا تقول النساء :
« أنت قريننا » ،
والولدان « أنت أبونا وأمنا » ؟
الغنى يشيد بجمالك ، والفقير معجب بمحياك ·
والسجين يلجأ اليك ، والغنى يبتهل اليك » ·

وتوجد غير هذا أشعار رفيعة أخرى ، وقصائد تمجد الاله آمون وغيره من الآلهة ·

وعلى مر الأجيال كان علماء الدين المثقفون يطورون أساطير الآلهة المحليين والالهات وقصص الخلق والخليقة على المستوى المحلى · وفى عهد رمسيس الثانى زادوا على هذا التراث محاولات لربط كافة

أساطير الخلق في حلقة واحدة ، مع تعديل دور كل من الآلهة الرئيسية للحصول على صورة كلية لهذا الموضوع معقدة غاية التعقيد · ومثلنا مثل رعايا رمسيس الثانى نفسه يكفينا هنا المامة بسيطة بالموضوع ·

فى البدء لم يكن سوى العدم ومياه المحيط البدائى الأول · ثم ظهر « الخالق » (يتوقف على شخصه فى الأسطورة) الذى ينبثق من المياه بأشكال مختلفة (حسب القصة) · ثم خلق الخالق الخلق ـ الآلهة والناس وسائر المخلوقات ـ بأساليب مختلفة · ففى عقيدة منف كانت الأرض هى أول ما انبثق عنه المحيط البدائى على صورة الاله بتاح تاتنن ومنها وجدت كل المخلوقات بما فيها الشمس ··· أما عقيدة هليوبوليس القريبة منها فتقول بأن اله الشمس هو أول ما انبثق من المحيط البدائى ، وأنه هو الذى خلق الخلق من آلهة وبشر · هاتان النظريتان المتعارضتان تصدى لهما علماء العقائد بعد ذلك وأجروا عليهما « تعديلات » لازالة الارتباك · فأكدوا مثلا أن اله الشمس نفسه كان متأصلا فى الأرض الأصلية التى ظهرت فى الأزل ـ وكان بتاح ورع مندمجين فى واحد · وفى عقيدة هرموبوليس كان أول ما انبثق من المياه الأزلية هو اللوتس (الزهرة المعروفة) ، ومنها تجلى اله الشمس عندما تفتحت ، وهكذا · وكان يمكن تكييف ذلك كله وتفصيله على قياس أى اله · فآمون مثلا فى طيبة يمكن أن يكون هو الاله البدائى ، بربط الأساطير المطلوبة على أيد خبيرة تكيف له وضعه ·

ومع الوقت ، ترسخ الاعتقاد بأن الآلهة حكمت مصر على التتابع ، مكونة أسرة ملكية من الآلهة · لكن رع ساءه فساد البشر فعاد الى السماء ومن هناك سلط عليهم الربة حتحور لتذبحهم ، لكنه أشفق عليهم فاحتال عليها كى لا تفنيهم · وبعد ذلك جلب أوزيريس الحضارة للبشر وتملك عليهم ، لكن أخاه ست احتال عليه فقتله · وبعد نزاع مع عمه تمكن حورس (الشاب) ابن أوزيريس من حكم مصر ، بينما أصبح أبوه ملكا على العالم السفلى · وبعد ذلك تولى حكم البلاد أسرة من الأرواح وأنصاف الآلهة بعدها بدأت الحقبة التاريخية بتوحيد البلاد على يد الملك مينا قبل رمسيس الثانى بألفى وخمسمائة سنة ، وبذلك بدأ ظهور الأسر الملكية الفرعونية المتتالية ·

وفى عهد رمسيس الثانى كانت ميثولوجيا الآلهة المحلية المصرية قد وصلت الى درجة من التشعب والتعقيد تضارع تشعب وتعدد الآلهة نفسها · ولا يسهل علينا حاليا تجميع ذلك كله واستيعابه فى الوقت

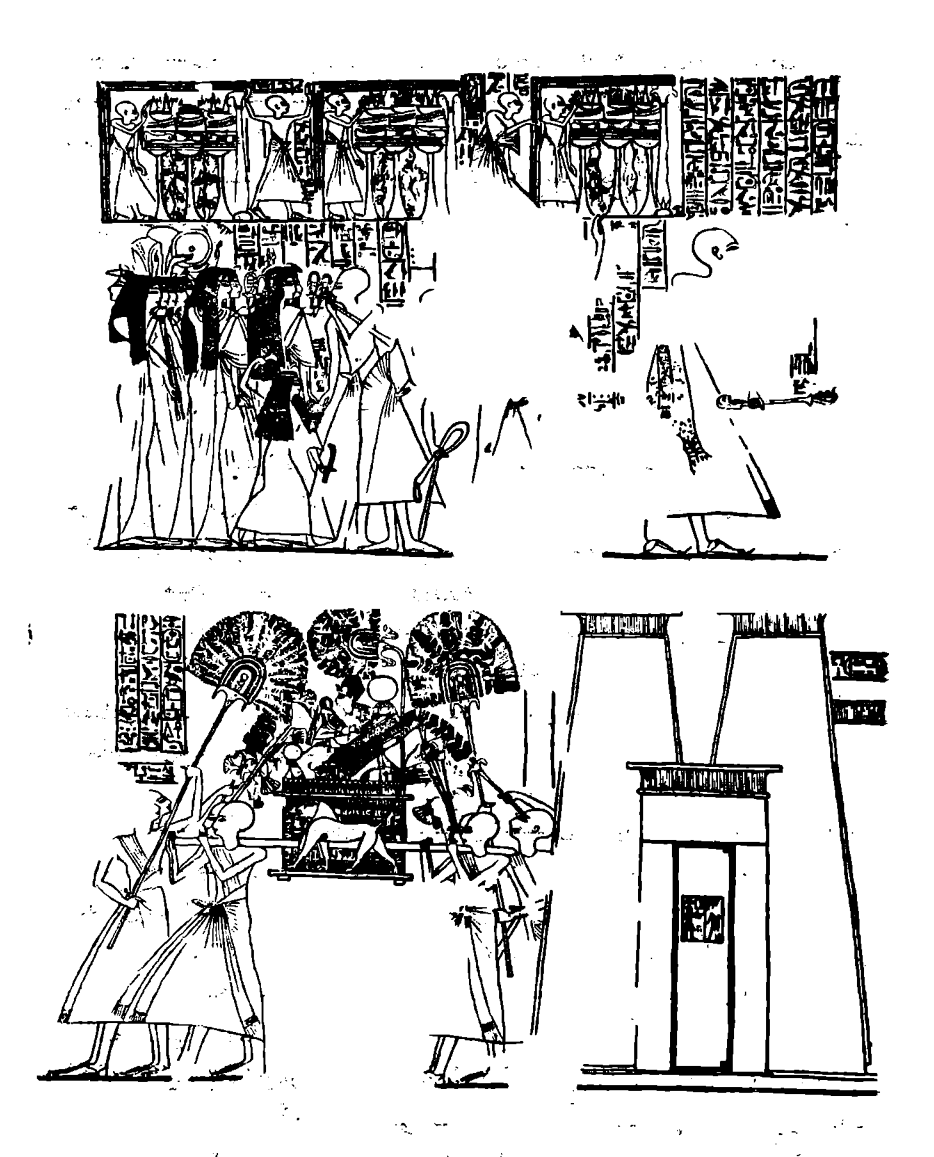
الحاضر . وحتى فى وقت رمسيس الثانى نفسه كان الكهنة قد حجبوا عن الناس معظم التفاصيل واحتفظوا به كسر لأنفسهم ، ولم يفرجوا للناس الا عن النزر اليسير ليشيع بين الجماهير مثل قصة أوزيريس الشعبية .

الآلهـــة فى أعيـــادها :

كانت مصر فى كل عهودها وأنحائها بلدا منتجا نشطا . وكان المثل السائد فى عهد رمسيس الثانى وغيره هو « الكل يعمل ولا مجـال للعب ولا للكسـل » . لكن الراحة والاستجمام من عنـاء العمل شىء مقرر منذ الأزل . فكانت هنـاك عطلات أسبوعية حتى لعمال دير المدينة البسطاء . كذلك كانت للمصريين أعيادهم السنوية التى يحتفلون فيها بالآلهة كبـارا وصغارا . وكانت احتفالات الآلهة الكبرى أعيـادا قومية للشعب كله ، وكانت معها أعياد أخرى محليـة للآلهة الأخرى . وفى عيد أى الـه كان تمثاله الصغير يخرج من المعبد داخل ناووس صغير ويحمل الى زورقـه الذهبى على أكتاف كهنته ، فى موكب أخاذ تصاحبه الموسيقى وهم ينشرون البخور ، ويمرون بين الجماهير المحتشدة فى جو يسوده السرور وروح الاسترواح والراحة .

فعندما كانت تدور السنة المدنية (يوليه فى عهد رمسيس الثانى) كانت تهل أيام السنة الخمسة الأخيرة (أيام النسىء) ، التى تعقبهـا بـداية السنة الجديدة . وكانت أيام النسىء هذه وربما يومان بعدها أيام عطلة رسمية يستريح فيها الجميع . وكان الناس ينتهزون فرصة هذه الاجازة فينهالون بالعطايا والقرابين على المعابد . وكانت أهم المناسبات جميعا هى الأعياد الرسمية لكبـار الآلهة ـ آمون وأوزيريس وغيـرهما ـ ثـم المناسبات العامة الأخرى مثل عيد الحصاد .

وفى عهد رمسيس الثانى كان يحتفى منذ قرون بعيـد أوزيريس « وأسراره » كل سنة منذ قرون ، وكانت تجرى طقوسه فى كل مكان يعبد فيه هذا الاله . ويقابل هذا العيد فى منف عيد الاله سوكر ـ وهو اله مساو لأوزيريس ويعتبر مظهرا من مظاهره . وكانت أحداث قصة أوزيريس الأسطورية يعاد تمثيلها فى أبيدوس كل سنة وتستغرق عدة أيام وتتضمن مشاهد عديدة : موته ـ اعادة احيائه ـ انتصاره ... الخ . وكان موعد هذا العيد فى شهر الفيضان الرابع (أكتـوبر / نوفمبـر زمن رمسيس الثانى) . وفى أول هذا العيد كانت وبواوت « فاتح الطرق » ، تحمـل



شكل (١٨) صورة لامنحتب الأول يعطى لبوءة فى يوم عيده . (طيبة ، مقبرة ١٩) .

فى موكب أمام زورق نشمت المتنقل وهو زورق أوزيريس الى خارج المعبد . وكانت الجماهير تشارك فى أداء مشهد «طرد العدو» عن السفينة، فيقسمون أنفسهم بين نصير وعدو لأوزيريس . بعد ذلك يحل دور « الموكب الكبير » ، وهو مشهد يجسد النواح على مقتل أوزيريس على يدى أخيه ست . بعد ذلك يحل الدور على مشهد تحضير وتجهيز مقبرة أوزيريس ويجرى فى منطقة بقر القريبة من أبيدوس ؛ ثم مشهد الطقوس

المعبدية السرية التى تجرى لتحنيطه ، وأخيرا دفنه فى بقر · وفى النهاية يمثل مشهد المعركة الكبرى فى ناديت ـ أى على الشاطىء الرملى ، وفيها تتم هزيمة أعداء أوزيريس ، يتبعها عودة الاله ـ بعد احيائه ـ فى موكب النصر الى معبده ، وذلك فى نفس الوقت الذى يأتى فيه زورقه ـ نشمت الكبير ـ عابرا القناة وعلى ظهره نموذج نشمت الرمزى (المتنقل) وتمثال الاله · وبذلك يكون الحفل قد بلغ الذروة ؛ وحقق للجمهور ، النشوة والسرور ·

وكان يوازى هذا العيد فى منف وطيبة وفى نفس الوقت ـ عيد الاله سوكر ، وكان احتفالا كهنوتيا بحتا ، تجرى طقوسه داخل حرم المعبد فقط · ولكن فى يومى ٢٥ ، ٢٦ من شهر الفيضان الرابع يصل عيد سوكر الى ذروته ، ويحتفى به على المستوى الشعبى · ففى يوم ٢٥ يلبس أتباع عبادة سوكر أطواقا من البصل ، ويزورون مقابرهم الخاصة حيث ينشرون البخور ويوزعون الشراب والبصل · وفى يوم ٢٦ كان زورق سوكر المبهر يسير فى موكب « النصر » ، ويدور خارج أسوار معبد طيبة ؛ وحول « الجدران البيضاء » [القصر القديم] فى منف لبعث الحماس وادخال السرور فى نفوس الجماهير التى كانت تزداد حماسا برؤية حامل القمعة والمذبة ·

وكانت طيبة الامبريالية تحتفى بعيدين كبيرين ، هما عيد أوبت الفخم ، وعيد الوادى المظهرى الزاهر ، وهما من أعياد آمون · وكان عيد أوبت أعظم العيدين شأنا وكان يحتفى به بشكل عظيم أيام رمسيس الثانى · يبدأ الاحتفاء بهذا العيد مساء يوم ١٨ من شهر الفيضان الثانى ويستغرق ثلاثة أسابيع تنتهى فى يوم ١٢ من شهر الفيضان الثالث ـ أى أن معظم أيام العيد كانت فى شهر سبتمبر · وتبدأ الاحتفالات مساء اليوم الأول للعيد بالطقوس المعبدية الداخلية · وكان الفراعنة منذ العصور القديمة يحتفلون بهذا العيد فى طيبة ، فكانوا يبحرون بالأسطول الملكى صاعدين فى النيل من منف الى طيبة لشهود العيد بأنفسهم · وقد شهد هذا العيد رمسيس الثانى بنفسه فى السنة الأولى من حكمه المطلق ، ولا شك أنه حضر هذا العيد بعد ذلك مرارا فى مدة حكمه الطويل ·

ومن أيام عيد أوبت الهامة يوم ١٩ من شهر الفيضان الثانى · فى هذا اليوم ، كان قاربا موت وخنسو المحمولان على الأكتاف يحتويان على تمثالين صغيرين لهما يزوران الاله آمون فى معبده الكبير بالكرنك ـ والمرجح أن هذه الزيارة كانت تجرى مراسيمها فى بهو الأساطين الضخم

بالكرنك ، وهو البهو الذى بناه سيتى الأول ووسعه واستكمله رمسيس الثـــانى ٠

بعد ذلك يبدأ تحرك الموكب تتقدمه الموسيقى والعازفون والراقصون حتى رصيف المرفأ ، ثم يصعد الى ظهر السفينة النهرية العظيمة أوسرحات آمون ، سفينة آمون الذهبية ٠ بعد ذلك تسحب السفينة العظيمة وتسـير فى قناة قصيرة حتى تخرج الى النهر ، حيث يلاقيها أسـطول كامل من المراكب ـ وتقطر سفينة آمون الى سفينة القيادة الملكية بحبل الكتان ، ويسحبها ـ فرضا ـ كبار الموظفين من الشط ٠ ولكن الحقيقة أن القوة المحركة الحقيقية كانت مجموعة من الجنود والفلاحين تحمل على اكتافها الحبال المربوطة بسفينة آمون وغيرها وتجرها من الشط ٠ وكان هذا الموكب الأخاذ يسير مصعدا فى النهر مسافة ميلين جنوبا ـ المسافة بين الكرنك والأقصر (أوبت الجنوبية) ـ تصاحبه على البر فرقة من الموسيقيين وجوقة من المنشدين وحشـد هائل من المواطنين ليستمتعوا بالعطلة اذ كان الخبز والجعة متوفرين بكثرة ٠ ويرتفـع صـوت الغناء فى الجو تحية للاله وللفـرعون :

« أنت المشرق دوما ، يا آمون رع ، وأنت فى السفينة أوسرحات
الكل يمجدك ، وكل الأرض فى عيد ٠
لأن ابنك الأكبر ووريثه يبحر بك الى الأقصر ٠
ندعوك ان تهبه الخلود كملك للقطرين ،
وان تكون سنواته كلهـا بسـلام ٠
واحمه وزوجته وهبه الحياة والاستقرار والملك ،
وانعم عليه بالمجد واجعله ملكا سعيدا ٠٠٠ » ٠

وفى الأقصر كانت مراكب آمون وموت وخنسو المتنقـلة تنزل الى البر فى موكب ـ مرة أخـرى ـ وتدخل معبد أوبت الجنوبى بالأقصر ، بمصاحبة موسيقيين وراقصات أكروبات يتقدمون الموكب مع بعض الكهنة ينشرون البخور ٠ وعلى جانبى الطريق بطوله كانت الخيـام المظـللة منتشرة حاوية لكل أطايب الطعـام والشراب لخدمة الحضـور المتعبين واسعادهم ٠ وفى معبد الأقصر يستقر ثالوث الآلهة ثلاثة أسابيع تجرى فيها طقوس معبدية داخل الحرم ـ (ربما لاجراء شـعائر الزواج المقدس) ـ وينصرف الجمهور الى مشاغله العـادية ٠

أما الملك فقد كانت هذه الفترة بالنسبة له فرصة لبحث شئون الدولة والتصرف فيها ٠ ففى مثل هذه المناسبات كان الاله آمون يذيع نبوءاته ـ

عن طريق أحد أنبيائه · وقد سبق أن ألمحنا لذلك عندما رأى رمسيس الثانى أن يستشير نبى آمون فى أمر تعيين نبى وننف كبيرا لكهنة آمــون فى السنة الأولى من حكمه ·

بعد الأسابيع الثلاثة يأتى دور الاحتفال بعودة آمون · وهنــا تعود الجموع مرة أخــرى للمشــاركة فى احتفــال عودة الاله فى سفينته الذهبية فى صحبة الأسطول الرسمى الصغير ، فى ظل الجماهير التى يعمها السرور وهى تحيى الاله فى موكب عودته الى بيته بمعبد آمون ·

أما عيد الوادى فكانت مدته قصيرة ، لكنها لم تكن أقل روعة · هذا العيد كان يحتفى به بعد العيد السابق بستة أشهر عند ظهور الهلال · فى اليوم الثانى لظهوره فى شهر الصيف الثانى (أبريل) · ففى اليوم المحدد يعود الاله آمون للابحار على سفينته الذهبية العظيمة ، لكنــه يعبر النهر مباشرة الى غرب طيبة ، ثم يخترق القنوات حتى يصل الى حافة الصحراء · وفى الأزمنة السالفة ، كان قارب آمون المحمول وفيه تمثاله الصغير يحمل فى موكب يمر بأحد ممرات وادى الدير البحرى المفتــوح حتى معبد منتوحتب الثانى التذكارى ، أو معبد حتشبسوت التذكارى المجاور له · وفيما بعد أصبح آمون ينزل ضيفا على الملك الحالى فى معبده التذكارى ، لذلك كان الكهنة أيام رمسيس الثانى يحملون قارب تمثال الاله المتنقل ويطوفون به فى أبهاء وساحات الرمسيوم معبد الملك التذكارى حتى بهو الأساطين العظيم « بيت سيد الآلهة فى عيده الجميل — عيد الوادى » كما تقول النصوص · وهناك كانت القرابين الجميلة تقدم لآمون ويستمتع بها الحضور · وبهذه المناسبة كانت توزع باقات الزهور والملابس الكتانية الناعمــة على الموظفين والكهنة الذين ســاهموا فى تنفيذ الاحتفالات · ويتحمس صديقنا العتيد الوزير باسر قائلا :

« يا سيدى ، واله مدينتى ، آمون سيد الكرنك ! اضمن لى أن أكون كواحد من الأسلاف ، الذين باركتهم ، حتى أمجد عظمتك عندما تزور الحى الغربى ، وأن أكون أول من يتبعك فى عيدك الجميل — عيد الوادى ، وأحصل على رداء خالص وأرقد فى جوار الشيوخ ، كأى شخص مكرم ! » ·

وهذه الاحتفالات المعبدية المصرية لم تكن سوى نصف الاحتفالات بالعيد · فى المســاء كانت أسرة طيبة الكبيرة تسير فى موكب تقليدى على ضوء القنــاديل ، يصعدون المنحدرات الصــحراوية حتى يصلوا الى هياكلهم المقبرية الخاصة حيث دفن أسلافهم · وكانوا يحملون معهم من

الغذاء والزاد ما لا حصر له كى يحتفلوا بزيارة آمون للغرب الجميل — ويحيى الموتى — فيشترك الجميع ، موتى وأحياء فى الاحتفال بالعيد طول الليل ويقول احد أناشيد آمون العظيمة :

« الجعة عتقت من أجله يوم العيد ، والناس متيقظون طول الليل متمتعين بجمال الليل • وفوق الأسطح يتردد اسمه ، وتوجه الأناشيد اليه فى ظلام الليل » •

وكان عمال دير المدينة البسطاء — عمال المقبرة الملكية — يفعلون ما يشابه ذلك فى مقاصيرهم المقبرية الصغيرة المطلة على قريتهم • وفى الصباح تجرى بعض الطقوس المعبدية ، يعود بعدها الاله آمون على سفينته فى النيل الى مكمنه بالكرنك ، ويعود الناس الى حياتهم العادية ، ويبدأ دولاب العمل فى الدوران •

وفى المعبد كانت الأغذية والهدايا توزع ببذخ على المشاركين فى العيد • وفى الرمسيوم تقول المصادر انه كان يخصص للتوزيع فى خلال الأسابيع الثلاثة لأعياد أوبت مواد تموينية ضخمة تقدر بأكثر من ١١٤٠٠ من أرغفة الخبز وأقراص الكعك ، و ٣٨٥ برميلا من الجعة ، وكمية لا حصر لها من الأغذية الأخرى (ثيران ، طيور ، فاكهة ، ... الخ) بالاضافة الى البخور •

أما عيد سوكر الذى يستمر عشرة أيام — حظى بأكثر من ٧٤٠٠ من أرغفة الخبز وأقراص الكعك ، و ١٣٧٢ برميلا من الجعة بالاضافة الى ٣٠ سلعة أخرى فى يوم واحد •

ولابد أن ما كان يوزع فى الكرنك والأقصر من هذه المواد فى أعياد أوبت يزيد كثيرا عن هذا • ولعلنا فى غير حاجة الى تكرار القول بأن مثل هذا السيل من المنح والعطايا لم يكن يقتصر استعماله على الاله ، فقد علمنا ان الهبات كانت تعكس مرتين ، فكان عكس الهبات الثانى يعم بالخير على كافة المشاركين فى العيد — موظفين وأهالى ، وكبراء وعامة — الكل فى ذلك سواء ، فهم ضيوف الآلهة وعلى الاله أن يكرم ضيفه •

القائمون على خدمة الآلهة

شغل مركز كبير كهنة بتاح أو كبير كهنة ست فى منف وهليوبوليس شمال الوادى ، مجموعة رجال على التوالى ، زمن رمسيس الثانى • عين الملك فى وقت مبكر من حكمه القائد العام لسلاح المركبات باك ، كبيرا لكهنة رع اله الشمس بهليوبوليس ، كمكافأة على طول خدمته بالسلاح

العسكري · وتلاه في هذه الوظيفة واحد يسمى أمنحتب لبث فيها ١٧ سنة (١٠ ـ ٢٦) لم يكن له فيها شأن كبير ، لكنه كان ينتمى لأسرة ذات نفوذ هى أسرة آمون ام اينت قائد ميليشيات المدجاى الشهيرة · بعد ذلك عين رمسيس ابنه السادس عشر مرى أتوم كبيرا للرؤاة (متنبىء هليوبوليس) لمدة ٢١ سنة (٢٦ ـ ٤٦) · وفى سنوات حكم رمسيس الثانى الأخيرة اضاف وزير الشمال برى حتب (الأصغر) هذه الوظيفة الى وظائفه العديدة الأخرى ·

وفى منف تتابع على منصب كبير كهنة بتاح مجموعة من الرجال كذلك لكنها كانت على علاقات وثيقة ببعضها علي عكس الحال فى هليوبوليس · وأول من نعرفه من هؤلاء حوى الذى تولى المنصب حوالى سنة ١٦ عندما دفن أول عجل مقدس من مجموعة عجول ابيس تحت حكم رمسيس الثانى · بعده يحتمل أن يكون باحم نتر قد شغل المنصب ومن بعده ابنه ديديا والد وزير الشمال المستقبلي برى حتب الأصغر ، وهو أصغر أبنائه · وخلفه على المنصب الأمير الشهير خع ام واست ابن الملك وكاهن سم حتى مات عنها سنة ٥٥ · بعدها ضم الوزير برى حتب الأصغر وظيفتي رئيس كهنة بتاح ومنف الى مناصبه العديدة حتى أواخر عمر الفرعون العجوز ، حيث تولى المنصب حفيد الفرعون حورى بن خع ام واست وظل فيه عدة عهود بعد عهد جده ·

وعندما نبحر عكس التيار مصعدين فى مصر العليا نمر على مجموعة مهيبة من المقاصير فى عواصم بعض الأقاليم قبل أن نصل الى اقليم ثنى ، حيث تبدأ بثنى ثم بأبيدوس · وكانت ثنى مدينة الاله أنوريس شو « ابن رع » ، وهو بطل أسطورى محارب يقال انه أعاد لمصر الربة « عين رع » وهى مساوية للربتين موت وسخمت وغيرهما · وقد جمع نب وننف فى ذلك الوقت بين رئاسته كهنة ثنى ورئاسة كهنة معبد حتحور بدندرة قبل السنة الأولى من حكم رمسيس الثانى · لكن رمسيس نقله الى طيبة وولى ابنه مكانه فى صرح دندرة حسب التقاليد العائلية · أما ثنى فقد ولى على كهنتها رئيسا آخر اكبر سنا هو حورى ، الذى ما لبث أن رحل ليخلفه ابنه القدير مين مس الذى ملأ معابد ثنى بالآثار ، كما انه نمى أواصر الصداقة بينه وبين عائلة نينسو ـ عائلة وزير الشمال برى حتب الأكبر ـ بالمصاهرة ، كما صاهر ايضا خليفته برى حتب الأصغر ـ من دندرة ـ بتزويجه ابنته · ولكنه رغم طول فترة ممارسته للوظيفة ونجاحه فيها لم يؤسس اسرة كهنوتية فى ثنى ، فخلفه رجل جديد لا يمت له بصلة قرابة اسمه اتحور مس استمرت أيامه فيها باقى عهد رمسيس الثانى ثم مرنبتاح بعده :

أما أبيدوس التي بنى فيها سيتي الأول ورمسيس الثاني من بعده عددا من المعابد الشامخة لأوزيريس ، فكانت فيها أسرة كهنوتية تولى فيها ستة على التعاقب - ان لم يكن اكثر - منصب كبير كهنة أوزيريس ، والاقدم من نعرفهم من هؤلاء « تو » الذى كان فى ذلك المنصب أيام حور محب وربما رمسيس الأول أيضا . ولم ينجب « تو » ولدا ولكنه أفلح فى تمرير الوظيفة الى « حات » نسيبه (أخى زوجته) فى عهد سيتي الأول .

وتلاه ابنه مرى الذى استمر في الوظيفة من أواخر سنوات سيتي الأول الى آخر السنة العاشرة من عهد رمسيس الثاني ، وشهد أهم فترة استكملت فيها الأعمال الانشائية بمعبدي هذين الملكين . واستمر هذا الخط في المنصب حتى تولى وننفر بن مرى المنصب - وهو رابع أعضاء هذه السلسلة الأسرية . وكان وننفر هذا أعلاهم شأنا وأرفعهم ذكرا ، وخدم مدة طويلة ناجحة ٣٥ سنة متصلة (من سنة ١٥ الى سنة ٥٠) بنيت على يديه فيها مجموعة كبيرة من الآثار : تماثيل لنفسه بعضها مع أبويه والعائلة ، ولوحات تذكارية ، وربما مقصورة فى أبيدوس سجل فيها مفتخرا بعض أيام رمسيس الثاني (سنوات ٢١ ، ٣٣ ، بعد ٣٣ ؟ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٧ ، ٤٨ [؟]) وهى سنوات تعهد فيها تشكيل تماثيل للملك بعضها نحاسى ربما من أموال التبرعات . وربما تكون أول مجموعة منها قد شكلت عقب توقيع المعاهدة مع الحيثيين ؛ وباقيها في المناسبات اليوبيلية على الأرجح . ويوجد بالمقصورة نقش آخر نرى فيه وننفر بولائه الشديد للملكية يوجه توسلاته لأوزيريس « احفظ رمسيس الثاني - ابنك وثبت مطالعه الظافرة المجيدة على عرش حورس ، واعل قدره كملك عظيم للقطرين ، وليعش الى الأبد ! - هذا دعاء كبير كهنة أوزيريس وننفر » . ولا شك فى ان قدرا كبيرا من هذا الدعاء قد تحقق . وكان وننفر من ذوى الاتصالات القوية (بالمسئولين) . لذلك أصبح أخوه برى حتب الأكبر وزيرا للشمال ؛ كما عاصره فى نفس الاقليم نسيبه (أخو زوجته) مين مس كبير كهنة انوريس بتانيس . وكانت تينى زوجة وننفر هى ابنة مدير مخازن الغلال « فى الشمال والجنوب » وهى وظيفة تساوى وزير الزراعة والتموين معا فى العصر الحديث . وقد ذكر وننفر هؤلاء جميعا على نصب تذكارى بأبيدوس سنة ٤٢ من حكم رمسيس الثاني (١٢٣٨/٣٧ ق.م.) فخلد ذكرهم . ولكن المنية وافته آخر الأمر ولحق بأوزيريس فى دار الأبدية ، وخلفه فى منصبه ابنه حورى . وفى عهد مرنبتاح التالى ورث ابن حورى منصب أسلافه ليكون سادس من تقلد هذا المنصب من أعضاء هذه العائلة القوية .

ويتجاوز دندرة وقفط (حيث يحتل مين مس آخر منصب كبير كهنة مين وايزيس والذى يمت هو الآخر بصلة قرابة الى آمون ام اينت !)، نصل الى طيبة « مدينة آمون » • وبحلول سنة ٤٠ من حكم رمسيس الثانى كانت وظيفة كبير كهنة آمون قد تغير شاغلها اكثر من مرة • فقد مات نب وننف سنة ١٢ تقريبا ، ففرض على المنصب ابو آمون ام اينت واسمه وننفر (خلاف الذى ذكرناه) ودامت مدته من سنة ١٢ الى سنة ٢٧ • بعد ذلك وثب الى المنصب الوزير المجرب باسر ، واستمر من سنة ٢٧ الى سنة ٣٨ تقريبا • ولمدة سنة تقريبا تطوع الشيخ الكبير روما بالقيام باعباء الوظيفة مؤقتا بعد اعتزاله منصب نبى آمون الثانى ، وذلك لكى يعاون ابنه باكن خنسو الذى رقى الى وظيفة أبيه (نبى ثان) من وظيفة النبى الثالث • وباكن خنسو على اى الحالات من المحترفين فى السلك الكهنوتى وسبق أن كان يشغل وظيفة « أبو الاله » وتدرج منذ وقت طويل ـ منذ أيام سيتى الأول ـ فى وظائف السلك الكهنوتى • وبحلول سنة ٣٩ لم يستطع رمسيس الثانى تجاهل اخلاص باكن خنسو وخدماته الممتازة التى كانت قد تجاوزت مدتها مدة حكم رمسيس نفسه حتى ذلك الوقت • فكانت مكافاته له هى اعطاءه المنصب الجليل « كبير كهنة آمون » • وشغل رجلنا الوظيفة لمدة ٢٧ سنة ، استهلكت باقى سنوات حكم رمسيس الثانى تقريبا • وقد صنع لنفسه تمثالا اقامه فى الكرنك فى آخر ايامه سجل عليه نقشا للتريا هاما ، عدد فيه الكاهن العجوز مراحل تدرجه فى الخدمة منذ طفولته وذكر كل المناصب الكهنوتية التى تقلدها مسجلا مدة كل منها حتى تقلد للوظيفة الكبرى « كبير كهنة آمون » وكبير المعماريين فى نفس الوقت ، واشرافه على بناء معبد رمسيس الثانى بالكرنك فى الأربعينيات من عهد رمسيس الثانى :

« كنت أبا طيبا لأتباعى ، أربى صغارهم ، وأعين ذا الحاجة منهم ، واغيث المساكين ، وافعل الخير فى معبد (آمون) • وبنيت له معبد رمسيس الثانى ـ «الذى ـ يسمع ـ للصلوات» ، عند البوابة العليا لمعبد آمون • واقمت فيه مسلات جرانيتية بلغ بهاؤها عنان السماء ، امامها بنيت بهوا معمدا فى مواجهة مدينة طيبة ، مع احواض وحدائق زرعتها بالأشجار • وغطيت الباب بكسوتين عظيمتين بطنتهما بالالكتروم (سبيكة طبيعية من الذهب والفضة) تعكس ما فى السماء • وصنعت صاريتين كبيرتين للأعلام ، واقمتهما فى الحوش الأمامى امام معبده • وبنيت مراكب نهرية عظيمة لآمون وموت وخنسو »•

يكفى هذا القدر عن باكن خنسو لكنه طبعا لم يشيد كل هذه الأشياء العظيمة بلا أعوان . فلم يجرؤ أحد على ادعاء لقب « الذى أقام صوارى الأعلام العظيمة فى معبد آمون » سوى شخص واحد ، هو ابن كبير الأمناء (الوصيف الأول) يوبا وحفيد الفريق المسن أورحيا قائد ميليشيات المدجاى ـ حاتى عا . وبناء على ذلك يكون حاتى عا هو الرجل الثانى بعد باكن خنسو فى الأهمية . ولكن الشخصية الأكثر أهمية كانت شخصية كبير الصناع الذى تولى الأعمال الزخرفية بنفســـه واســتخدم الذهب والالتروم فى تكسية أبواب المعبد والسفن المقدســـة لباكن خنسو ـ إلا وهو رئيس النجارين ، وكبير الصياغ : نخت ثوتي . وفى مقصورة مقبرته (رقم ١٨٩) بغرب طيبة ، سجل الرجل بكل فخر صورا لبعض «روائع» انتاجه :

« الباب الأول الذهبى ، والباب الثانى الذهبى ، والباب الثالث الذهبى ، فى فنــاء آمون الأمامى ؛ ... باب خنسو ... ؛ مدخل مزدوج من الذهب ، لمعبد موت ... » ،

وكثير غير ذلك . وفى نقش عن سيرته الذاتية يذكر قائمة بهذه الأشياء وغيرها من الأعمال بمعبد آمون :

« كنت خبيرا معروفا بالبراعــة [وشكلت ... آثارا] بالذهب ، وأبوابا ضخمة بالكـــرتك ، ومراكب [تسير فى النهر ؟ ...] ، تظهر مهارة من يخلص لفنه وحرفتـــه ... كنت ماهرا فى صنعتى ولم أكن محتاجا لمن يعلمنى . وأشرفت على أعمال كثيرة ... صنعت من الذهب والفضة ، واللازورد الأصلى ، والفيروز » .

هذا هو نخت ثوتى الذى لم يكف عن ترديد أنه كان يعـــار باستمرار للمعـــابد الأخرى على طول جنوب مصر العليـــا ، من أبيدوس الى اســـنا على الأقل ، فى السنوات الأخيرة من حكم رمسيس الثانى . وكان تخصصه الدقيق هو صنع مراكب الآلهة الصغيرة المتنقلة من الخشب المكسو بالذهب للآلهة :

« لبيت الدعوة لصنع مركب ايزيس الرمزية ... ولبيت الدعوة لصنع مركب خنوم الرمزية ســنة ٥٥ ... ولبيت الدعوة لصنع مركب ست الرمزية ... فى الوجه القبلى سنة ٥٨ » .

وغير ذلك كثير . وقد يصل ما صنعه من مراكب الآلهة الرمزية الى ٢٦ قطعة ! ووصلت شهرة نخت ثوتى حتى منف نفسها ، حيث سجل اسمه فى « رواق المشاهير » فى الهيكل المقبرى لواحد من عظماء المدينة .

ومع ذلك ، فان اسم باكن خنسو هو الذى ألصق بمعبد رمسيس الثانى بشرق الكرنك ، وفى الجيل التالى اشتهرت بوابة المعبد باسم « بوابة باكى العظيمة » - على سبيل الاختصار أو التدليل . وكان مركز باكى من الوجهة الرسمية البحتة موازيا لمحافظ طيبة حونفر ، وللوصيف الأول أوبا (الذى شهدنا ابنه يعمل فى الكرنك - شرق) - وتدل على ذلك المراسلات المعاصرة . وفى القضايا التى تخص المعابد كان باكن خنسو يرأس مجالس التحكيم . وقد عقد احد هذه المجالس فى سنة ٤٦ من حكم رمسيس الثانى (أواخر اغسطس سنة ١٢٣٤ ق.م) . وتتلخص القضية فى أن كاتب المائدة نفر - عبت كان احد الورثة فى قطعة أرض ، فتنازع مع احد الشركاء نيا وكيل كل الورثة (يقارن بموس فى منف !) ليسلمه نصيبه فى الارث ما دام قد حرمه من مستحقاته ، وذلك لكى يسلم نصيبه لمعبد موت ويحصل على الريع منه . لذلك اجتمع المجلس برئاسة باكن خنسو وعضوية كل من : النبى الثانى أوسر منتو ، والنبى الثالث روما (روى) ، وكبير انبياء موت ، وون - نفر ، وكبير أنبياء خنسو ، واربعة من كهنة آمون ، بالاضافة الى كاتم سر المحكمة . وكسب نفر - عبت قضيته . ونظرت قضايا شبيهة فى ذلك الحين منها قضية كاتب طيبة ، محاسب الماشية سى موت الشهير بكيكى (مقبرة ٤٠٩) . وكان الرجل يكن ولاء شديدا لموت باكثر مما يوحى به اسمه . واظهارا لولائه ضم كل ثروته لممتلكات موت - طبعا نظير دخل أثناء حياته - بعد أن حرم عائلته منها كلية (ربما نتيجة نزاع عائلى ؟) .

وقد كوفىء باكن خنسو أخيرا فى السنة الأخيرة من حكم رمسيس الثانى تقريبا ، حيث كان من ضمن مراسيمه الأخيرة مرسوم تعيين روما - روى بن باكن خنسو خلفا لأبيه فى رئاسة كهنة آمون . وقد استمر روما فى الوظيفة عهدين كاملين وجزءا من العهد الثالث بعد رمسيس الثانى . وقد اشار بنفسه الى ذلك بفخر :

« لقد كبرت وصرت شابا فى معبد آمون ... (وبالذات آمون) هو الذى جعل الملك يعرفنى ، وأعلن اسمى امام رجال البلاط ... فى حضور الملك رمسيس الثانى بشخصه ، ...

«وقد كرر نعمته على وجعلنى رئيسا للمعبد ، فى منصب كبير كهنة آمون » .

وبعد طيبة كانت هناك معابد كثيرة لها كهنتها ، لكنهم لم يتركوا آثارا تاريخية تذكر مثلما فعل باكن خنسو . وبجانب الكهنة المتقطعين لوظيفتهم كان الملك يعهد لكبار موظفى الدولة أحيانا « بقيادة مهرجان » لأحد الآلهة على سبيل التكريم ، فيرأس حفل العيد مع الهيئة الكهنوتية كنائب للفرعون .

عبادة الفرعون (الملك) واليوبيلات (الأعياد الثلاثينية)

كرسى الفراعنة كان لابد أن يشغله شخص ما . وهو مركز يعتبره المصريون مركزا مقدسا . لذلك بنيت فلسفة الحكم فى مصر على نظرة ازدواجية تحاول الربط بين الوظيفة (الفرعون) المقدسة ، وشاغلها (الملك) البشر الانسان .

فاذا أخذنا بطلنا رمسيس الثانى كمثل لمن سبقوه أو سوف يلحقونه، فقد كان المصريون ينظرون اليه كملك بشر يجرى عليه ما يجرى على غيره من تقلبات الدهر ، من حزن وسرور ومرض وموت . لكن مقامه كملك يجعله فوق كل الرجال وينصبه وسيطا بين الناس والآلهة .

لكن الملك رمسيس الثانى (أو غيره) لم يكن ملكا عاديا بل كان فرعونا . وهذا المنصب منصب مقدس من يشغله يصبح بموجب وظيفته أحد آلهة مصر أيضا ــ أى أن الفرعون ملك مؤله . وببساطة تكون الوظيفة ــ لا شخصه ــ هى التى أكسبت الفرعون صفة الألوهية . هذا المفهوم قديم قدم تاريخ العصر الفرعونى . فمنذ بداية هذا التاريخ والفرعون الحاكم يعتبر « الصورة البشرية للاله حورس ــ الاله الصقر ، لذلك كان اسم الفرعون هو « تجسيد حورس » . وأضاف رمسيس الثانى لنفسه ألقابا منها « الثور القوى ، محبوب الحقيقة (أى محبوب الربة موت) » . وفى الأزمنة السالفة ربما يكونون قد اعتقدوا أن الملك تحل فيه قوى الآلهة .

وفى عصر بناة الأهرام حدثت تعديلات عقائدية بموجبها أصبح لاله الشمس رع مركز الصدارة بين الآلهة . وبذلك أصبح الملك منذ ذلك العصر هو « ابن رع » ، مخلوق فوق بشرى ليس بالاله الكامل لكن ذاته مقدسة . وبذلك تأسست النظرية ــ انسان مادى بشر يجلس على العرش، ــ وهى « وظيفة » خالدة أبدية (الفرعون) لفترة عابرة ترفعه فوق مصاف البشر . « فالفرعونية » اذن مؤسسة الهية ، شاغلها كرجل ليس كذلك . فاذا مات الفرعون تزول الثنائية لأنه عند الموت يتحد مع الهه .

وكان المصريون القدماء قد ترسخ فيهم منذ العصور القديمة الايمان بالبعث والخلود فى دار البقاء ؛ وكان مظهر هذا الايمان واضحا فيما يحفظونه فى مقابرهم من زاد ومتاع ، وفى تخصيص بهو باية مقبرة لاستقبال المنح والعطايا للاحتفال بالموتى · وكانت اهرامات الملوك تلحق بها معابد لعبادة الملك الميت ـ فقد اصبح الها حال موته · وكان الملوك يعينون لمعابدهم هيئة كهنوتية تعنى بها ويوفرون لها المخصصات لتمويلها كباقى المعابد · وبذلك كان الملك ذو الطبيعة الالهية والذى يشغل وظيفة الهية ، تزول منه الطبيعة البشرية بعد موته وينضم الى محفل الآلهة مع من سبقه من الفراعنة · وما دام الفرعون قد مات فقد اصبح اوزيريس او « قرينه » ·

وفى العصر الامبراطورى استمرت العلاقة الوثيقة بين الفراعنة والآلهة فى التطور والنمو · فقد كان احد مجالات الاله آمون ـ اله الامبراطورية ـ أن يهب ابنه (الفرعون) النصر · لكن فراعنة الامبراطورية رأوا أن اسطورة آمون بهذا الشكل خطر على سلطتهم المركزية · فبدأ ملوك الأسرة الثامنة عشرة فى علاج الوضع بكل حزم لتوفير قدر من التوازن بين الآلهة ، فاخذوا فى تقوية العبادات الأخرى مثل رع وبتاح فى مصر : اما فى النوبة فقد ربطوا بين الملوك والآلهة الموجودة فى معابدها ، كما قاموا بتأسيس هيئة لتكريس عبادة الفرعون القائم ، على اساس مركزه الملكى · واول من قام بمثل ذلك الفرعون امنحتب الثالث ـ نب ماعت رع ، فأسس هيئتين لهذه العبادة (عبادة الفرعون) · على اثر ذلك خضعت معابد صولب الرئيسية بالنوبة لعبادة نب ماعت رع اله النوبة ـ اى لعبادة المظهر الالهى لأمنحتب الثالث ملك النوبة فى ذلك الوقت· ولم يكتف الملك بذلك بل أسس هيئة أخرى فى مصر نفسها لتأليه الفرعون باسمه الحقيقى فى صورة تماثيله العملاقة التى اقامها امام المعابد المختلفة· وجعل لكل تمثال منها اسما مميزا هو فى الحقيقة تجسيد لأحد « المظاهر الالهية للفرعون » ، لكى يعبدها عامة الناس · من هذه التماثيل تمثاله العملاق الذى اقامه بالكرنك عند مدخل حرم آمون الشمالى وسماه نب ماعت رع ، منتو (اى مظهره كاله للحرب) · وعلى نفس الوتيرة اقيم فى مكان آخر تمثالان آخران على نفس النمط هما تمثالا نب ماعت رع ؛ ان الفراعنة ؛ ونب ماعت رع ، حاكم الحكام ·

لكنه بعد رحيل امنحتب الثالث ، لم يطق خلفه امنحتب الرابع / اخناتون صبرا على ما اعتبره دهاء ومكرا ، فاطاح بآمون وباقى الآلهة ونادى بنفسه « تجسيدا حيا لآتون ـ اله الشمس » ـ ونادى بزوجته نفرتيتى رفيقة للاله ؛ وأكد على أن احدا من الناس لن يرى آتون الا من خلال ذاته هو التى حل فيها الاله بنفسه ؛ ولم يستمر ذلك الا خلال فترة

حكمه . فما أن مات حتى عاد كل شيء الى ما كان عليه . ولم يستطع الناس التخلى عما اعتادوا عليه أحقابا طويلة . لذلك أعاد الفراعنة الذين تلوه الاعتبار للآلهة القديمة ومعها بالطبع العبادة الفرعونية ـ فى النوبة على الأقل .

وقام سيتى الاول ورمسيس الثانى من بعده بإكمال ما توقف عنده امنحتب الثالث ـ بل والمارق اخناتون أيضا الذى جسد نفسه الها كما ذكرنا . وكانت خطوة رمسيس أبعد أثرا من أبيه رغم بعدها عن تطرف اخناتون . وكان أول ما عملاه هو الرجوع للعرف الجارى بنحت مقبرتيهما فى وادى الملوك ومعبديهما الجنازيين فى القرنة (ستى) والرمسيوم (رمسيس الثانى) عند الحد الصحراوى . وكل منهما سمى معبده « قصر السنين المليونية ، فى رحاب المملكة الآمونية » ، وضما المعبدين لأملاكه وعبادته . وكرس المعبدان مثل المعابد الهرمية ، لعبادة الملك الميت الى الأبد . وفى طيبة اعتبر معبدا الملكين من معابد آمون أيضا ، وربطا بعبادته فى الكرنك . وكان أهل طيبة يعتبرون آمون لا أوزيريس هو اله الغرب (أى العالم السفلى) . وكان كل من المعبدين له مفهومه المحلى عن آمون ـ فكان آمون يسمى فى الرمسيوم مثلا (المتحد مع طيبة) ، فسمى المعبد الملكى « آمون القاطن فى (المتحد مع طيبة) » . ولكن واقع الأمر يظهر لنا أن السفينة الرمزية (مركب آمون المتنقلة) التى تحمل تمثال الآله الرمزى فى قمرتها وتتقدم المواكب الاحتفالية كانت سفينة رمسيس الثانى نفسه ! ولما كانت العادات قد ترسخت منذ قرون عديدة على النظر للملك الميت باعتباره اوزيريس ، ففى طيبة بالذات اتخذ المفهوم شكلا خاصا اذ أصبح الملكان بعد موتهما الهين واعتبرا صورتين من صور آمون نفسه . ولما كان الملك يريد لعبادة « آمون ـ الملك » الديمومة فقد قام بنفسه بتأسيسها حالما انتهى العمل فى معبده وأصبح معدا للاستعمال .

تميز معبد الرمسيوم بطيبة بين معابدها الجنازية بجمعه بين الملامح التقليدية والتجديدية فى العمارة الفرعونية . فكانت كل المعابد قبل الرمسيوم تحتوى على سلسلة من الساحات العريضة المفتوحة أمام مبنى المعبد الحجرى الأصلى . لكن الرمسيوم امتاز باحتوائه على ساحة مفتوحة بها صفوف أعمدة ثم بهوين أو ثلاثة من النوع المسقوف ذى الأساطين وقدس الاقداس تحفه غرف الخدمات . وينتمى معبد سيتى الأول لهذا النوع بالمعنى الواسع .

وتفوق رمسيس الثانى فى استغلال المساحة الواسعة . فشرع فى بناء صرح ضخم للغاية عرضه بعرض المبنى كله ثم بنى فناءين متسعين

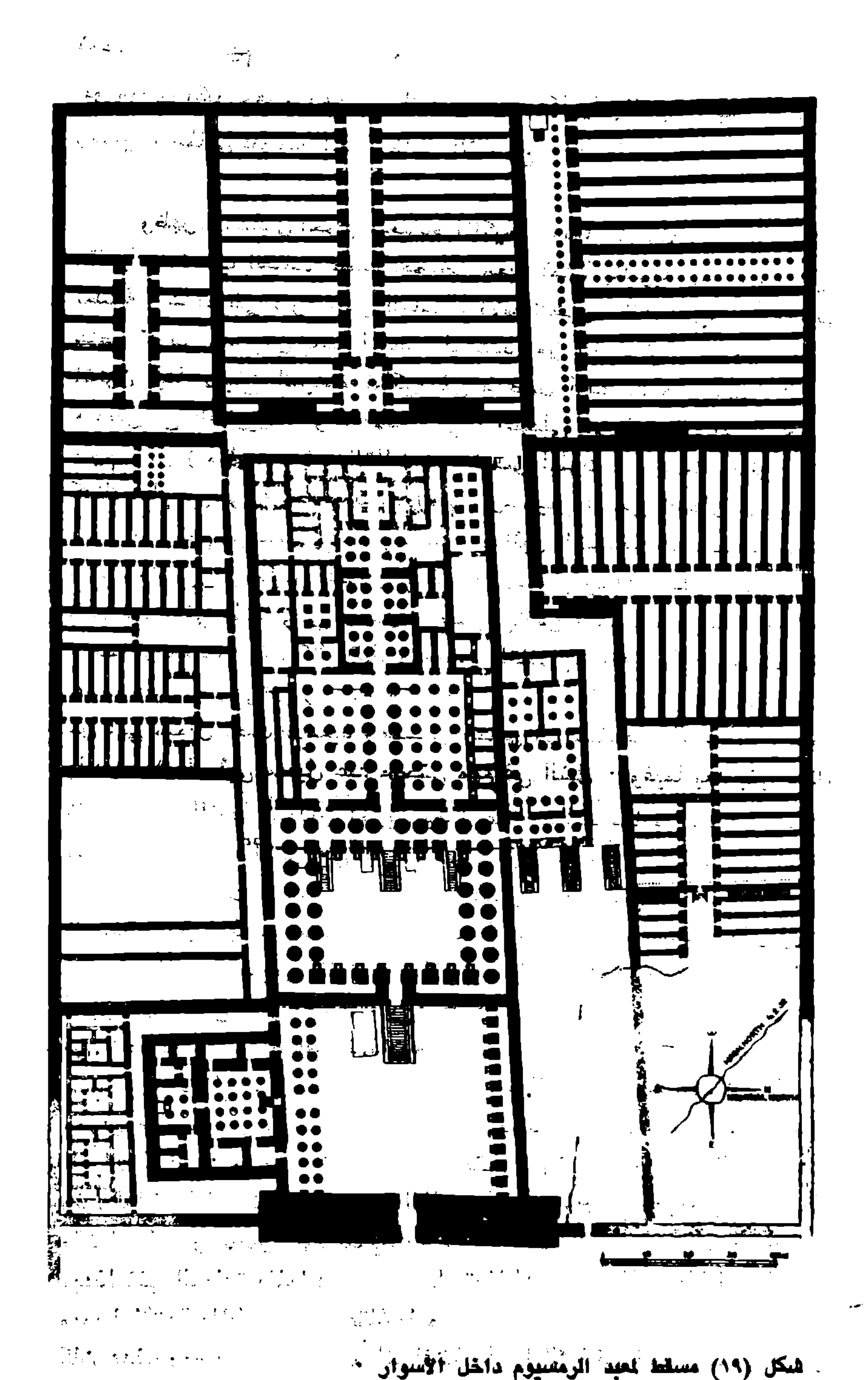
متتابعين مفتوحين بهما صفوف من الأساطين • وبنى بالمعبد قصرا صغيرا (كاستراحة ملكية) ـ وهو من الملامح التقليدية فى المعبد ـ جنـوب الساحة الأولى • لكن تمثال الملك الجالس الكتلى العملاق الذى يرتفع بحيث يعلو فوق الفناء (وهو الذى أطلق عليه الشاعر الانجليزى شيلى اسـم أوزيمانديـاس) فليس له ما يضارعه فى أى مكان • ويلى الساحة الثانية مباشرة بهو ذو أساطين مسقوف واسع لا يكبره فى الحجم سوى مثيله فى الكرنك • وقد أدخلت فى زخرفة هذا البهو والفناء الثانى عناصر تجديدية، اذ صورت مشاهد لمواكب الأمراء والأميرات من ابناء الملك على جدرانهما الخلفية • ويلى البهو المسقوف انشاءات تقليدية ، فتأخذ ابهاء الأساطين المتتابعة فى الصـــغر حتى تنتهى عند قدس الأقـــداس وغرف الخدمات المحيطـة به •

والجزء الأوسط من الجدار الجنوبى مشـــغول كله بمعبدين توأم متجاورين ، يظن أن الملك كرسهما للملكة تويا (توى) أمه والملكة نفرتارى رفيقته الكبرى • وللساحة حول المعبدين مشغولة بصفوف من الأروقة الطوبية للخزين وسكنى الكهنة والأغراض الأخرى •

والمجمع كله بعد ذلك معزول تماما عن العـالم الخارجى حيث انه مسور بسور طوبى ضخم يحجب المعابد المزخرفة وتوابعها الطوبية عن الأنظـار •

ورغم أن طيبة احتوت معظم المعابد الجنازية الرئيسية للفراعنة ملوك الامبراطورية ، الا أن هذه المعابد لم تكن حكرا عليها • فقد بنوا ومن ضمنهم رمسيس الثانى نفسه معابد وهياكل أصغر حجما فى أماكن أخرى • وكرس رمسيس الثانى مثل هذه المعابد لعبادتى بتاح ورع ، ودعمها بالمخصصات اللازمة • وكانت الهياكل الصغيرة المشابهة كثيرا ما تضاف الى المعـابد بالمدن الرئيسية بالأقاليم مثل نينسو • وفى أبيدوس قامت معابد رمسيس الثانى وسيتى الأول بدور مشابه وفيهما كانت مساواة الملكين بأوزيريس صريحـة •

وأخيرا كان معبد أبى سمبل الكبير فى النوبة الذى وصفه عشاجب سد بأنه « قصر ملايين السنين ، المنحوت فى الجبل » ، والذى زعموا انه تحت رعاية رع وآمون قد تحول أثناء التنفيذ لينتمى الى ديانة رع بأكثر من انتمائه لديانة آمون • ثم تحول مرة اخـــرى ليصبح معبدا لرمسيس الثانى نفسه بصفته أحد مظاهر رع ، ومن المحتمل أن تكون سفينة رمسيس الثانى المحمولة الصغيرة قد حفظت فى مقصورة أمام آلهة الامبراطورية المنحوتة فى الصخر ـ بتاح ، ورع ، وآمون ومعهم رمسيس الثـانى نفسه



شكل (١٩) مسقط لمعبد الرمسيوم داخل الأسوار .

تحت لقب « المقيم فى ممتلكات ملك رمسيس الثانى ، بالمقر » · وبذلك اصبح أبو سمبل أكبر معابد رمسيس الثانى التسنكارية بالنوبة ، بعد تصعيد رمسيس الثانى ليصبح أحد مظاهر الاله رع ـ اله الشمس ·

وظهرت أشكال أخرى للعبادة الملكية · منها ما فعله رمسيس الثانى مقتديا بأمنحتب الثالث عندما خصص معبد أكشا بالنوبة لأحد تماثيله الملكية وأهداه الى « رمسيس الثانى ، الآله الكبير ، اله النوبة » · أما فى عاصمته بى رمسيس بالدلتا فقد أقام عدداً من التماثيل الضخمة لنفسه لتكون قبلة لأتباع العبادة الملكية فى شخص الملك الاله رمسيس الثانى « منتو فى القطرين » أو « الاله » أو « المتجلى بين الآلهة » أو « محبوب آتوم » أو (مثل أمنحتب الثالث) « شمس الملوك » و « ملك الملوك » · كذلك أقام مجموعة أخرى تحت اسم « رمسيس الثانى الفعال من أجل » آمون أو آتوم أو ست رع · وهذه التماثيل الضخمة العملاقة اقيمت أمام معابد بى رمسيس الكبرى ، خارج الأسوار وظاهرة للجمهور ، كما اقيم مثلها فى طيبة وأبى سمبل وبعضها بنفس المسميات كما لو كانت « مظاهر محلية » لأشكال الملك رمسيس الثانى بصفته الها · وقد انتشرت عبادة الفرعون فى بى رمسيس خصوصا بين فئة الحرس · وبعد الانتهاء من ابى سمبل تحت « معبد رمسيس الثانى فى مقاطعة رع » فى الصخر بالدر ، شمال ابى سمبل عند منحنى مهم فى النيل ·· وفيما بعد بنى ستاو نائب الملك بالنوبة معبدين آخرين يصارعانه ـ أحدهما فى وادى السبوع كرسه لآمون ، والثانى فى جرف حسين وكرسه لبتاح · فى هذه المعابد الثلاثة كانت آلهة الامبراطورية الثلاثة آمون ورع وبتاح تعبد فى الظاهر ـ الا أنه تكرر فيها ما حدث فى أبى سمبل اذ وضع فى محاريبها الزورق الرمزى للاله رمسيس الثانى كشكل أو مظهر « للاله رع » أو « للاله آمون الرمسيسى » أو « للاله بتاح الرمسيسى » · فكأنما هذه المعابد كانت فى الحقيقة معابد اضافية تذكارية للملك نفسه · ولم يقتصر الأمر على آمون ورع وبتاح ، بل حدث نفس الشىء مع آلهة أخرى فقد اعتبرت آلهة أخرى مثل ست وحرى شف آلهة « رمسيسية » ، بل ضمت اليهم بعض الربات كذلك : ولجيت (أودجو) وحتحور ونفتيس وعنات الكنعانية · وفى أواخر أيامه تلقب رمسيس الثانى بلقب « روح رع حر آختى العظيمة » واضافه لبى رمسيس · وبذلك يصبح هو تجسيد اله الشمس على الأرض · وبهذا ففى العبادة بالمعابد ـ بجعل تماثيله العملاقة قبلة الجماهير ، وبربط الآلهة بالملكية ربطا عقائديا محكما بحيث يسند كل منهما الآخر ـ كان هدف رمسيس الثانى هو المحافظة على الملكية فى قلب النسيج الدينى

ايمانا وعملا ، وعلى كل المستويات بالتفاعل مع الآلهة على عكس اخناتون الذى دخل فى صراع معهـا ٠

اله اليوبيـــلات مثـل ابيـه بتـاح تاتنن

منذ القدم والتوتر قائم بين الحقيقة المؤلمة الواضحة وهى أن الملك شخص لابد أن يشيخ ويموت وبين النظرية العليا التي تقول بديمومية الملك ـ اى الوظيفة ٠ ومنذ الأسرات القديمة الأولى وهم يجرون طقسا ســحريا محكما لتجديد شباب الفرعون الحاكم : هذا هو «حب سد» أو «عيد سد» المذكور فى كثير من النقوش ، وأطلق عليه حديثا « عيد ـ اليوبيل » ٠

وفي العصر الامبراطورى الذي ينتمى اليه رمسيس الثانى اعتاد الملوك على الاحتفــال « باليـوبيل الأول » بعــد ٣٠ سنة من اعتـلائهم العرش ٠ « وفي كثير من الأحيان كان الملك يتمنى أو يتمنى له طول البقاء ليقيـــم « ملايين اليوبيلات » باسم الآلهة ؛ لكن من عاش منهم ٣٠ سنة ليقيم يوبيله الأول من هؤلاء كان قليـلا ٠ لكن تحتمس الثالث وأمنحتب الثالث حكما حكما طويلا زاد كثيرا على ثلاثين سنة ، واحتفل كلاهما باليوبيل الأول سنة ٣٠ من اعتلائهما العرش ، وتلاه اليوبيل الثانى سنة ٣٤ ثم الثـالث سـنة ٣٧ ٠

ولكن بعد امنحتب الرابع ـ وبطرح احتفالات اخناتون غير الشرعية ـ لم يسجل لنــا التاريخ قبل رمسيس الثانى اسم أى فرعون آخر احتفـــل بيوبيله الثلاثينى ٠ وقد دخل رمسيس الثانى سنة حكمه الثلاثين فى ســنة ١٢٥٠ قبل الميلاد ٠ وبعد عمل الاستعدادات اللازمة ، أعلن الأمير خـع ام واست بدء الاحتفال باليوبيل الأول ، وطارت الأخبار بذلك فى أنحــاء البلاد حتى الشلال الأول جنوبا ٠ ولكن الاحتفال الحقيقى أجرى فى بهـو الاحتفالات العظيم الذى بناه رمسيس الثانى فى بى رمسيس ـ وهو بهـو أســاطين ضـخمة يبـلغ ارتفاعها ٣٥ قـدما ، زين على مر السنين بمزيد من التماثيل والمسلات ، تحت الرعاية المشتركة للالهين بتاح تاتنن ورع آتوم اله الشمس ٠

اما الاحتفـال نفســه فكان احتفـالا رسميا تقليـديا تقيد بكثيـر من الاجراءات التى اتبعت فى اليوبيلات الســابقة ٠ وتغطى احتفالات اليوبيل فترة شهرين أو أكثر قبل وبعد عيد الجلوس تجرى فيها عدة طقـوس ٠ فى الشهر الأول يقام عمود « جد » ـ رمز الاستقرار وتجديد الملك ، ثم شعائر انارة المنصة ؛ ثم تقديم كبراء الدولة للفرعون ٠ ويوم الجلوس ـ أول أيام السنة الثلاثينية ـ يذهب الملك الى المعبـد لاجـراء سلسلة من الطقــوس

المعقدة ، منها تتويجه ملكا للقطرين ، فى حضرة التماثيل الرمزية لجميع آلهة مصر التى تجلب خصيصا من شتى انحاء البلاد بمصاحبة كهنتها الموكلين بها . وقد أعطى رمسيس الثانى لهذه الفكرة صفة الدوام بأن أقام فى بهو الاحتفالات سلسلة من تماثيل المجموعات لنفسه مع مجموعة كبيرة من الآلهة . وكان شهود الاحتفال هم : الملك ، والعائلة الملكية والكهنة والموظفون ومعهم كل فئات المبدعين كالموسيقيين والراقصين . وكان الطعام والشراب الفاخر يقدم للجميع .

وكالعادة لم يلتزم رمسيس بعد ذلك بفترة الثلاثين عاما ليقيم اليوبيل الثانى ، بل سار على سنة سلفه امنحتب الثالث وظل يحتفل باليوبيل كل فترة لتجديد شباب الملك . وكان الأمير خع ام واست هو المسئول عن اليوبيلات والاعلام عنها لمدة طويلة بالاشتراك مع الوزير خاى . فاعلن عن اليوبيل الثانى سنة ٣٣ ونفذ فى أواخر ٣٣ وأوائل ٣٤ . وأعلن عن ثالث اليوبيلات سنة ٣٦ . ونفذ فى أواخر ٣٦ وأوائل ٣٧ . واستمرت اليوبيلات على هذا النمط فى عهد رمسيس الثانى بصورة غير مسبوقة ولا متبوعة فى التاريخ الفرعونى كله . فأحيا العيد الرابع سنة ٤٠ والخامس ٤٣/٤٤ ، أعلنهما الأمير خع ام واست أيضا مع نفس الوزير، وتلاهما العيد السادس سنة ٤٥/٤٦ وانفرد خاى باعلانه ، ثم العيد السابع (٤٨/٤٩ غالبا) ولم نعرف عنه اية تفصيلات ، وتلاه العيد الثامن (٥١/٥٢ غالبا) اما العيد التاسع فقد أعلن عنه الوصيف الأول يوبا سنة ٥٤ ونفذ فى أواخر هذه السنة وأوائل سنة ٥٥ . ولما حل موعد العيد العاشر سنة ٥٧ أعلن عنه وزير طيبة الجديد نفر رنبت ونفذ فى أواخر السنة واستمر الى أوائل سنة ٥٨ ، كما أعلن نفس الوزير عن العيد التالى - الحادى عشر (سنة ٦٠/٦١) . وهكذا دواليك ، اذ نعلم أن الملك احتفل باليوبيل الثالث عشر سنة ٦٣/٦٤ والرابع عشر ٦٥/٦٦ (حسب صحة تاريخ العيد الثالث عشر) . وقد نفذ العيد الرابع عشر هذا قبل فترة قصيرة من وفاة الملك سنة ٦٧ من حكمه المديد . ويبدو أن الاحتفالات الكثيرة بهذا الشكل قد أحدثت أثرا عكسيا فأرهقت الملك وأثرت على صحته العليلة فى سنه الكبيرة ، فأضرته أكثر مما نفعته ، ولم تحدث أثرا يذكر فى رفع معنوياته .

ومما تجدر الاشارة اليه أن احتفالات بى رمسيس الرسمية ، كانت توازيها احتفالات شبيهة فى المعابد الكبرى الأخرى فى انحاء البلاد . ففى منف كان يجرى احتفال كبير فى البهو الغربى الرائع - ثانى الأبهاء

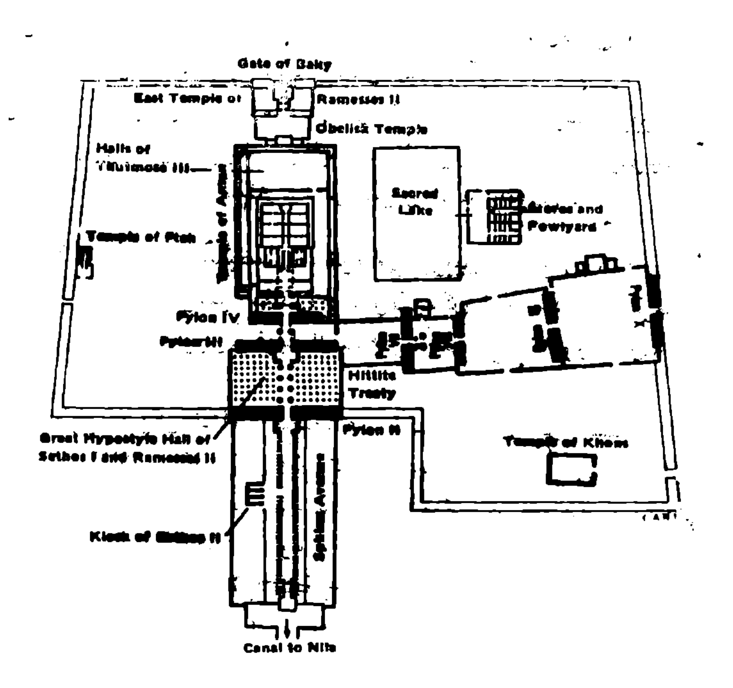
العظيمة التى خصصت لليوبيلات ٠ ولا يخفى أن هذه لفتة سياسية مقصودة لطمأنة كهنة بتاح على مكانتهم المميزة فى اليوبيلات ٠

ولكن أهمية اليوبيلات لم تقتصر على الجانب الرسمى ، لكنها كانت أعيادا عامة أيضا ، ولها عند الناس أهمية كبيرة ٠ فبطريقة ما ربطت التقاليد هذه الأعياد بالنيل نفسه ، فكان الناس يتفاعلون بها ، ويرونها بشير خير لأنها ترضى النيل فيفيض جالبا معه الخير والرخاء ٠ وتوجد قصيدة انشدت فى اليوبيل الأول سنة ٣٠ لرمسيس الثاني تقول :

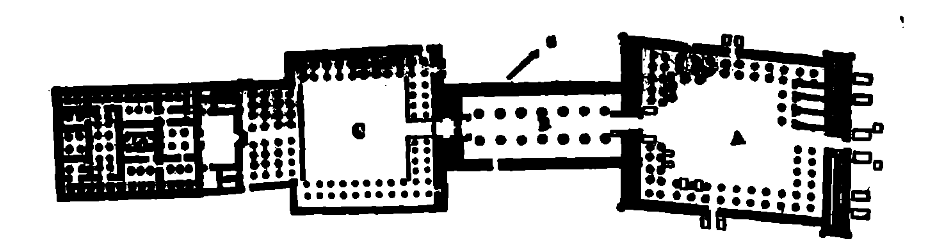
« [انتبه] الفيضان عظيم فى يوبيل رمسيس الثاني الأول ؛ [النهر] (يعلو) بالذراع ، ولا يمكن لأى سد أن يعوقه ؛ حتى الجبال سيجرى فيها السمك ويعيش مع الطيور البرية ٠٠! »٠

وبالطبع لم يكن الناس جميعا فى شـــغل من أمر الفيضان أو حتى تجديد شباب الملك ، فذلك أمر متروك للشرذمة المخاتلة التى يجب أن تنشط أو تتظاهر بالنشاط فى هذه المناسبة ٠ أما باقى الناس من عامة وكبـراء فقد تباين تأثرهم بالمناسبة ٠ ومن الوقائع الطريفة أن أحد عمال المقبرة الملكية بطيبة واسمه آمك كتب يشكو الى أمه من تحميله مسئولية المحافظة على خفين من الجلد (صندل) يخصان جنديا اســـتدعى للخـــدمة فى الشـــمال :

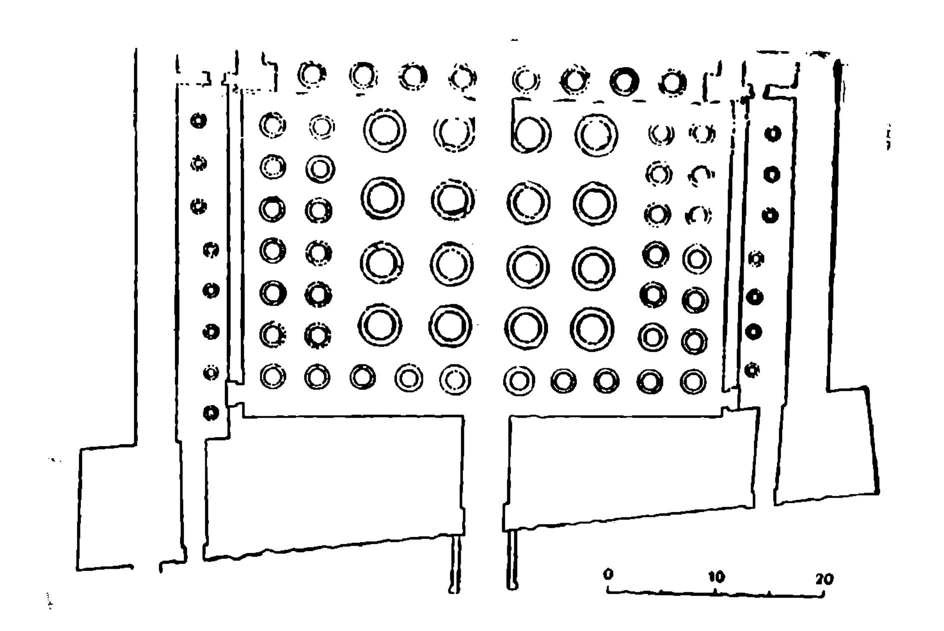
« سلمنى الخفين وقال : « احفظهما لى » ؛ وبحق بتاح لقـد انسل بالليل الى الشمال ٠٠ ما معنى ذهابه للشمال من أجل اليـــوبيل ؟ » ٠



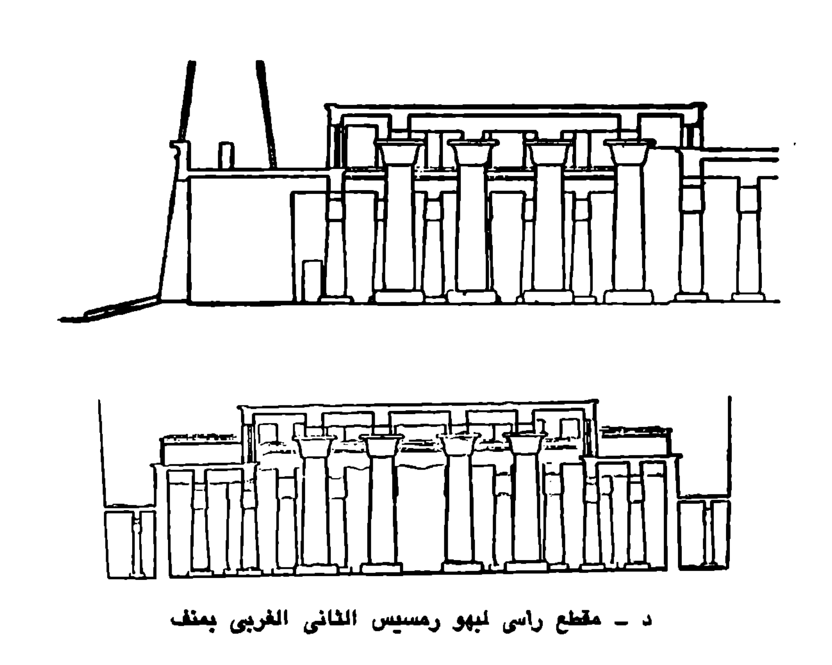
شكل (١٢٠) معبد آمون بالكرنك فى عهد الأسرة التاسعة عشرة



ب ـ مسقط لمعبد الاقصر



ج ـ مسقط لبهو رمسيس الثـانى الغربى معبد بتـاح بمنف

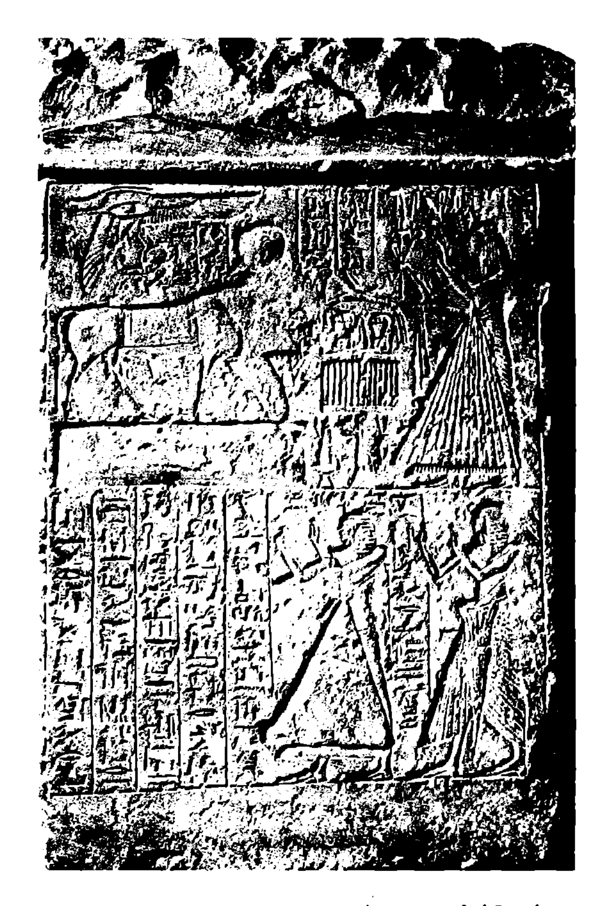


د ـ مقطع رأسى لبهو رمسيس الثانى الغربى بمنف

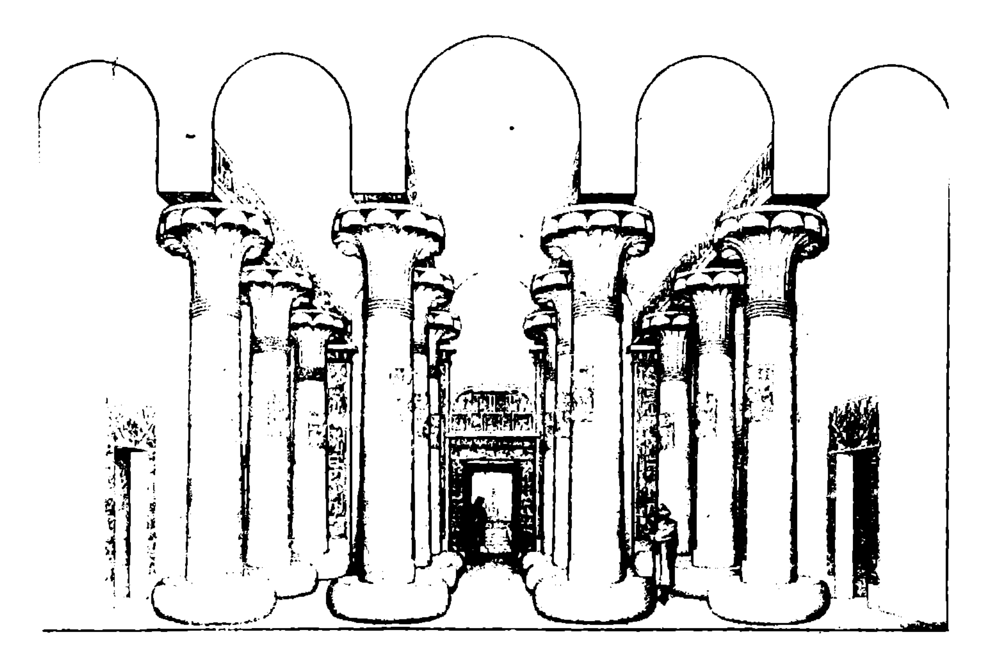




أعظم بطاقة عرض متحفية فى العالم
نقش على هرم أو ناس



لوحة للأمير مرنبتاح
بصحبته كاتم أسراره جاى يقدسان العجل أبيس
من السيرابيوم (حاليا فى متحف اللوفر - باريس)



ـ منظر من البهو المعمد إلى قاعة العرش.
منظر تخيلى لقصر رمسيس الثالث بطيبة الغربية متطابق
فى تصميمه مع قصر رمسيس الثانى.



تمثال كتلى للوزير پاسر
(المتحف المصرى بالقاهرة J. 38062)





- انتصار موسى فى ساحة القضاء

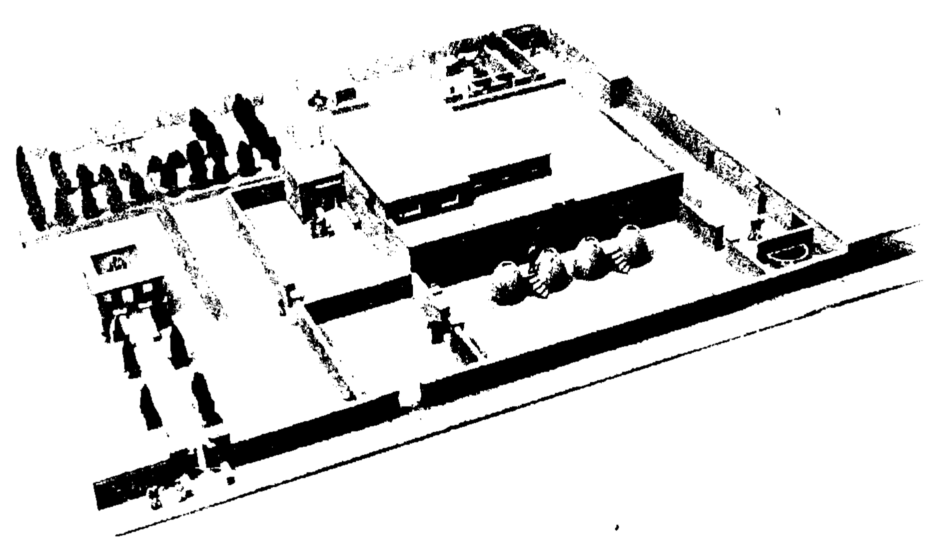
أعلا إلى اليسار: القضاة جالسين، وكاتب يقرأ الحكم..

أعلا إلى اليمين: المذنبون ينحنون تحت عصا الضابط وموسى يرفع يده استحسانًا لصدور الحكم لصالحه.

أسفل إلى اليمين: موسى يغادر المحكمة ويداه عاليتان بفرحة النصر بينما ينحنى خصمه الخائن.



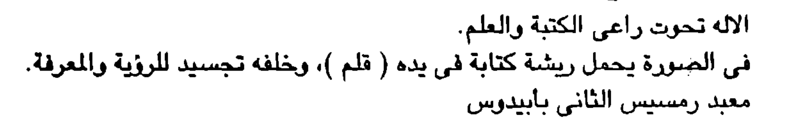
تابوت ستاو الحجرى.
نائب الملك بالنوبة (المتحف البريطانى)



- نموذج فيلا مصرية، فترة العمارنة
عبارة عن (دور واحد متشعب) يتكون من بهو المدخل
وغرف معيشة، وغرف نومه، وأدوات فى مواضعها
وحديقة ومخازن الغلة وإسطبل ومرأب عربات.

بيت مصرى بمدينة، عن نموذج قديم
له غرف خدمات وغرفة عمل فى البدروم.
ثم ردهة أماميه وغرفة معيشة.

وبالدور العلوى غرف نوم الأسرة
و «بيت صيفي»، ومخزن وسطح



الاله تحوت راعى الكتبة والعلم.
فى الصورة يحمل ريشة كتابة فى يده (قلم)، وخلفه تجسيد للرؤية والمعرفة.
معبد رمسيس الثانى بابيدوس

THE TEMPLE STORE ROOMS

In this drawing the walls, roofs, and columns are coloured black where roofs and walls have been removed to show the inside of the building

Mud-brick wall surrounding the whole area of the temple grounds

PYLON

SANCTUARY

INNER HALL

STORE ROOMS

HYPOSTYLE (many-pillared) HALL

OPEN COURT with one or two rows of columns around court

AVENUE OF SPHINXES

OBELISK

PYLON

SACRED LAKE

Groves of trees planted in holes dug in the sand and filled with earth

The God, in his boat shrine, is carried in procession from the temple on a feast day

THE INSIDE OF A TEMPLE AND ITS SURROUNDINGS

قطاع لمعبد نموذجي مصري من الدولة الحديثة .

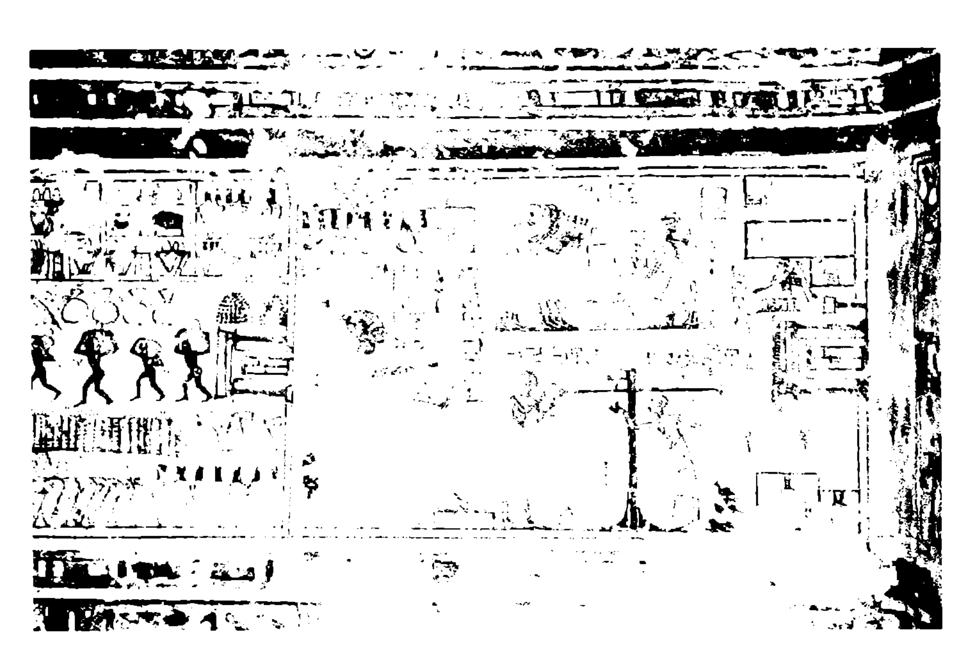




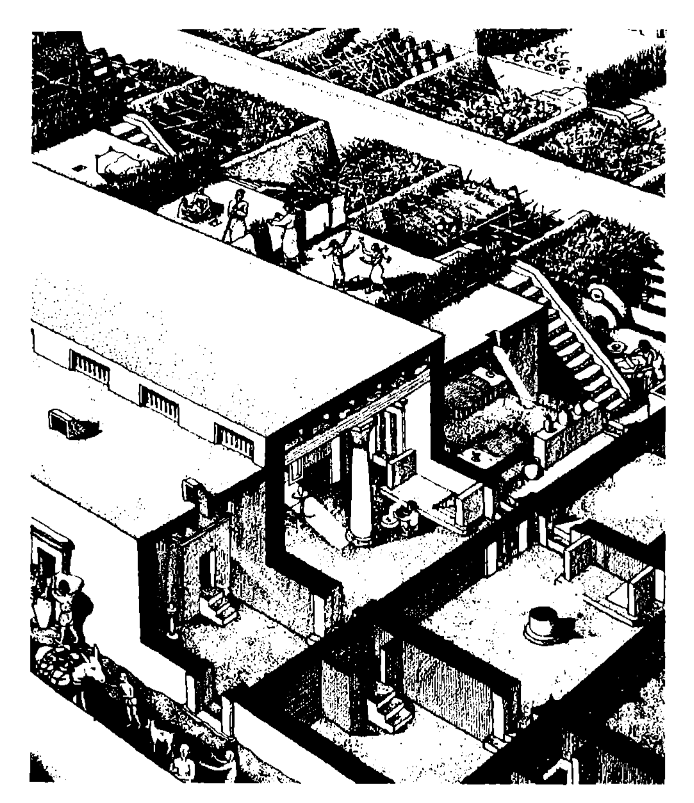
ـ تمثال كتلى لباكن خنسو كبير كهنة آمون؛ نقوشه تحتوى على تفاصيل سجله الوظيفى وتدرجه فى وظائف السلك الكهنوتى بمعبد آمون حتى نهاية السلم (الكهانة العظمى). ميونيخ، مقتنيات حكومة بافاريا.



اضطراب فى مزرعة .
الحراث يقف عاجزا، وراعى بقر غاضب يهدد بقرة عاصية (مقبرة ١٦)



ـ العمل فى خزاة آمون.
إلى اليمين: نفررنبت يمسك دفتر الصناع، بينما إلى اليسار: الخدم ينقلون البضائع إلى أروقة الخزانة.



- قرية العمال بدير المدينة - شكل تخيلى لبيوت نموذجية.

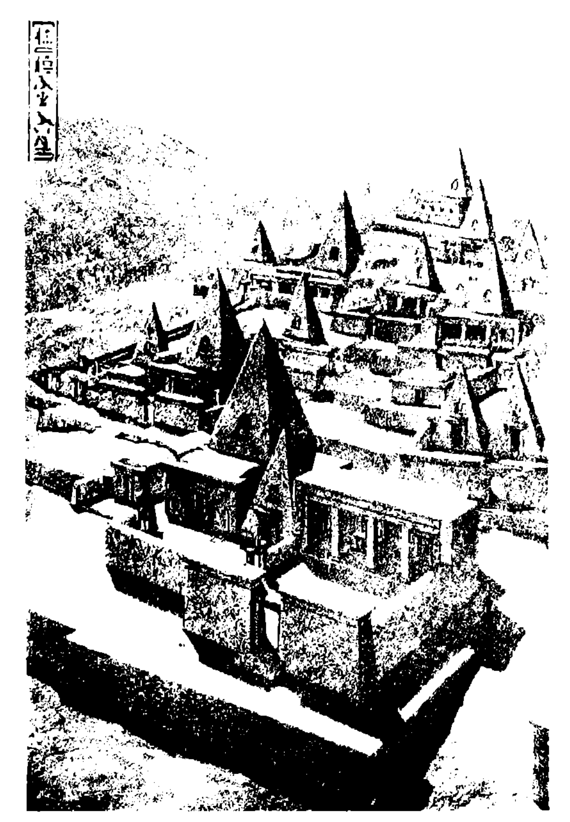


- لوحة محطمة يظهر فيها رمسيس الثانى إلى اليسار،

فى الوسط يحييه الوزير باسر، وإلى اليمين زميله رعموزا كاتب دير المدينة.



ـ الغسالون منهمكون فى العمل لتنظيف أوساخ الملابس الكتانية وتبييضها (مقبرة ٢١٧).



دير المدينة
مقابر عمال القرية .
كل مقبرة لها فناء، ورواق معمد، وهرم طوبى صغير فوقها وهيكل داخلى . وحفرة محجوبة تؤدى إلى غرف الدفن تحت الأرض



قطط إبوى العجيبة! (مقبرة ٢١٧)



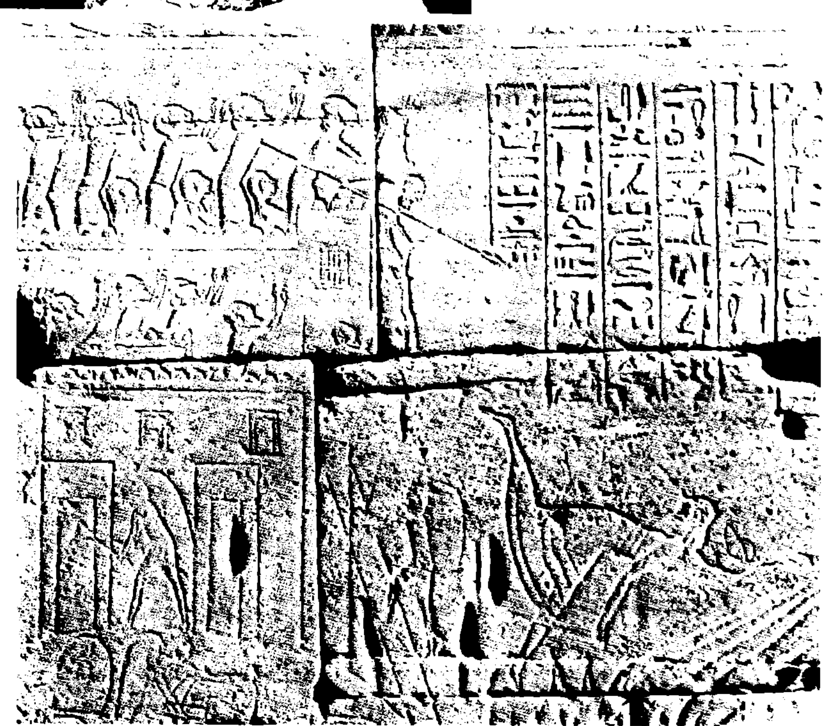

راس مومياء رمسيس الثانى .
الوجه الكامل (صورة امامية)، وصورة جانبية (المتحف المصرى ـ القاهرة)
الملامح تدل على النبالة والشمم والكبرياء .



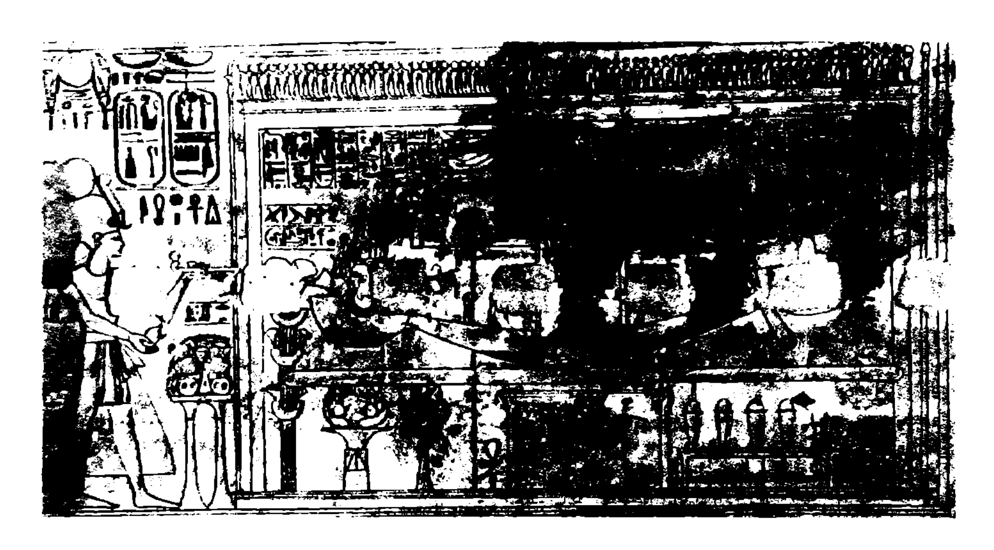

تمثال أوشابتى لرمسيس الثانى، متحف بروكلين .
فى الحياة الآخرة تحل هذه التماثيل محل صاحبها
فى عمل أى شيء ، وتحمل تعويذة مناسبة لذلك .



تمثال مرنبتاح، ابن رمسيس الثانى وخليفته من معبد مرنبتاح التذكارى فى طيبة الغربية . المتحف المصرى .

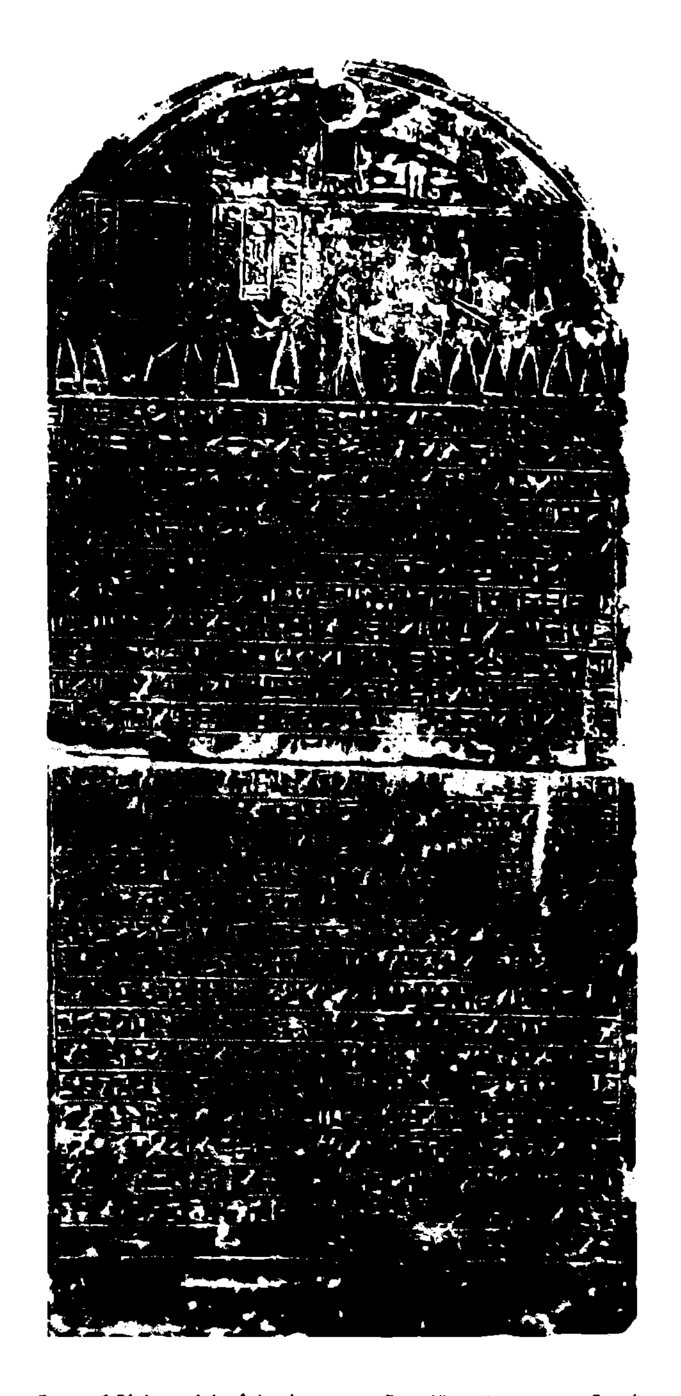


- استسلام قلعة عسقلان بكنعان للقوات المصرية؛ الأرجح أنها من عهد مرنبتاح لارمسيس الثانى. الكرنك، معبد آمون.



- رمسيس الثالث يقدم العطايا أمام الزورق الرمزى لسميه وسلفه رمسيس الثانى.وقد كرس له هيكلا خاصًا فى معبده التذكارى بطيبة، فى مدينة هابو..

تمثال رمسيس الثانى الضخم « اوزيمانديا س ، فى الساحة الامامية بالرمسيوم .
الحطام يضم قدماء فى منتهى الضخامة بلا جذع من الحجر
وفتات من الجذع والرأس خلفها .



ـ لوحة بنترش منذ ٣٠٠ سنة ق. م، وعليها أساطير بطولة كهنوتية لتمجيد الإله خنسو بمناسبة شفائه لأميرة أجنبية فى بلاد نائية، مستوحاة من العلاقات المصرية الحيثية فى عهد رمسيس الثانى قبل ذلك بألف سنة. (متحف اللوفر).



رمسيس فاتح العالم ؟
اثناء حملة اليونسكو لانقاذ آثار النوبة، كانت معابد رمسيس رموزا لما يحتمل فقده، فصور وصورت معابده على طوابع بريدية فى بلاد كثيرة .

http://kotob.has.it

الفصل التاسع

حيــاة العمــال اليوميــة فى عصر رمسيس الثـــانى

كان الفرعون يتربع وحده على رأس النظام فى مصر ، يليه مباشرة وزيرا الجنوب والشمال ، وتحتهما باقى وظائف الدولة العليا . يلى هؤلاء فى الهرم الوظيفى رجال الصف الثانى فى قطاعات الدولة والأقاليم مع العمد والشيوخ المحليين وهيئات المعابد الصغرى حتى كاهن القـــرية ، الذين يمثلون باقى موظفى الدولة . وكان بجوار هؤلاء الموظفين الرسميين من مختلف الدرجات مجموعة كبيرة من الحرفيين المتخصصين من كل صنف كالفنانين والمثالين والصياغ والزجاجين وصناع الأدوات المعدنية والنجارين والاسكافية والخزافين ممن تحتاج اليهم ظروف المعيشية . هؤلاء تضاف اليهم فئة الجنود اللازمين للحرب والدفاع . هذا النظـام الهرمى المحكم لابد أن يجد الأساسيات اللازمة لحيــاته من مأكل ومشرب وخـــلافه . ولما كانت مصر القديمة تنحصر ثروتهـا فى الأرض الزراعية لذلك كانت طبقة الفلاحين بنوعيها ـ مزارعين ورعاة ـ هى التى تكون القاعدة العريضة التى يستند اليها هذا الهرم فى تدبير حياته اليومية . فهم أهل الزراعة والرعى الذين بجهودهم يوفرون الطعام للجميع وبدونهم ينهار النظام .

حيـــاة الزراعـة

كان العمل الزراعى فى مصر القديمة دائما شاقا ومرهقا ، ومع ذلك لم يكن يلقى ما يستحقه من التقدير . وكانت حالة الفيضـــان كل سنة تهم كافة المصريين والفلاحين منهم خاصة . ذلك بأن الفيضـــان المنخفض لم يكن يصحبه تخفيض فى الضرائب ، لذلك فبعد تســـديد الضريبـة لم يكن المتبقى من الحبوب لدى الفلاح كافيا لاطعام الأفواه الجائعـــة التى يعولهـــا . وكان الكتبة يستغلون ذلك لتذكير طلبتهم بمتـــاعب الفلاحين لحثهـــم على الانتظـــام فى سلك الكتبة ، ولا يكفون عن تذكيرهم بما يلى :

« حالة الفلاح عنـــد تقدير ضريبـــة المحصول عليه ·
فعندما تذهب الثعابين بنصف المحصول وفرس النهر بالنصف
الباقي · وعندما تعبث الفيران بحقله ويهبط عليه الجراد وتأتي
عليه المواشي · وعندما تسبب له العصافير الدمار والفقـر ·
وعندما يقع المحصول في حجرة الدرس تحت أيدى اللصوص
·· ثم عندما يرسو محصل الضريبة على البـــر ويشرع في
تسجيل ضريبة الحصاد ، ومعه الحمالون بمقاطفهم ، والنوبيون
يحملون حبال النخيل يقولون : « ســـلم الحبوب ! » مع أنه
لا حبوب · فيضربونه ·· ثم يلقونه في البئر ·· وهكذا تختفي
الحبوب ·· » ·

وفي موسم الفيضان (يوليـة ـ سبتمبر) تكون الفلاحة معطلة ·
فكان الفلاحون يجندون ليعملوا بالسخرة في مشـــاريع غير زراعية مثل
العمل في المحاجر وفي قمائن الطوب وكمناولين وحمالين في مشـــاريع
البناء الى غير ذلك · وما أن ينحسر الفيضان حتى يعودوا ليتعهدوا الأرض
من جديد ويقوموا بخدمتها وحرثها ثم بذر الحبوب بها ثم دفع الخنازير
للمشي عليها لتغطيتها · بعد ذلك عليهم تعهد المحاصيل والاحتيال على ريها
كلما أمكن بشتى الطرق : مساق تغذى من قناطيس بها بعض مياه النهر
أو قنوات توصل ماء النهر الى السواقي أو برفع ماء النهـر الى المســاقي
بالشادوف أو بالآبـــار الجوفيــــة ان أمكن · وعنـــد حلول الربيـــع
(مارس/أبريل) يحضر مندوبو الضرائب ويأخذ القياســون في تقدير
المحاصيل الواقفة (أى على الطبيعة في الحقل قبل تمـام نضـــجها) ،
ثم يفرضون عليها الضريبة التي سوف يسددها الفلاح أو صاحب الأرض
لخزينة الدولة · وعندما تنضج المحاصيل تضم الحبوب وتدرس ثم تنقل
الى الصوامع التابعة للمؤسسات أو مخازن الدولة تاركة الفلاح في حيرة
من أمره (المقصود لا يبقى ما يكفيه هو وأسرته) · وكان الفـــلاح عادة
يخصص جزءا من الأرض لزراعة الخضر (مثل الخس والخيار والبصل
والبطيخ) كذلك كان يزرع جزءا منها بالكتان وعلف الماشية · وكانت
هذه المحاصيل الثانوية تترك للفلاح عادة · كذلك كان السمك متوفرا
للفلاحين بعد الفيضان وكانت لديهم وسائل مختلفة لصيده ·

ورغم قسوة حيـــاة الفلاح المصرى القـــديم ، فقد تمكن من تكييف
أوضاعه لتتلاءم مع أحلك ظروف العيش · وخلافا لادعاءات الكتبة النظرية ،
فان النقوش المصورة على مقاصير المقابر تظهر الجانب الوردى فقط من
حياة الفلاح : فيضانات مخصبة ومحاصـــيل وافرة وماشية ســمينة ،

واهم من ذلك جو من الرضا والقناعة سبائد بين الفلاحين ومن يشرف عليهم (الخولي) . ليس هذا فقط بل ان أصحاب الحرف أنفسهم يصورون في حياتهم الأبدية بعد الموت وهم يزرعون المحاصيل الجيدة ويعنون بهـــا (مثل سن ــ نجم العامل بالمقبرة الملكية) . وفوق ذلك كله أدخلت الفلاحة ضمن الأنشطة المقدسة (الفقرة ١١٠ من كتاب الموتى ونصوص التوابيت الأقدم منه) ، فقد كانت الفلاحة هى القاعدة التى تبنى عليها حياة الناس فى مصر . وتعكس قصة « الأخوين » صــورة لحياة الفلاح المتواضــعة الراضية ، واحساساته نحو ماشيته :

« فى ســـالف العصر والأوان ، كان يعيش أخوان . أكبرهما آنوب وأصغرهما باتا . وكان لآنوب دار وزوجة . وكان باتا يعيش معه كابنه ، فكان آنوب يصنع له الملابس . وكان باتا يرعى الماشية فى الحقول ويحرث الأرض ، ثم كان هو الذى يضم المحصول ويقوم بكل العمـــل فى الحقل .. وكان بعد العمل يعود للدار كل مســاء ومعه الخضر واللبن والحطب وكل زرع طيب . كل ذلك يضعه بين يدى إخيــه وزوجته . وبعد أن يأكل ويشرب كان باتا يأوى الى الحظيرة وينام بين ماشيته . وكان كل حين يسوق ماشيته لترعى فى الحقول ، فكانت تحدثه « بأن المرعى هنا أو هناك أخصب ! » ، وكان يستمع لما تقول ، فيسوقها الى المرعى الخصب الذى اختارته (لنفسها) . وأصبحت الماشية التى يرعاها صحيحة سليمة (سمينة) وأنتجت صغارا كثيرة ..

ولما آن أوان الحرث قال له أخوه : جهز الثيران للحرث ، فقد انحسر الماء عن الحقول وأصبحت صالحة للحرث الآن ! كذلك أحضر معك التقـــاوى ، فسنشرع فى الحـــراثة فى الصباح » .

وكان المصريون يعشقون أبقارهم ويدللونها ويطلقون عليها الأسماء والأوصاف مثل « وعاء الزبد » أو « الأقحوانة » . ويوجد مشهد مصور فى مقصورة مقبرة الكاتب رعمـوس بدير المدينـــة (رقم ٢١٢) حيث يخاطبه خادمه بتاح سى عنخ : « حالة الحقول ممتازة حقا ، ستكون الغلة وافرة ، وستكون معنا ، وســـوف تكون مسرورا ، وكذلك أنــا ومن « يساعدونني » و « الفيضان سـيكون عاليـا » . وفى مكان وزمان آخر نرى مشهدا لأبقار سمينة تتناول علفها باستمتاع « علف جيد ، هنيـا تناولوه ! » .

لكن الأحوال لم تكن دائما مواتية وسعيدة حتى فى دنيـــا نقوش المقابر المتفائلة . ففى المقبرة (السادسة عشرة) وهى مقبرة الكاهن الطيبى بانحسى يفاجأ بحالة من « العصيان من جانب أبقار وحشية » . ويبدو أن العمل المتواصل فى الحراثة قد أنهكها فربضت على الأرض رافضة كل دعوة للنهوض ! ومعها بالمشهد رجل واحد يلهبها بهراوة ، بينما يختلس أعضاء القطيع العاصى النظر الى ذلك الحراث ــ برى حتب ــ وهو يصيح فيه : « انهضوا ، تحركوا ، تحركوا ، كفوا عن التماوت يا وحوش » .

عمال الفرعون ــ حياة عمال دير المدينة

فى الوقت الذى كانت فيه غالبية السكان تفلح الأراضى وتعمل فى الحقول المستوية والمروج الخضر ، كانت هناك مجموعة صغيرة من الرجال وعائلاتهم تعيش منعزلة فى مجتمع مغلق فى قرية خلف تل رملى غرب طيبة ، يبعد عن أقرب أرض خضراء بنحو ميل . وفى حالة من التنافر الواضح بينهم وبين المزارعين فى السهل ، كان هؤلاء يصعدون التل خلف قريتهم تحت الشمس المحرقة ليعملوا على عمق كبير تحت الأرض فى واد ليس فيه أثر للحياة الطبيعية يسمى وادى الملوك .

القـــرية

أهل هذه القرية هم عمال مستديمون عرفوا باسم « عمال المقبرة الملكية » ، ومن أوصـافهم « الخدم فى قصر الحقيقة » . هذه الجماعة أسسها أمنحتب الأول فى القرن السادس عشر قبل الميلاد ، لذلك قدسوه واعتبروه راعيهم لمدة ٣٠٠ سنة بعد ذلك . ثم بنى لهم خلفه تحتمس الأول هذه القرية واختار موقعهـا خلف التل المعروف باسم تل قرنة مرعى مباشرة ــ وهو تل قريب من الحد الجنوبى لطيبـــة الغربية . وأطلق على المكان بسكانه اسم « القرية » فى ذلك الوقت لكننـــا اليـــوم نسميها « دير المدينة » . وتوسعت القرية فى أواخر عهد الأسرة الثامنة عشرة جهة الغرب ، ثم أضيف اليها أيام سيتى الأول حى صغير من ١٢ ــ ١٤ بيتا شمال القرية . وقد ســورت المدينة بسور مستطيل يحيط بهـا فأصبحت مكانا مغلقا معزولا . وقد كان هذا التصميم المغلق ذو الكثافة العالية فى البيوت لسكنى العمال معروفا فى مصر منذ قرون .

كانت للقرية بوابة هى فى الحقيقة مجرد مدخل رسمى للقرية تقع عند حدها الشمالى . وللقرية طريق واحد رئيسى يتجه للجنوب وسط صفى المنازل المرصوصة على جانبيه . والبيوت كلها ذات شرفات مفتوحة على

الطريق . وكان للمدينة طريق آخر جانبى يؤدى الى الحى الجديد الذى بنى فى عهد الأسرة الثامنة عشرة . وفى منتصف الطريق الرئيسى عند جانب القرية الغربى يخرج طريق ينحنى انحاءتين ويؤدى الى التوسعات الجنوبية التى بنيت أيام الملك سيتى الأول .

وكل بيوت القرية مبنية على نمط واحد من الطوب اللبن على أساسات بدائية . واذا اختلفت بعض البيوت عن غيرها فقـــد كانت الاختـلافات طفيفة وغير جوهرية وغير ظاهرة من الخارج . كانت البيوت متزاحمة فى مساحة محدودة ، فقد كانت كلها على هيئة مستطيل عرضه (البعد الضيق) هو المطل على الطريق ويمتد ضلعه الطويل للداخل ـ تشبه الى حد كبير مبانى العمال السكنية باوروبا فى القرن الماضى . ويفتح كل بيت على حدة على الطريق وله شرفة كما ذكرنا . فاذا دخل الزائر من الباب فسوف ينزل درجة عند نهاية الشرفة ليجد غرفة « الاستقبال » بعد أن يتجـاوز بعض قدور الماء . تلى غرفة الاستقبال مباشرة الغرفة الرئيسية فى البيت وهى « غرفة المعيشة » وهى غرفة مسقوفة بسقف يدعمه عمود واحد ، ويوجد فرق بين ارتفاعى غرفة المعيشة وغرفة الاســـتقبال يسمح بنفـاذ الضوء . ويخرج من أحد هاتين الغرفتين درج ينزل الى قبو سفلى (كرار؟) ، وأحيانا يكون الدرج تحت المصطبة التى ينـام عليها رب الدار ويفرشـهـا بالحصير عند وجوده ، وذلك لإحكام الحراسة على مقتنيات الأسرة الثمينة المحفوظة فى القبو ! وتؤدى غرفة المعيشة الى غرفة أخرى تستعمل للنوم أو العمل ، وبعدها مطبخ مفتوح لا سقف له به مطحنة وهاون كبير لطحن الحبوب ثم فرن للخبيز . بعد ذلك يوجد منحدر صاعد شديد الميل يؤدى الى السطح ، الذى يوفر حيزا اضافيا للمعيشة ، خصوصا فى جو الصعيد الجاف المشمس .

والحوائط بالحجرات الأساسية بها كوات لوضــع تماثيل صغيرة تمثل الآلهة المحلية ، التى لها علاقة بالأسرة وعلاقات المحبـــة . وفى بهو الاستقبال الأمامى توجد غرفة صـغيرة مغلقة مخصصة للاله بس والهات الأمومة المنزلية ، وعند الولادة تستعمل فى اســـتقبال المواليد الجدد ، لكى يولد الأطفال تحت رعاية الهـات الأسرة : بس وتاورت وايزيس وحتحور .

وتأثيث بيوت القـرية بسيط يحتوى على كراسى دون ظهر ، وحصر من الأسل ، وفخاريات كثيرة (يبدو أن القرويات كن يحطمنها بكثرة) ، وأحيانا أسرة منخفضة ذات ملل من الحبال ، وكرسى للجلوس . ومن الأدوات التى لا يخلو منها بيت السلال ذات الألوان الجميلة المصنوعة من

الأسل . أما منقولات الأسرة فأولها أدوات العامل الشخصية [مجسات الماء والكوسات (مثلث قائم الزاوية) وهى خلاف الأدوات الرسمية (وجدت لدى سن ـ نجم) . ومن الأدوات المهمة صندوق حفظ الملابس الكتانية وصندوق حفظ المجوهرات الرخيصة الملونة ، وهما عادة من النحاس أو البرونز .

والفجوات المخصصة للتماثيل كانت توضع بهـا تماثيل نصفية للأعزاء من الراحلين بالاضافة الى تماثيل صغيرة للآلهة المنزلية ، وتحاط باطار جصى تنقش عليه عبارات هيروغليفية طلبا لرضى الآلهة على أهل الدار : الأب والأم والأولاد . ومدخل الدار الرئيسى له دعائم حجرية وأعتاب عليها صور وأسماء وألقاب رب الأسرة وباقى أفراد العائلة .

ولم تكن القرية قائمـة وحدها فى ذلك الوادى الضيق . ففى مواجهة سور القرية الغربى بنيت أرصفة متتابعة صاعدة فى التل المائل المنحدر فيها الهياكل المقبرية للعمال وأسرهم وهى ذات أحواش منخفضة الجدران . والهياكل كلها مبنية بالطوب ومطلية بالجير وتعلوها أهرامات صغيرة بارزة مصفوفة بشكل أخاذ . وفى العمق تحت الأرض (غير ظاهر للعيان) يوجد الكثير من الممرات وغرف الدفن . وخارج الطريق الشمالى الموصل للقرية وبعد صهريج المياه الضخم ، يوجد عدد كبير من معابد وهياكل الآلهة المبنية بالطوب يكتظ بها المكان ، لها أحواش مفتوحة ، وأبهاء خارجية ، ومحاريب داخلية ، ومقاعد لجلوس العمـال عند أداء الشعائر ، بالاضافة الى كثير من الأدوات النذرية التى تقدم للآلهة خاصة اللوحات الحجرية الحديثة ـ وتنقش عليها عبارات الشـكر والدعاء لهم وابتهالات من أجل الشفاء .. الخ . وأخيرا خـارج الطريقين الشمالى والجنوبى نجد مركزين للشرطة ، لكل المنطقة ، وظيفتهما الأساسية مراقبة زوار القرية .

هذه القرية أو المستعمرة الصغيرة بنيت فى هذا المكان النائى بالذات ليقيم فيها عمال المقبرة الملكية لخدمة وادى الملوك والمقابر السرية للفراعنة ، ومن الطريف أنه كان محظورا على هؤلاء العمال التحدث عن طبيعة عملهم أو الخوض فى شئون العمل مع الغرباء ومناقشتها .

بعض شخصيات القرية

يتكون زمام القرية من ۷۰ بيتا ، لا نعرف الآن بعد مضى ۳۲ قرنا على وجودها سوى ۱۲ بيتا بأصحابها وعائلاتهم . فاذا سرنا فى الطريق

الرئيسى للقرية متجهين جنوبا ، تاركين ١٢ بيتا عن يميننا وسبعة عن يسارنا ـ وكلها كما ذكرنا متشابهة ـ فسوف نجد الى يسارنا بيتا له بوابة متميزة تدخل قليلا عن مستوى الشارع لها اطار حجرى مطلى باللون الأحمر . هذا هو مدخل البيت رقم (N/E, VIII) ، وهو أرحب قليلا من معظم البيوت الأخرى . وداخل البيت لا يقتصر على بهو استقبال أمامى به دورة مياه فقط ، ولكن فيه أيضا غرفتا جلوس معمدتان وثلاثة أسرة ، بعدها يوجد بير السلم . كذلك يوجد بالدار غرفتان جانبيتان ـ مطبخ به أتونان وردهة . وتدل النقوش الهيروغليفية على اطار الباب الأمامى على صاحب الدار الذى يفخر بكونه كبير العمال « قاحا » كما نتعرف على زوجته توى . وكانت هذه الغرف الاضافية ضرورية لأنهما أنجبا ثمانية أولاد ـ بنين وبنات ـ منهم خعوى ، وكان يطمع أن يخلفه فى وظيفته .

ونتجاوز هذا البيت فى نفس الاتجاه لنجد على اليمين (غرب القرية) بيت واحد من معاصرى قاحا المشهورين هو الفنان الرسام المصور ماى نخت ان بن باشد ـ والبيت مبنى من أيام سيتى الأول ورقمه (N/O, XV).

واذا واصلنا السير نجد بعد عدة بيوت بيتا هو بيت خعوى « حارس المقبرة الملكية » ، يحتوى على ثلاث غرف سكنية متواضعة (رقم N/E, XV) بعد هذا البيت إلى اليمين نجد بيت المثال نفر رنبت رقم (C, II) ، وهو بيت يحتوى على بهو اضافى للضيوف يفتح على جناحين كل منهما من غرفتين صغيرتين . ونحن لا نعرف عنه الكثير لكن معاصره المثال ابوى يعتقد أنه كان يهوى الحيوانات ، بدليل وجود نقش بهيكل مقبرته تظهر فيه قطة مع صغارها وهن يدللنه (رقم ٢١٧) كما أن له به تمثالا صغيرا ومعه قطة وقرد !

بعد ذلك ينحرف الطريق يمينا بشدة ثم ينحرف يسارا فيخترق الغرب الجديد الى الحى الجنوبى . وعلى بعد نشاهد ردهة تفتح على بيتين صغيرين ، كل منهما مكون من ثلاث غرف أحدهما كان ملكا للعامل خر نفر (حاليا S/E, II, III) . وعند منعطف الطريق نجد ثلاثة أبواب اسكن مشترك حيث كان نب أمنتت وابنه نب آمون يعيشان فى خمس حجرات (S/E, VII, VIII) . فى مواجهة هذين البيتين كان يسكن الرسام المصور برى حتب فى حياة تبدو أشد بساطة (S/O, IV) ، وكانت مهنته هى نفس مهنة أبيه باى وأخيه نب رع . وأخيرا نجد آخر بيتين ملاصقين له ، وهما للعاملين خم بخنت وأخيه خنسو (S/O, V, VI) (ربما !) ورثاهما عن أبيهما سننجم الذى عاش أيام سيتى الأول .

هذا العدد القليل الذى تعرفنا عليه من سكان القرية يمثل حرفا مختلفة : حارس أمن (خفير) ، ومثال ، ورسامان مصوران ، ورئيس عمال • وكلهم يؤدون أعمالا مباشرة للفرعون نفسه •• ملكهم « الاله رمسيس الثانى » • وكانت ادارة المقبرة معقودة للوزير مباشرة • أما العمل فينحصر فى نحت وزخرفة المقابر الملكية فى وادي الملوك والملكات • وكان عمال وردية العمل يقسمون الى فريقين هما الميمنة والميسرة ـ حسب الجانب الذي يعملون فيه • وفى عهد رمسيس الثانى كان عدد العمال العاديين ٣٠ عاملا لكل من الميمنة والميسرة ، وعليهم مشرف (رئيس عمال) • وكل من هذين المشرفين له معاون أو مساعد • هؤلاء المشرفون الأربعة كان يعمل معهم كاتبان هما كاتبا المقبرة الملكية لأداء العمل الادارى بالمقبرة والقرية جميعا • هؤلاء المشرفون الستة كانت مسئوليتهم مباشرة أمام الوزير •

وبجوار قوة العمل كان هناك حرفيون متخصصون : رسامون ومصورون للرسم والنقش وعمل الكروكى الأول داخل المقابر • بعد ذلك يأخذ المثالون والحفارون فى عمل التفصيلات على أساس الكروكى الأول ، ثم يعود الرسامون المصورون لاستكمال الزخارف والتلوين • ولا ننسى الخفراء مثل خعوى الذين كانوا يحرسون مخازن الأدوات النحاسية ، وأدوات الانارة (مصابيح وزيوت) والملابس وما اليها • وكانت هناك خدمات خارجية يقوم بها أشخاص آخرون مثل السقايين والعبيد الذين يحملون السلع التموينية من أسماك وخضر وحطب أو جبس • كذلك كان هناك غسالون لغسل الملابس وجوار لطحن الدقيق ، بالاضافة الى ثلاثة بوابين يعملون أيضا كسعاة • وكان من ضمن مسئولياتهم مراجعة التموين الوارد للقرية ، والاشراف على الكفالات ؟ • وأخيرا كانت هناك قوة بوليسية صغيرة يرأسها ضابط ، وكذلك طبيب • ومن الشخصيات الطريفة الحاوى ووظيفته معالجة لدغة الثعبان • وهكذا تكون الصورة قد اتضحت لنا •

مثل هذه القرية المعزولة وسط الصحراء ، لابد لها من الحصول على طلباتها من الخارج • ولابد أن تكون هناك طريقة فعالة لتوريد السلع • فكان الطعام والزاد يجلب الى القرية على دفعات بواسطة « أشخاص من الخارج » • وكان السقاءون يقومون بتاجير الحمير أو استعارتها لحمل الماء حتى يجنبوا أنفسهم حمل القرب على كواهلهم من مصادر الماء الى القرية التي تبعد عن أقرب مصدر للمياه بحوالى ميلين ، وكان هذا يسبب ازعاجا ومنازعات كثيرة أحيانا • وكان الشهر يقسم الى ثلاث فترات عمل ، مدة كل فترة منها عشرة أيام آخرها يوم عطلة • وفى يوم العطلة يتسلم العمال حصصهم التموينية ، وكان المشرفون يتسلمون حصصا مضاعفة •

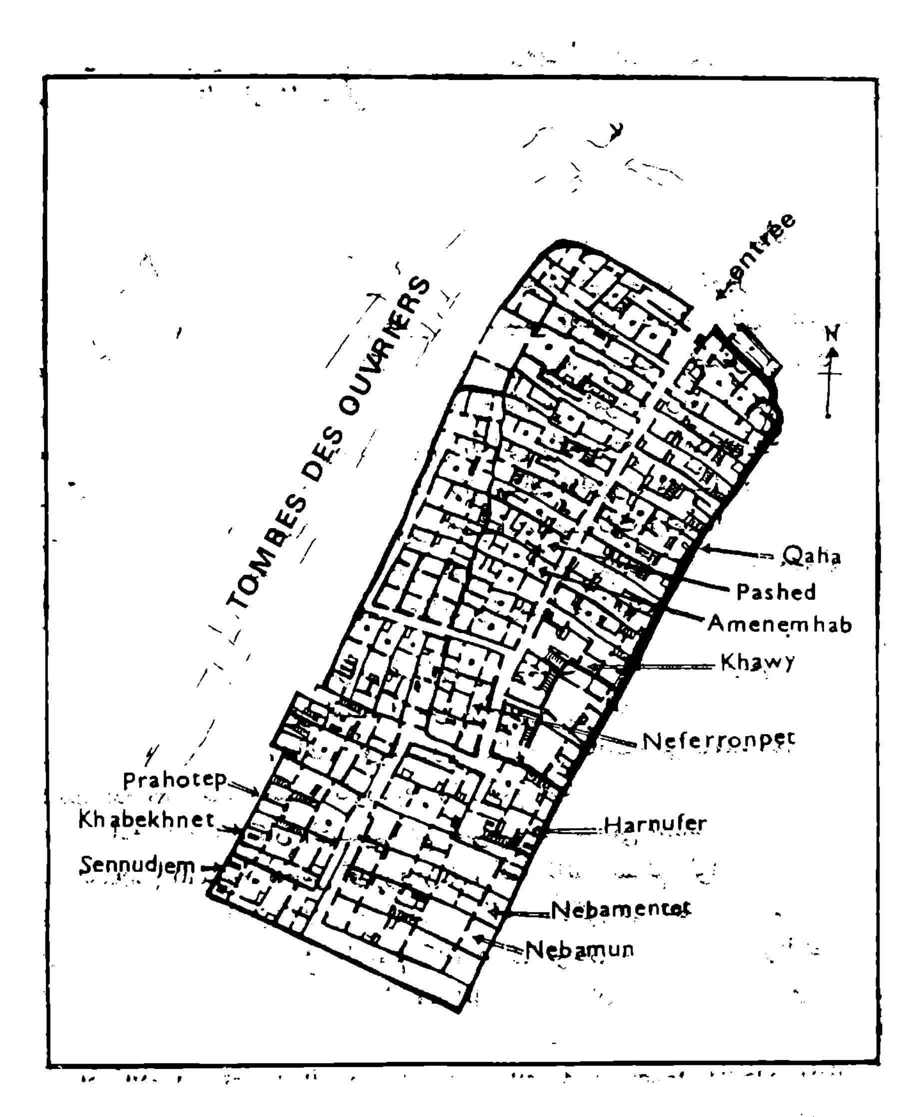
وفي أيام رمسيس الثاني أصبحت العطلة اليومين الأخيرين من المدة ـ بعدها أصبح هذا هو العرف المتبع ٠

العمل في وادي الملوك

مازالت مقابر ملوك طيبة حتى اليـوم تحوز اعجابنـا باتساعها وزخارفها الجميلة وبأبهائها وردهاتهـا المنحوتة في عمق الجبل ٠ فمن الذي صنع هذا ؟ وكيف ؟ في مقبرة رمسيس الثاني بالذات كان المشرف على عمال اليمين نفر حتب الأكبر ونب نفر ونفر حتب الأصغر ٠ وكان على عمال اليسار قاحا وابنه أنحور خاو ٠ وتحت امرة الأربعة ستون عاملا عاديا هم الذين حفروا مقبرة رمسيس الثاني الفسيحة ٠ أما من زخرفوها وجملوها فقد سبق ذكرهم ٠ كذلك كان هناك اداريون مثـل رعموس ، وقن حر خبشف ، وأمنموبي وحوى لضبط الحسابات وامساك الدفاتر ٠ وهؤلاء أيضا هم الذين تولوا أمر مقابر وادي الملكات الفاخرة فنحتوا وزخرفوا مقبرتي نفرتاري وبنت عنات وغيرهما من الملكات ٠

والآن ننتقل الى السؤال الثاني : كيـف شيدوها ؟ وقع اختيار اللجنة العليا المختصة برياسـة الوزير الجنوبي الطيبي باسر على موقع المقبرة ، وأقر الفرعون ذلك ٠ وبدأ دور عمال دير المدينة في تنفيذ القرار ٠ كانت أدوات العمل تسلم للوردية أول أيام العشرة (المقصـود بها فترة الأيام العشرة) ٠ وكان التسليم يتم بحرص شديد على أساس الوزن خوفا من اختلاس المعدن (نحاس أو برونز) ، كما كانت تسلم المواد الأخرى من الشمع والدهن بالوزن لأنهـا كانت صالحة للأكل في حين أن المفروض استخدامها للاضاءة ٠ على العموم كان هناك نوعان من الشموع والدهون أحدهما نقي يستخدم في اشعال الفتائل وهذا كان صالحا للأكل ويحبه العمال ، والآخر شمع القناديل ولم يكن يصلح للأكل ٠ بعد الفراغ من استلام الأدوات تتوجه الوردية الى غرب القرية ثم تصعد المنحدر المائل عن يمينهم (غرب القرية) ٠ ومن علو ينحنون شـمالا والقـرية تحتهم ليسيروا في ممر ضيق صخري تحده غربا قمة عالية هي مقصورة الالهة مر سـجر ، ثم ينحرفون يمينا فتظهر لهم مقابر النبلاء والمعابد التذكارية للملوك والسهل الأخضر حتى شط النيل ، كما يشاهدون شرق طيبـة ومعابدها وسهلها ، وعند الأفق يرون سلسلة التلال الشرقية ٠

تحت القمة المقدسة مباشرة توجد نقطة توقف (استراحة) « CO I » بها أكواخ حجرية خشنة المظهر بناها العمال بأنفسهم ، كما توجد مزارات للربة مر سجر وآلهة أخرى ٠ من هذه النقطة يوجـد ممر يهبط بسرعة



شكل (٢١) : قرية العمال بدير المدينة (مسقط) .

متخللا المنحدرات الجرداء الى قلب وادي الملوك مباشرة . وخـلال دوام الوردية (٨ أو ٩ أيام) لا يعود أحد للقرية بل ينـام أفراد الوردية في أكواخ الاستراحة أو في الوادى نفسه أذا شاءوا - ولم يكن بالوادى سوى أكواخ قليلة ، وتعود الوردية للقرية أيام العطلة فقط .

وتحت اشراف رؤسائهم كان العمال يقطعون الصخور الجيرية بالعمق باستخدام المعاول النحاسية والبرونزية . وكان منهم من يحمل الحجارة المقطوعة الى الخارج في سلال أو مقاطف . وعادة تكون الاضاءة في أول الأمر مناسبة ، لكن كلما استمر الحفر بالعمق لنحت الأروقة المتتابعة تصبح الاضاءة الصناعية ضرورية . وكانت الاضاءة الصناعية تتم باشعال فتائل طويلة مصنوعة من قطع الملابس البالية بعد برمهـا ودهنهـا بالدهن أو الشمع ، وهذه توضـع في مصـابيح فخارية تغذى بالزيت السائل . هذا التصميم هو الذى نعرفه باسم القنديل ، وهي بديل البطاريات الحديثة ، وكانت تعطى اضـاءة نظيفة خاليـة من الدخـان عادة ومناسبة لكافة أعمال القطع والطلاء والرسم والنحت والتلوين في قاعات على عمق كبير في الجبل . ولدينـا وثيقة بهـا حساب الدهون والفتائل من أيام رمسيس الثاني :

« [حساب] الفتائل المسحوبة من المخازن في شهر
الصيف الثالث ، يوم [٠٠٠] : ٥٢٨ فتيلا - (أى المجموع)
المستهلك أثناء اليوم : - ١١٨ فتيلا
الميزان (الباقى) : - ٤١٠ (فتيلا) » .

ونستدل من ذلك على أنهم في الأعماق ، حيث الجو ألطف في الخارج في ذلك اليوم الحار ، احتاجوا لأكثر من مائة فتيل لتغذية حوالي ثلاثين قنديلا لتعطى انارة مناسـبة ، فيبقى لديهم أكثر من ٤٠٠ فتيل تكفى لاشعال ١٥٠ قنديلا آخر . المهم أن هذا العدد من القناديل يبدو إنه كان يعطى انارة معقولة للغرف التى يجرى نحتها وزخرفتهـا . أما الممرات الموصلة للغرف فكانت تترك معتمة .

وكان لابد للعمل أن ينتهى بسرعة ، لذلك ما يكاد يتم تفريغ الممر أو البهو الأول حتى يبدأ حاملو الأزاميل والمثالون في مباشرة عملهم فيها بينما يكون الحفارون منهمكين في حفر غيرها . ثم تطلى الحوائط بالجص التصويرى ويعاد تنعيمها . وعلى هذه السطوح الناعمة كان المصممون أمثال نب رع وبرى حتب يمهدون الحوائط ويخطون الكروكيات باللون الأحمر الدقيق للمشاهد والنقوش الهيروغليفية مهتدين « بكتب الارشادات

الملكية » ، ثم يمر كبير المصورين ليراجعها ويصححها باللون الأسود . ثم يأتى الدور على التشكيليين قن ونفرنبت وابوى وغيرهم لحفر هذه الروائع والنصوص فى نقش بارز منخفض فى منتهى الرشاقة . وأخيرا يعود الرسامون المصورون لأعمال التشطيب والتلوين لتظهر الزخارف على أجمل صورة . وهكذا كان يتم العمل بالتتابع شهورا وسنوات . وفى وادي الملكات كان العمل يجرى على نفس النمط الا أن الطريق الموصل اليه ينطلق شمالا ثم جنوبا من القرية .

الجد واللعب فى دير المدينة :

فى حفرة بالقرب من موضع القرية ومقابرها ، أمكن استخراج كمية كبيرة جدا من الشقفات ــ أغلبها كسر وفتات أدوات خزفية كثيرا ما نطلق عليها اسم الأوستراكا ــ فيها سجل لمختلف مظاهر الحياة بالقرية من عمل وغيره كما عاشها أصحابها . ففيها مثلا رسائل وفواتير وتقارير عن العمل ، وفيها نبوءات ودعوات ونصوص سحرية ضــد الأمراض ، وأناشيد ، واقتباسات أدبية ، ورسوم كروكية ، حتى قوائم الغسيل . وباختصار فهى تحتوى على وثائق من كل نوع تغطى أربعة قرون (١٥٠٠ ــ ١١٠٠ ق.م.) من عمر القرية خصوصا النصف الثانى من عهد رمسيس الثانى وما بعده ــ خصوصا أواخر حكم رمسيس الثالث وما يليه مباشرة . ومن بينها عدد لا يستهان به خاص بسكان دير المدينة أيام رمسيس الثانى ، وهى وثائق تفيض بالحيوية كما لو كانت مكتوبة حديثا .

الجد والعمل :

عندما تكون وردية العمل فى أيام الدوام (٨ أو ٩ أيام متصلة) كان بعض أفرادها يبعثون برسائل الى القرية لطلب بعض الأغراض ــ غالبا المزيد من الطعام ! ولدينا نص لرسالة أرسلها عامل شاب الى أمه فى هذا الصدد : ــ

« من « نب نثرو » الى أمه « حنوت نفرة » : ــ
برجاء ارسال بعض الخبز ، وأى شىء آخر لديك ،
سريعا ، سريعا !

وأرجو أن يشملك آمون برعايته ، ويجعلك من أحبائه .
ولتنعمى بحبه ، وتعيشى فى سلام ! » .

وفى رسالة أخرى يبعثها أحد الرسامين لعمه ، ويناديه فيها بالأخ من باب الألفة والمودة : ــ

« من الرسام خاي الى أخيه يرى ام حاب : ـ
أرسل لى طيرا وجميزا ! » .

هذا الطلب مدون على قصاصة صغيرة من البردى (٤سم × ٨سم) بعد طيها تختزل الى (٢سم × ½سم) ، ويمكن أن يحملها الحمام الزاجل الى القرية . فاذا كان ظننا صحيحا نرجو ألا تكون الحمامة قد خيبت أمله !

وأحيانا يتحول من يرسلون لمعاونة العمال الى تنابلة لا خير فيهم . فقد جاء في رسالة من أحد الرسامين لأبيه :

« من الكاتب باباكى الى الوالد الرسام ماآنى نخت اف وبعد : عملت بنصيحتك ونصها « دع ايب يعمل معك » . والآن انظر ، لقد قضى اليوم كله (حسب زعمه) فى ملء الزير ، ولم يكلف بشىء آخر خلاف ذلك طول اليوم . هو لم يسمع لنصحك مع أنى أبلغته له . (والآن) ماذا ستفعل اليوم ؟ ... انظر الآن ، لقد غربت الشمس وهو (مازال) بالخارج (ومعه) الزير ! » .

وأمر ايب هذا محير لأنه لم يرد له ذكر فى وثائق دير المدينة . ومن يدرى فربما أدى تباطؤه الشديد المريب عند شط النيل كى يملأ الزير ـ رغم حيويتها للرسامين ـ الى فصله .

وعموما كان « تعزيز العمالة » يشمل طبقة مختلفة تماما . ففى سنة ٥ ، شهر الفيضان الثالث ، يوم ١٠ (أواخر سبتمبر ١٢٧٥ ق.م.) أى قبل حملة قادش بقليل ـ عين كاتب جديد بدير المدينة ، هو رعموس ابن ساعى البريد (أو المراسلة) . وكان رعموس هذا كاتبا شابا واعدا وكان حتى ذلك الحين يعمل أمينا لخزانة معبد تحتمس الرابع التذكارى على حافة الصحراء قرب الرمسيوم وقضى فى هذه الوظيفة فترة طويلة ، صعد فيها فى السلك الأدارى للمعبد بسرعة . وقد استرعى رعموس نظر الوزير الطيبى باسر ، وما أن دعت الحاجة الى تعزيز المقبرة الملكية بكاتب جديد حتى وقع اختيار الوزير عليه ، واستقر الرجل بدير المدينة .

من الجائز أن يكون رعموس قد سوى معاشه قبل مغادرة عمله القديم فى معبد تحتمس الرابع . وقد اشترك بعد التحاقه بالعمل الجديد فى ادارة المقبرة مع زميله الكاتب حوى . ولابد أنه كان فى بحبوحة من

العيش اذ أطلقوا عليه « أغنى من سكن فى ··· دير المدينة » · والحقيقة أن رعموس هو أكثر من ترك آثارا بدير المدينة : ثلاث لوحات حجرية مع مقاصيرها ، اذ لم يقتصر على واحد بل بنى ثلاث مقابر وهياكل (أرقام ٧ ، ٢١٢ ، ٢٥٠) · كذلك ترك مجموعة أثرية أخرى ما زالت تحمل اسمه : تماثيل ومناضد قرابين ومقعده الخاص عند المضيق الجبلى ، بخلاف متنوعات من تحف رخيصة · بالاضافة الى ذلك كان رعموس ناجحا فى علاقاته الشخصية ، فأمكنه ربط نفسه بالوزير باسر ، وقد قربه الوزير حتى إن رعموس سجل ذلك على كثير من آثاره · ولا شك فى أن رعموس كان يرافق الوزير فى جولاته التفتيشية عندما يزور القرية ، ويراجعان معا سير العمل وحساباته فى وادى الملوك ووادى الملكات · وكان العمال يكنون للرجلين كل محبة وتقدير ، الى الدرجة التى جعلت بعضهم يصور الرجلين أو أحدهما فى نقوش مقابرهم الخاصة ـ وهذا نادر الحدوث بين الرؤساء والمرءوسين فى ذلك العصر · وممن فعل ذلك المثال قن والعاملان بن بوى وكاسا · أما رعموس نفسه فقد صور نفسه بصحبة الفرعون وباسر فى نقوش هيكله الخاص (رقم ٧) · وكانت علاقة رعموس بزميله حوى حسنة كما يبدو ، لأن حوى نفسه صور رعموس فى هيكله وهو يقوم بتحيته (رقم ٣٣٦) · كذلك صور الخفير خعوى مولاه الملك وباسر فى لوحته الحجرية ·

كان شىء واحد فقط هو الذى يعكر صفو رعموس وهو أنه لم يكن له ولد يخلفه فى وظيفته يوما ما ، رغم كل ما فعل لارضاء حتحور ، وكان قد بنى مع الوزير باسر معبدا جديدا لحتحور باسم رمسيس الثانى وخصصا أوقافا لتمثال الملك هناك سنة ٩ ، فوجه اليها ابتهالات كثيرة هى ومين وتاورت بلا جدوى ، ولعل عقمه كان طبيعيا · وعندما بلغ به اليأس أشده فكر فى حل آخر هو التبنى ، وتبنى مع زوجته موت ام ويا ولدا هو قن حرخبشف والده الحقيقى هو بانخت ، وألحقه بسلك الكتبة · من أجل ذلك كان قن حرخبشف فى آثاره الأخيرة الخاصة يلقب رعموس « بالأب » هو وأباه الحقيقى بانخت · وفى سنة ٤٠ من حكم رمسيس الثانى ثبتت صلاحية قن حرخبشف وخلف أباه بالتبنى رعموس ككاتب للمقبرة · وكان كاتبا قديرا لكنه كان يكتب بالخط الهيراطيقى المتصل الذى لا نستسيغه فى العصر الحاضر ! وقد شغل الوظيفة فترة بعد موت رعموس ، الا أنه لم يتميز مثله بالشخصية الجذابة المحببة · ويبدو أنه أساء استغلال وظيفته واستغل عمال المقابر الملكية فى بناء مقبرته الخاصة وآثاره على حساب عملهم الأصلى فى المقبرة الملكية ، ولو أنه لم يتماد فى ذلك كثيرا لكان الأمر مقبولا ويمكن السكوت عليه · وكان يهوى الأدب ونسخ أجزاء من ملحمة قادش لنفسه ، كما كانت لديه رسالة مؤلفة فى

تفسير الأحلام ، كما كان ممن يكتبون التمائم السحرية • وكان بين الموظفين متغطرسا طموحا وغير مهذب ، ولم يكن يحترم سوى الوزير خاى • وبالجملة كان من الشخصيات غير المحبوبة فى القرية • وحدث ذات مرة أن أهان الرسام برى حتب فأرسل اليه رسالة غاضبة منها :

« الرسام المصور برى حتب يحيى رئيسه ، كاتب بيت الحقيقة ، قن حرخبشف •

بعد التحية • ما معنى هذا الأسلوب الفظ الذى عاملتنى به ؟ كأنى فى نظرك مجرد حمار : —

فعند الشغل يبحثون عن حمار ، وعند الأكل يبحثون عن ثور • عند وجود الجعة لا تريدنى •

وعند وجود العمل تجرى ورائى •

واذا تعلق الأمر بنا ، فأنا رجل سيىء (فى نظرك) بسبب الجعة ، فاياك أن تبحث عنى مرة أخرى • واسمع جيدا ، فى مقاطعة آمون — رع ملك الآلهة (له المجد !) •

ملحوظة : أنا رجل ليس فى بيته جعة ، وأسعى لملء بطنى فقط برسالتى اليك ! » •

وقد نفهم من الرسالة أن قن حرخبشف استبعد برى حتب من « قائمة مدعويه » وأعلن على الملأ انه لا يملك نفسه اذا سكر ، رغم اعترافه بفضله كرسام مصور • ومن جهته لم يتحمل برى حتب ذلك فرد هذا الرد القاسى (سبق أن تعرفنا على بيت برى حتب الخالى من الجعة هذا (رقم « S/O, IV » .

وعموما كانت الجعة شأنها شأن أى صنف آخر يتوقف توفرها على انتظام وصول المخصصات التموينية للقرية • وهذا ينطبق أيضا على الأجور والمكافآت الأخرى التى ينتظرها العمال فى أوقات محددة أثناء السنة • وفى أيام ادارة باسر الحازمة كانت كل هذه الأمور منتظمة وتسير سيرا طبيعيا • لكن خلفه خاى ربما تكون هناك صعوبات واجهته فى القرية • فقد انشغل الرجل كثيرا لمدة ٣٥ سنة (٢٩ — ٤٦) فى الاعداد لأعياد رمسيس الثانى اليوبيلية المتتابعة التى أضيف عبؤها عليه فوق مشغولياته الوزارية الجسيمة • ولذلك كان خاى فى غمرة ارتباكه يتلقى رسائل تذكيرية مهذبة من عمال دير المدينة بخصوص مستحقاتهم ومواعيد استحقاقها ، فكان يرد عليهم وهو ضيق الصدر مؤكدا أنها فى الطريق اليهم !

ويبدو أن صديقنا الرسام سى آمون أرسل أكثر من رسالة تذكيرية للوزير ، ولما نفد صبره ضج فأرسل للوزير ملاحظة حادة :

« ... أرفع التحية لسيدى مرة أخرى ،
هل يهتم سيدى بزمرتنا ويعطينا جراياتنا » .

وعلى نفس الوتيرة نجد أنحور خعو بن قاحا يكتب طالبا توريد أصباغ للتلوين :

« تحية مرة أخرى أرفعها لسيدى ،

نحن نعمل فى الأماكن التى أوصانا سيدى بها وقال « نفذوا العمل فيها باتقان ! » .

نرجو من سيدى ارسال وفد الى كبير أمناء طيبة ، وكبير كهنة آمون ، ونبى آمون الثانى ، ومحافظ طيبة ، ومراقبى خزانة الفرعون ، لايلاغهم بما نحتاجه - لعلم مولاى (نحتاج الى) مغرة صفراء (أكسيد حديديك) ، رهج أصفر (كبريتور زرنيخ) ، صمغ رهج غار (أحمر) ، مغرة حمراء ، لازورد (أزرق داكن) ، فريته خضراء (خام يصنع منه الزجاج) ، دهون حديثة للاضاءة ، ملابس بالية لصنع الفتائل . بذلك نستطيع تنفيذ كل ما أمر به مولاى » .

وفى احدى المرات كان رد الوزير على الرسائل يتسم بالضيق ونفاد الصبر :

« حامل المروحة على يمين الملك ، الكاتب الملكى ، حاكم المدينة الوزير ، خاى ، يقول لرئيس العمال نب نفر ما يلى :

هذه الرسالة لتنبيهك الى ضرورة اليقظة وبذل أقصى جهد لانهاء كل الأعمال المتعلقة بالقصر الملكى الكبير عندك . لا تسمح لأحد بتعطيلك . ويمكنك أن تسأل عن مستحقات الجماعة التى معك لدى الخزانة الفرعونية . ولا تسمح بتأخير شىء منها ، فقد أرسل لى مراقبو المقبرة الملكية بخصوص المستحقات لدى الخزانة الفرعونية وقالوا : «أؤمر بارسالها لهم (العمال) ! » والآن أنا متوجه للشمال لمقابلة الفرعون ، سأخطره بطلباتكم . وانظر الآن ، فانى بصدد ارسال كبير كتابى بسى - أور الى طيبة . وعندما يعود اليكم فى قلعة [المقبرة الملكية ؟] فقابله هناك ، ثم أرسله الينا ، (ليخبرنا) عن أحوالكم » .

في هذه الأثناء كان فريق العمال يعمل في وادى الملوك ، لكنه لم يكن دائما بكامل قوته ، فهناك دائما فرصة لغياب البعض بسبب المرض أو غيره • وكانت هناك طرق محكمة لمراقبة دوام العمال • فقد عرفوا كشوف الدوام أو الحضور ، في شكل قريب مما نعرفه • ولدينا وثيقة عظيمة من سنة ٤٠ من حكم رمسيس الثاني تسجل أيام الغياب وأسبابه أمام كل عامل بأسلوب حي معبر :

« يندوا : الشهر الأول للفيضان ، يوم ١٤ ــ (منصرف) يشرب مع خنسو •••

حر ام ويا : الشهر الثالث للفيضان ، يومى ٢١ ، ٢٢ ــ مع رئيسه (رئيس العمال) ، شهر ٢ شتاء ، يوم ٨ ــ يخمر الجعة ، شهر ٣ صيفا ، أيام ١٧ ، ١٨ ، ٢١ ــ مريض •

ون نفر : شهر ١ شتاء ، يوم ١٤ ، الرابع صيفا ، يوم ٤ ــ يقدم القربان لالهه •

حوى نفر : ٢ شتاء ، يومى ٧ ، ٨ ــ مريض ، ٣ صيفا ، يومى ٣ ، ٥ ــ مصاب برمد ، يومى ٧ ، ٨ ــ مريض •

أمون أم ويا : أول الشتاء ، يوم ١٥ ــ يحنط حرموسى ، ٢ شتاء ، يوم ٧ ــ غائب ، يوم ٨ ــ يخمر الجعة ، يوم ١٦ ــ يقوى الباب •

سبا : ٤ فيضان ، يوم ١٧ ــ لدغته حية ، ١ شتاء ، يوم ٢٥ ــ مريض •

خنسو : ٤ فيضان ، يوم ٧ ، ٣ شتاء أيام ٢٥ الى ٢٨ ــ مريض ، ٤ شتاء ، يوم ٨ ــ يخدم الهه ، ••• ١ فيضان ، يوم ١٤ ــ عيد ميلاده ، يوم ١٥ ــ عيد ميلاده [صداع بسبب عيد ميلاده ؟] •

أنوى : ١ شتاء ، يوم ٢٤ ــ متغيب بصحبة الكاتب ••» •

وهناك أسباب أخرى للغياب • فواحد يغيب « لتحضير أدوية » مع خنسو أو حر ام ويا • وهناك الغياب لمرض الأمهات أو الزوجات أو البنات ، أو لأسباب دينية شتى (تقديم قربان الشراب أو حتى دفن الاله !) • وفيما ذكرناه على أية حال ما يكفى لاثبات تعدد أسباب الغياب • وكان من المسموح به الغياب لاعداد الجعة في المناسبات الجماعية « الأعياد أو العطلة الدورية » ، وكذلك بسبب المرض • ومن الأسباب المثيرة لدغة الحية ــ وقد أصبح هذا السبب بعد ٥٠ سنة مزعجا حقا لكثرته في أوائل عبد الملك سى بتاح • ومن الأسباب الملفتة للنظر حكاية تحنيط حرموسى ،

وقد سجلت وفاته في وثيقة أخرى سنشير اليها • كذلك هناك مسألة الرمد الذى أصاب حوى نفر (ومثله ناخت آمون ـ غير مسجل) ، فقد نص على أنها « اظلام الرؤية في النهار » وقد اعتبر عقابا من الآلهة كما سنرى توا • وكان الغياب لرعاية الاله الخصوصى وتقديسه مسموحا به ، وكذلك الاحتفال بعيد ميلاد الشخص أو الاصابة بالصداع بسببه في اليوم التالى • ومن الملفت الغياب عدة أيام مع الرئيس مما يشير الى مساعدة الرئيس في أعمال تخصه هى غالبا بناء مقبرته الخاصة وهيكله الجنازى • وفي هذا اثبات لتمادى استغلال الكاتب قن حرخبشف لامتيازات وظيفته •

وفي هذه الأثناء كانت هناك خدمات أخرى خارجية وشئون منزلية تؤدى داخل وخارج الوادى • فمثلا كانت هناك « المغسلة » العامة لغسل الملابس وتنظيفها • وكانت لهذه المغاسل الخارجية مشاكلها • فنجد مثلا كاتب المقبرة الملكية (رعموسى ؟) يكتب باقتضاب وهو ساخط الى أمنمؤبى المواجه له في السكن بخصوص المغسلة بالذات :

« الى الكاتب أمنمؤبى •

بالنسبة (للأسر) الثمانى التى عالجتها (قائلا) :
« حدد ٤ بيوت لكل غسال ـ للغسال الواحد » ، وليس غسيل ست أسر كما قرر الفرعون لكل غسال •

والآن انظر هنا ، لقد قرر ٦ أسر يغسل غسيلها على مدى يومين أى حصة ثلاث أسر في اليوم ••• لعمرى لقد أصبت ! أما عن نخت سوبكى فلم أجد لديه نطرونا (بديل الصابون) ـ وعليك أن تعطيه [بعض •••] ••• عندما تحدد الكمية الناقصة ، يمكنهم البحث عن النطرون للملابس ، وأنت يجب ألا تسمح لهم بالفشل في الحصول على النطرون • لقد قرر لك الفرعون حصة النطرون ـ ولابد أنها صرفت لك !

وسوف ينظـرون في أمر خداعك • والآن لعلك عرفت جانبا من (الموضوع) » •

وكانت للنسوة بالقرية مراسلات أيضا اما مع بعضهن داخل القرية أو مع أزواجهن بمعسكرهم أو مع نساء أخريات بعيدا عن القرية • والرسالة التالية موجهة من سيدة الى « فتاة صغيرة » تعمل لديها :

« نب حير ماعت أخت نبت ايونو تقول :

تحياتى ، وبعد : ـ أرجو أن تسلمى لى الرداء • وأسرعى بجمع الخضر المطلوبة منك ! » •

وبعض هذه الرسائل مسرف فى العاطفة مثل رسالة ورنورو التى تطلب فيها منح خاى أخي حوى نفر فرصة أخرى :

« من ورنورو الى الكاتب حوى نفر : –

تحياتي . رعاك الاله آمون رع ملك الآلهة وبعد – أدعو كل اله والهة فى منطقة الغرب ، أن تكون فى صحة وسعادة ، وتنعم بحب الفرعون – سيدك والهك – كل يوم » .
ثم تنتقل الى صلب الموضوع :

« وبعد ، أرجو أن تهتم بأخيك – لا تتخل عنه ! رسالتى الأخرى لأختك نفرة – خاى ، أيضا : اهتمى بأخيك خاى ، ولا تهجريه ! » .

وبعد عدة عقود ، كان عهد رمسيس الثانى فيها قد انتهى ، كتب رجل أقل حظا من خاى وثيقة قصيرة حزينة يقول فيها :

« الآن ليس لى زوجة على الاطلاق . هل هى حقا زوجتى ؟ لقد قالت ما تريد ، ثم ذهبت ، بعد فتح الباب بشدة ... (وقال أبوها) : لست (فى العادة) بالذى يحب أن يلقي القبض عليك ، ثم قال : « انظر ماذا فعلت بزوجتك » ، واستطرد : « أنت أعمى لدرجة أنك أربكتنى ، وأنت أصم بخصوص جريمتك أمام حورس ! هذا شيء يبغضه منتو » . (وقالت أمها) : « سوف أريك مغبة ما سببته لك هذه الآثام التى [....] ! » .

٢٠٤٠٩ السحر والقانون والدين :

لم تكن حياة القرية كلها جد وعمل . فالراحة من العمل كل عشرة أيام يوم أو اثنان ، كانت بمثابة عطلة اسبوعية يقضونها بأى أسلوب يرتضونه . فمنهم من كان يقضى أوقاته بداره يرتبها ويصلح منها ما يصلح . ومنهم من كان ينهمك فى بناء مقبرته الخاصة أو هيكله الجنازى ، أو غير ذلك . وكانوا ينتهزون فرص العطلات فيقيمون الاحتفالات من أجل آلهتهم أو من يقدسونهم . وأحيانا كانوا ينظرون فى أيام العطلة فى قضاياهم الخاصة أمام « محكمتهم » أو يستشيرون فيها رائيهم (أحد تماثيل راعيهم أمنحتب الأول – وهى احدى صور العبادة الملكية) . وكانت لأمنحتب الأول بصفته ملكهم ، واله قريتهم أعياد كثيرة يحتفلون به فيها : كانوا

ينتخبون من يمثلون دور الكهنة « خدام بيت الحقيقة » • وكان هؤلاء يحملون له تمثالا رمزيا متنقلا فى موكب مرح • وبالمناسبة كان يوزع الطعام والشراب ببذخ نسبى مجانا • كذلك كانت القرابين تقدم فى مقصورة الاله في جو كله بشر وسرور • وكان « العيد الكبير » لهذا الاله فى شهر الشتاء الثالث (٢٩ فبراير) • وفى شقفة من وقت متأخر نجد النقش التـالى :

« لقد أظهـر الجميع سرورهم أمامه وهم يشربـون مع زوجاتهم وأولادهم ـ أربعة أيام متتالية ـ وكانوا جميعا ستين شخصا من القرية وستين آخرين من خارجها » •

وقد سجل ١٢ من هؤلاء أسماءهم على قاعدة عمود فى مقصـــورة أمنحتب الأول باعتبارهم كهنته • وقد قام الرسام نب رع من بينهم بدور الكاهن الساقى وترأس الطقوس • وقام قن المثال بدور « الخادم » والباقون بدور الوعب (أى كهنة عاديين) •

وكانوا يحتفلون بالأعياد القومية مثل عيد أوبت وعيد الوادى خارج القرية ـ فى الدير البحرى أو الرمسيوم القريبين من القرية • وهذان العيدان من أعياد آمون ، لكنهم كانوا يحتفلون بغيرهما كذلك • وفى هذه الأيام البعيدة كانوا يتبادلون الهدايا تأكيدا لأواصر المحبة والتعاطف ، فقد كتب عامل لزميله :

« ما أهديه لك عن طريق الشرطى باسارو هو ١٢ كعكة ، ولفتان من البخور كل منهما خمس وزنات ، فى يوم تقديم القرابين لآمون ـ الذى حددته أنت ـ بمناسبة عيد الوادى • وهى ليست من الأشياء التى أرسلتها لى » •

والعبارة الأخيرة يبدو منها أن مرسل الخطاب يحمى نفسه من الاتهام بالتدليس والخسة فى أمر الهدية •

ولم يكن سكان دير المدينة وحدهم هم الذين يطلبون نبوءات أمنحتب الأول بغرب طيبة • فقد سجل آمون موسى ـ بصفته كاهن أمنحتب الأول على هيكل مقبرته (رقم ١٩) بالصورة والكلمة قضية أحد معارفه ـ وكان هو أحد الشهود فيها • وملخص القضية أنه فى يوم عيد ، أقيمت شوادر مليئة بالطعام والشراب ، من خبز وكعك وعنب وخضر وغيرها ـ ثم قدمت العطايا للاله على شكل أطعمة • لكن رجلين ـ حقا نخت والخادم رمسيس

نخت ـ تشاجرا » ، فمثلا أمام أمنحتب الأول في الوقت الذى كان فيه الكهنة يسيرون في موكب وهم يحملون تمثاله الصغير من معبده وهم يحملون مراوح كبيرة من الريش بينما آمون موسى ينشر البخور • وكانت محكمة سابقة الهية أيضا قد حكمت لصالح رمسيس نخت ، لكن من يدرى لعل امنحتب له رأى آخر ؟ لذلك عرض آمون موسى بصفته كبير كهنة امنحتب الأول القضية على هذا الاله : « ••• الهى الطيب ، سبق للاله أن قال ان رمسيس نخت مصيب وحقانخت مخطىء • ووافق الاله أمنحتب الأول بحرارة قائلا : « رمسيس نخت قطعا مصيب ! » ، ولفرحة رمسيس نخت بصدور حكم ثان لصالحه صاح : « أواه يا الهى الذى مكانه فى قلوب [رعيته] ! » أما النساء فقد وقفن عن قرب يضربن بالصلاصل والصنج ويعزفن على القيثارات ، ومعهن طبول للايقاع ، تحتية للاحتفال • المهم كيف يمكن لتمثال رمزى أن يقول نعم أو لا ؟ والجواب على ذلك هو شعور حامل التمثال نفسه • فلو أحس بشيء يدفعه للأمام فالمعنى نعم ، وان أحس بأنه مدفوع للخلف فالمعنى لا ! ومعنى نعم هو موافقة الاله على العرض ، ومعنى لا هو رفضه للعرض ـ ولا يهم ان كان العرض المقدم الى الاله شفهيا أم تحريريا •

وفى دير المدينة أقيمت لوحات حجرية صـــغيرة فى مقاصير آمون وأمنحتب الأول وحتحور وتحوت ومرسجر والآلهة الأخرى التى لها مزارات بالقرية ، تدل زخارفها على مدى اخلاص أهل القرية لآلهتهم • وكان أهل القرية يرفعون الشكر والامتنان على انعامات الآلهة عليهم ، كما كانوا يلجأون إليهم لطلب العون ، كما كانوا يهابونهم أيضا ويعزون أى محنة تصيبهم الى سخط الآلهة التى أنزلت عليهم مثل هذا العقاب • وكانوا يؤمنون بأن هذا الضال ـ الذى أصابته محنة أو مصيبة ـ لابد أن يعترف بذنبه ويطلب الرحمة والشفاء من الاله الناقم • فعلى لوح حجرى من ألواح رعموس العديدة يتغنى الرجل بتمجيد الربة موت رفيقة الاله آمون :

« المجد لموت ، ربة السماء ، سيدة بيت آمون ، جميلة اليدين ، تضرب أوتار الصلاصل ، عذبة الصـــوت • أيهـا المنشدون انعموا بكل ما تقول ، فهو بهجة القلوب » •

كان للرسام المصور نب رع عدة بنين • وتصادف أن مرض واحد منهم هو نخب آمون ، فظنوا أنه مرض لأنه أغضب آمون • فتضرع أبوه نب رع وأخوه خاى لآمون كي يشفيه • فلما استجيبت دعوتهما بنيا لوحا رائعا وهباه للاله العظيم آمون شكرا وامتنانا :

« تسبيح آمون :
سأشدو بالأناشيد باسمه ،
وسأغنى بتمجيده حتى السماء وملء الأرض ،
وسأشيد بجبروته لكل عابر ، شمالا أو جنوبا .
خذ حذرك منه !

اذكره لابنك وبنتك ، وللكبير والصغير .

حدث عنه الأجيال بعد الأجيال ، ممن لم يولدوا بعد .
وحدث عنه الأسماك فى الأنهار ، والطيور فى سماء النهار .
واذكره لمن يعرفه ، ولمن لا يعرفه .
خذ حذرك منه !
أنت آمون ، اله الصامتين ،
الذى يلبى نداء الفقير ،
لقد تضرعت اليك فى محنتى ،
وعندما أتيت أنقذتنى .

تأليف الرسام المصور فى قصر الحقيقة ، نب رع : ـ

أمام الجميع ، أبتهل اليه ،

من أجل المصور نخت آمون ، الراقد مريضا على عتبة الموت .

يعانى من سخط آمون ، بسبب سوء عمله .

وقال (أى نب رع) :

اذا كان العبد ميالا لفعل الشر ،
فالاله يرجى منه الغفران والصفح .

وقال (أيضا) : ـ

سأقيم هذا النصب باسمك ،
وأسجل هذا النشيد كتابة عليه .
فقد أبرأت نخت آمون من أجلى ،

ـ فقد وعدتك ، وأنت سمعتنى •
ولتنظر الآن ، لقد وفيت بوعدى » •

وكثير غير نب رع كتبوا يوقرون الآلهة ، فالعامل نفرعبو وضع نشيدا لربة القرية مرسجر ـ القمة العالية ، المشرفة على القرية وحاميتها هى ووادى الملوك • ولأنه تطهر من ذنوبه فشفى وضع هذا النشيد :

« المجد لقمة الغرب : ـ
(كنت) رجلا جاهلا غبيا ،
لا يفرق بين الصحيح والقبيح
ارتكبت وزرا بحق القمة ،
فعلمتنى درسا •
احذر القمة !
فالأسد جاثم فى القمة ،
لذا فضربتها ضربة أسد ثائر •
لقد دعوت ربتى ،
فجاءتنى بنسائمها العليلة •
ثم ارتدت الى وشملتنى برحمتها ••• » •

وذات مرة اعترف نفرعبو بهفوته بكل بساطة •
« قال : ـ
أنا رجل حلف كذبا (باسم) بتاح « رب الحقيقة » ،
فأصابنى برؤية الظلام فى وضح النهار » •

هل كان ذلك عمى أم رمدا كما سجل فى كشف الدوام مثلما أصاب حوى نفر ونخت آمون ـ (سبق ذكر ذلك وكان سنة ٤٠ من حكم رمسيس الثانى) • أم هل كان مجرد سواد فى ذهن صاحبه ؟ (المقصود فقدان الذاكرة) • هذا ما لا يمكن الجزم به •

ولم تقتصر هدايا العمال للآلهة على التماثيل وبناء الأنصاب ورفع القرابين فى الأعياد والمناسبات • ولما كانوا فقراء محدودى الدخل فانهم لم يستطيعوا الصرف ببذخ على الاحتفال بالآلهة مثل ما تفعل المعابد الكبرى ذات الامكانات الواسعة التى تستطيع تقديم الورود اليانعة كل يوم • فما كان منهم الا أن تحايلوا على الوضع لحل مشكلة الورود ، فصنعوا ورودا صناعية محفورة على الخشب أو الحجر الرقيق ، ثم لونوها بلون

الورود اليانعة وفروعها الخضراء ــ وميزة هذه الورود الصناعية أنها اذا وضعت على المناضد أمام الآلهة فلن تذبل أبدا ٠٠ يا لها من فكرة اهتدى اليهـا هؤلاء البسطاء هي بعينها فكرة الزهور الصناعية فى عصـورنا الحديثة ! ٠

هذا الولاء الشديد للآلهة لم يكن قاصرا على سكان دير المدينة ، بل كان عاما بين أهل مصر جميعا ٠ فهناك أناشيد تمجد آمون بصفته الالهية ، ومنها ما كان ينظر اليه كوزير ينشر العدل بين الفقراء ٠ مثل هذه الأناشيد كتبها كتبة فى أقصى الجنوب بطيبة ، ومثلها كتبه كتبة فى أقصى الشمال بمنف :

« آمون ــ رع ، أول الملوك ٠٠٠ الاله الأول (الأزلى) ،
وزير الفقراء ، لا يقبل رشاوى المذنبين ٠٠٠ » ٠

الغرب الجميل ــ لقاء هازم اللذات ومفراق الجماعات :

كان عمال المقبرة الملكية فى غرب طيبة وهم يعملون فى مقبرة الفرعون لا يكفون عن التفكير فى أمر مقابرهم الخاصة ٠ وقد اختاروا حافة الحد الجبلى للقرية موقعا لجبانتهم ، فنحتوا مدافنهم فى الأرض عند سفح الجبل من غرفة واحدة لكل مدفن ٠ لكنهم فوق التلال والمرتفعات بنوا هياكل مقبرية على قممها أهرام صغيرة لهـا لوحات حجرية ، وطلوهـا بالجص وزخرفوها برسوم زاهية وتركوا أمامها أفنية مفتوحة ٠ وكان الوزير باسم الملك هو الذى يحدد مواقع المدافن العائلية ٠ وكانت ملكية المقبرة من المسائل الحيوية مثل ملكية البيوت تماما ، لذلك لم يخل تخصيص المقابر من بعض المشاكل وكان يؤدى للتحاسد بينهم أحيانا ٠

على أية حال كانت نهاية العمال هى نفس نهاية ملكهم ــ استقرار أجسادهم فى مقرها الأبدى ٠ وكان هؤلاء البسطاء لا يختلفون عن غيرهم من أفراد وكبراء فى الايمان بأن مومياواتهم وتماثيلهم تسـتقر فيهـا أرواحهم ، فأعدوا مقابرهم لسـكنى الروح والجسد جميعـا ٠ وكان من معتقداتهم أن الروح ليلية ٠ وكانت زخارف مقابرهم تحتوى على مشاهد للأسرة فى مأدبة غالبا اشارة الى وحدة العائلة ، لتأكيد اجتماع الأسرة ولم شملها فى دار الأبدية كما فى دار الفناء ٠ كذلك كانت الزخارف تحتوى على مشاهد لعبادة أحد آلهة الجبانة وكانت تماثيل الآلهة وصورها بالمقبرة لها وظيفة سحرية فى لم شمل الأسرة ٠

وتوجد وثيقة طريفة لعامل أهمه أمر موت أحد زملائه وتعرقل تجهيز دفنه :

« الكاتب بياى ، وفتى المقبرة ، ماحوحى ، الى : — رئيس العمال نفرحتب والعامل بن نوب ·
تحياتنا ، وبعد ·

الآن ، ما هذا الذى ذكرتماه ؟ — أاذا مات أحد هنا ، هل ستقومان بالتحرى عنه ؟ وهل هذا سيستبعد رجلكم ؟

مات هذا الرجل في بيت حور محب الذى أخطرنى بذلك ،وقال ، حرموسى قد مات ؟ · فذهبت فى صحبة ماحوحى وتأكدنا من موته · وعملنا له الترتيبات ، وأرسلنا فى طلب اللحاد (متولى الدفن) ، وقلنا له ، « اعتن به جيدا — فنحن اللذان نرعى شئونه » · [وسنفعل ؟] ونندبه بشدة ، عندما تقيمون [المناحة ···] ··· » ·

ولا شك فى أن المحنطين قد اعتنوا بجثة حرموسى — حسب امكاناته المتواضعة · ومن « كشف الدوام » نجد أن وفاة حرموسى كانت سنة ٤٠ من حكم رمسيس الثانى ، (شتاء ١٢٤٠/٣٩ ق·م) ، اذ سجل فيه أن آمون أم ويا قد كلف بلف مومياء حرموسى · وحرموسى هذا لا نعلم عنه شيئا سوى أنه ربما كان جد العامل بن — نوب الذى ورد اسمه فى رسالة بياى ·

وقد شهد مجتمع دير المدينة ذروة رخائه أيام رمسيس الثانى · وبعدها لم يتمكن أفراده من بناء مقابر وهياكل توازى فى جمالها ما بنى فى أيامه · وقنعت الأجيال التالية بدفن موتاها فى المقابر القديمة باعتبارها مدافن العائلة ، مع اجراء تعديلات طفيفة لتتكيف مع أوضاعهم · كذلك لم تقم لوحات أو تماثيل حجرية الا فى أحوال نادرة · وعند تفكك امبراطورية الرعامسة تدهورت معها أحوال دير المدينة ، حتى هجرت تماما فى عهد رمسيس الحادى عشر ، واقتصر وجود العمال على محيط المعبد التذكارى لرمسيس الثالث بمدينة هابو التى ظلت عاصمة ادارية لغرب طيبة حتى نهاية العصر الامبراطورى · بعد ذلك ، وعلى مدى قرن ونصف من تدهور الامبراطورية ، اختفى العمال من المنطقة بانتهاء الأعمال الكبرى فى غرب طيبة حوال سنة ٩٥٠ قبل الميلاد ·



الباب الرابع

مات الملك ـ عاش الملك



الفصل العاشر

مـوت رمسيس الثـاني
وتشييعه الى مثواه الأخيرة

اواخر ايام رمسيس الثاني :

كان رمسيس الثاني رجلا نشيطا فى الأربعينيات مع عمره عندما عقد الصلح مع الحيثيين سنة ٢١ من حكمه (١٢٥٩ ق٠م٠) ٠ وعندما عقد زيجتيه الفريدتين من الأميرتين الحيثيتين (بين سنتي ٣٤ الى ٤٤) من حكمه ـ (١٢٤٦ الى ١٢٣٦ ق٠م٠) كان فى الخمسينيات من عمره ، لكنه كان سليما نشطا مثلما كان عند توقيع المعاهدة ٠ وقد استمر الملك صحيحا نشيطا حتى اواخر الستينيات من عمره ٠ ويحلول سنة ٤٦ (١٢٣٤ ق٠م٠) ربما يكون هذا الفرعون المارد قد جاوز السبعين من عمره ٠ فى ذلك الوقت كان قد رحل معظم من شهدوا السنوات الأخيرة من حكم سيتى الأول ، وانفراد رمسيس الثـاني بالعرش بعد موت أبيه أو حتى معركة قادش الكبرى في السنة الخامسة من حكم رمسيس الثاني نفسه ـ فقد مر جيلان كاملان على هذه الأحداث ٠

وفي الثلاثين سنة الأخيرة حكم رمسيس الثاني مصر كاله متوج ، بكل ما فى هذه الكلمة من معان ، وبكل مظاهر العظمة والجلال ٠ ففى الخمسينيات من حكمه كان قد فرغ من مساواة نفسه أو ربطها باله الشمس رع ، وأضاف لألقابه الرسمية لقب « الاله ، حاكم هليوبوليس » (مدينة رع) ٠ كذلك اعتبر نفسه « الروح العظيمة لرع ـ حرآختي » وأضاف هذا اللقب الى اسم عاصمته بالدلتا بى رمسيس ـ بدلا من لقب « الانتصارات العظيمة » ٠ وهكذا استمر يحكم باعتباره هو الشمس ، لأنه اعتبر نفسه أحد مظاهر الشمس وتجسيدا بشريا لاله الشمس ٠

وفى ذلك الوقت كان السلام قد عم ، ولم يعد له أعداء ظاهرون ولا حروب تستنزف موارده • وكانت الأمور مستقرة والنيل سخيا رخيا والأقوات متوفرة معظم الوقت • وقد ساعده هذا الرخاء العام على المضى قدما فى مشاريعه المعمارية التى غيرت شكل الخريطة الدينية فى مصر والنوبة • وكان ما زال على رأس السلطة أشخاص من ذوى الخبرة والكفاءة من أمثال نفرو نبت (آخر وزراء طيبة) أو سو وسيتى وبرى حتب الأكبر وبرى حتب الأصغر (آخر ٤ وزراء تعاقبوا على بى رمسيس فى الشمال) •

ولم تعد مصر بلد الأحلام ، بل بلد الجد والنشاط والعمل الدءوب فى كل مجال ، فى الحقول وفى المحاجر ، وفى الورش وفى المعابد ، وفى كل وظائف الدولة •

وما أن حلت سنة ٣٠ من حكمه حتى أخذ رمسيس الثانى فى اتخاذ الأساليب السحرية لتجديد شباب الملك ، فبدأ يقيم الاحتفالات اليوبيلية التى تتابعت بمعدل كل ثلاث سنوات مرة • وكان الملك فى اليوبيلات الأولى حتى السابع فى حالة حسنة سمحت له بشهود الاجراءات الطقسية الطويلة البطيئة المعقدة التى تنطوى عليها الاحتفالات • لكن بعد ذلك لم يكن بالامكان أن يخفى على أحد أن الفرعون قد شاخ وكبرت سنه • وفى الاحتفالات الأخيرة ـ سنة ٦٠ وما تلاها ـ التى شهدت اليوبيلات الخمسة الأخيرة (١٠ ـ ١٤) كان الملك قد أصبح شيخا محطما مثل « الأسطورة المتداعية » يمشى متكئا على كواهل مساعديه ـ وأخصهم ولى العهد الأمير مرنبتاح •

وفاة رمسيس الثانى :

أثناء السنة السادسة والستين من الحكم فى صيف سنة ١٢١٤ ق•م• وبعد الاحتفال باليوبيل الرابع عشر ، يبدو أن رمسيس الثانى لم يبارح قصره فى بى رمسيس • وربما يكون قد انتقل الى منف أو الفيوم أو الى دار الحريم فى « مى ور » بالفيوم لبعد طيبة مشتاه المعتاد بالنسبة لظروفه الصحية • وكان الفرعون الذى أبلى بلاء حسنا فى قادش وخلص نفسه من جيش العدو قد شارف التسعين من عمره ، شيخا مهيبا مسيطرا ، لكنه ولا شك كان بطىء الحركة عما كان عليه فى أيامه السالفة •

وفى الربيع التالى ـ سنة ١٢١٣ ق•م• ـ عاد الملك غالبا الى بى رمسيس مقره الصيفى ـ وهى العاصمة التى بناها بنفسه وجعلها واسعة الأرجاء راسخة البنيان ، وحيث عاشت أسرته ، وشهدت ذكريات طفولته

بجوار « مياه رع » بشرق الدلتا · فاذا كان لابد له من توديع الحياة ــ حياة حورس الحي ــ ليصبح أوزيريس ملك العالم السفلي ، فما أجدر أن يكون ذلك حيث قضى أيام طفولته السعيدة ، وحيث الأرض التي شهدت مواكب نصره ملكا متوجا ، وتحت رعاية وريثه الوفي الأمير مرنبتاح ·

ولم يبارح رمسيس قصره خلال فصلي الربيع والصيف · وفي يونيه سنة ١٢١٣ ق·م· ، ومع بداية سنة ٦٧ من الحكم بدأت الاستعدادات للعيد اليوبيلي الخامس عشر الذي يحل موعده بعد سنة ويتم الاعلان عنه في الشتاء القابل ! لكن الظروف شاءت ألا يتحقق شيء من ذلك · فمع ارتفاع حرارة الصيف بين يونية وأغسطس سنة ١٢١٣ ق·م· أخذت صحة الفرعون في التدهور بشكل سريع حتى أتت النهاية المحتومة · ولكن هذه النهاية لا نجد عنها شيئا في وثائق القصر الملكي ·

المهم أنه بعد حكم انفرادي مطلق ومتواصل لمدة ستة وستين عاما وشهرين ، أو بعد ٧٥ سنة اذا ضممنا اليها مدة نيابته على العرش ، مات أوسرماعت رع ، « الذي اختاره رع » ــ رمسيس الثاني محبوب آمون · والآن عبرت روحه الى الغرب الجميل في مملكة أوزيريس ·

« مات الملك : عاش الملك » · فقد حل محله الآن ولي عهده وأكبر أبنائه الأحياء ــ الابن الثالث عشر في السلسلة الأمير مرنبتاح أمير التاج ووريثه الشرعي ــ رجلا مهيبا في الستينيات من عمره · وقد أجريت مراسم تتويجه بعد الاعلان رسميا عن وفاة الفرعون الراحل · وأصبح مرنبتاح هو ملك القطرين تحت لقب باي ــ ان ــ رع (تجسيد رع) ، محبوب آمون ، ابن رع ، مرنبتاح ، الراضي بالحق · وصار بذلك أول من جلس على عرش الفراعنة بعد حكم أبيه الطويل الزاهر منذ ثلاثة أرباع قرن ·

الانتقال الى دار البقاء

سرعان ما أذيع نبأ وفاة الفرعون الراحل وتولية الفرعون الجديد في كل أنحاء البلاد ، وركب رسل الملك مراكبهم مصعدين في النهر حتى أبلغوا طيبة بالأنباء في ظرف أسبوعين · وفي الشط الغربي ــ في دير المدينة ــ ودع عمال المقبرة الملكية عهد الملك الراحل بالنواح ، واستقبلوا العهد الجديد بالأفراح (كالعادة) · وعلى الفور بدأت الاستعدادات لتجهيز مقبرة رمسيس الثاني بوادي الملوك لاستقبال جثمانه في ظرف شهرين · وشكلت لذلك الغرض لجنة على مستوى عال للاشراف على هذه العملية ·

فى الشمال بدأت على الفور طقوس تحنيط وحفظ جثمان رمسيس الثانى ، وتستغرق عادة سبعين يوما · وتجرى عملية التحنيط أولا باستخراج الأحشاء الداخلية وحفظها على حدة فى أوعية خاصة نعرفها اليوم باسم الأوانى الكانوبية · بعد ذلك يجفف الجسد بملء جوفه بالنطرون ثم تغطيته به تماما من الخارج · وعندما يتم جفاف الجسد يعالج بالتوابل والراتنجات تحت الجلد للمحافظة على نضارة الجسم ومظهره الحى ، ثم يلف فى كثير من الأربطة الكتانية ـ التى قد يبلغ طولها أميالا ـ وداخل هذه الأربطة توضع مجموعة متكاملة من التعاويذ والتمائم الذهبية المرصعة بالأحجار شبه الكريمة أو المزججة بزجاج ملون ـ كوسيلة سحرية لحفظ جثة الملك · بعد ذلك يوضع فى تابوت داخلى يوضع داخل توابيت عدة متدرجة السعة كلها من الخشب المموه بالذهب · بعدها يكون الملك الراحل قد تهيأ للأبدية ·

وهكذا فى أواخر أكتوبر سنة ١٢١٣ ق·م· أخذ الأسطول الملكى النهرى تتقدمه سفينة القيادة الملكية طريقه من منف الى طيبة حاملا جثمان رمسيس الثانى الى مثواه الأخير ·

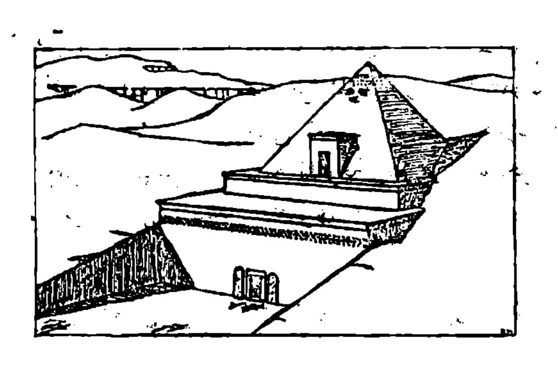
كان المصريون القدماء قد كونوا منذ العصور السحيقة أفكارهم ومفاهيمهم عن الحياة بعد الموت · وربما كانوا قد تأثروا فى ذلك بالجثث التى دفنت فى قبور ضحلة فجفت وتحنطت تحنيطا طبيعيا بفعل حرارة الشمس · وقد آمنوا منذ وقت مبكر للغاية بأن الروح تبقى بعد موت الجسد ، وأنها تتخذ من الجسد « غلافا » لها فتستقر داخله · وقد تصوروا الحياة الأخروية على أساس الشىء الوحيد الذى عرفوه ، ألا وهو النيل · ولذلك اعتقدوا أن الأبدية ما هى الا مصر أخرى أرحب وأوسع مليئة بالخيرات من حبوب وفاكهة وخضر يجرى فيها نيلها الخاص · ويتفرع عن هذا الاعتقاد بالضرورة أن احتياجات الأفراد فى الأبدية هى نفسها احتياجاتهم أثناء حياتهم على الأرض · لذلك لابد لهم فى الآخرة من متاع كالقدور والطعام والملابس وحتى الأسلحة · كل هذه الأغراض ينتفع بها الميت فى الحياة الأبدية بطريقة سحرية ، يعززها ما يقوم به الأحياء من تقديم الهبات للموتى ·

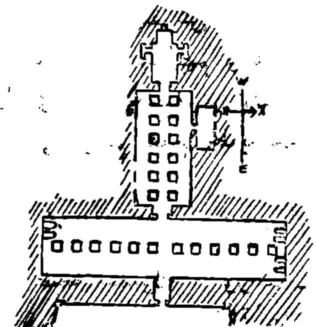
عندما اتسع حجم القبور بالتدريج قلت فعالية الشمس فى التجفيف والتحنيط الطبيعى ـ خصوصا أن الاتساع دائما يصاحبه زيادة فى عمق الحفرة · لذلك لجأوا لتطوير التجفيف الصناعى (التحنيط) ولف الجثة بالأربطة الكثيفة محافظة عليها · وصاحب هذا التطور زيادة فى المطالب ، فزادت بالتالى الأمتعة الجنازية فى حجمها وقيمتها ، كما زادت العطايا

الطقسية ٠ ومنذ ذلك الحين بدأ استخدام التصوير والنقوش والكتابة الهيروغليفية في تصوير الموتى وما يشتهونه ، وكتابة أسمائهم والقايهم لأن الكتـابة هي التي تكتب للميت الخلود الأبدى ، وتمكنـه من التمتع بقوائم الهبات المسهبة المبوبة بطريق السحر ، حتى لو لم تقدم عطايا حية حقيقية في الهيكل المقبرى ٠

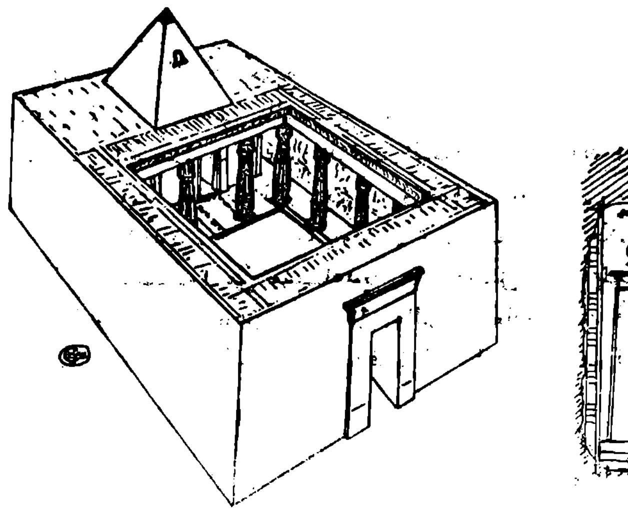
وفي ذلك كله كان باب السبق والريادة طبعا للملوك ٠ ووصلت هذه الأفكار الى أعلى مستوياتها في الأهرام ـ قبل رمسيس بثلاثة عشر قرنا ٠ فالأهرام هي التعبير المادى عن حياة الملك في آخرته ، مرتفعا عاليا فوق كل رعاياه ٠ لذلك يرتقى سلما (كما في الهرم المدرج) أو يصعد منحدرا (كما في أهرامات الجيزة) حتى يبلغ السماء ، وهناك يصبح ملكا عليها أو يعبرها في مركب الشمس التي تخصه ـ وهي مركب اله الشمس رع ٠ أما رعاياهم فلن يتغيروا سواء أكانوا أحياء يسيحون في الأرض أم أمواتا في جوفها ٠ وعموما فقد كانت العبادة الأوزيرية التى تقول بأن الملك الذى قتل ثم أحيي بالسـحر ليصبح ملك الموتى ، كانت ذات جاذبية لجمهور الشعب منذ هذا الوقت البعيد حتى نهاية التاريخ الفرعونى ٠ فالذى يموت يصبير « أوزيريس » ويضاهي به ، كي يستطيع الإنتقال الى « حياته الجديدة » ، طبعا بعد أن يحاسب أمام محكمة أوزيريس المكونة من ٤٢ عضـــوا من مساعديه ٠ والفشل أمام المحكمة معناه الهلاك ، أما النجاح فهو جواز المرور الى عالم السعادة الأبدية ـ الى مصر الثانية الأكثر رخـاء والأكثر غنى ووفرة في كل شىء ـ كي يعيش في رعاية أوزيريس والآلهة ٠

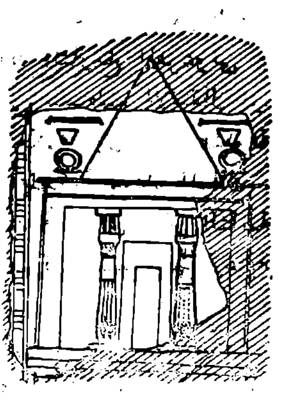
في عصر الدولة الحديثة أخذ النبلاء والموظفون والقادرون في اقامة مقاصير مقبرية فوق حجرة الدفن ـ اما ببنائها كما في منف أو بنحتها في الصخر كما في طيبة ٠ وكان الميت يتوقع لروحه أن تكون حرة في التجول في أرض الأحياء صباحا ، ثم تعود الى مرقدها في الجسد المسجى بالقبر ليلا ٠ وهناك ـ في العالم السفلي ـ عندما يعبر اله الشمس السماء في مركبه ليلا ، فسوف يهبه الحياة والضوء عندما يمر عليه ٠ كل هذا المدى من الوجود السماوى والأرضى في الأبدية ، وما يصاحبها من عطايا وشعائر ، اقتضى ظهور « الأدب » التخصصى لها ثم تطوره على مر العصور ٠ ففي الأهرامات المتأخرة في عصر الأهرامات عثر على أدبيات أطلق عليها اسم نصوص الأهرام ، تشرح طقوس دفن الملك صاحب الهرم ٠ هدف هذه النصوص هو حماية الملك وهرمه عن طريق السحر ، وتعززها بعض





شكل (٢٢ أ) : تكوين لمنظر ومسقط مقبرة بطيبة مقطوعة فى الصخر لنبيل أو موظف كبير تحت هرم من الطوب اللبن ، يوجد باب ولوحة فى الفناء المفتوح الذى يؤدى الى ردهة مستعرضة ذات أساطين ثم بهو طويل ومقصورة داخلية وتوجد حفرة مستقلة تنزل الى غرف الدفن ٠





شكل (٢٢ ب) : منظر تخيلى لهيكل مقبرى نموذجى مكشوف بمنف لرجل عالى المنزلة ٠ فناء مفتوح (عادة به صفوف أساطين) يؤدى الى رواق ذو أساطين ثم مقصورة داخلية عادة يعلوها هرم صغير من الطوب اللبن ٠

الى اليمين جزء من صورة قديمة لأحد هذه الهياكل المقبرية ٠

الدعوات والابتهالات · كل ذلك لكي يتمكن الملك من اللحاق باله الشمس في مركبه أو لمضاهاة الملك بالاله أوزيريس ، أو على الأقل لمجرد حفظه ·

في الدولة الوسطى اقتبست بعض عبارات نصوص الأهرام وشاع استخدامها بعد أن أضافوا اليها عبارات حديثة · وبهذه الصورة صارت تسجل بالنقش على التوابيت نفسها · لذلك أطلقنا عليها في الزمن الحديث اسم نصوص التوابيت ·

وفي الدولة الحديثة تطورت نصوص التوابيت وتعدلت فحذف منها وأضيف اليها لتظهر نصوص جديدة مختارة تؤدى الى السعادة في الدار الآخرة ، فهي في جوهرها مزيج من القديم والجديد · هذه المختارات الحديثة كان من الشائع كتابتها على لفائف من ورق البردى لترافق الميت وتدفن معه · لكن منها ما كان يسجل بالنقش على جدران المقاصير المقبرية وغرف الدفن تحت اسم « نصوص السير في النهار » ، وهي مشهورة لدينا الآن باسم « كتاب الموتى » ·

المقبرة ـ مقر رمسيس الثاني في الأبدية :

عندما شارف عصر الدولة الحديثة ـ عصر الامبراطورية ـ كانت الشكوك قد حامت حول قيمة الأهرامات الضخمة في حماية أصحابها · فرغم ضخامة وقوة الأهرامات فانها تعرضت للنهب والسلب على أيدى لصوص المقابر ! نهبوها في كل فترة من فترات الاضمحلال سواء الفترة بين تفكك الدولة القديمة وبداية الدولة الوسطى ، أو الفترة بين تداعي الدولة الوسطى وقيام الدولة الحديثة · وكان قد استقر رأى الملك أمنحتب الأول على المقبرة الصخرية ، المختفية في المرتفعات الصخرية بغرب طيبة ، على أن يبنى معبده التذكارى على حافة الصحراء بعيدا عن المقبرة · فلما جاء الملك تحتمس الأول تطور بالفكرة الى مستوى أكبر ، فقام أولا بتأسيس قوة عمل متخصصة للمقبرة الملكية وبنى لهم قريتهم المعزولة في دير المدينة كما ذكرنا · ولم يكتف بذلك بل انه في اختيار موقع مقبرته تجاوز مرتفعات طيبة الى الوادى البكر خلفها وهناك قرر نحت مقبرته في صخور هذا الوادى · منذ ذلك اليوم أطلق على هذا الوادى اسم «وادى الملوك» · وظل جميع الفراعنة بعد ذلك يقطعون مقابرهم في وادى الملوك هذا لفترة تقرب من أربعة قرون متتالية ، كلهم حذا حذو أمنحتب الأول في قطع مقبرته في صخور الوادى ، وبناء معبده على الحافة الصحراوية · ولم يشذ رمسيس الثاني عن هذه القاعدة ، لكنه أغدق على مقبرته ومعبده ففاقا غيرهما في السعة والفخامة ·

وسار أسلوب الزخرفة فى المقابر فى عصر الدولة الحديثة فى خط موازٍ للأسلوب المستحدث فى بناء مقابر الملوك السرية الذى نطلق عليه اسم التصميم القمعى . هذا التصميم مبنى على فلسفة عقائدية وضعها علماء الدين الأقوياء ، اذ وضعوا نظرية ترمى الى توفير أقصى سعادة واستقرار للملوك فى دار الأبدية ، بالتوفيق بينهم وبين الالهين رع وأوزيريس . فأعلنوا بصراحة أنه أثناء الليل يكون رع هو أوزيريس وأوزيريس هو رع لا انفصام بينهما . فكل يوم عند الغروب يغرب « رع » اله الشمس ويبدأ رحلته اليومية الليلية فى مركبه الليلى ليطوف على أقسام العالم السفلى الاثنى عشر فى اثنتى عشرة ساعة لينشر النور ويهب الحياة لسكانها - رعاياه الموتى . فى هذه الرحلة الليلية وحتى مشرق الشمس يكون رع هو نفسه أوزيريس وأوزيريس هو رع .. الاثنان فى واحد . وفى الصباح تولد الشمس الجديدة ويحدث « الخلق الجديد » ويركب رع مركب الصباح ويعبر الأفق فى اشراقه مرة أخرى . فى هذه المملكة المجيدة ، حيث تحدث معجزة الاشراق كل صباح ، أدخل العقائديون الفرعون نفسه فى نسيجها ، فقالوا بأن جسده المدفون فى مقبرته يضاهى أوزيريس وشمس الليل (رع الليلى) . وقالوا ان روحه بالليل تطوف مع رع أو مثل رع على أقسام العالم السفلى الاثنى عشر ينعم فيها بالترحيب من رعاياه السابقين . ليس ذلك فقط بل انه أيضا يولد من جديد مع الشروق ليصاحب اله الشمس رع (شمس النهار) فى عبوره للأفق . وكانت عبادة الفرعون على الأرض كاله مستمرة استمرار بقاء معبده التذكارى « معبد المليون سنة » - الرمسيوم فى حالة رمسيس الثانى - فى الوقت الذى يرقد فيه جسده فى مقبرته فى الوادى غارقا فى الذهب وروحه تدور ليلا ونهارا ، ونهارا وليلا ، مثل أوزيريس ورع فى العالم السفلى بالليل وفى عالم الأحياء بالنهار . هكذا صوروا مصير فراعنة الدولة الحديثة التى ينتمى اليها رمسيس الثانى .

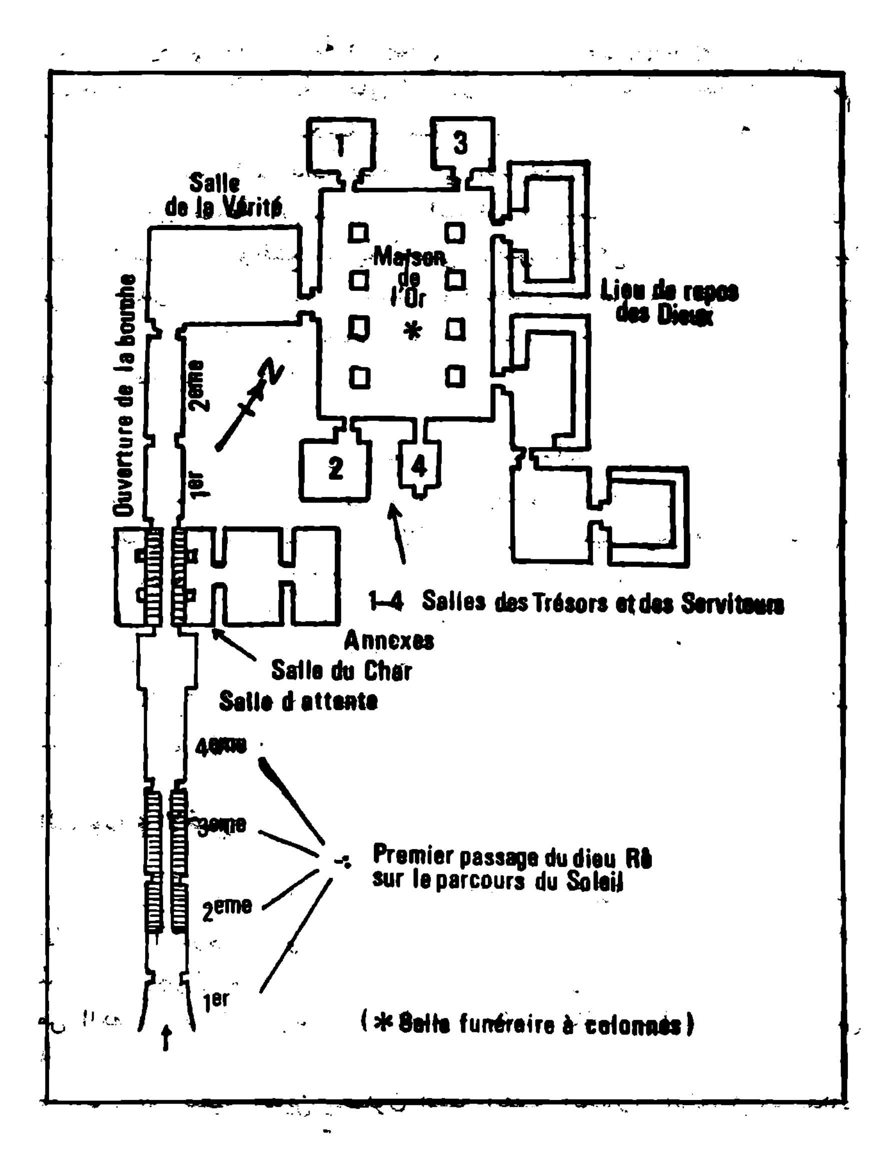
وكان لابد للأفكار أن تنفذ ، وللنظرية أن تطبق . لذلك اتخذ شكل المقابر ذات الممرات الأرضية فى الوادى نموذجا للطريق الذى يسلكه اله الشمس فى رحلته الليلية ، بالاضافة الى أنه المرقد الأبدى لجسد الفرعون . وقد زخرفت هذه المقابر العظيمة بنقش « مؤلفات » خاصة على جدرانها . هذه المؤلفات هى مواضيع عقائدية حديثة مصورة تصحبها كتابات تشرح الرحلة الليلية ثم الشروق وميلاد أوزيريس - رع الجديد ، وبصحبتها الملك نفسه . وأحد هذه المؤلفات يسمى « موضوع الغرفة الخفية » ، ونعرفه اليوم باسم الأمدوات أى ما هو « موجود فى العالم السفلى » . والعنوان الحديث عنوان شامل يندرج تحته كل الكتابات من هذه النوعية .

والموضوع يصور الرحلة الليلية لاله الشمس خلال الاثنتى عشرة ساعة وهو يطوف على الجهات الاثنتى عشرة تحييه فيها القردة التى تعبده ، وهو يمن بعطاياه على الموتى . وفى طوافه يتخذ شكل مركب ثعبانى ويمر فى ملك سنوكر ، ثم يطرد الثعبان الخبيث أبوفيس ، ويهب النور ويعطى التعليمات للعالم السفلى قبل أن يولد الولادة الجديدة عند الشروق . وقد نقش هذا الكتاب على هيئة لفافة بردى صفراء ضخمة مفتوحة فى غرفتى دفن تحتمس الثالث وأمنحتب الثانى ومن بعدهما حتى توت عنخ آمون - لكن الجزء المنقوش لم يتجاوز الفصل الأول من الكتاب . ومن المؤلفات المعاصرة لذلك الكتاب كتاب يسمى « ابتهالات رع » وهو مجموعة من الابتهالات لاله الشمس فى أشكاله الأربعة والسبعين ، ويربط بينه وبين أوزيريس والملك أيضا - وفى وقت متأخر من عهد الأسرة الثامنة عشرة ظهر « كتاب المداخل » ، وهو مثل الأمدوات يشرح عبور الشمس فى العالم السفلى ، ولكن من خلال أبواب المناطق الاثنتى عشرة . ويحكى كتاب « البقرة المقدسة » أسطورة ثورة الانسان على اله الشمس ، والعقاب الذى حل بالبشر نتيجة لذلك ، وعودة الاله الى الأقطار السماوية ، يصاحب ذلك كله دعوات سحرية تناسب الأسطورة وتعتبر ذات فائدة للميت . كل هذه المؤلفات العظيمة بنصوصها وصورها زخرفت بها جدران المقابر الملكية من سيتى الأول ورمسيس الى من تلاهما من الملوك ، بمصاحبة مشاهد تقوم فيها الآلهة بالترحيب بالملك وبعض الكتب الطقسية الأخرى .

ومقبرة رمسيس الثانى العظيمة (رقم ٧) رابضة فى وادى الملوك شاهدة على هذا المشروع ، أى مرقده الأبدى ، بتصميمها وزخارفها . وأول ما يقابلنا منزل شديد الانحدار منحوت فى الصخر ، يؤدى بنا الى باب المقبرة الرئيسى « الممر الأول لرع » الذى هو « فوق طريق الشمس » . بعد ذلك توجد ردهتان متجهتان لأسفل « الممران الثانى والثالث للاله » ، متابعة لمسرى اله الشمس فى العالم السفلى . وهنا يظهر رمسيس الثانى وهو يتعبد للاله رع ، وقد حفرت جدران الردهتين بسطور هيروغليفية رأسية طويلة بخط واضح جميل تحتوى على كتاب « ابتهالات رع » تحية له . وفى الردهة التى تليهما ، « الممر الرابع لرع » صورت الساعتان الرابعة والخامسة من مسرى الشمس فى العالم السفلى حسب كتاب الأمدوات - وفيهما السفينة الثعبانية تعبر المملكة الرملية لسوكر اله الموتى . بعد ذلك نجد « قاعة الانتظار » ، وتحتوى على مشاهد للملك مع الآلهة . ويبدو أنه كان يتعين على جثمان الملك الانتظار فى هذه القاعة لاجراء بعض الطقوس قبل نقله الى غرفة الدفن . وخلف هذه القاعة مباشرة نجد بهوا معمدا أرحب من القاعة يرتكز على أربعة أعمدة يخرج

منها منحدر يؤدى الى باقي المقبرة ، وعلى يمينها غرفتان جانبيتان · هذا البهو الرحيب هو « بهو العربات » أو « بهو قهر الأعداء » معروض فيه عربات الملك الحربية ـ ربما ليستعملها الملك فى الأبدية عندما يعين الاله رع على قهر أعدائه ؟ أما الغرفتان الجانبيتان فهما من الغرف الاحتياطية التى توضع بها الأمتعة التى ليس لها مكان آخر كباقى عربات الملك أو أمتعته الزائدة · وربما تكون هاتان الغرفتان قد زخرفتا فى يوم ما بصور موضوعها الساعات الثلاث الليلية الأخيرة (من ٩ الى ١٢) حسب الأمدوات : وفيها يلقى اله الشمس بتعليماته ويوزع عطاياه فى العالم السفلى بينما يقوم حورس بقيادة المحاربين لدحر الأعداء الأنذال ـ أعداء رع وأوزيريس ورمسيس ·

ويلى بهو العربات ردهتان أخريان منحدرتان لأسفل أكثر فأكثر ومتعمقتان داخل الجبل اسمهما « ممرا فتح الاله الأول ثم الثانى » ـ ولعل المقصود أنهما مخصصان لطقس « فتح الفم » اذ أن هذا الطقس منقوش على جداريهما · وطقس فتح الفم من الطقوس المهمة التى تجرى على تماثيل الميت ومومياته ، فيحفظ على الميت بطريقة سحرية سمعه وبصره ، وفتح فمه لتناول الطعام ، وباختصار حيويته ونشاطه فى الأبدية ، وكان من شعائره لبس الثياب والتجميل وقوائم الهبات المحتوية على الأطعمة المناسبة · تفتح الردهتان على غرفة فسيحة « غرفة الصدق » تمتد يمينا (يستقبل فيها الملك وقد برىء من الآثام ؟) · وفى النهاية اليمنى يوجد باب يفتح على غرفة كبيرة تسمي « بيت الذهب » ـ هي بهو الدفن العظيم المعمد المعد لدفن الملك ، حيث يرقد فى توابيته المذهبة بسلام داخل تابوت حجرى ضخم · هذه القاعة هى سؤرة ومركز كل هذا المنشأ الشامخ تحت الأرض · والجدر الأمامية للبهو (حجرة الدفن) منقوش عليهـا البابان الأولان من « كتاب البوابات » · وفي غرفة جانبية الى اليسار يوجد الباب الثالث من الكتاب · وفي مواجهة هذه الغرفة توجد غرفة أخرى مخصصة لكتاب « البقرة المقدسة » · وباقى جدران هذه القاعة الكبرى عليها لقب الفرعون المميز والساعتان الأولتان من ساعات الأمدوات : وفيهما يلقى اله الشمس الترحيب في العالم السفلي ويشرف على حقول هذا العالم غير الأرضي ليحفظ على الموتى حياتهم بصورة مستقلة فلا تتوقف على العطايا التى تمنح لهم من الأرض فوقهم · الى اليمين توجد غرفة جانبية أخرى خصصت للساعة الثامنة : الساعة التى ينير فيها اله الشمس كهوف العالم السفلى لرعاياه في رحلته الليلية · أما الغرفة الجانبية اليسرى فتسجل ساعة الأمدوات الحاسمة ـ الساعة الثانية عشرة : ساعة الانتصار وعودة اله الشمس للحياة عند الشروق وبصحبته الملك أيضا · وهذه الغرفة



شكل (٢٣) مسقط لمقبرة رمسيس الثانى فى وادى الملوك (رقم ٧)

تمثل الذروة فى هذه القاعة (البهو) • وخلف البهو بابان يفتحان على آخر أجنحة الحجرات الثانوية : فالى اليسار حجرة كلها صفف حجرية وسقفها مزخرف بالساعتين السادسة والسابعة : فى الساعة السادسة يعود اله الشمس بجسده استعدادا للبعث فى الساعة الثانيــة عشرة ، والساعة السابعة هى ساعة انتصاره على الثعبان الخبيث أبوفيس الذى يحاول ايقاف الشمس • ويفتح الباب الخلفى الأيمن أولا على حجرة مشــابهة فيها على ما يبدو تصوير لساعة الأصوات الثالثة والباب الخامس من « كتاب البوابات » • بعد هذه الحجرة توجد حجرتان أخيرتان أخراهما محشودة بصفف حجرية صلبة •

هاتان المجموعتان من الحجرات ـ ٤ جانبية و ٤ خلفية حول بهو الدفن ـ تسميان « الخزانتين اليمنى واليسرى » و « قصر تماثيل الخدم » أى الأوشابتى ، و « قصر مقر الآلهة » أى تماثيلها الرمزية • لذلك فهى حجرات تحوى الكثير من التجهيزات الجنازية السحرية ، والتماثيل الحافظة للملك فى حياته الأخروية • وكل هذه المعدات ـ من الذهب ، والخشب المموه ، المتقن الصنعة ـ كان لابد من تجهيزها أو نقلها من المخازن الملكية وتجهيز المقبرة الملكية بها بحيث تكون المقبرة مستكملة من كافة الجوانب ساعة وصول الجثمان الملكى للدفن •

الــــوداع الأخــير :

أخيرا ، بعد رحلة الأسابيع الثلاثة من الشمال الى الجنوب ، رسا الأسطول النهرى الملكى بطيبة • وهناك رتب الفرعون الجديد مرنبتاح لما سوف يجرى عمله • ثم تشكلت المسيرة العظيمة ـ حسب الترتيبات ـ من الكهنة وكبــار الموظفين ، يتقدمهم جثمان للملك الراحــل ـ رمسيس الثانى ـ على محفة تجرها الثيران وحوله العائلة الملكية على رأسها الفرعون مرنبتاح مع العبيد الذين يحملون أمتعة الفقيد الجنازية الخفيفة وممتلكاته الشخصية • وتوقف الركب عند الرمسيوم ـ غالبــا ـ لعمل الطقوس اللازمة التى تستغرق يوما أو نحو ذلك ، وقد صار الفقيد منذ اللحظة فى مصاف الآلهة •

بعد ذلك سار الموكب المهيب شمالا بحذاء الحد الصحراوى ثم انحرف غربا ليعبر المنحدر المنعزل الذى يصل الصحراء بوادى الملوك ، حيث تنتهى الرحلة • وهناك قام الفرعون الجديد بدوره ـ دور حورس الجديد ـ بدفن أبيه ـ الأوزيريس الراحل • ومن ثم فقد شهد مرنبتاح آخر الطقوس

ومنها ولا شك « طقس فتح الفم » للمومياء عند مدخل المقبرة · وأخيرا بعد المرور تحت أضواء الشموع فى الردهات والقاعات المتتابعة بما فيها من نقوش وزخارف ونصوص غامضة عن العالم السفلى ، وفى بيت الذهب أدخلت مومياء رمسيس الثانى فى توابيته المذهبة ودفنت بكل مهابة فى مرقدها الأخير · هذا بينما أخذت روحه المجيدة فى القيام بالدورة الأبدية مع آوزيريس واله الشمس ·

ثم خرج الكهنة والندابون الى الخارج ـ الى ضوء النهار مرة أخرى ـ وسدوا باب الدخول بالحجارة بعد أن أغلقوه ثم ردموه بالرمل والحصى ليخفوه ، ويبقى مغلقا الى الأبد · بذلك انضم رمسيس الثانى الى زمرة الفراعنة السابقين الأجلاء ، وانضم الى مجمع الآلهة العظام فقد ارتفع الى مصافهم ·



الفصل الحادي عشر

أحوال مصر بعد رمسيس الثاني

أولا ـ تفكك وسقوط امبراطورية الرعامسة

مرنبتاح ونهاية الأسرة التاسعة عشرة :

عندما تولى الفرعون الجديد مرنبتاح عرش مصر كان شيخا في أواخر الستينات من عمره ، لكن لم تكن تنقصه الحيوية · وقد عاد الى طيبة فى السنة الثانية من حكمه ورأس المجلس الأعلى من أجل تنفيذ عملية « تفتيش كبيرة على الآلهة والآلهات فى الشمال والجنوب » ـ أى عمل حصر شامل لممتلكات كل المعابد ومحتوياتها وهو ما نعرفه اليوم باسم الجرد · وبمناسبة هذه الزيارة أقيم للملك تمثال بالكرنك · وكان الملك فى سنته الأولى قد جدد الهبات المقدمة للنيل عند السلسلة ·

ولكنه لأول مرة منذ أجيال خيمت ظلال الأزمة على سماء الامبراطورية المصرية · لذلك أرسل مرنبتاح جيشه بين سنتى حكمه الثانية والخامسة الى سوريا الجنوبية وكنعان فيما يمكن أن نسميه استعراضا للقوة ، لأول مرة منذ خمسين عاما (منذ سنة ٢١ من حكم رمسيس الثانى) · وبسرعة أخمدت ثورة فى كنعان : فى جزر وعسقلان جنوب كنعان ، وفى ينوام شمال كنعان · كذلك جرت عملية تمشيط حيث يوجد الشعب الاسرائيلى الجديد فى المنطقة الحدودية الجنوبية من المرتفعات الفلسطينية · لكن الشمال ظل هادئا ، والسلام مع الحيثيين متحققا (وملكهم فى ذلك الوقت تودخاليا الرابع أو أرنوونداس الثالث ؟) · لذلك ظلت مستعمرات مصر فى الشمال فى مجملها سليمة لم تمس · ويسجل سجل بريدى سنة ٣ من حكم مرنبتاح تبادل الوفود والرسائل الدبلوماسية بين مصر وكنعان ـ منقولة من مكتب الخارجية فى مدينة بى رمسيس الذى كان يديره فى ذلك الوقت ثاى أمين سر مرنبتاح الشخصى سابقا · وكانت الامبراطورية الحيثية (خيتا) غارقة فى المشاكل : أتباع غير مخلصين ، ونزاعات فى الشرق والغرب ، ونقص فى الأقوات · أما مصر فعلى العكس من ذلك كانت

ما زالت ترفل فى الرخاء • واحتراما للعهد ارسل مرنبتاح « الحبوب بالسفن لاغاثة (خيتا) •

اما التهديد الحقيقى لمصر فكان مصدره غرب الدلتا فى الجبهة الليبية • فقد تسبب المهاجرون الى ليبيا من المناطق المضطربة فى ايجه وشرق البحر المتوسط فى زيادة التوتر والجوع بين القبائل الليبية • واستقر رأى الليبيين وحلفائهم على غزو مصر لحل مشاكلهم واشباع حاجاتهم وذلك فى السنة السادسة من حكم مرنبتاح ، بعد أن نجحوا فى التغلغل جنوبا فى الواحات الشمالية القاصية الواقعة فى آخر حدود وادى النيل غربا مثل واحة الفرافرة • ولم يكتفوا بذلك بل أجروا اتصالات سرية مع النوبة فى الجنوب لتشجيعها على الثورة ضد مصر لشغل مرنبتاح عندما يغيرون هم على الدلتا • لكن مرنبتاح احيط علما بتدبيرهم وتحركاتهم فى أواخر السنة الخامسة من حكمه ، فعبأ جيشه بسرعة لم تستغرق سوى أسبوعين وأرسله لملاقاة العدو • ولم تستغرق المعركة اكثر من ست ساعات خرج الجيش منها منتصرا • وعاد الجيش المصرى سائقا أمامه قطار الغنائم والأسرى فى موكب النصر ليستعرضه الفرعون المسن بنفسه •

ولكن ما أن تحرك جيش مصر لملاقاة الليبيين حتى وصلت الأنباء عن قيام ثورة فى النوبة • وكان النوبيون كما ذكرنا على اتصال بالليبيين لكن تحركهم كان بطيئا فلم يؤثر على خطط الفرعون • وما أن انتهت معركة الساعات الست مع الليبيين حتى كان الجيش متجها لقمع العصيان بالنوبة بعنف شديد ليجعلهم عبرة لكل من تسول له نفسه الخروج عن طاعة الفرعون فى المستعمرات التى لم ينتهك فيها السلام منذ ٧٠ عاما •

وهكذا ما هلت السنة السادسة حتى كان مرنبتاح قد أكد سيادته وسيادة مصر على امبراطوريتها الواسعة ـ فقد صمم على الا يحدث فى عهده انكماش بعد موت رمسيس الثانى • وادت اجراءاته الى دعم أمن مصر الخارجى جيلا كاملا (٣٠ سنة) • أما الادارة الداخلية للبلاد فقد ظلت على حالها من الكفاءة • ولكن مرنبتاح أحس أنه لكبر سنه لن تتاح له فرصة للحكم فترة طويلة • لذلك اتسمت مشاريعه المعمارية بطابع العجلة والانتهازية لتتم فى حياته • فمقبرته مثلا وان كانت واسعة الا انها نحتت بسرعة ، وبدأت زخرفتها سريعا تحت اشراف الوزير بانحسى واستغرق العمل فيها السنتين السابعة والثامنة من حكمه (١٢٠٧ / ٦ ق•م•) • ومعبد مرنبتاح التذكارى من المعابد الجميلة ، لكنه بالكاد يبلغ نصف حجم معبد والده الضخم ، الرمسيوم أو يزيد قليلا • وللانتهاء

بسرعة قام المهندسون بأخذ معظم الحجارة اللازمة لبنائه من معبد امنحتب الثالث : من اجزائه المتهدمة أو التي بطل استخدامها . وخلاف ذلك لم يترك مرنبتاح آثارا اخرى ذات قيمة في باقى بقاع مصر . لكنه أضاف اسمه والقابه مرارا الى تماثيل قائمة ومبان جاهزة ، مما يدل على قلة اهتمامه بالآلهة وبالتالى احوال مصر الداخلية .

بعد حكم دام عشر سنوات تقريبا مات مرنبتاح (١٢٠٤ ق.م) لتواجه مصر ازمة غير متوقعة حول من يتولى العرش . فاثناء حكم مرنبتاح كان ابنه سيتى بتاح هو ولى العهد : « وارث القطرين ، القائد العام ، اكبر الأبناء » وكان فى الخمسينات من عمره رجلا مجربا جديرا بتولى العرش . ورغم ذلك لم يتول العرش بل تحول المنصب لغيره لأسباب ما زالت مجهولة . جلس على العرش الملك آمون مس بعد أن أعلن بحزم وجراة أن الملكة (تاخات الأولى) هى الملكة الأم على الرغم من انها لم تكن كبيرة الملكات ولا حتى أميرة في عهد مرنبتاح . كذلك لم تكن الملكة بكنورل زوجة آمون مس نفسها من الأميرات . فما السبب فى ذلك ؟ لا احد يدرى ، وما زال هذا الأمر غامضا مبهما حتى الآن . ويمكن أن نتصور أن يكون مرنبتاح قد وافاه الأجل فى غياب ولى عهده عن العاصمة ربما فى مهمة رسمية خارج البلاد ، وأن مؤامرة ما قامت بين حريم القصر مكنت الأمير الذى يصغره فى السن والأهمية من الوثوب الى العرش والاسراع بدفن ابيه بنفسه فدانت له الأمور . ويبدو أن الأمير سيتى لم يستطع حيال ذلك شيئا فآثر الصمت انتظارا لما تتمخض عنه الأحداث . وكان حكم آمون مس قصيرا خاملا ، وحفرت له مقبرة فى وادى الملوك ، كما نقشت له نصوص فى الكرنك وفى العمارة الغربية بالنوبة . ومن ذلك الحين صارت أمور دير المدينة غير مستقرة .

حكم آمون مس اربع سنوات ومات ١٢٠٠ ق.م. فتولى الحكم بعده الملك سيتى الثانى ، الذى يرجح انه هو نفسه سيتى ولى عهد مرنبتاح الأصيل . ومما يعزز ذلك أن سيتى الثانى سارع بعد دفن آمون مس مباشرة بمحو اسمه من آثار مصر كلها . واستمر حكم سيتى الثانى ست سنوات لم تقع فيها أحداث ذات بال . وتوجد لسيتى الثانى نقوش فاخرة كلها اضيفت الى آثار غيره وليس منها من المصداقية الا القليل .

وربما كان لسيتى الثانى ثلاث زوجات ملكيات خلاف الحريم . أولى هؤلاء هى الملكة تاخات الثانية وكانت من أميرات البيت المالك ، ولم يكن لها ظهور الا على تماثيله . والثانية هى تاوسرت وكانت أم اكبر أولاده على الأرجح واسمه سيتى – مرنبتاح على اسم أبيه ومن ثم فهو

الوريث الشرعي . اما ثالثتهن فهي الملكة تيو التي انجبت للملك في أواخر سنوات حكمه ولدا اسمه رمسيس ــ سي ــ بتاح على اسم جده العظيم . وقد مات سيتي مرنبتاح الأصغر في حياة أبيه ، لذلك ورث العرش رمسيس سي ــ بتاح وحكم تحت وصاية أمه الملكة المهيبة تاوسرت ، ومعها المستشار القوى « صانع الملوك » باى وهو سورى من كبار رجال البلاط . وقد غير الملك اسمه في السنة الثالثة من حكمه الى مرنبتاح ــ سي ــ بتاح ، ولكنه لم يلبث أن مات بعد ست سنوات دون أن يترك وريثا . لذلك امسكت الملكة تاوسرت بأزمة الحكم ، وحكمت مصر حكما كاملا كملكة حقيقية ، حاملة لكل الألقاب الفرعونية ؛ ولتكون رابع ملكة على مدى التاريخ الفرعونى تجلس على عرش الفراعنة في الألف سنة الأخيرة . ولما ماتت الملكة بعد سنتين (١١٨٧ ق.م. تقريبا) انقطعت ذرية رمسيس الثاني والخط الملكي الحاكم ، وتولت عرش الفراعنة اسرة ملكية جديدة .

٢ ــ ١ آخر الرعامسة ــ الأسرة العشرون

اعتلى العرش بعد ذلك الفرعون ست نخت منهيا عصر الأسرة السالفة وصمم الملك الجديد على اعادة الأمور الى نصابها في مصر بعد التدهور الذى لحقها على أيدى ملوك الأسرة السابعة الضعفاء بعد مرنبتاح . وكان أول اجراء اتخذه في هذا الصدد هو طرد المستشار باى للسورى «الوصولى» . وأصل ست نخت مجهول ولا ندرى ان كان من سلالة رمسيس الثاني أم لا . ولم يلبث هذا الفرعون أن مات وخلفه ابنه الفرعون القوى العظيم رمسيس الثالث (حوالى ١١٨٥ ــ ١١٥٤ ق.م.) . واتخذ هذا الفرعون النشط من رمسيس الثاني مثلا يحتذى ؛ وعزم على بعث انتصارات سلفه في الحرب والسلم جميعا . ولكن الزمن كان قد تغير وتبدل موقف مصر من المبادرة الى المحاذرة ، ومن الهجوم الى الدفاع .

كانت الفوضى السياسية في ذلك الوقت تعم عالم شرق البحر المتوسط. فكانت امبراطورية الحيثيين (خيتا) تحت حكم آخر ملوكها البطل الأسطورى سوبيلوليوما الثاني تنوء بحملها تحت الضربات الموجهة اليها من الشرق والغرب . وظهرت قوى جديدة في كنعان وسوريا كان لها تاثيرها على دول العصر البرونزى المتأخر هناك . ولم يتوان رمسيس الثاني عن اخذ زمام المبادرة فاعد جيشه وعباه في فترة وجيزة وخاض به ثلاث معارك : معركة ضد ليبيا في السنة الخامسة ، ومعركة برية بحرية على سواحل شرق الدلتا الشمالى وكنعان في السنة الثامنة ؛ واخيرا معركة ثانية مع ليبيا في السنة الحادية عشرة دحر فيها الليبيين

و « سكان البحر (القراصنة) » فأمن بذلك ساحل كنعان وطرقه البرية ٠

حقق رمسيس الثالث بذلك انتصارات يمكن أن تضاهى انتصارات سلفه العظيم رمسيس الثانى ٠ ولما كانت حروب رمسيس الثالث كلها حروبا وقائية فقد كانت لها آثارها البعيدة ٠ وقد خلد رمسيس الثالث هذه الانتصارات كما جرت العادة على جدران معبده الجنازى الضخم غرب طيبة (مدينة هابو) بحفر النقوش البارزة والنصوص الشعرية المناسبة على جدرانه ٠ ومعبد رمسيس الثالث الجنازى هذا يضاهى الرمسيوم فى الحجم والتصميم ومعظم الزخارف ٠ وخلاف ذلك لم يترك الملك اعمالا اثرية عظيمة ؛ فيما عدا بعض النقوش التى أضافها الى معابد الكرنك العظيمة ٠ واحقاقا للحق كان رمسيس الثالث قد شرع فى عمل مشاريع كثيرة فى كثير من انحاء مصر الا انها لم تصل الى مستوى أبى سمبل ٠ ويلاحظ انه لم يهتم بعمل اضافات هامة الى منف وهليوبوليس وبى ـ رمسيس والمدن الهامة ٠

وفى عهد رمسيس الثالث كان معين مصر من الرجال الأفذاذ قد نضب فتأثرت بذلك السلطة الادارية المركزية ، واخذ كبار موظفى الدولة فى توسيع اختصاصاتهم ٠ ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل قامت عدة ثورات فى القصر استهدفت حياة الملك نفسه ٠ وبلغ سوء الادارة بطيبة حدا تعطل معه صرف مستحقات عمال دير المدينة لأسابيع طويلة، ولما كانت هذه المستحقات عينية فقد قلت لديهم الأقوات الى حد يقرب من المجاعة دفعتهم الى حد يقرب من الثورة ، فكثرت حالات الاضراب عن العمـــل ٠

لذلك كله اتسمت السنوات الأخيرة من حكم رمسيس الثالث بظواهر من عدم الاستقرار لم تكن محتملة الوقوع ابدا فى عهد سلفه العـظيم رمسيس الثــانى ٠

بعد حكم رمسيس الثالث تولى حكم مصر صف طويل من الملوك قليلى الشأن لا يكاد يتولى أحدهم حتى يذهب ، وكلهم رمسيس ـ من الرابع الى الحادى عشر ٠ ودعا رمسيس الرابع طويلا حتى يطول ملكه مثل جده رمسيس الثانى ، حتى يعمل مثل عمله ويرفع شأن الآلهة ٠ وتفـاخر بأن ما فعله فى سنته الأولى وحدها اربى على ما فعله رمسيس الثانى فى سنوات حكمه الأربعة الأولى ؟ ومع ذلك لم يستجب دعاؤه ومات فى سنة حكمه السابعة ٠

ولم تكن مدة حكم الرعامسة الثلاثة الذين تلوه فترة رخاء ، فقد ابتليت فيها البلاد بفيضانات منخفضة ، ونقص فى الغلة ، وتضخم سريع فى الاقتصاد . وحلت المجاعة آخر الأمر فى عهد رمسيس التاسع . وكانت ادارة البلاد أثناء ذلك تسير من سيىء الى أسوأ ، لدرجة أن الملك كان - اذا أراد لشيء أن يتحقق - يتجاهل السلك الادارى كله ويكلف أحد حاملى كئوسه (ساقى الملك) بانجاز المهمة . واستشرى الارتباك فى الدولة ، لدرجة أنه كانت تحدث اختلاسات كبيرة من صوامع الغلال بالمعابد تنتهب فيها الحبوب استمرت عشر سنوات كاملة قبل الكشف عنها . كذلك كانت رعاية ممتلكات آمون وأوقافه بطيبة قد انتقلت الى أسرة جديدة سيطرت على رئاسة كهنة آمون . ولم تسلم مقابر الملوك والملكات بواديهما من النهب والسلب على نطاق واسع على أيدى عمال المقبرة الملكية أنفسهم . وحتى المعابد التذكارية الجنازية العظيمة لم تسلم من النهب والسطو ، لدرجة أن اللصوص والمختلسين كانوا يجردون جدران الرمسيوم من الطلاء الذهبى . واستمر الحال على هذا المنوال فى العهود الثلاثة الأخيرة - من رمسيس التاسع الى رمسيس الحادى عشر .

وفى خضم هذه الفوضى تبخرت تماما مستعمرات مصر فى سوريا ، وشرعت النوبة فى الاستعداد للوثوب لكى تنسلخ عن مصر فتنكمش مصر الى حدودها الأصلية من أسوان الى البحر المتوسط . وحاول رمسيس الحادى عشر تصحيح المسار السياسى فكون حكومة ثلاثية : الفرعون رئيسا وحيدا ومعه سمندس وزيرا للوجه البحرى وحريحور للوجه القبلى والنوبة . وبذلك ألغى وظيفة نائب الملك فى النوبة بعكس التقاليد التى كانت سائدة فى كل العصور .

وتمكن حريحور وابنه العرفى (ابن زوجته) بيعنخى من توطيد سلطته بطيبة . لكن نائب الملك فى النوبة فى ذلك الوقت - بانحسى - لم يمتثل لقرار عزله ، وعبأ النوبة لمقاومة محاولات عزله ، ففقدت مصر مستعمرة النوبة . وأخذ حريحور على عاتقه اصلاح ما أفسده المخربون ولصوص المقابر ، لدرجة أن مقبرتى سيتى الأول ورمسيس الثانى أصبحت فى أمس الحاجة الى التجديد ، اذ لم تسلما من أيدى لصوص المقابر حتى فى عهد رمسيس الحادى عشر .

وأخيرا مات هذا الملك الطيب بعد أن انكمش ملكه واقتصر على الوجهين القبلى والبحرى وكانت وفاته حوالى ١٠٧٠/٦٩ قبل الميلاد ، وهو آخر من دفن من الفراعنة فى وادى الملوك الذى أصبح على أى الحالات غير

آمن . وبموته ماتت الدولة الحديثة أيضا ، وتبخرت امبراطورية الرعامسة ولم يعد لها وجود .

الاضمحلال والصراع والصحوة :

جمود العصر التانيسى (١٠٧٠ ـ ٩٤٥ ق.م)

انتهى عصر الرعامسة لكن مصر لم تنته معه . فقد تمكن الحاكم سمندس الشمالى من تأسيس الأسرة الحادية والعشرين ونادى بنفسه ملكا . وكانت قاعدة ملكه منف ؟ وعاصمته تانيس موطن أسرته وهى على بعد أميال قليلة شمال بى رمسيس الآخذة فى التدهور والانحطاط . وتوصل سمندس بسرعة الى اتفاق مع بينجم حاكم الوجه القبلى وكبير كهنة معبد آمون بطيبة ، أقر كل منهما بموجبه للآخر بوضعه ، فأصبح بينجم ذلك فرعونا على الوجه القبلى ، وله حق فى وراثة عرش القطرين . وفى ظل مثل هذه الكونفدرالية الواهية لم يكن من المنتظر أن تتحقق انجازات ذات بال ، لا فى الداخل ولا فى الخارج . وأصيبت مصر بالركود التام فى ظل مملكتين احداهما فى طيبة والأخرى فى تانيس كأنما انقسمت الى مقاطعتين من أملاك الاله آمون . وزادت أعمال سلب المقابر ونهبها وخرجت عن سيطرة الحكومتين . ولما استشرى الأمر اتفق على اتباع سياسة جريئة للقضاء على انتهاكات مقابر الفراعنة . ففى السنة العاشرة من حكم الملك سى آمون (٩٧٠ ق.م. تقريبا) جمع كبير كهنة آمون ومساعدوه رفات جميع فراعنة الامبراطورية الزائلة العظام ومنهم رمسيس الثانى ، وأخفوها داخل مقابر « جماعية » يسهل حراستها بدلا من ٣٠ مقبرة فردية يستحيل حراستها جميعا بكفاءة . وقد أخفى البعض فى وادى الملوك نفسه ، فى مقبرة امنحتب الثانى ، ولكن ملوك المجموعة الرئيسية ومنهم رمسيس الثانى وضعوا فى مقبرة جماعية سرية تحت أرضية ذات ردهة مناسبة داخل خليج صخرى جنوب معبدى الدير البحرى ، مع القدر الضرورى من كنوزهم الجنازية التى كانت فى يوم ما مثال الفخامة والسمو .

فى هذه الأثناء كانت هناك قوى جديدة فى مصر فى طريقها الى الظهور . ونعنى بالذات أسرة قوية ذات أصل ليبى كانت تحكم بوبسطس التى تقع فى منتصف المسافة بين عاصمتى مصر حينئذ ـ تانيس وطيبة . وقد تمكنت هذه الأسرة من توطيد علاقتها مع الخط الملكى وكبار الكهنة بمنف . ولما أن مات الملك بسوسنس الثانى سنة ٩٤٥ ق.م.

حتى انتقل عرشه الى هذه الأسرة الجديدة ، فى شخص رجل الساعة القوى شاشانق .

الغارات الليبية (٩٤٥ ـ ٧١٥)

ربما كان شاشانق الأول ـ مؤسس الأسرة الثانية والعشرين ـ بالفعل اقدر رجال الوقت على تحمل عبء عرش الفراعنة ، وأكثرهم جدارة منذ رمسيس الثالث ـ وربما رمسيس الثانى نفسه . فما كاد يعتلى العرش حتى شرع فورا فى اعادة الوحدة للبلاد وتقوية شوكتها . وبدأ باخضاع طيبة لسيطرته الجارفة فعين ابنه الثانى كبيرا للكهنة هناك . وكانت أسرة طيبة الكهنوتية السابقة قد أتمت خلال سنوات حكم شاشانق الأولى عملية اخفاء رفات الفراعنة السابقين واغلقت عليهم للأبد ، حيث ظلوا ومعهم رمسيس الثانى قابعين هناك ثمانية وعشرين قرنا حتى اكتشفوا فى العصر الحديث .

المهم أن شاشانق لم يوجه اهتماماته نحو الجنوب بقدر ما وجهها نحو الشمال . فقد كان معاصرا للملك سليمان ، فلما مات سليمان كان لشاشانق دخل فى تقسيم مملكته الى دويلتين ـ اسرائيل وجودة سنة ٩٣٠ ق.م. بعدها بخمس سنوات غزا فلسطين وعاد غانما ظافرا (ملوك ١٤ : ٢٥ ـ ٢٦ ؛ وحوليات ١٢ : ٢ ـ ٩) . ولفترة قصيرة استردت مصر انفاسها ونعمت ببعض أمجاد الامبراطورية الزائلة ، وخصوصا عندما أمر الملك شاشانق ببناء فناء واسع فى معبد آمون بالكرنك ، هو الأكبر من نوعه منذ انشاءات سيتى الأول ورمسيس الثانى . ولكن ذلك لم يستمر طويلا ، فلم يمض اكثر من عام واحد حتى كان شاشانق قد مات ، وبموته مات مشروعه معه .

لم يكن لدى خلفاء شاشانق شيئا من حزمه ولا حكمته . خلفه أوسركون الأول فلم يزد على أن يكون صورة باهتة لأبيه . ولما مات ابنه ووريثه شاشانق الثانى ، تولى العرش تاكيلوت الأول وهو ملك لا لون له ولا وزن . وقد تسربت السلطة تدريجيا من بين يديه ، وعادت الأسر الكهنوتية الى تولى رئاسة كهنة آمون بطيبة لتبذر بذور الشقاق والانقسام فى البلاد . وحاول أوسركون الثانى أن يوقف هذا التفسخ بتعيين افراد من عائلته فى المناصب الكهنوتية بمنف وطيبة . كذلك حاول تجميل مدينتى تانيس وبوبسطس بالمبانى العظيمة ـ تشبها برمسيس الثانى، بل انه استخدم نفس الحجارة والمواد التى كان قد استخدمها رمسيس

الثانى فى بناء ى رمسيس · ومعظـم ما بنــاه قد انهـدم اليوم ولم‌يتق منه سوى آثار قليلة ·

ووقعت الواقعة فى عهد تاكيلوت الثانى · فقد حاول ابنه أوسركون أن يفرز سلطته ككبير لكهنة آمون بطيبة ، لكن أهلها وقفوا فى طريقه فنشبت حرب أهلية مستعرة استمرت حتى آخر هذا العهد (من ٨٥٠ الى ٨٢٥ ق·م·) ، وأدت الى اقتلاع هذه الأسرة من جذورها ·

فى هذه الأثنــاء كانت الظلال تنتشر فى الأفق السورى بظهور دولة آشور القوية · وعموما فقد حاول أوسركون الثانى وقف هذا الطوفان لكنه لم يستطع سوى تشجيع الولايات الفلسطينية على مقــاومة الغزو الآشورى ·

وتدهورت الأحوال ، وحان وقت الاضمحلال · ولم يجلس الأمير أوسركون على عرش أبيه بل جلس عليه الملك شاشانق الثالث ، تاركا الأمير فى طيبة يجاهد من أجل مناصبه الكهنوتية · وحتى شاشانق الثلث نفسه اضطر للقبول بمشاركة أحد أمراء الأسرة فى الحكم ، هـو بيدو باست الأول الذى نصب نفسه فرعونا مشاركا فى مدينة ليونتوبوليس القريبــة (تل المقدام حاليــا) ، حيث أسس الأسرة الثالثة والعشرين · وسرعان ما اعترف المنشقون الطيبيون بهــذه الأسرة وخــلعوا ولاءهم للأسرة القديمة · واذا كان قد وجد فرعونان فما المانع اذن فى أن يزيــد العدد ؟ وهذا فعلا ما حدث · فما أن حلت سنة ٧٣٠ حتى أصبح فى مصر كثير من الفراعنــة :

فرعونان كبيران فى تانيس وليونتوبوليس ، وآخران أقل شأنا فى مصر العليا ــ نينسو وهرموبوليس ··· ثم الأمير وريث العرش ، وأربعــة رؤساء عشائر من قبائل « ما » بالدلتا ··· ثم مجموعة من الأمــراء المحليين فى كل مكان ··· ثم أمير للغرب فى سايس ··· وأخيرا انضم لهذا الحشد تاف نخت الذى حاول التوسع جنوبا فأثار عليه قوة صاعدة هى قوة ملوك النوبة الذين ادعوا لأنفسهم حقوقا فى طيبة · وما لبث أميرهم بى (بعنخى) أن زحف شاملا ودحـر تاف نخت ثم ارتد بسرعة الى النوبة تاركا مصر لمصيرها بين أيدى هذا الحشد من الفراعنة الصغار ومن بينهم تاف نخت نفسه الذى يعتبر صاحب الأسرة الرابعة والعشرين ·

وماذا عن رمسيس ؟ لقد أخذ معبده الكبير ــ الرمسيوم ــ فى طيبة فى الاضمحلال وأخذ كهنته فى التضاؤل حتى اخـتفوا تقريبــا سنة ٧٠٠ قبل الميلاد · ومن يومها ترك الرمسيوم ينعى من بنــاه · وحتى

مدينة هابو تحولت الى مركز ادارى محلى ، وتركزت شعائر العبادة فيها فى معبد آمون الصغير الموجود بها .

الصحوة فى النوبة وسايس (٧١٥ ــ ٥٢٥ ق٠م٠) :

فى سنة ٧١٥ ق٠م قام شباكا خليفة بعنخى بالزحف على مصر مرة أخرى ، فدحر خليفة تاف نخت ــ باك ان رنف ٠ وفى ذلك الوقت كانت آشور قد احكمت سيطرتها على المشرق حتى حدود مصر تقريبا ٠ واتخذ شباكا بكل حكمة موقفا حياديا ، ولكن خلفاءه بكل رعونة تحالفوا مع الفلسطينيين ومملكة يهوذا ضد اشور ، فكان ان قام الآشوريون الغاضبون بغزو مصر نفسها ، ليكونوا أول من يغزو مصر من الأجانب بعد ألف سنة من الغزو الهكسوسى ، وتعرضت طيبة نفسها للسلب والنهب بصورة لم يسبق لها مثيل ٠ وتحت هذه الضربة القاصمة فرت الأسرة الخامسة والعشرين الى موطنها الأصلى بالنوبة ولم تظهر فى مصر بعد ذلك ابدا ٠ ووقعت مصر تحت نير الاحتلال الآشورى ، وتوزعت السلطة بين الأمراء المحليين وقد أصبحوا بلا حول ولا قوة ٠

وفى غمرة هذا اليأس دب الأمل مرة أخرى من مدينة سايس (صا الحجر) بغرب الدلتا ، عندما أقر أمير الغرب بسماتيك الأول ــ سليل تاف نخت ــ بتبعيته لأشور ، فضمن لنفسه السيطرة على الدلتا بكاملها ٠ وبعد ذلك وقع معهم معاهدة تمكن بها من السيطرة على مصر الوسطى ٠ ثم اعترفت به طيبة فى السنة التاسعة من حكمه (٦٥٦ ق٠م٠) فعادت الوحدة للبلاد ولو مظهريا ، وحاول بسماتيك تحقيق الوحدة الحقيقية للبلاد بعد ذلك واخذ يوطدها حثيثا حتى تتمكن من الصمود ومقاومة المحن ، وافلح فى ذلك الى حد ما ٠ من اجل ذلك أسس الأسرة السادسة والعشرين التى استمرت حتى سنة ٥٢٥ ق٠م٠ وتلاه على العرش الملك نخاو ، وفى عهده سقطت الامبراطورية الآشورية واقتسمتها بابل وميديا ٠

وبلغت الامبراطورية البابلية ذروة مجدها فى عهد نبوخذ نصر الثانى ٠ وقد اشتبك نخاو مع نبوخذ نصر فى حرب من اجل السيطرة على مملكة يهوذا فانهزم ووقعت المملكة فى ايدى بابل ٠ وكان هذا درسا قاسيا وعاه نخاو وخليفته بسماتيك الثانى ، لكن الملك ابريس من بعدهما لم يرتدع فهرع الى اذنيه فى خضم ثورة يهوذا على البابليين سنة ٥٨٨ ق٠م٠ ، وتلقى ضربة قاصمة فى أورشليم سنة ٥٨٧ / ٥٨٦ ق٠م٠ وعقب مزيد من الفشل فى سيرينيكا وليبيا اقصى ابريس وخلفه احمس الثانى (امازيس) (٥٧٠ ــ ٥٢٦) ، الذى عقد معاهدة سلام مع نبوخذ نصر اتقاء لشره ٠

لكن أحداث الشرق الأوسط استمرت في التطور ، وأصبحت القوة الميدية نواة للامبراطورية الفارسية القورشية . وقام قورش بغزو بابل (٥٣٩ ق٠م٠) ٠ وبعد ذلك بقليل خلع بسماتيك الثالث ـ خليفة أمازيس ـ عن العرش ؛ خلعه قمبيز بن قورش وضم مصر للامبراطورية الفارسية سنة ٥٢٥ ق٠م٠ وعلى أية حال فقد كان لملوك الأسرة الصاوية الفضل في اعادة توحيد البلاد ، وكانت لديهم آمال عريضة في استعادة أمجاد مصر السالفة قبل عصر الرعامسة ٠ وقد كان مثلهم الأعلى العصور السالفة ـ عصر بناة الأهرام وعصر الدولة الوسطى العظيمة ـ مخالفين للعهدين التانيسى والليبى الذى كانت مثله مستوحاة من العصر الامبراطوري ٠

ثانيـا : أفول العصر الفرعوني :

الامبراطورية الفارسـية وفراعنة الاستقلال :

عندما دخل الفرس مصر حولوها الى ولاية فارسية وأدخلوها في نسيج امبراطوريتهم الشاسعة ، واعتبر أباطرة الفرس أنفسهم « فراعنة » على مصر ٠ لكن الفرس ما لبثوا أن هزموا في اليونان ، كما أن كهنـة مصر ساءهم الحد من سلطاتهم ، مما أنعش الأمل في نفوس المصريين في نيل استقلالهم بالدخول في حلف مع أية مدينة يونانية ـ اسبرطة كانت أو أثينـا ـ مادامت ستتحالف معـهم في وجـه الفرس ، وكان شـعارهم « أعـداء الفرس أصـدقاؤنا » و « أصـدقاء الفرس أعداؤنا » ٠ وكـان اليونانيون أثناء العصر الصاوى قد تغلغلوا في مصر ، وكون المرتزقة من اليونانيين فيالق متميزة في الجيش المصرى ، كما نشطت تجارة اليونانيين البحرية مع مصر وأصبحت نوقراطيس مرفأهم المفضل ٠ وقد زار المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوت مصر سنة ٤٥٠ ق٠م في فترة الاحتلال الفارسي وجاب مصر للدراسة والبحث ٠

ومع الزمن ألقى المصريون لمدة ثلاث وأربعين سنة ـ (٤٠٤ ـ ٣٤٣ ق٠م٠) في طرد الولاة الفرس ؛ حكمت أثناءها الأسرات الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون والثلاثون ٠ وكان أول حاكم قوى من بين ملوكها هو هكر ، ولكن أعظمهم جميعا كان نختانبو الأول وخلفه نختانبو الثانى ٠ فقد قام الملكان بالاضافة الى تصديهما للفرس ببنـاء مبـان جميلة داخل نطاقات معابد مصر استخدما فيها أقسى أنواع الحجـارة لأنهما كانا من المتحمسين لدعم الكهنة ؛ فقد كانا بعد ملوك سايس أعظم البنائين بعـد الرعامسة متفوقين في ذلك بمراحل عن الأسرات الليبية ٠ لكن الفرس عادوا وتمكن الامبراطور أرتاكسركسيس من الحاق الهزيمة بنختـانبو

الثانى سنة ٣٤٣ ق٠م٠ فانتهى العصر الفرعونى الى الأبد ؛ اذ لم تمض عشر سنوات حتى كان الاسكندر الأكبر قد دخل مصر واحتفى به بصفته محرر مصر من الاحتلال الفارسي ، ثم نودى به خليفة للفراعنة (٣٣٢ ـ ٣٢٣ ق٠م٠) بعد الف سنة من ايام سيتى الأول ورمسيس الثانى المجيدة ٠

اليونان والرومان وافول المدينة الفـرعونية :

بعد وفاة الاسكندر وورثته أصبحت مصر فى حوزة قائده المقدونى بطليموس الذى اعلن نفسه ملكا على البلاد باسم بطليموس الأول ، وأسس أسرة استمرت فى حكم مصر حتى انتهى حكمها على يدى كليوباترة بوقوع مصر فى ايدى الرومان سنة ٣٠ ق٠م٠ ، اصبحت مصر بعدها مجرد ولاية رومانية موردة للحبوب لروما ٠ أما الكهنة المصريون فقد نقلوا ولاءهم من اليونان الى الرومان ، لذلك حظوا فى العهدين بتصاريح لبنـاء معـابد جديدة وترميم المعابد القديمة ذات الطراز الفرعونى ٠ وقد زخرفوها بطقوس دينية سحيقة يقوم بها « فراعنة » من البطالمة ثم من الرومان مثل كلوديوس ونيرون ـ والكل فى زى مصرى تقليدى ٠ ولكن ذلك لـم يستمر طويلا فى فترة الحكم الرومانى ٠ فقد بدأت الأمور تتغير فى عهدى البطالمة والرومان ثم دخلت الديانة المسيحية الى مصر ، فبدأت الأساليب القديمة تفقد تاثيرها وسحرها بالتدريج ٠ واصبح « الفرعون » مجرد «فكرة» لا ترتبط « بالملكية » ترى الناس صورها فى المعابد المنعزلة ، ولا يتصورون انها كانت شخصية حقيقية تمثل حكاما حقيقيين عاشوا كما يعيشون فى سالف الأزمنة ليرعوا شعبهم ٠

وخلال فترة الحكم البطلمى كان رمسيس الثانى موجودا فى ذاكرة الناس ومقدسا من خلال عبادة أسرته بمنف ومعبـده « الرمســيوم » بطيبة ٠ ولكنه فى العصر الرومانى تحول هو الى تحفة اثرية مرسومة على جدران المعابد يتفرج عليهـا السائحون ـ ومنهم ديودور الصقلى ٠ ثم ذهب رمسيس الثانى وعصره فى زوايا النسيان بالنسبة للذاكرة البشرية مع افول الحضارة الوثنية ، وانتشار الديانات السماوية ٠

وعندما دخل الاسلام مصر سنة ٦٤١ ميلادية توارى تماما عرف العبادة الملكية فاصبح رمسيس الثانى فى مصر نسيا منسيا ٠ وبقى الحال على هذا المنوال حتى نشطت حركة الاستكشافات الأثرية فى أوائل القرن التاسع عشر ٠ وعندما افلح العلامة شمبليون فى فك شفرة الرموز الهيروغليفية

كان ذلك ايذانا باجلاء كثير من غوامض الحقبة الفرعونية · ومنذ ذلك اليوم أخذ اسم رمسيس الثانى (وآثاره) يسترجع مكانته فى دائرة الانسانية عن جدارة · وفى ستينيات القرن التاسع عشر كشف لصوص المقابر على مخبأ مومياوات الفراعنة جنوب الدير البحرى · وفى سنة ١٨٨١ كشف بروجش وأحمد كمال عن المخبأ السرى نفســه لتظهر موميات رمسيس الثانى ورفاقه على ظهر الأرض فى ضــوء النهار ، فى دنيا شتان ما بينهما وبين دنياهم ـ دنيا القرنين التاسع عشر ثم العشرين بعــد الميـــلاد ·



الفصل الثانى عشر

تأملات فى سيرة رمسيس الثانى

رمسيس الثانى فى زمانه

كان رمسيس الثانى بمظهره البطولى وبنيانه الهرقلى الفارع هو الشخصية التى هيمنت على تاريخ مصر طوال القرن الثالث عشر قبل الميلاد . واذا نظرنا نظرة عامة الى تاريخ الشرق الأدنى فى ذلك الوقت - وهو فى الواقع تاريخ العالم المتحضر فى تلك العصور - نجد أن رمسيس الثانى كان من بين شخصياته البارزة المؤثرة ، وأن ملكه كان أكثر استقرارا ورسوخا من ملك أقرانه . ولا شك فى أن صنويه - ملكى بابل وخيتا كانا مقاتلين عنيدين يوازيانه أو يفوقانه فى الكفاءة العسكرية الا أن عمر ملكهما كان قصيرا ، فأطولهما عمرا لم يتالق لأكثر من نصف المدة التى أمضاها رمسيس الثانى فرعونا لمصر . وباختصار كان عصر رمسيس الثانى عصرا فريدا له طابعه الخاص ، وشهد من الأحداث فى الداخل والخارج شيئا كثيرا ، وخلف من الآثار ما يشهد له بنهضة انشائية عظيمة . وربما كانت آثار أسلافه المباشرين أكثر روعة من آثاره ، الا أن آثار رمسيس الثانى كان لها طابع مميز ، وأسلوب فيه من الخصوصية ما يستحق أن يطلق على تلك الحقبة اسم العصر الرعامسى ، كما يطلق الانجليز على فترة حكم ملكتهم فيكتوريا اسم العصر الفيكتورى لأنه ميز حقبة تاريخية لا تنسى فى انجلترا فى القرن التاسع عشر .

لكن ما هو دور رمسيس الثانى بالتحديد فى تاريخ مصر خلال ذلك ؟ فى عهد سلفيه تحتمس الثالث وامنحتب الثالث - قبل رمسيس الثانى بقرنين - كانت مصر قد حلقت فى آفاق عالية من المجد ، وبلغت ما لم تبلغه فى تاريخها من قبل من القوة والمكانة فأصبحت القوة السياسية

الكبرى فى عالمها المعاصر · ولم تكن انجازاتها الحضارية والمعمارية أقل شأنا ، فضارعت ان لم تجاوز كل انجازات مصر العظيمة على مدى تاريخها السالف · ووقفت مصر على أقل تقدير على قدم المساواة مع أعظم المدنيات الأخرى فى ذلك العصر · فلما جاء اخناتون لم يعر الشئون الخارجية اهتماما يذكر ، وعندما هم بذلك كانت الأمور قد خرجت من يديه ، وخسرت مصر فى سوريا خسائر جسيمة · وزاد الطين بلة الهزيمة التى الحقها خيتا بحليفته ميتانى ، فقضى على أحلام مصر فى تحقيق مشاريعها الامبراطورية · وأدى رفض أخناتون للديانة التقليدية ذات الصبغة العالمية وتشبثه بنظرته الفردية الضيقة حول الاله الواحد وعبادة الشمس ـ مع عدم تقديمه للناس بديلا مقنعا للآلهة التى اعتادوها ـ أدى ذلك الى تزعزع ثقة المصريين بتراثهم وأسلوب حياتهم بشكل خطير · ووقع الناس فى الحيرة والتخبط ·

فلما مضى أخناتون جاء توت عنخ آمون ثم حور محب من بعده ليعيدوا الأوضاع الى ما كانت عليه قبل أخناتون ، فعاد آمون ملكا على الآلهة ، وعاد أوزيريس ملكا على العالم السفلى · وعالج حور محب الأمور الداخلية بكل حزم فقضى على الابتزاز والرشوة وسوء استغلال السلطة التى استفحل امرها بشكل غير مسبوق اثناء انشغال اخناتون بعالمه الخاص · والتأم الشمل مرة اخرى ـ ولكن ماذا بعد ذلك ؟

هذا السؤال أجاب عليه خلفاء حور محب : رمسيس الأول وسيتى الأول ثم رمسيس الثانى · فقد استنكن ثلاثتهم شيئين اساسيين : أولهما فقدان مستعمرات مصر الامبريالية ، وتزعزع مكانة مصر الدولية ـ وهذان عمادهما جيش مصر ومدى قوته واستعداده · وثانيهما تزعزع ثقة المصريين فى تقاليدهم وتراثهم القومى نتيجة حكم اخناتون الذى وصفوه بأقذع النعوت ولم يعترفوا به كفرعون حقيقى ، وأسموه « مجرم اخيتاتون » · وظهرت فى أفعالهم المختلفة من حروب ومنشآت والقاب الطريقة التى اختاروها لحل المشكلة ـ مشكلة مستقبل مصر بعد المحنة الآتونية ·

فى الجانب السلبى قام ملوك الرعامسة بتحطيم وطمس أسماء الملوك الآتونيين ومحو كل اثر لذكراهم كلما وجدوا الى ذلك سبيلا · وفى مقابل ذلك أعادوا لآمون وغيره من الآلهة مكانتها ، وردوا لها اعتبارها ، ولم يزيدوا على ذلك · أما فى الجانب الايجابى فقد وضعوا نصب أعينهم استعادة الانجازات المجيدة التى تحققت فى عهد الأسرة الثامنة عشرة

والتفوق عليها ان أمكن ـ سواء فى السلم أو فى الحرب · واتخذ رمسيس الأول لنفسه ألقابا كما لو كان أحمس الأول الجديد ورأسا للأسرة الثامنة عشرة بعد تجديدها · أما سيتى الأول فشرع فى الغزو والحرب منذ سنة حكمه الأولى بعزم وقوة وكان ميدانه كنعان وسوريا فكان الأول والوحيد بعد تحتمس الثالث الذى أمكنه أن يحتل قادش ، رغم أن ذلك لم يدم طويلا · وأدرك سيتى الأول أن الزمن قد تغير وأن خيتا أصبحت « قوة عظيمة » لا قبل له بدحرها فعمل على مسالمتها واقر معاهدة السلام معها · وكان سيتى فى هذا ولا شك حكيما حيث تفهم الأوضاع ووطن نفسه على قبولها ، وآثر مصالح بلاده العليا على الأمجاد الشخصية الزائلة · وكانت انجازاته السلمية أعظم من انجازاته الحربية · فمشاريعه المعمارية ـ وأهمها القاعة الكبرى بالكرنك ومعبده التذكارى بالبر الغربى ومعبده الكبير بأبيدوس أضخم مما بناه تحتمس الثالث ، ومستواها ينافس ما بناه امنحتب الثالث · أما زخارفها وإن كانت تقارب أعظم أعمال الأسرة الثالثة ، الا أنها لم تكن بنفس القوة والحيوية ـ باستثناء النقوش الحربية بالحفر البارز · وباختصار فقد تمكن مؤسسو الأسرة التاسعة عشرة من تحقيق معظم ما عقدوا العزم عليه ·

فى مجال الحرب ، كان الملك الشاب رمسيس الثانى يبدو جريئا غير هياب ، وقاد جيشه بنفسه لاسترداد قادش واستعادة المستعمرات السورية التى كان تحتمس الثالث قد ضمها لمصر · وصمم على المضى قدما فى مشروعه الذى عجز أبوه عن تحقيقه واستمر عناده واصراره عشرين عاما ، ومع ذلك لم يحقق نجاحا يذكر · كان متحمسا نشيطا ولا شك لكنه لم يحسن استغلال نشاطه ولا حماسه كما ينبغى · لقد أنفق عشرين سنة فى الحرب والنزال أنهاها بمعاهدة لم تحقق شيئا ذا بال من آماله العريضة · انها عشرون سنة مهدرة كم مات فيها من الرجال وكم أهدرت فيها من موارد ! وقد دخل رمسيس الثانى مسرح عملياته وهو عارف أن أباه دخله من قبله وأوقف النزيف فى الوقت المناسب ، ولم يضيع فى الميدان أكثر من سبع سنوات · كان سيتى الأول فى ذلك ولا شك حكيما · أما رمسيس الثانى فقد استنزف من الوقت والموارد ثلاثة أمثال ما فعله أبوه لكى يصل الى نفس النتيجة : من المستحيل تغيير مجرى التاريخ أو الوقوف ضد التيار · وأخيرا عندما لم تؤد به الحرب الى نتيجة ، وعندما وجد أن الهدنة مع الحيثيين أفادتهم بأكثر مما أفادته ، توقف رمسيس عن عناده ووقع معاهدة الصلح والسلام ·

وفى السلم كان رمسيس الثانى بناء عظيما انجز أعمالا لا تقل روعة عن أعمال أبيه · فله من الانشاءات الرائعة معبد رمسيس الثانى بأبيدوس

ومقبرته الرائعة بوادي الملوك (قبل أن تنهدم) ، وتمثاله العظيم الشهير بمتحف تورين ، اضافة الى تماثيل كثيرة متكسرة بمصر . لكن رمسيس الثاني كان متعجلا نافذ الصبر حتى تنتهي مبانيه في أسرع وقت ممكن ، لذلك لجأ الى الحفر البارز العميق في نقوشه بدلا من الحفر المنخفض الرشيق الذي يحتاج للصبر والوقت . كذلك لم يكتف بانشاءاته العظيمة الجليلة مثل الرمسيوم وأبي سمبل واضافات معبد الكرنك وبني رمسيس التي أتى عليها الدهر ، بل اهتم نشاطه في مجال المعمار الى حدود غير معهودة من قبل ، وكانت هذه الانشاءات بصفة عامة تقليدية لا بأس بها ، لكن العجلة في التنفيذ خصوصا في أيامه الأخيرة وفي المناطق البعيدة حيث العمالة معظمها محلية (النوبة) جعلها في مستوى أقل من المعهود .

وفي خدمة الآلهة تفوق رمسيس الثاني على كافة الفراعنة السابقين واللاحقين في تاريخ مصر كله ، وما أنشاه من أجلها يشهد بذلك . ولا شك أنه هنا قد حقق آمال أسرته . وفي المراكز العظمى كانت الآلهة مثل بتاح وآمون تقام لها الأعياد على أرفع مستوى ، وبصورة لم يمكن مجاراتها بعد ذلك لمدة ألف سنة حتى العصر البطلمي ، حيث قرر ملوك البطالمة بناء معابد عظيمة لأنفسهم . وحتى المدن والقرى بنى فيها رمسيس الثاني الكثير من المعابد الصغيرة ، أو على الأقل أضاف الى القديمة منها اضافات ولو بعض النقوش الجديدة البراقة لتحمل اسم رمسيس الثاني .

ولكن ماذا عن الروح القومية وحماسها للملكية ؟ الحقيقة أن مسألة الملك كان لسيتي الأول وابنه رمسيس الثاني فيها رأي واضح . فقد آمنا أن آمون مهما بلغ من القوة والعظمة فلا ينبغي له أن يطغى على الوظيفة العليا في الدولة – الملكية . لذلك تابعا ما توقف عنده امنحتب الثالث فرفعا من قدر الالهين بتاح ورع ليقفا في صف واحد مع آمون ، ثم دعما عبادة اوزيريس الشعبية ، وأخيرا أسسا ديانة العبادة الفرعونية حيث يعبد الفرعون في مظاهره الالهية المختلفة . وفي هذا المجال الأخير كان رمسيس الثاني أطول باعا من أبيه وأسلافه ومورست عبادته في النوبة كما مورست في مصر بين يدي تماثيله العملاقة . وتجاوز رمسيس الثاني كل ذلك عندما ادعى أن له علاقة خاصة ببعض الآلهة – « آلهة رمسيس » وأخصهم اله الشمس . وبذلك يكون قد وضع لعبادته أساسا نظريا يحقق ما كان يهدف اليه أخناتون المارق نفسه وهو ربط الآلهة بمركز الفرعون المحوري ، ولكن خطوة رمسيس الثاني كانت أشد رسوخا من سلفه .

ويلوح أن حياة مصر على المستوى القومي قد انتعشت في عهده الى حد كبير . فقد تدرب الفراعنة الثلاثة رمسيس الأول وسيتي الأول

ورمسيس الثانى على تقييم الرجال والتعامل معهم منذ الصغر . وكانت لديهم مواهب فذة فى تقدير الرجال . لذلك أحاطوا انفسهم برجال تميزوا بالكفاءة والولاء ، أدوا ما أوكل اليهم من أعمال بكل همة ونشاط ، وكان النجاح من نصيبهم . وقد عمل بعض هؤلاء ، مثل باكنر ، على حفظ التراث وتخليده . وتوسع الرعامسة بحكم ملوك الأسرة الثامنة عشرة فى محيط اختيار الرجال فلم يقصروه على دائرة محدودة النفسها الأسر القوية فى منف وطيبة ، بل انهم لم يألوا عن استخدام كل من توسموا فيه الكفاءة فى كافة أقاليم مصر ، وزادوا على ذلك الاستفادة بجهود الأجانب من الكنعانيين والحوريين واعطوهم الفرص للترقى فى وظائف القصر . وبذلك دخل المجتمع المصرى فى فلك العالمية بشكل غير مسبوق . وتوافرت الحوافز مع الاحتفاظ بالتقاليد المصرية الأساسية .

على اية حال فقد تغير كل شىء بعد القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وانقطعت سلالة رمسيس الثانى ، وتولت أسرة جديدة حكم مصر هى الأسرة العشرون التى كانت كل انجازاتها الداخلية والخارجية انجازات وقتية عابرة . وبعدها اخذت كل أحوال مصر الاقتصادية والسياسية فى التدهور . فما الذى حدث ؟ وما دور رمسيس الثانى فى ذلك ؟ لا يمكننا فى الواقع القاء الكثير من اللوم على رمسيس الثانى نفسه على هذا المصير ، وإما كبر سنه فقد استعان عليه فى سنواته الأخيرة بولديه القديرين خع ام واست ومرنبتاح . وكان حكم مرنبتاح نفسه رغم قصر مدته قويا . وإن كان قد تعجل فى تنفيذ مشاريعه الانشائية فقد كان ذلك لكبر سنه ، وهو على اية حال ليس من الأمور المؤثرة . ويبدو ان المشكلة الحقيقية بدأت بعد وفاته وتركزت فى عدم استقرار العرش وسرعة تغير الملوك ودسائس القصر ، إضافة الى تدهور الجهاز الادارى وتفشى الخيانة لفقدان الحزم . وقد راينا كيف كان يحظى المستشار باى السورى بسلطات لا حد لها فى المملكة . وفى الأسرة التالية ـ الأسرة العشرين ـ ما أن انقضت مدة حكم رمسيس الثالث القوى حتى استشرى الفساد فى الدولة ، وتفاقم الوضع اكثر بسبب ضعف الغلة فى بعض السنوات . فاذا اضفنا لذلك كله ضعف شخصية الملوك وعدم قدرتهم على التصدى للفساد والوقوف فى وجه كبار موظفيهم الذين تضخمت سلطاتهم وسيطرت عائلاتهم على وظائف الدولة القيادية ، لما اصابتنا الدهشة من تدهور الدولة التى بناها الرعامسة فى خلال قرن ونصف من وفاة الفرعون القوى رمسيس الثانى . وساعد على ذلك كله التغيرات الكاسحة فى المجال الخارجى ، والتى تسببت فى ضياع المستعمرات المصرية فى سوريا ، مما عجل بافلاس مصر .

والخلاصة أن رمسيس الثانى أفلح فى اكمـال مسيرة جـده وابيـه واسترجع لمصر مجدها حسبما سمحت به ظروف عصره • ولكن شعلة هذا النشاط الفياض انطفأت فى نهاية حكمه الذى طال بشـكل ملفت ثم توارت فى زوايا التاريخ ، لتقنع مصر فقط بالتنعم بالرخاء العام الذى كان سائدا فى ذلك العصر • ولا ضرر فى ذلك لو استمرت الأسس التى بنى عليها سليمة ، وقيم المجتمع راسخة ومحترمة • وقد حـاول مرنبتاح فى المحافظة على ذلك وافلح الى حد كبير ، وتمكن من دحـر التهـديدات الخارجية وتحقيق أمن مصر ، ولكن بعده ضعفت المواهب وذهبت الحكمة والبصيرة وتدهورت الأخلاق • كذلك أمكن لرمسيس الثالث أن يوقف طوفان التدهور لفترة وهو يجاهد قدر طاقته للمحافظة على سلامة مصر ، وكانت كل آماله تنحصر فى أن يكون نسخة من سلفه العظيم رمسيس الثانى لا اكثر •

رمسيس الثانى فى التـراث المتـاخر

المثل الأعلى لملوك الرعمسة بعـده

سيطرت شخصية رمسيس الثانى على كثير من الفراعنة المتأخرين مثلما فعلت تماثيله الضخمة • واهم من تأثر برمسيس الثانى سـميه رمسيس الثالث فقد قام وبوعى كامل بتكييف نفسه والقابه واسماء ابنائه ، وحروبه ومبانيه ، باختصار كل ملكه على مثال رمسيس الثانى • فمـن اولاده مثلا آمون حر خبشف وبرحرونمف ورمسيس وخع ام واست على اسماء أولاد رمسيس الثانى • وانشأ فى بى رمسيس المقر الشهير بالدلتا حيا جديدا • وبنى معبده بمدينة هابو على طراز الرمسيوم لدرجة اننا نرجع الى أحدهما لمعرفة ما تهدم فى الآخر • وفى معبده هذا بنى رمسيس الثالث هيكلا لعبادة تمثال رمسيس الثانى الرمزى الخـاص بسـفينته الرمزية المقدسة ؛ فقد كان رمسيس الثانى هو بطله المقدس • وبعده تسمى كل ملوك الأسرة العشرين باسم رمسيس (من الرابع حتى الحادى عشر) • وكثيرا ما الحق بعضهم مثل آمون حر خبشف وست حرخبشف وخع ام واست وايوت آمون اسم رمسيس بأسمائهم الأصلية ـ كما تلقب كل اباطرة الرومان بلقب قيصر • وحتى بعد انتهاء العصر الامبراطورى نجد خليفة سمندس وبسوسنس الأول يسمى نفسه كثيرا باسم «رمسيس ـ بسوسنس» كما يسمى ابنه « رمسيس عنخ اف ان موت » • ومن الطريف أن رمسيس الرابع تضرع للآلهة لتمد فى ملكه ستة وستين عاما أو اكثر مثل رمسيس الثانى • ولكن لم يرق أحد منهم الى مستوى مثلهم الأعلى فى شخصيته وكفاءته وبعد نظره ولا موارده ولا رجاله ، فلم يقتربوا من مثلهم الأعلى ولو قليلا •

شهرته بعد العصر الامبريالى

لم يكن يسوسنس الأول نسيجا وحده بين ملوك العصر المتأخر فى محاكاة أسلوب رمسيس الثانى الامبريالى · فخليفته أمنموّبى وكثير بعده من فراعنة الأسرتين الثانية والعشرين والثالثة والعشرين الليبيتين قد اتخذوا الاسم الملكى أوسرماعت رع مع ألقاب مختلفة · واستخدم شاشانق الثالث ألقابا ركبت على أساس ألقاب رمسيس الثانى ، وحكم ٥٢ سنة وهى فترة طويلة كمثله الأعلى ، لكنه لم تكن له عظمة رمسيس الثانى ولا سؤدده · وفى الفترة بين القرنين الحادى عشر والثامن قبل الميلاد استردت عائلات طيبة الكبيرة مناصبها الكهنوتية الصغيرة داخل مذهب العبادة الملكية للملوك الثلاثة رمسيس الثانى والثالث والرابع ، وكانت اهتماماتهم دينية أكثر منها سياسية · وفى القرن الحادى عشر قبل الميلاد أرفقت احدى البرديات السحرية « تعريفا » يشير الى « أصالتها » يقول :

« الكتابة التى وجدت على عنق مومياء الملك أوسرماعت رع [رمسيس الثانى] فى الجبانة » ·

وفى الأسرتين التانيسية والليبية كان البلاط يضم أمراء وكبراء افتخروا باستخدام اللقب الرفيع « ابن الملك ابن رمسيس » ، رغم مضى قرون على انتهاء عهد الرعامسة · وابتداء من سنة ٧٣٠ ق·م· وما تلاها أعرض الملوك عن النمط الامبراطورى فى الحكم ، لكن بعضهم على الأقل حاول تجربة حظه فى غرب آسيا اقتداء بأعمال الدولة الحديثة · كما احتفل بسماتيك الثانى بحملة له على النوبة بكل مظاهر الأبهة والجلال كما لو كان رمسيس الثانى فى انتصاره ؛ وحتى جيشه سجل بعضهم ما شاء أن يسجل على كاحل تمثال رمسيس الثانى الضخم المغروس فى الرمال بمعبده بأبى سمبل ·

المأثورات المتأخرة عن رمسيس الثانى وخع ام واست :

بعد الف سنة من عصر رمسيس الثانى وولده الشهير خع ام واست كانت ذكراهما ما زالت حية فى أذهان الناس من خلال القصص والتراث الشعبى والدينى · واستمرت العبادة الملكية فى شخص رمسيس الثانى تؤدى فى معبده بأبيدوس · وفى منف كان رمسيس الثانى وابنه مرنبتاح موضع الاجلال · والأكثر طرافة واثارة الحكايات والمرويات الشعبية عن الملك والأمير · ففى طيبة ـ حوالى سنة ٣٠٠ ق·م ـ أراد كهنة الاله الصغير خنسو صانع الخطط (شكل ثانوى لاله القمر خنسو) أن يرفعوا

من ذكر الههم فما زادوا على أن ربطوا اسمه بأحداث عظيمة حدثت من الف سنة . واختاروا مناسبة هامة هى زواج رمسيس الثانى من أميرات خيتا ، كما استغلوا حروب رمسيس الثانى السورية فنسجوا من أحداثها حكايات شعبية براقة وغامضة ؛ وربما أضافوا لتقويتهـا مرويات أخرى يرجع تاريخها إلى عهد إمنحتب الثالث . كذلك أضافوا لهيكل الههم شاهدا جميلا ، سجلوا عليه غزوات رمسيس الثانى السنوية لسوريا ، وذكروا كيف صانعه ملك باختان فأرسل له إبنته أخيرا ليتزوجها رمسيس الثانى وتصبح ملكة على مصر مثل نفرورع (ماعت حور نفرورع) . ومن مزوياتهم أنه حدث فى يوم ما أن رجا أحد سفراء باختان ارسال طبيب مصرى ليشفى ابنة ملك باختان الصغرى لكنه فشل ، فأرسل بدله الاله خنسو صانع الخطط فنجح ثم عاد الى مصر . وهكذا لم تجد هيئة كهنة الإله خنسو خامل الذكر وسيلة تساعد على رفع ذكر الههم سوى التعلق بأمجاد رمسيس الثانى .

وأهم من ذلك الصيت الحسن الذى اكتسبه الأمير المبجل ذو الثقافة الرفيعة خع ام واست فقد ارتفع ذكره وذاعت شهرته ككاهن وعالم وادارى وكراع لعبادة عجل أبيس . ولم تكن شهرته كباحث وكمخطط اقل شأنا . وقد استمرت ذكرى هذا الأمير حية ، لدرجة أنه فى القرن الثانى قبـل الميلاد كانت طريقته فى دفن عجول أبيس هى الطريقة المعمول بها . ووصل صيته الى طيبة وظلت ذكراه حية لدرجة أن اسمه كان مازال يسجل فى برديات القرنين الأول قبل الميلاد والأول بعده ، فى فترة تحول حكم مصر من اليونانيين الى الرومان . وتوجد ضمن البرديات المذكورة قصتان عن هذا الأمير تسمى فيها باسم « سيتنى خع ام واس » ابن الفرعون « أوسر ماعت رع » يلعب فيها دور كبير السحرة العليم بأسرار التراث القديم الخالدة ، ودور الحامى للفرعون بمنازلته للساحر النوبى الخبيث .

القصة الأولى اسمها أخبار « خع ام واست ونانفر كابتاح » . وتتلخص القصة فى أنه ذات يوم توغل خع ام واست داخل مقبرة قديمة فى صحراء منف ، ينشد البحث عن كتاب سحرى الفه تحوت اله الحكمة بنفسه . وكانت أرواح نانفر كابتاح وزوجته وابنه تحرس هذا الكتـاب . فلما وصل الأمير اليه أخذت الأرواح الثلاثة تتوسل اليه كى يدع الكتاب مكانه ، وأنبأوه أن الكتاب كلفهم حياتهم . لكنه أصم أذنيـه وأصر على أن يقترعوا من أجل الحصول على الكتاب الثمين بلعب الضامة (السيجة المعروفة فى مصر) . فلما لعبوا خسر خع ام واست ثلاثة أشواط ، لكن أخاه أسعفه بطلاسم سحرية مكنته من الفوز والاستيلاء على الكتاب ،

فاخذه وخرج ليتمتع بما فيه مأثورات · لكن لعنة الأرواح الثلاثة ـ حرس الكتاب ـ لاحقته واقضت مضجعه · واستشار خع ام واست اباه فنصحه باعادة الكتاب الى مكانه ، فأخذ بنصيحة ابيه واعاد الكتاب حيث كان فى المقبرة ثم اصلحها واكرم موتاها بأن اعاد دفنهم على الوجه الصحيح ·

اما القصة الثانية فاسمها حكاية « خع ام واست وابنه سى ـ اوزيرى » · وتتلخص فى أن الأمير وزوجته كان املهما ان ينجبا ولدا · وتحقق املهما فانجبا سى اوزيرى · وشب الولد نابها بارعا حتى صار الع السحرة ، مما اثلج فؤاد ابيه · وبلغ من براعته انه مكن اباه من مشاهدة قاعات الحساب حيث توزن اعمال الناس فى الآخرة · ثم حدث ان ارسل امير النوبة من يتحدى سحرة مصر فتصدى له ابن خع ام واست العجيب · وبدات المنافسة بأن تمكن سى ـ اوزيرى من قراءة الرسالة المغلقة التى حملها الساحر النوبى · وكانت الرسالة تتحدث عن مباراة قديمة فى السحر بين نوبى اسمه « حور » امه زنجية ، وبين سميه المصرى « حور » بن بانسحى · وبعد الكشف عن محتويات الرسالة امكن لسى ـ اوزيرى ان يتعرف على حامل الرسالة النوبى اذ كان هو نفسه « حور » ابن الزنجية · ثم اعلن انه ـ اى سى اوزيرى ـ هو ايضا « حور » بن بانسحى بعث حيا مرة اخرى لانقاذ مصر فى هذا النزال السحرى · وما ان قال ذلك حتى احرق النوبى واختفى سى ـ اوزيرى لتظل ذكراه العاطرة عالقة بالأذهان ابد الدهر ·

هذا ملخص بسيط للقصتين ذكرتا ضمن أساطير العصر فى مطلع العصر الميلادى مشيدة بالأمير خع ام واست ، فى وقت تداعت فيه كل الامبراطوريات الشرقية القديمة ووقع معظم العالم المتحضر فى قبضة الرومان ليتخذ تاريخ العالم مسارا جديدا ·

ذكر رمسيس الثانى فى مأثورات تراثية اخرى :

ذاع اسم رمسيس الثانى واعماله حتى تجاوزت حدود مصر · ففى سفرى التكوين والخروج من العهد القديم ذكرت « أرض رمسيس » [تكوين ٤٧ : ١١] و « رمسيس » مجردة [خروج ١ : ١١] على أنها المدينة التى اعتقل فيها اليهود ·وذكرت فى سفر الخروج [خروج ٣٣ : ٣ ، ٥] باعتبارها مبدأ هجرة اليهود من مصر (واقعة الخروج) · وفى هذا التراث العبرى القديم كانت پى رمسيس عاصمة الحكم العظيمة فى

الدلتا (« مملكة رمسيس » أو « أرض رمسيس » كما وصفوها) هى المعتقل الكبير للعبرانيين الذين استعبدهم رمسيس الثانى وسخرهم للعمل فيها حتى عشية حادث الخروج من مصر · وكانت هذه المأثورات العبرية القليلة لعدة قرون ، مع قائمة ملوك مصر لمانيتون وفيها التباس بين الاسمين رابساكيس ورمسيس ـ وقد حفظها لنا فى العصر المسيحى بعض مؤرخى الحوليات مثل يوسيبيوس ـ كان هذان المصدران هما الخيط الرفيع الذى ربطنا برمسيس الثانى كملك من ملوك مصر القديمة · واستمر هذا الوضع طوال العصور الوسطى وحتى عصر المكتشفات الحديثة ·

هناك نبع آخر يمدنا بمعلومات عن رمسيس الثانى ومدى شهرته فى أواخر العصر القديم وبعده · هذا النبع هو مؤلفات قدماء الاغريق من الرحالة والمؤرخين ، وأولهم هيرودوت (زار مصر حوالى سنة ٤٥٠ ق·م· أثناء الاحتلال الفارسى) ، ثم من تلاهم من الكتاب الرومان · وقد تكلم هيرودوت عن « رهاميسينيتوس » الذى خلدت اسمه البوابة الضخمة الموجودة عند الحافة الغربية لحرم بتاح بمنف ، والتمثالان العملاقان الواقفان أمامها ـ وهى غالبا البوابة البرجية التى تؤدى الى قاعة رمسيس الثانى الغربية بالمعبد مع قاعدتيه · وقص علينا هيرودوت أيضا قصة طريفة عن مدى ثراء رمسيس الثانى ، وأنه كان لصا محنكا ، وله زيارات للعالم السفلى ·

وبعد مضى حوالى أربعة قرون من وقت هيرودوت زار مصر ديودور الصقلى واقتبس كثيرا من كتابات هيكاتيس الأدبيرى وغيره ليكتب عن مصر باستفاضة · وينقل ديودور عن هيكاتيوس وصفا دقيقا « لمقبرة أوزيمانديياس » ـ وما هذه المقبرة سوى معبد الرمسيوم بغرب طيبة · وما كلمة أوزيماندياس الا شكل من أشكال الاسم الملكى لرمسيس الثانى « أوسر ماعت رع » · والتمثال الفاره الذى ذكره ديودور هناك لم يكن سوى تمثال رمسيس الثانى الساقط على الأرض والموجود هناك حتى الآن · وقد توسع ديودور فى الوصف لدرجة أنه ذكر شيئا عن موقعة قادش مع الحيثيين الذين أسماهم بأهل « باكتريا » ، التى اعتادت أن يعبر بها اليونانيون عن امبراطورية خيتا المنسية (لاحظ قرب هذه الكلمة من كلمة باختنان التى أوردناها فى قصة ختوس صانع الخطط) · وفى كتابات ديودور يسمى رمسيس باسم رمفيس وهو تحريف للاسم الأصلى · ولم يتنبه ديودور فى كتابه الى أن رمفيس هذا هو نفسه أوزيماندياس ·

ثم جاء بلينى فذكر سيتى الأول ورمسيس الثانى تحت اسمى « سيصوثيس » و « رهامسيس » على التوالى · وهكذا نجد أن ضروب

رمسيس الثانى وانشاءاته كانت مازالت عالقــة بالأذهــان فى التراث المتأخر • حتى ملوك الأسرة الثانية عشرة العظيمة سنوسرت الأول والثانى والثالث قد علا صيتهم للالتباس بينهم وبين الرعامسة فنسب اليهم هم استخدام العربات القتالية وبعض حملات سوريا ، وكثيراً من أعمـــال رمسيس الثانى الانشائية هو وأسرته •

وكتب جوسفوس بدوره قصة نقلها عن مانيتون (من كتاب القرن الثالث الميلادى) عن حروب سيتى ورمسيس • وعن جوسفوس نقل مؤرخو الحوليات : افريقى ويوسيبيس وسنسللوس (القــرون : الثالث والرابع والثامن الميلادية على التوالى) • وفى القرن الرابع الميلادى حجبت رئيسة الراهبات «اثريا» الى «مصر» ومرت على اطلال منتشرة فى مساحة واسعة كانت مازالت تحمل اسم « رمسيس » • وقد شاهدت تمثالا حجريا ضخما على هيئة تمثالين عملاقين (تمثال ثنائى ضخم) افهمها مرافقوها انهما تمثالا موسى وهارون ــ ربما لارضائها ؛ بينما نعلم يقينا انهما تمثال ثنائى لرمسيس الثانى بصحبة أحد الآلهة ••• وللذكرى كان رمسيس الثانى منذ سبعة عشر قرنا من تاريخ الزيارة المذكورة قد أخرج باستعلاء رسول بنى اسرائيل وشعبه الى التيه من نفس هذا المـكان ، لكن رمسيس نفسه قد أصبح نسيا منســيا عند زيارة الراهبــة متواريا خلف تمثاله ، بينما طغت عليه شخصية موسى المهيبة ــ شخصية صاحب الشريعــة اليهودية •

رمسيس الثــانى فى العصر الحــديث

اســتعادة الحضـــارات المفقـــودة

ظل حطام الحضارة المصرية القديمة مدفونا فى الرمال عدة قرون - ومرت بعده حضارتان كاملتان • وحتى العصر الاسلامى الوسيط على عظمته لم يجد فى مخلفات الفراعنــة شيئا نافعا سوى الحجارة التى تنفع فى البناء ، ولم يتجه اهتمامهم لدراسـتها • وكانت الحمـلات الصليبية تنظر لبلاد الشرق الأدنى بما فيها مصر نظرتها الى بلاد نائية لا تمت لهم بصلة ، وأن ذكرها فى الكتاب المقدس قد مضى زمانه • وظل رمسيس الثانى فى زوايا النسيان •

وفى القرن السادس عشر بدأت تشتد الحركة السيا ـ ـة من أوروبا الى مصر ، وازدادت الحركة نشاطا فى القرن السابع عشر ، ثم أصبحت

كثيفة فى القرن الثامن عشر • وكان كثير من السائحين يتجاوزون القاهرة مستكشفين لأطلال طيبة ومعابدها • ومع عصر التنوير بدأت معلومات أوروبا عن مصر تتجدد • وكشف باباوات روما عن بعض المسلات المصرية ونقلوها الى روما حيث أقاموها هناك • ولما هل عصر الاصلاح الدينى ازداد تأكيد دور الكتاب المقدس فى الحياة الروحية ، فبدأ الاهتمام بمحتوياته بما فيها من ذكر الحضارات القديمة • كذلك بدأت تتجمع من جهات عديدة دراسات عن الهيروغليفية المصرية ، ولكن افتقارها الى البحث المنهجى جعلها لا تحظى بالنجاح •

وكانت اللحظة الحاسمة مع بداية القرن التاسع عشر ، عندما غزا نابليون مصر • فقد أخذ فريق العلماء الذين اصطحبهم معه فى البحث والاستكشاف والمسح ، وسجلوا الآثار المصرية بأسلوب فنى رشيق هو أحسن ما عمل فى ذلك العصر • ثم اكتشف حجر رشيد ، وهو مرسوم ملكى كتبه بطليموس الخامس بثلاثة خطوط ، فأسهم فى الاسراع بفك شفرة الرسوم الهيروغليفية ، التى كان روادها أكربلاد ويونج وأنهاها ببراعة وألمعية العالم شمبليون بدءا من سنة ١٨٢٢ • وأخيرا أخذ علماء مثل روسيلليني ولبسيوس واضرابهما فى تطبيق نتائج دراسات شمبليون على النقوش المصرية القديمة ، فتمكنوا من تغطية حقبة طويلة من تاريخ مصر القديم تغطى ثلاثة آلاف سنة • من ذلك الوقت بدأ ذلك التاريخ العتيد يبرز من زوايا النسيان ويطفو كما تطفو السفينة الغارقة •

وفى اتجاه مواز أمكن حل الرموز المسمارية أيضا وأصبح من الميسور التعرف على حضارة ما بين النهرين العريقة المعاصرة للحضارة المصرية القديمة ؛ وأدى ذلك الى الكشف عن حضارتى آشور وبابل • وبذلك لم تصبح كتابات الكتاب المقدس فى عزلة ، بل أصبحت مكملة ومتضافرة مع ما حققه المؤرخون فى هذا الصدد ، لكى تؤكد حقيقة تلك الحضارات العريقة الفذة • ومنذ عصر نابليون أخذت « موضة » الأثاث الفرعونى تنتشر فى أوروبا ، ومعها بدأ تهافت الأوروبيين على التحف الفرعونية حتى اكتظت بها متاحف أوروبا فى وقت كان المصريون أنفسهم غافلين عنها •

وأخيرا بدأت مصر تنهض ؛ ومع نهضتها بدأت تهتم بتاريخها القديم • ومنذ عهد مرييت أسست ادارة خاصة هى « مصلحة الآثار المصرية » للاشراف على الحفر والاستكشاف بأسلوب علمى مقبول ابتداء من بترى • ومع الزمن زاد عدد الباحثين والخبراء فى أعمال الحفائر

ومعرفة الكتابة باللغة الهيروغليفية فأخذ علم المصريات مكانه على أرض راسخة • وقد أمكن لعلماء المصريات أن يكشفوا الكثير عن أحوال مصر القديمة فى مجالات متعددة : تاريخية وانسانية وأثرية وحضارية ، غطت آلاف من السنوات من عمر الحضارة الفرعونية ، استخدمها برستيد بكل اقتدار فى دراساته عن تطور البشرية •

رمسيس الثانى حتى الآن

ما هو نصيب رمسيس الثانى فى هذا كله ؟

فى سنة ١٨١٧ كتب وريث الثقافة الكلاسيكية ، وقارىء ديودور الصقلى ـ الشاعر المعروف بيرسى بيس شيللى مقطوعته التى أسماها ـ « أوزيماندياس » :

« لقيت مسافراً من بلد عتيق
يقول : رجلان من الحجر ـ كبيرتان بلا بدن
جاثمتان فى الصحراء ، وقريبهما على الرمال ،
نصف غارق ـ يرقد محيا محطما ، فى عبوسه ،
وشفته المغضنة ، وسخريته الباردة الآمرة ،
تقول ان تمثاله الذى يبرز هذه الأحاسيس
التى لا تزال حية مبصومة على هذه الأشياء الميتة ،
وأن اليد التى سخرت بها ، والقلب الذى غذاها :
على المنصة هذه الكلمات :
« اسمى : أوزيماندياس ، ملك الملوك ؛
انظر لأعمالى ، أيها الجبــار اليائس ! »
لم يبق شىء بجوارى • فمن فتات
هذا الحطام الضخم العارى ـ بلا جدود
تمتد الرمال وحيدة سائحة على مد البصر » •

لم يشاهد شيلى قط هذا التمثــال الضخم الذى توســم فيــه رمزا لطاغية نصف منسى مضت أيامه • وكان رمسيس ولا شــك آمرا متغطرسا لكنه لم يك قط عبوسا • كما أن كلمة «قدمان» أنسب من «رجلان» فى المقطــوعة •

المهم أنه فى هذه السنة تمكن بلزونى (سنة ١٨١٧) من دخول معبد رمسيس الثانى الكبير بأبى سمبل لأول مرة منذ ١١ قرنا ، وكان بورخارت

قد اكتشفه قبل ذلك بأربع سنوات (سنة ١٨١٣) غارقا في الرمال لا يكاد يبدو للعيان ؛ كأنما قد تاه في الدنيا الواسعة منذ أواخر العصور القديمة ٠ وكانت لزيارة بلزونى أهمية خاصة يمكن أن نلخصها فيما يلى :

كان شمبليون من تمكن من فك رموز الهيروغليفية وتمكن سنة ١٨٢٢ من قراءة أسماء الأباطرة اليونان والرومان المسجلة على حجر رشيد ٠ فلما صورت أو نسخت بعض النقوش الهيروغليفية من معبد أبى سمبل ارسلت لشمبليون ، فاستطاع أن يتأكد من أن عمله كان صحيحا ، وأعلن أن الهيروغليفية لم يعد فهمها مستغلقا ؛ وأنه يمكن أن يتطور تطبيقها ليكشف عن خبايا التاريخ الفرعونى نفسه ٠ وفى مكان آخر عثر على خرطوشة لتحتمس الثالث عززت ما توصل اليه من قراءة نصوص خاصة برمسيس الثانى ٠ وكما قال جريفيث : « كانت الصور المختلفة التى كتبت بها أسماء رمسيس الثانى ذات أهمية تعليمية في هذه المرحلة من بحوث شمبليون ، فتحت له باب الهيروغليفية على مصراعيه ٠ وعلى ذلك يمكن أن نقول ان اسماء رمسيس الثانى ومعبده بأبى سمبل كانتا حلقتين من حلقات السلسلة التى أدت الى معرفة الأبجدية الهيروغليفية ومهدت لظهور علم المصريات والكشف عن كثير من أحوال مصر القديمة ٠

عندما نشرت أعمال شمبليون العظيمة ، وأعمال روسيلليني ولبسيوس ، ثم بعض الكتب الهامة مثل كتاب سير ويلكنسون ، وأصبحت آثار وانتصارات الرعامسة ــ خصوصا رمسيس الثانى ــ متداولة ومعروفة فى أوساط المثقفين ٠ ٠ وفى الفترة بين سنتى ١٨٥٠ و ١٨٦٠ زال كل لبس وغموض وثبت أن مصر القديمة كانت لها حضارات قائمة بذاتها لها طابعها ومقوماتها ومميزاتها ، أحد عناصرها وأعلامها هذا الفرعون صاحب الآثار ؛ بانى المعابد الضخمة ذات الأبهاء المعمدة المكتظة ؛ وصاحب النقوش التى ملأت جدرانها بالصورة والكتابة تحدث بالانتصارات الامبريالية فى آسيا وافريقيا ؛ وتصور الأسرى مسلسلين فى الأصفاد ينحنون أمام مجد مصر ٠ هذا والفرعون نفسه مصور بشكل خارق ــ هرقلى المظهر بطولى السمات يقدم لآمون القرابين بصفته إله طيبة الظافرة ٠ وعند افتتاح قناة السويس فى احتفال عظيم تحت رعاية خديو مصر اسماعيل باشا ، كان أحد عناصر الاحتفال أوبرا عايدة ٠ ولم تعرض الأوبرا فى موعدها بل تأجل عرضها حتى سنة ١٨٧١ ٠ ومع أن القصة التى وضعها عالم المصريات الفرنسى مرييت باشا لتكون نواة للأوبرا لا تمت لعصر الرعامسة بصلة ، الا أن فيردى واضع ألحانها تأثر ولا شك برمسيس الثانى من ناحيتين : فخامة ومهابة أعياد النصر فى العصر

الامبريالى ، وعظمة الاستعراضات الحربية التى مثلتها فيردى فى المارش الكبير ٠

اذهلت آثار رمسيس الثانى العظيمة مع قصيدة عن معركة قادش عددا من علماء المصريات الأجانب ، لكن منهم من اتخذ منها موقفا سلبيا ٠ وممن اشاد به روسيلليني الذى رأى فى رمسيس الثانى صورة حية للبطل المعبود الذى لم يكفه أن « يغمر مصر باسباب الترف » فتيسرت أحوال الشعب وساد الاستقرار فى ربوع مصر ، بل مضى قدما « فحقق السلام العالمى لدرجة أن من قهرهم احبوه ووقروه » ٠ وعلي نقيضه يتحامل بونسن رافضا الاعتراف بعظمة رمسيس الثانى ويصفه بانه « حاكم غشوم جامح ، استغل فترة حكمه ـ التى طالت بلا حدود ـ فى اذلال شعبه والشعوب الأخرى يسوقهم كالأغنام لتحقيق مآربه الحربية والمعمارية » ٠ والحقيقة فى مثل هذه القضية تقع بين الطرفين المتنافرين ٠ وفى أواخر القرن التاسع عشر كتبت الرحالة المتشككة والمؤلفة الآنسة ميليا ادواردز رأيا فى رمسيس الثانى مهذب لكنه اشبه بمن يصدر حكما فى قضية :
« ان اهتمام المرء برمسيس الثانى يبدأ بمنف لكنه لا يتوقف حتى جنوب مصر الأقصى ٠٠٠ ولا يثير غيره من الفراعنة خيال المرء الا قليلا ٠٠٠ فمعظمهم ما هم الا اشباح تغدو وتروح ـ أما أمام رمسيس الثانى فيحس المرء انه أمام شخصية محببة تبعث على الاحترام ٠ ويثور فينا شعور أننا نعرفه ، ونحس بحضوره وبأننا نسمع اسمه فى الهواء ٠ واصبحت ملامحه مألوفة لنا ، كملامح هنرى الثامن أو لويس الرابع عشر ٠ وفى كل مكان نجد خراطيشه ؛ وهى حتى لمن لا يقرءون الهيروغليفية « كالماركة المسجلة » تنقل لنا لارتباطها به اسمه وأسلوبه ٠٠٠ محبوب آمون » ٠ وبعد ابحاث فى حكم رمسيس الثانى ـ مضى عليها الآن قرن ـ اجمعت رأيها فى عبارة قصيرة : « حتى نستريح ، فأفضل الآراء هو أن (رمسيس الثانى) لا كان أسوأ ولا كان افضل من النمط المعروف عن اباطرة المشرق ٠٠٠ » ٠

وفى القرن العشرين ، مع توفر الوسائل التى تسهل لنا دراسة التاريخ الفرعونى خلال قرن من عهد الآنسة ادواردز وباحثى العصر الفكتورى ، اخذت تنجلى لنا فترات كثيرة من هذا التاريخ الفرعونى الطويل ، تحقق عن طريق الاستكشافات وزيادة التفهم لهذا التاريخ ٠ وبعد النجاح فى العثور على مقبرة توت عنخ آمون سنة ١٩٢٢ امكننا التوصل الى وجهات نظر جديدة قادتنا الى اسقاطات معينة أثرت على دراساتنا فى التاريخ الفرعونى ٠ ولم يكن ذلك فى صالح رمسيس

الثانى وعصره · فبالتمعن فيما سجلته النقوش عن معركة قادش أدركنا مدى سطحية المكتوب عنها وتضخيمها بطريقة دعائية مفرطة لمجرد اضفاء البطولة على دور رمسيس وشخصه بشكل مبالغ فيه · أما مبانيه فما هى الا انعكاس لرجل تملكه الغرور وجنون العظمة · ومما زاد الطين بلة نجاحنا فى فك الأبجدية الحيثية وحلها فثبت منها الى اى حد كانوا هم المستفيدين من ملحمة قادش · وبذلك بدأت أضواء رمسيس الثانى تخبو ليأخذ حجمه الطبيعى ، وبدأ ادراكنا يزداد لحقيقة دوره · وباختصار ادركنا أن رمسيس الثانى كان بداية التقلص للحضارة المصرية ، وان كانت نهايتها قد استغرقت زمنا طويلا · واصبح من الأمور المسلم بها أن دوره ما هو الا « انقاذ ما يمكن انقاذه » · من جهة أخرى تعرض رمسيس الثانى للنقد اللاذع باعتباره فرعون الاضطهاد والخروج بالنسبة لبنى اسرائيل اعتماداً على تاريخ حدوث واقعة الخروج الرائج لهذه الوقائع · وزادت اهمية معاهدته مع الحيثيين لدينا ـ فهى من النماذج الهامة فى الوثائق والمعاهدات التاريخية ، ونموذج « للغة المصرية فى الترجمة » ؛ حيث أن النص المصرى مترجم من لغة أخرى هى اللغة البابلية ، اللغة الدبلوماسية الدولية فى ذلك العصر ·

وهكذا استقرت الرؤية الى حد كبير حتى الجيل الحاضر · لكن الصورة تغيرت منذ عهد قريب على جبهتين · ففى السنوات ٥٢ الى ٥٤ شرعت حكومة جمهورية مصر العربية فى بناء سد أسوان العالى لتوفير احتياجاتها من مياه الرى ، فغمرت المياه جنوب النوبة وأزالت معالمها حتى حدود السودان الشمالية · وبذلك تعرضت المواقع الأثرية بها بما فيها من آثار للزوال الا اذا اتخذت اجراءات مناسبة فى الوقت المناسب · وقد اتحدت الجهود وطالبت منظمة اليونسكو سنة ١٩٦٠ بانقاذها بجهود عالمية للكشف عن آثار النوبة وتسجيلها وعلى رأسها معبدا أبى سمبل العظيمان اللذان أسسهما رمسيس الثانى · وفى خلال الست سنوات التالية حتى سنة ١٩٦٨ تمت اعادة بناء معبدى أبى سمبل ليستقبلا الزائرين من شتى أنحاء العالم · ومازالت الجهود الناجحة مستمرة فى هذا الاتجاه ، لحل المشاكل التى تعترض تنفيذ المخطط ، وظهرت فى مصر طوابع تذكارية وزعت فى جميع أنحاء العالم ، وصدرت كتب اعلامية مصورة ، وكتبت مواضيع فى الصحف السيارة ، وعرضت تسجيلات تليفزيونية ـ جعلت صور رمسيس الثانى ونفرتارى ومعبدى أبى سمبل مألوفة لجماهير الناس فى عصرنا بشكل لم يسبق له مثيل ، فشاع ذكره فى الدنيا بشكل لم يكن هو نفسه يحلم به · من جهة أخرى أنتج سيسيل دى ميل الفيلم العالمى « الوصايا العشر » وظهر فيه رمسيس الثانى

باعتباره « فرعون الخــروج » . وصار رمسيس الثانى ومعبداه بأبى سمبل فى مصاف الأهرام والمومياوات داخل الصورة الشائعة عن مصر القديمة . وحتى يومنا هذا يعتبر رمسيس الثانى هو الملك القديم الوحــيد الذى مازال حيا فى صحافة اليوم الترفيهية ، وهو السفير الذى يركب النفاثات الى باريس ليسعد أهلها .

رمسيس الثــانى الآن

يكفى هذا عن « الجبهة الشعبية » . والآن :

ماذا عن جوانب الموضوع الأخرى ؟ ما هو مــدى فهمنا لرمسيس وتقييمنا له ولعصره ؟ فى العقود الأخيرة بالذات أصبح علم المصريات بهدوء موضوعا للدراسات « المستفيضة » ، يعتمد على التحليل الدقيق فى مصادره (النقوش ، والبيانات الأثرية) . والآن لا يجب ترك أيــة فترة من تاريخ مصر مبهمة أو طرحها جانبــا . فكل حقبة يجب أن تخضع للبحث ونتفهمها فهما صحيحا ، كجزء من كل فى نسيج واحد . وعلى هذا الأساس بدأت الدراسات الجديدة عن عصر الرعامسة (١٣٠٠ ــ ١١٠٠ ق.م) ككل ورمسيس الثانى بالذات ، تؤتى ثمارها وتبشر بالمزيد . وهذا الكتاب ما هو الا جهد متواضع فى هذا السبيل . ان تقييم رمسيس الثانى لا يكون صحيحا اذا قسناه بتعجل على القيم الســائدة حاليــا فى المجتمعات المعاصرة ، والا حكمنا عليه بالصلف والغرور أو بجــنون العظمة . والصحيح هو أننا يجب أن نخضع آراءنا للأعراف والتقــاليد التى سادت عصره وبيئته ، وهى ولا شك متباينة تماما عن بيئتنا . وان كانت ثمة موازنة ، فيمكن أن تكون فى العمــوميات بمفهومها الواســع المؤثر على البشرية بصفة عامة .

ولكن مهما كان الذى سوف تسفر عنه الأبحاث عن عصر رمسيس الثانى ، فما رأينا فى الرجل نفسه ــ الآن ؟ هل هو فعلا « رمسيس الأعظم » كما أطلق عليه الفيكتوريون ؟ هل فيه شىء من سيماء العظمــة أصــلا ؟ وما الذى يوحيه الينــا اليوم ؟

عندما كان رمسيس الثانى فرعون مصر ، لا نشك فى أنه حذا حذو أبيه عن ادراك تام لوظيفته وسعى لتحقيق المثل الأعلى الفرعونى : تحقيق العدل ، حماية الوطن ، همزة الوصل بين الآلهة والخلق ، رعاية الشعب . وفى المجال العســكرى كان الفتى رمسيس الثانى صلبا عنيدا طموحا ، لكنه كان متعجرفا . فلو أنه احترم المعــاهدة التى أبرمها أبوه مع الحيثيين

واكتفى بالمحافظة على ما ورثه عن أبيه ، لوفر على نفسه عناء عشرين عاما طويلة أهدر فيها ما أهدر من موارد ومن رجال بدون جدوى · فتفاؤله وعناده قد تجاوزا ذكاءه ومقدرته الحربية معا فى ملحمة قادش ، وأدى اصراره الى انفاق سنوات طويلة فى هذا الميدان · أما معمعة قادش الكبرى فقد أثبتت أنه نعم الفتى شجاعة وجرأة ورباطة جاش ، ولولا ثباته لكانت نتائجها وخيمة · أما فى تونيب فلم تكن شجاعته على نفس المستوى ، واتسمت تصرفاته فيها بالنزق والادعاء · وعلى العموم فانه لما انكسرت حدة صلفه وغروره ، أدرك أنه حان الوقت لمهادنة الحيثيين ، فحقق سلاما عاما فى منطقة الشرق الأدنى لخمسة وسبعين عاما متصلة لم ينعم بها هذا الجزء من العالم حتى وقتنا الحاضر ·

وفى الشئون الداخلية نجد أنه فى أمور الدين والعقيدة قد فاق كل الفراعنة الآخرين فى خدمة الآلهة ، وفى كم ما بناه من أجلها حسب الأعراف المصرية ، مهما قيل بأن ذلك جاء على حساب الجودة الفنية وهى الناحية التى يأخذها عليه النقاد المعاصرون · أما فى شئون الدنيا فقد كان بها خبيرا ، وكان له كما كان لأبيه من قبله مقدرة فذة فى تقييم الرجال واختيارهم لشغل مناصب الدولة العليا · ولم تخب نظرتهما فتميز رجالهما بالأمانة والولاء والكفاءة · وفى كثير من الوجوه نعم شعب مصر فى عهد رمسيس الثانى بالشىء الكثير من الرخاء والتوازن والرضى وظلت مصر بلدا سعيدا طوال مدة حكمه الطويل · فاذا قيست عظمة الحاكم برخاء البلاد وقناعة الشعب واستقرار الأمور ، ولم نتأثر كثيرا بحروبه وقلة صبره فى تنفيذ مبانيه الضخمة ، فسوف نحكم على رمسيس الثانى بأنه « العظيم » أو « الأكبر » · وقد ثبت أن الملك الشاب كان متحمسا لعماله الذين ينفذون مشاريعه الشخصية ويكن لهم المحبة والتقدير ، وذلك واضح وجلى فى وعوده التى بذلها لهم وسجلها على لوح له سنة ٨ ــ وهى على تناقض تام مع سلوكه الفظ غير الانسانى للعمالة الأجنبية المسخرة سواء من الذين أسرهم فى جنوب ليبيا لبناء معبده بوادى الصبوة بالنوبة ، أو من الإسرائيليين الذين آمنوا باله فوقه فحشدهم للعمل فى قمائن الطوب وبيتوم · وان اعتبرنا فراعنة مثل تحتمس الثالث وبعض فراعنة الدولتين القديمة والوسطى أعظم منه ، فان ذلك لا ينقص من قدره كأحد القادة العظام · وحتى فى عصرنا هذا يعتبر رمسيس الثانى هو نموذج لشخصية « الفرعون » ــ فرعون قياسى هو رمز الفرعونية الالهية المهيبة فى مصر على كل العصور ·

والآن، فلنعكس وضع الموائد · من السهل لعصرنا الحديث أن يحكم على ملك قديم مضى عليه فى الزمن دهر طويل ، ولكن لو بعث رمسيس الثانى

فى هذا الزمن الذرى فماذا ننتظر أن يكون موقفه ؟ لأول وهلة سوف يصيبه ولا شك الاندهاش من التطورات الحديثة : تقدم فى العلم والتكنولوجيا ، وغزو للفضاء وتقدم رائع فى أساليب الطب والعلاج ، وتطور مذهل فى وسائل الاتصالات ، وارتفاع فى مستوى المعيشة ، ومستوى رفيع فى البحوث ووفرة فى الدرجات العلمية ، وغير ذلك · لكنه بعد أن يهدأ ويتأمل فى تلك الواجهة المادية البراقة سوف يلاحظ أن مشاكل ماعت (العدالة) وأن الصراعات الدولية هى بعينها التى كان غارقا فيها ـ بل يزيد عليها ما فى الصراعات الحديثة من شراسة وبربرية لم يتصورها عصره فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد · وكذلك سوف يكتشف أن الطمع الأثيم ما زال هو هو ـ لا يتمثل فيمن قيل انه ابتز طيبة ولم يكشف ابتزازه فى سنة حكمه الثلاثين ، ولكن المضاربين والاتحادات الجشعة التى تستغل اخوانها فى البشرية وتبتزها بوسائل غريبة ليس لرمسيس الثانى ولا عصره دراية بها · وسوف يجد دنيا يتصارع فيها حزبان ـ يمين ويسار (انجلترا) ـ لهما ايديولوجيات شكلية مضحكة فاذا وصل أيهما للسلطة فالنتيجة واحدة · وسوف يرى أشياء ثابتة تجمع الناس رغم ذلك من حب واخلاص ورغبة فى تحقيق العدل وتجاهل للأمور غير الأساسية ، وهى أمور ايجابية لا تختلف فى عصرنا كثيرا عن عصره · وسوف يشاهد العبادات تؤدى فى «معابد» لم يتصور هو نفسه مدى ضخامتها لتنشر رسالة « الله محبة» واخلاص ووفاء وتطبيق لا مجرد نزعة ، ولا مجرد فكرة تجريدية ـ مجرد ماعت ·

فى كلمة موجزة ، كانت مصر فى عصر رمسيس الثانى جزءا من مشهد التاريخ البشرى الطويل ، بدأنا نعرفها على حقيقتها الآن أكثر من ذى قبل · وهو تاريخ تساعدنا أحداثه على الحكم على حاضرنا بمقاييس أكثر دقة ؛ تخلو من المبالغات المعهودة التى تتسبب عادة عن عدم وضوح الرؤية؛ فنبنى حكمنا على أساس معايير ثابتة مشتركة بين عصرنا وعصره · وعلى العموم فمهما اختلفت الانسانية فى مظاهرها ، فان جوهرها واحد ولو اختلفت الأزمان ·



الملاحق

الملحق الأول : ملخص تاريخ مصر .

الملحق الثاني : حكم رمسيس الثاني .

الملحق الثالث : شجرة نسب رمسيس الثاني .



الملحق الأول

ملخص تاريخ مصر

الحقبة	السنوات ق·م (تقريبا)	الأسرات	اهم الاحـداث
العصر العتيق	من ٣٢٠٠ الى ٢٧٠٠	الأولى والثانيـة	توحيد مصر على يدى مينـا بداية الحكم الأسرى فى مصر والحقبة الفرعونية بناء منف كعاصمة لمصر المتحدة
عصر الاهرام	من ٢٧٠٠ الى ٢٢٠٠	من الثالثة الى السادسة	هرم زوسر المدرج ـ ايمحتب رئيسا للوزراء هرم خوفو الاكبر بالجيزة ـ وابنه الحكيم حرجدف تدهور مصر اثناء حكم بيبى الثانى الطويل
عصر الانتقال الأول	من ٢٢٠٠ الى ٢٠٤٠	من السابعة الى العاشرة	تغير سريع في اعتلاء العرش اثناء الاسرتين ٧ و ٨ انتقال العرش الى الأسرتين ٩ و ١٠ من نينسو ثورة طيبة وبداية الأسرة ١١
الدولة الوسطى [illegible]	٢٣٤-١٩٩١ ١٩٩١-١٧٨٦	الحادية عشرة الثانية عشرة	ملوكها من طيبة : توحيد مصر (الثانى) تحت حكم منتوحتب الثانى (٢٠٤٠ ق·م) ملوكها من طيبة : مقر الحكم ايثت تاوى (قرب منف) غزوة النوبة سهولة الحياة عصر الأدب الكلاسيكى الفرعونى

تابع الملحق الأول (موجز تاريخ مصر)

الحقبة	السنوات ق.م (تقريبا)	الأسرات	أهم الأحداث
عصر الانتقال الثاني	من ١٧٨٦ الى ١٥٤٠	من الثالثة عشرة الى السابعة عشرة	الأسرة ١٣ : بداية تدهور السلطة الملكية الأسرة ١٤ : جماعة منشقة بالدلتا الأسرة ١٥ : الهكسوس يستولون على السلطة (المطلقة) الأسرة ١٦ : الهكسوس (حكم محلى) وفى الحالتين : ملوك الأسرة ١٣ توابع الهكسوس فى الجنوب الأسرة ١٧ : طرد الهكسوس نهائيا الى الشمال (١٥٦٠/ ١٥٤٠ ق.م)
الدولة الحديثة	من ١٥٥٠ الى ١٢٩٥	الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرون	الأسرة ١٨ : طرد الهكسوس تكوين امبراطورية مصرية فى سوريا والنوبة امون على رأس الالهة (حتى اخناتون) ١٥٥٠_١٥٢٥ احمس الاول ١٥٢٥_١٥٠٤ امنحتب الاول ١٥٠٤_١٤٩٢ تحتمس الاول ١٤٩٢_١٤٧٩ تحتمس الثانى ١٤٧٩_١٤٥٧ الملكة حتشبسوت ١٤٧٩_١٤٢٥ تحتمس الثالث ١٤٢٧_١٣٩٦ امنحتب الثانى ١٣٩٦_[illegible] تحتمس الرابع ١٣٨٦_١٣٤٩ امنحتب الثالث ١٣٥٦_١٣٤٠ امنحتب الرابع/ اخناتون (ربما ٧/٨ سنوات مشاركة) ١٣٤٢_١٣٤٠ سنمخ كارع (٢/٣ سنوات مشاركة) ١٣٤٠_١٣٣١ توت عنخ امون ١٣٣١_١٣٢٧ اى ١٣٢٧_١٢٩٥ حور محب (حد اقصى)

تابع الملحق الاول (موجز تاريخ مصر)

الحقبة	السنوات ق.م. (تقريبا)	الأسرات	أهم الاحداث
تابع الدولة الحديثة	من ١٢٩٥ الى ١١٨٧	التاسعة عشرة	تجديد الإمبراطورية المصرية (جزئيـا) عصر رخاء عظيم حركة معمارية وانشائية عظيمة هي موضوع هذا الكتاب
			١٢٩٥ـ١٢٩٤ رمسيس الاول ١٢٩٤ـ١٢٧٩ سيتي الاول ١٢٧٩ـ١٢١٣رمسيس الثاني ١٢١٣ـ١٢٠٤ مرنبتاح ١٢٠٤ـ١٢٠٠ آمون مس ١٢٠٠ـ١١٩٤ سيتي الثاني
	من ١١٨٧ الى ١٠٩٦	العشرون	صحوة قصيرة تحت حكم رمسيس الثالث اعقبها انحلال
			١١٩٤ـ١١٨٨ مى بتاح ١١٨٨ـ١١٨٧ الملكة تاوسرت ١١٨٧ـ١١٨٥ ست نخت ١١٨٥ـ١١٥٤ رمسيس الثالث ١١٥٤ـ١١٤٨ رمسيس الرابع ١١٤٨ـ١٠٦٩ الرعامسة (٥ـ١١)
الفترة المتأخرة	بعد ١٠٩٦	من ٢١ الى ٣٠	

١ ـ العصر الوسيط الثالث ـ ما بعد الامبراطورية

	من ١٠٦٩ الى ٩٤٥	الحادية والعشرون	ملوك تانيس كبار كهنة امون حكام الجنوب

تابع الملحق الأول (موجز تاريخ مصر)

الحقبة	السنوات ق٠م٠ (تقريبا)	الأسرات	اهم الاحداث
	من ٩٤٥ الى ٧١٥	من ٢٢ الى ٢٥ اسرات لبيية	الأسرة ٢٢ : شاشانق الاول يغير على فلسطين بعده ملوك ضعاف سمحوا بالمشاركة فى الحكم مع : الأسرة ٢٣ : من ٨١٨ ق٠م تفكك وحدة البلاد الأسرة ٢٤ : ظهرت عن امارة فى سايس لفترة قصيرة اسلاف الأسرة ٢٦
			الأسرة ٢٥ : (نوبية) ملوك نباتا يحتلون طيبة أمتداد الاحتلال النباتى الى كل مصر من سنة ٧١٥ الارتداد الى طيبة بعد الغزو الاشورى
	٢ ـ صحوة سايس ، الفرس ، فترات الاستقلال		
	من ٦٦٤ الى ٥٢٥	السادسة والعشرون	اسرة من سايس تحقق وحدة البلاد مرة اخرى صحوة مصر ـ استرداد القوة والرخاء حركة اصلاحات معمارية نشيطة

تابع الملحق الاول (موجز تاريخ مصر)

الحقبة	السنوات ق٠م٠ (تقريبا)	الأسرات	اهم الاحداث
الفترة المتاخرة	بعد ١٠٩٦	من ٢١ الى ٣٠	تابع
	من ٥٢٥ الى ٤٠٠	السابعة والعشرون	ضم مصر للامبراطورية الفارسية
	من ٤٠٠ الى ٣٣٢	من ٢٨ الى ٣٠	حركات استقلالية بقيادة فراعنة مصريين. عودة الاحتلال الفارسى من ٣٤١ ق٠م الى ٣٣٢ ق٠م٠
العصر اليونانى الرومانى	من ٣٣٢ الى ٣٢٣		الاسكندر الاكبر يحرر مصر من الفرس
	من ٣٢٣ الى ٣٠		الأسرة البطلمية تحكم مصر العاصمة الاسكندرية اخر ملوكها كليوباترا
	بدءا من ٣٠		الاحتلال الرومانى ثم البيزنطى مصر القبطية
العصور الوسطى والحديثة	من ٦٤١ ميلادية		الفتح العربى لمصر وبداية العصر الاسلامى العهد التركى ١٧١٥ حكايات التحرير من ١٩٢٢ ـ ١٩٥٢ الاستقلال التام وظهور مصر الحديثة من ١٩٥٢

تنبيـــه :

(١) السنوات قبل الميلادية ليست على مستوى واحد من الدقة . فقبل الألف الثانية قبل الميلاد حتى سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد يكون هناك شك فى حدود ١٠٠ سنة .

(٢) تواريخ فترة الدولة الوسطى وبدءا من ٦٤٤ ق.م حتى العصور الحديثة قريبة جدا من الحقيقة .

(٣) فيما بين هاتين الفترتين فان التواريخ المسجلة عن تحتمس الثالث ورمسيس الثانى اما أن تكون صحيحة أو اقل بمدة ١١ سنة . فيمكن أن يزاد ١١ سنة على كل التواريخ من موت تحتمس الثالث حتى رمسيس الثانى . وهناك احتمال أن تزيد المدة عن ذلك قليلا بعد ذلك .

(٤) اذا كان سيتى الأول قد حكم لمدة ١٩ أو ٢٠ سنة بدلا من ١٥ ، وهو شيء محتمل ، يكون حور محب قد حكم مدة تقل عن ٣٣ سنة .

(٥) مدة مشاركة اخناتون فى الحكم مازالت موضع جدل .

(٦) تواريخ النصف الأول من الفترة المتأخرة (١٠٦٩ ـ ٦٥٦ ق.م) مأخوذة عن كيتشن ـ العصر الوسيط الثالث فى مصر ، ١٩٧٢ ، وهى أوثق التواريخ فيما عدا حالتين او ثلاثة فى حدود ٥ـ١٠ سنوات على الأكثر .

(٧) التاريخ القديم المرتفع لعهد رمسيس الثانى هو ١٣٠٤ ـ ١٢٣٨ ق.م. أصبح الآن مشكوكا فى صحته تبعا لتواريخ بابلية عثر عليها حديثا ، وبتحديد تاريخ انتهاء الأسرة العشرين سنة ١٠٦٩ ق.م ، مع شواهد مقارنة أخرى .

الملحق الثاني

حكم الملك رمسيس الثاني (من السنة الأولى الى التاسعة)

قبل الميلاد	سنة الحكم	الشئون الداخلية: امور الدولة	الشئون الداخلية: وظائف مدنية	الشئون الداخلية: مناصب كهنوتية	الشئون الخارجية: سوريا	الشئون الخارجية: دولة خلتي	الشئون الخارجية: بلاد ما بين النهرين
٧٨/١٢٧٩	١	رمسيس حاكم مطلق الامير امون خرخبشف وليا للعهد	مازال باسر الاكبر وزيرا للجنوب ايوني نائبا للملك بالنوبة	وبننف كبير الكهنة امون حورى كبيرا لكهنة تلى		موانالليس ملكا للحيثيين	اداد نيرارى الاول حاكما لاشور
٧٧/١٢٧٨	٢	لوحة اسوان تقدم العمل في بناء معبد اكشا	ربما كان نيبوت وزيرا للشمال	مرى كبيرا لكهنة ابيدوس حوى كبيرا لكهنة منف ... كبيرا لكهنة هليوبوليس			
٧٦/١٢٧٧	٣	حفر بئر ماء للباحثين عن الذهب في اكوباتا بناء ملحقة معبد الاقصر	اوزحا رئيسا للديوان الملكى				
٧٥/١٢٧٦	٤	حملة سوريا الاولى			رمسيس الثاني يغزو امورو اقامة لوحات في جبيل واخرى عند نهر الكلب .		
٧٤/١٢٧٥	٥	حملة سوريا الثانية (قادش)	رعموس كاتبا للمقبرة الملكية		رمسيس الثاني يخوض معركة قادش شابيلي يأخذ مكان بنتشينا حاكم امورو	موانالليس يحتل اوبى لأسر ملوك امورو	اداد نيرارى الاول يحتل خانجالبات حليفة خلتي
٦٩/١٢٧٥	١٠/٥	بدء العمل في معبدى ابي سنبل	حقا نخت نائب الملك في النوبة عشاعب سد مبعوث شخصى	ونقار بن مرى كبيرا لكهنة ابيدوس			
٧٣/١٢٧٤	٧/٦	حملة ليبية			رمسيس الثاني في مؤاب وكنعان		
٧٢/١٢٧٣		حملة سوريا (الثالثة ؟) في شرق وغرب فلسطين					
٧١/١٢٧٢	٩/٨	حملة سوريا (الرابعة ؟) العام ٨	سنة ٩ يقوم كل من باسر ورعموس بالعيد الجديد		رمسيس الثاني بالجليل ووسط سوريا (معركة دابور)	تولية مورسيل الثالث (اورحى تيشوب)	
٧٠/١٢٧١		لوحة منشية الصدر (سنتي ٨ ، ٩)					

حكم الملك رمسيس الثاني (من السنة العاشرة الى الواحدة والثلاثون)

قبل الميلاد	سنوات الحكم	الشئون الداخلية			الشئون الخارجية		
		امور الدولة	وظائف مدنية	مناصب كهنوتية	سوريا	دولة خاتى	بلاد ما بين النهرين
٩٩/١٢٧٠	١٠	حملة سوريا (الخامسة ؟)	بانحسي رئيسا للخزانة	مين موسى بن حورى كبيرا لكهنة لنى وسنموزيي لهليوبوليس	رمسيس الثاني يقيم لوحة في نهر الكلب مرة اخرى عند دابور		
٦٧/١٢٦٨	١٢			ونفر ابو المون ام الث كبيرا لكهنة امون .			كادشمان – تورجو ملكا لبابل
٦٣/١٢٦٤	١٦	دفن اول عجل ابيس خلال عهده بمنف	قضية غرب طيبة بين ايرى نفرة ضد خاى	الأمير خع ام واست كاهن سم بمنف	بنتشينا يسترد ملك اموري	هاتوسيل الثالث يلغى اورهي تيشوب	هاتوسيل الثالث حليف دنشمان تورجو ملك بابل
٦٢/١٢٦٣	١٧	خروج بني اسرائيل ؟ ربما بعد ذلك بقليل	بامر يشكك في غرب طيبة				شلمنصر الاول ملكا على اشور
٦١/١٢٦٢	١٨	اورهي تيشوب يفر الى مصر ازمة مع خاتى	قضية موس في منف يجرى بحثها		رمسيس الثاني ينشط في سوريا لوحة بيت شان	هاتوسيل يطالب مصر باعادة اورهي تيشوب	شلمنصر الأول يقضى على هانيجالبات حليف خاتى
٦٠/١٢٦١ ٥٩/١٢٦٠	٢٠/١٩	الأمير ست حرخبشف وليا للعهد انشاد ثورة ايم		باكم نثر كبيرا لكهنة منف		احتكاك مع اشور	
٥٨/١٢٥٩	٢١	معاهدة مع خاتى				معاهدة مع مصر	
٥٧/١٢٥٨	٢٢	وفاة الملكة توى					
٥٥/١٢٥٦	٢٤	افتتاح معبدى ابي سنبل ؟	بانحسي وزير الخزانة يقدم تقريرا			احتكاك خفيف بمصر ثم يخف التوتر بينها	
٥٤/١٢٥٥	٢٥	وفاة الملكة نفرتارى ؟ الأمير رمسيس وليا للعهد وايست نفرت ملكة رئيسية وبنت عنات ملكة ثانوية				اعادة توثيق الروابط بين مصر والوجاروت	
٥٣/١٢٥٤	٢٦	دفن العجل منفيس	يرعموسو وزيرا للشمال ؟	الأمير مرى اتوم كبير كهنة هليوبوليس			
٥٢/١٢٥٣	٢٧		خاى وزيرا للجنوب وسوتى رئيسا للخزانة	باسر الأكبر كبيرا لكهنة امون			ا
٤٩/١٢٥٠	٣٠	الاحتفال باليوبيل الاول دفن ثاني عجل ابيس	ستى وزيرا للشمال ! فضيحة مالية بغرب طيبة			متاعب بين هاتوسيل الثالث وكادشمان انليل الثاني ملك بابل	كادشمان انليل الثاني ملك بابل .

حكم الملك رمسيس الثاني (من الثالثة والثلاثين الى السادسة والأربعين)

قبل الميلاد	سنوات الحكم	الشئون الداخلية: أمور الدولة	الشئون الداخلية: وظائف محلية	الشئون الداخلية: مناصب كهنوتية	الشئون الخارجية: سوريا	الشئون الخارجية: دولة خاتي	الشئون الخارجية: بلاد ما بين النهرين
٥٦/١٢٤٧	٣٥/٣٣	اليوبيل الثاني – مفاوضات خطبة أميرة خاتي – وفاة الملكة ايست نفرة ؟				مفاوضات زواج أميرة خاتي من ملك مصر	
٥٥/١٢٤٦	٣٤	أول زواج بأميرة حيثية (ماعت حور نفرورع)	سحوى نائب الملك بالنوبة فسحوى يتفقد أحوال سقارة			سفر أميرة خاتي الى مصر	
٥٤/١٢٤٥	٣٥	رعاية بتاح		نبدبا كبيرا لكهنة منف			
٥٣/١٢٤٤ ٥٢/١٢٤٣	٣٧/٣٦	اليوبيل الثالث	الأمير خع ام واست يرمم آثار الجيزة وسقارة			الأمير حيشمى شاروما (الملك خاتيا فيما بعد) يزور مصر	
٥١/١٢٤٢	٣٨		ستاو نائب الملك بالنوبة	موت باسر الأكبر روما يقوم بأعمال كبير كهنة آمون			
٥٠/١٢٤١	٣٩			باكن خنسو كبيرا لكهنة آمون			
٤٩/١٢٤٠	٤٠	اليوبيل الرابع	برى حتب الأكبر وزيرا للشمال في حوخبشف كاتب القبرة الملكية		ابنى تشوب الأول ملكا على قرقميش في هذه الفترة	هاتوسيل الثالث يقوم بزيارة مصر خلال تلك الفترة	
٣٧/١٢٣٨ ٣٦/١٢٣٧	٤٣/٤٢	اليوبيل الخامس بناء ثالث عجل ابيس ؟		لوحة ونفر بابيدوس عام ٤٢			
٣٤/١٢٣٩	٤٥/٤٠	الزواج الثاني من أميرة حيثية				الأميرة الحيثية الثانية تحضر لمصر	
٣٥/١٢٣٦	٤٤	تجريد حملة على النوبة بناء معبد وادى السبوع	مشرف الانشاءات ستاو كاتب الملك				
٣٤/١٢٣٥	٤٦/٤٥	اليوبيل السادس	تحلمس وزيرا للجنوب ؟	الأمير خع ام واست كبيرا لكهنة منف			
٣٣/١٢٣٤	٤٦	أعمال شرق الكرنك للعيد حاتي عا اشراف يوبا	يوبا رئيسا للديوان الملكي باكن خنسو كبيرا لكهنة منف				

- حكم الملك رمسيس الثاني (من السنة السابعة والأربعين حتى السنة السابعة والستين (وفاته) .

قبل الميلاد	سنة الحكم	الشئون الداخلية: أمور الدولة	الشئون الداخلية: مناصب مدنية	الشئون الداخلية: مناصب كهنوتية	سوريا	دولة خاتي	بلاد ما بين النهرين
٣٣/١٢٣٣	٤٧		حد لكت يزور سقارة				
١٢٣٩ تقريبا	٤٨/٤٩ ؟	اليوبيل السابع					
٢٩/١٢٣٠	٥٠	الأمير خع ام واست وليا للعهد	نفر رنبت وزيرا للجنوب ، بري حتب الأصغر وزيرا للشمال ، بكي ان ام جات وزيرا للخزانة		سوسجاموا ملكا على آمورو	معبد صخري في يازيلي كايا	
١٢٢٨ تقريبا	٥١/٥٢	اليوبيل الثامن	سنة ٥٢ سركي السفينة في رعمس - هليوبوليس				شاجاركتي - شورياش ملكا على بابل
٢٥/١٢٢٦	٥٤	اليوبيل التاسع					
٢٤/١٢٢٥	٥٥	دفن رابع عجل أبيس - موت خع ام واست ومرنبتاح وليا للعهد		الوزير بري حتب الصغير كبيرا لكهنة منف وهليوبوليس معا			
٢١/١٢٢٣	٥٧/٥٨	اليوبيل العاشر	أورحوم كبير لعداء الملك	القاعات نفت جحوتي بالصعيد			
١٩/١٢٢٠ ١٨/١٢١٩	٦٠/٦١	اليوبيل الحادي عشر		الصور موسى كبيرا لكهنة ثني والورنيت في منف	قبائل عبرية تدخل كنعان		
١٨/١٢١٩ ١٧/١٢١٨	٦١/٦٢	اليوبيل الثاني عشر					
١٦/١٢١٧ ١٥/١٢١٦ ؟	٦٣/٦٤	اليوبيل الثالث عشر					
١٤/١٢١٥ ١٣/١٢١٤ ؟	٦٥/٦٦	دفن خامس عجل أبيس اليوبيل الرابع عشر ؟		يويو كبيرا لكهنة أبيدوس ورموماروي آمون وحوري بن خع ام واست في منف		تروتو واندس ملكا على خيتا في هذا الوقت	
١٢١٣	٦٧/١	وفاة رمسيس الثاني وتنصيب مرنبتاح ملكا					

http://kotob.has.it

الملحق الثالث

مختصر شجرة نسب رمسيس الثانى

(١) تسلسل النسب :

رئيس الفيالق سيتى - من زوجته

وزيرا باسم برعمس/رمسيس الأول = زوجته سيت رع رايا = زوجته رويا

وملكا باسم رمسيس

سيتى الأول = زوجته توى

(زوجات اخريات) = ايست نفرة = رمسيس الثانى = نفرتارى

بنت عنات　رمسيس　مريت امون　امون حرخبشف

وغيرها خع - ام - واست　وغيرها　وغيره

وغيره

مرنبتاح

سيتى الثانى

مرى - اتوم

(ب) زوجاته المعروفات

١ - نفرتارى

٢ - ايست - نفرة

٣ - بنت عنات ، امها ايست نفرة

٤ - مريت امـون ، امهـــا نفرتارى

٥ - نبت - تاوى

٦ - حنت مى رع (اخت الملك)

٧ - ماعت - حور - نفرورع الأميرة الحيثية الأولى

٨ - مجهولة الاسم　الأميرة الحيثية الثانية

اقرأ في هــذه الســلسلة

العنوان	المؤلف
أحــلام الاعلام وقصص اخرى	برتداند رســل
الالكترونيــات والحيــاة الحــديثة	ى · رادونسكايا
نقطـــة مقـــابل نقطـــة	الدس هكســلى
الجغرافيــا فى مائة عام	ت · و · فريمــان
الثقـــافة والمجتمـــع	رايمــوند وليــامز
تاريخ العــلم والتكنولوجيــا (٢ جـ)	ر·ج· فوربس
الأرض الغـــامضــة	ليستردبل راى
الرواية الانجليـــزية	والتــر الــن
المرشـــد الى فن المســـرح	لويس فارجاس
آلهـــة مصـــر	فرانسوا دوماس
الانســان المصرى على الشـــاشة	د· قدرى حفنى وآخرون
القـــاهرة مدينة الف ليلة وليــلة	أولج فولــكف
الهوية القومية فى السينما العـــربية	هاشــم النحـــاس
مجمـــوعات النقـــود	ديفيــد وليــام ماكدوال
الموسيقى ـ تعبير نغمى ـ ومنطــق	عـــزيز الشـــوان
عصر الرواية ـ مقال فى النـــوع الأدبى	د· محســن جاســم الموسوى
ديـــلان توماس	اشراف س · بى · كوكس
الانســـان ذلك الــكائن الفـــريد	جـــون لويس
الــرواية الحـــديثة	جـــول ويست
المســـرح المصـــرى المعـــاصر	د· عبــد المعطى شعراوى
على محمـــود طــه	أنور المعــداوى
القـــوة النفســـية للاهرام	بيــل شـــول وادبنيت
فــن الترجمـــة	د· صـــفاء خــلوصى
تولســـتوى	رالف ئى ماتلــو
ســـتندال	فيكتـــور برومبير

رسائل واحاديث من المنفى	فيكتور هوجو
الجزء والكل (محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية)	فيرنز هيزنبرج
التراث الغامض ماركس والماركسيون	سدنى هوك
فن الأدب الروائى عند تولستوى	ف ٠ ع آدنيكوف
ادب الأطفال	هادى نعمان الهيتى
أحمد حسن الزيات	هادى نعمة رحيم العزاوى
اعلام العرب فى الكيمياء	د٠ فاضل احمد الطائى
فكرة المسرح	جلال العشرى
الجحيم	هنرى باربوس
صنع القرار السياسى	السيد عليوة
التطور الحضارى للانسان	جاكوب برونوفسكى
هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال	د٠ روجر ستروجان
تربية الدواجن	كاتى ثير
الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	ا ٠ سبنسر
النحل والطب	د٠ ناعوم بيتروفيتش
سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ازاء مصر ١٩٠ ـ ١٩١٤	د٠ لينوار تشامبرز رايت
كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة	د٠ جون شندلر
الصحافة	بيير البير
اثر الكوميديا الالهية لدانتى فى الفن التشكيلى	د غبريال وهبه
الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها	رمسيس عوض
حركة عدم الانحياز فى عالم متغير	د٠ محمد نعمان جلال
الفكر الأوربى الحديث (٤ ج)	فرانكلين ل ٠ باومر
الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى ١٨٨٥ ـ ١٩٨٥	شوكت الربيعى

التنشئة الأسرية والأبناء الصغار	د٠ محيى الدين أحمد حسين
نظرية الفيلم الكبرى	ج٠ دادلى أندرو
مختارات من الأدب القصصى	جوزيف كونراد
الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد	د ٠ جوهان وشنر
حرب الفضاء	طائفة من العلماء الأمريكيين
ادارة الصراعات الدولية	د٠ السيد عليوة
الميكروكمبيوتر	د٠ مصطفى عنانى
مختارات من الأدب اليابانى	صبرى الفضل
الفكر الأوربى الحديث ٣ ج	فرانكلين ل ٠ باومر
تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة	جابريل باير
اعلام الفلسفة السياسية المعاصرة	انطونى دى كرسبنى
كتابة السيناريو للسينما	داويت سوين
الزمن وقياسه	زافيلكسكى ف ٠ س
أجهزة تكييف الهواء	ابراهيم القرضاوى
الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى	بيتر رداى
سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى	جوزيف داهموس
التجربة اليونانية	س ٠ م بورا
مركز الصناعة فى مصر الاسلامية	د٠ عاصم محمد رزق
العلم والطلاب والمدارس	رونالد د٠ سمبسون
الشارع المصرى والفكر	د٠ انور عبد الملك
حوار حول التنمية الاقتصادية	والت وتيمان روستو
تبسيط الكمياء	فريد س هيس
العادات والتقاليد المصرية	جون بوركهارت
التذوق السينمائى	الآن كاسبيار
التخطيط السياحى	سامى عبد المعطى
البذور الكونية	فريد هويل شاندرا ويكراما ماسينج
دراما الشاشة	حسين حلمى المهندس

الهيروين والايدز	روى روبرتسون
نجيب محفوظ على الشاشة	هاشم النحاس
صور افريقية	دوركاس ماكلينتوك
المخدرات حقائق اجتماعية ونفسية	بيتر لورى
وظائف الأعضاء من الألف الى الياء	بوريس فيدروفيتش سيرجيف
الهندسة الوراثية	ويليام بينز
تربية اسماك الزينة	ديفيد الدرتون
الفلسفة وقضايا العصر (٣ جـ)	جمعها : جون ر ٠ بورر وميلتون جولد ينجر
الفكر التاريخى عند الاغريق	ارنولد توينبى
قضايا وملامح الفن التشكيلى	د٠ صالح رضا
التغذية فى البلدان النامية	م ٠ هـ ٠ كنج وآخرون
بداية بلا نهاية	جورج جاموف
الحرف والصناعات فى مصر الاسلامية	د٠ السيد طه ابو سديرة
حوار حول النظامين الرئيسيين للكون	جاليليو جاليليه
الارهاب	اريك موريس وآلان هو
اخناتون	سيريل الدريد
القبيلة الثالثة عشرة	آرثر كيستلر
التوافق النفسى	توماس ا٠ هاريس
الدليل الببليوجرافى	مجموعة من الباحثين
لغة الصورة	روى ارمز
الثورة الاصلاحية فى اليابان	ناجاى متشيو
العالم الثالث غدا	بول هاريسون
الانقراض الكبير	ميخائيل ألبى ، جيمس لفلوك
تاريخ النقود	فيكتور مورجان
التحليل والتوزيع الاوركسترالى	اعداد محمد كمال اسماعيل
الحياة الكريمة (٢ جـ)	بيرتون بورتر

الشاهنامة (٢ ج)	الفردوسي الطوسي
قيام الدولة العثمانية	محمد فؤاد كوبريلي
عن النقد السينمائي الأمريكي	ادوارد ميري
السينما العربية	اختيار / د. فيليب عطية
ترانيم زرادشت	اعداد / موني براخ وآخرون
دليل تنظيم المتاحف	نادين جورديمر وآخرون
سقوط المطر وقصص اخرى	آدامز فيليب
جماليات فن الاخراج	زيجمونت هبنسر
التاريخ من شتى جوانبه (٣ ج)	ستيفن أوزمنت
الحملة الصليبية الأولى	جوناثان ريلي سميث
التمثيل للسينما والتليفزيون	توني بار
العثمانيون في أوربا	بول كولنر
صناع الخلود	موريس بير برايز
الكنائس القبطية القديمة في مصر (٢ ج)	الفريد ج. بتلر
رحلات فارتيما	رودريجو فارتيما
انهم يصنعون البشر (٢ ج)	فانس بكارد
في النقد السينمائي الفرنسي	اختيار / د. رفيق الصبان
السينما الخيالية	بيتر نيكولز
السلطة والفرد	برتراند راسل
الأزهر في الف عام	بينارد دودج
رواد الفلسفة الحديثة	ريتشارد شاخت
سفر نامة	ناصر خسرو علوي
مصر الرومانية	نفتالي لويس
كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر	جاك كرابس جونيور
الاتصال والهيمنة الثقافية	هربرت شيلر
مختارات من الآداب الأسيوية	اختيار / صبري الفضل
كتب غيرت الفكر الانساني (٥ ج)	احمد محمد الشنواني
الشموس المتفجرة	اسحق عظيموف
مدخل الى علم اللغة	لوريتو تود

حديث النهر	اعداد/ سوريال عبد الملك
من هم التتار	د. ابرار كريم الله
ماستريخت	اعداد/ جابر محمد الجزار
معالم تاريخ الانسانية (٤ ج)	هـ . ج . ولز
الحملات الصليبية	ستيفن رانسيمان
حضارة الاسلام	جوستاف جرونيباوم
رحلة بيرتون (٣ ج)	ريتشارد بيرتون
الحضارة الاسلامية	أدمز متز
الطفل (٢ ج)	ارنولد جزل
افريقيا الطريق الآخر	بادى اونيمود
السحر والعلم والدين	فيليب عطية
الكون ذلك المجهول	جلال عبد الفتاح
تكنولوجيا فن الزجاج	محمد زينهم
حرب المستقبل	مارتن فان كريفلد
الفلسفة الجوهرية	سوندارى
الاعلام التطبيقى	فرانسيس ج . برجين
تبسيط المفاهيم الهندسية	ج . كارفيل
فن المايم والبانتومايم	توماس ليبهارت
تحول السلطة (٢ ج)	الفين توفلر
التفكير المتجدد	ادوارد وبونو
السيناريو فى السينما الفرنسية	كريستيان سالين
فن الفرجة على الأفلام	جوزيف . م . بوجز
خفايا نظام النجم الأمريكى	بول وارد
بين تولستوى ودستويفسكى (ج ٢)	جورج ستاينز
ما هى الجيولوجيا	ويليام هـ . ماثيوز
الحمر والبيض والسود	جارى . ناش
انواع الفيلم الاميركى	ستالين جين سولومون
رحلة الأمير رودلف (٢ ج)	عبد الرحمن الشيخ
تاريخ العلم والحضارة فى الصين	جوزيف نيدهام

المرأة الفرعونية	كريستيان ديروش ـ
نظرية التصوير	ليوناردو دافنشي
التربية عن طريق الفن	هربرت ريد .
معجم التكنولوجيا الحيوية	وليم بينز
البرمجة بلغة السى	روبرت لافو
الكيمياء في خدمة الانسان	رولاند جاكسون
مجمل تاريخ الأدب المعاصر	ايفور ايفانس
نظرية الأدب المعاصر	ديفيد بوشنبدر
مشكلات القرن الحادى والعشرين	يوسف شرارة
كنوز الفراعنة	ت . ج . هـ . جميز
البرنامج النووى الاسرائيلى	د . ممدوح حامد عطية
بحثا عن عالم افضل	كارل بوبر
العلم وآفاق المستقبل	اسحق عظيموف
كوننا المتمدد	ايفرى شاتزمان
الاقتصاد السياسي للعلم والتكنولوجيا	نومان كلارك

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٣٤٨٨/١٩٩٦

ISBN — 977 — 01 — 5032 — 0

